دعوة الرسل

الجزء الأول

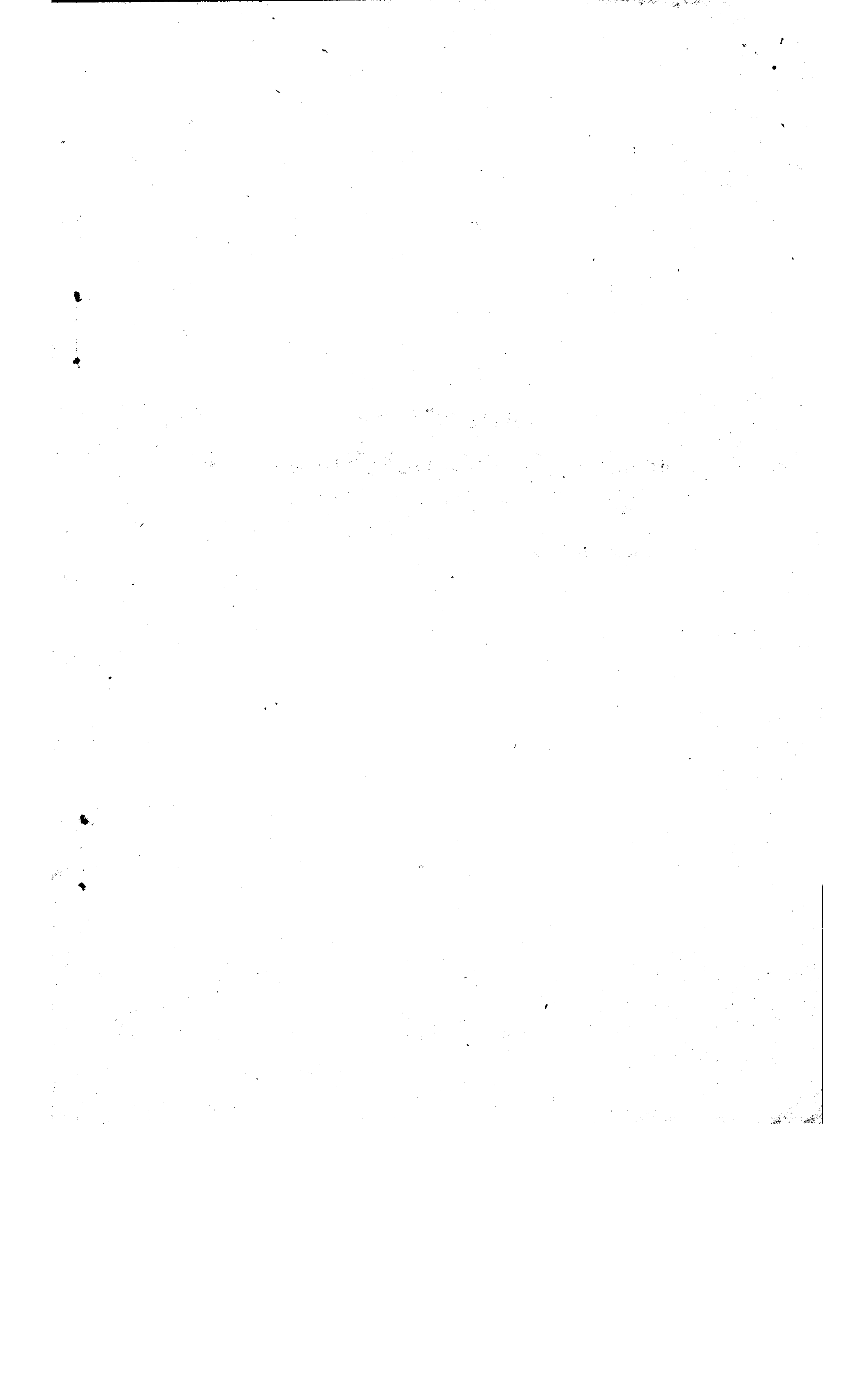
دكتور
بكر زكى إبراهيم عوض
أستاذ بقسم الدعوة والثقافة الإسلامية
بكلية أصول الدين - القاهرة
جامعة الأزهر

الطبعة الأولى
١٤١٣ هـ - ١٩٩٣م

بسم الله الرحمن الرحيم

"ثُمَّ أرسَلنَا رُسُلنا تَترا كُلَّ مَا جَاءَ أمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبوهُ فَأتبعنَا بَعضَهُم بَعضاً وَجَعلنَهُم أحَادِيثَ فَبُعدًا لِقَومٍ لايُؤمِنُونَ"

صدق الله العظيم



الإهـــــــداء

أى كلمات تعبر عن الشكر لمن تعارض تنفيذ مصالحه مع مصالحك وتحقيق طموحاته مع طموحاتك ، وآماله مع آمالك ، ولم يكن بالإمكان السير متجاورين لأن الطريق لايسمح إلا بتقدم واحد ولحوق الثانى ، فآثرك على نفسه وقدم هواك على هواه ، فذلل الصعاب وسامرك الطريق حتى لايكون الكلل أو الملل ، وتحمل العبء الأكبر من بداية الصحبة وهو راضى النفس طيب الخاطر ، فرحا بالنتائج ، آملا عدم توقف المسيرة ومع الشدائد تتجلى قيمة المعادن النفيسة ، وصدق الله القائل فى وصف هذا الصنف من البشر « .. ولايجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون» . الحشر ٩ .

أليس من باب العرفان والوفاء أن يسجل الإنسان له أعترافا بجميله وكرمه وفضله .

إلى زوجتى : شريكة الحياة والكفاح وزميلة العمل وراعية البيت وأهله أهدى هذا العمل مع الاعتذار عن القصور فى التعبير .

بكر زكى

١٩٩٢/٨/٢٨م

قصـــــة الكتـــــاب

﴿وما تشاءون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليما حكيما﴾ (1).

صدق الله العظيم

لم أفكر للحظة فى تدريس مادة تاريخ الدعوة – قبل الدعوة الخاتمة– لما رأيته حين دراستها من أسباب خاصة طيلة خمس عشرة سنة تقريبا.

ثم كانت الإعارة إلى جامعة قطر عام ١٩٨٩/٨٨ ووجدت مادة تاريخ الدعوة مسندة إلىّ ضمن الجدول فى غير اختيار منى، فطابت نفسى فجأة بهذه المادة وبدأت العيش مع القرآن والسنة بقراءة جديدة وفهم جديد، ثم عدت إلى كتب التفسير وشروح السنة وقصص الأنبياء، أطلب منها دعوة الرسل لا قصصهم أو سيرهم الذاتية باذلا كل جهد كى أبرز سبل السابقين فى البلاغ وموقف المدعوين والنتائج المترتبة على ذلك مع المقارنة بين دعوة كل نبى ودعوة محمد –صلى الله عليه وسلم– من حيث : سبل البلاغ وحال الأمتين والنتائج، للربط من ناحية، ولتمييز المنهج فى العرض عن المناهج الأخرى عند الزملاء من ناحية ثانية .

وقد شاءت الأقدار أن يكون من بين الطلاب طالبات مسيحيات ، كما سجلت المادة –كمستمعة– إحدى الأمريكيات غير المسلمات– لحاجة فى نفس يعقوب .

لهذا. وحيث إن شبهات شتى قد أثيرت –ولاتزال– فى وجه الدعوة الخاتمة من حيث المصدر أو التعاليم أو الأهداف... ومثيروا تلك الشبه من اليهود والنصارى ومن يدور فى فلكهم . فقد قارنت بين دعوة الرسل فى القرآن والكتاب المقدس فى غير تعصب ولا نقل عن الغير بل دراسة مباشرة، مع الاعتماد على مصادر أهل الكتاب المعتمدة عندهم.

وقد ألقيت هذه المحاضرات لسنوات أربع على مسامع الطلاب ثم بدا لى تدوينها فى السنة الأخيرة فدونت الجزء الأول من هذه السلسلة. ضمنته المقدمة وعالجت فيه دعوة آدم وإدريس ونوح وهود وصالح وإبراهيم عليهم السلام.

(1) الإنسان . آية (٣٠).

وحسبى أننى اجتهدت ولوجه الله قصدت ، ولنصرة دينه سهرت وطلبت فحصّلت ثم عرضت ودوّنت فإن كنت قد وفقت فلله الحمد والشكر وإن كانت الأخرى فما لهذا أردت ولا قصدت، مع أملى فى بشارة الرسول صلى الله عليه وسلم من اجتهد فأصاب فله أجران ومن اجتهد فأخطأ فله أجر.

وإنى راض وفرح بكل نصيحة تسدى إلىّ -مقرنة بالدليل- مرسلة على مقر عملى لتدارك ذلك فيما هو آت وإصلاح مافات عند تكرار الطبع... والله من وراء القصد.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى بعث النبيين مبشرين ومنذرين «لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزا حكيما» [1] والصلاة والسلام على خاتم رسل الله محمد -صلى الله عليه وسلم- الذى أثنى ربه عليه بقوله «إنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا وإن من أمة إلا خلا فيها نذير» [2].

وبعـــــد

فإن صريح نص القرآن الكريم أن الكون بما حوى وطوى خلق الله ولا إمكان لغيره بشيء من ذلك. فلقد وقع التحدى بالخلق فى قول الحق «إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب» [3] وفى سورة لقمان تحدث الحق عن بعض المخلوقات مع بعض النعم وذكر للإنسان أعظمها من حيث المشاهدة فقال «خلق السموات بغير عمد ترونها وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وبث فيها من كل دابة وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم» [4]. ثم قرن ذلك بقوله «هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون فى ضلال مبين» [5].

والمخلوقات -كما نعلم- تنقسم من حيث العقل الى قسمين :

١ - مالا عقل له ٢ - ماله عقل وإن تفاوتت نسبه.

ومالا عقل له قد انقاد لله بالاختيار فى البدء. حيث كان الجواب الصريح على السؤال الموجه إليه فى قول الحق «ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض إئتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين» [6] ومع الاختيار الذى بدا حين العرض إلا أن تلك الأشياء قد بقيت محفوظة بما استودع فيها من سنن إلهية. فليس لها أن تحيد عنها أو تحيد، وقد فصلت بعض السنن فى القرآن الكريم، حيث تحدث عن

---

(١) سورة النساء آية ١٦٥.
(٢) سورة فاطر آية ٢٤.
(٣) سورة الحج آية ٧٣.
(٤) سورة لقمان آية ١٠.
(٥) سورة لقمان آية ١١.
(٦) سورة فصلت آية ١١.

تسخير الشمس والقمر والليل والنهار والنجوم والبحار والأرض والجبال فى آيات شتى من سور عدة[1] ثم جمع ذلك فى قول الحق سبحانه «إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إنه كان حليما غفورا»[2].

كما وردت آيات عدة تصرح بالتسبيح والسجود من قبل هذه المخلوقات لله رب العالمين. قال تعالى «تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيئ إلا يسبح بحمده ولكن لاتفقهون تسبيحهم إنه كان حليما غفورا»[3] وقال تعالى «ألم تر أن الله يسجد له من فى السموات ومن فى الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب ومن يهن الله فماله من مكرم إن الله يفعل مايشاء»[4].

وقد ذكر العلماء أن السجود والتسبيح لا يخلوان عن أحد أمرين أو هما معا :

الأمر الأول : التسبيح بلسان الحال. بمعنى أن كل دراسة موضوعية تتعلق بشيئ من هذه الأشياء سوف تنتهى بالباحث -لامحالة- إلى التسليم بوجود الله، فالذرّة بتكوينها والمجرة بتركيبها والأرض بتنظيمها والمياه بطعمها (الملح الأجاج - العذاب الفرات) والجبال بثقلها وتثبيتها للأرض والنجوم بسبحها والشمس بإشراقها وغروبها دون إبطائها أو إقدامها . كل ذلك يدل على مكون كونها ومدبر يدبرها وراع يرعاها وينظمها ، ولاينتهى الباحث من هذه الدراسة إلا بأن يسلم بوجود الله من ناحية ووحدانيته وتفرده بالخلق من ناحية أخرى.

الأمر الثاني : التسبيح بلسان المقال ، فصريح نص القرآن أن الأشياء تسبح وإن لم تتوفر القدرة لطبيعة الإنسان على سماع ذلك التسبيح . والقاعدة المتفق عليها أنه لا يُصرف النص عن ظاهره إلا لصارف يمنع من إرادة المعنى الحقيقى . وصريح النص فى سورة «الإسراء» وسورة «ص» وسورة « سبأ » أن هذه الجمادات تسبح بلسان

---

(١) يونس ٥ الرعد ٢:٤ وإبرهيم ٣٢ ، ٣٣ والنحل ١٢، ١٤ والحج ٦٥ والعنكبوت ٦١ والزمر٥ والزخرف ١٣.

(٢) سورة فاطر آية ٤١.

(٣) سورة الاسراء ٤٤.

(٤) سورة الحج ١٠.

المقال . ولقد بين الحق علة عدم الإدراك بأنها نتاج عدم العلم لا العلم بالعدم وأنه إذا شاء أن يسمع بعض خلقه ذلك التسبيح أسمعهم ، قال تعالى «تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لاتفقهون تسبيحهم إنه كان حليما غفورا»[1] وفي سورة «ص» ورد في حق داود عليه السلام «إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والإشراق»[2] وفي سورة سبأ ورد «ولقد آتينا داود منا فضلا يا جبال أوِّبي معه والطير وألنا له الحديد»[3] كما ورد في السنة المطهرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «إني لأعرف حجرا بمكة كان يسلم علي قبل أن أبعث إني لأعرفه الآن (مسلم ك الفضائل٢) مسند أحمد ٨٩/٥، ٩٥، ١٠٥) وروى أحد الصحابة أن رسول صلى الله عليه وسلم تناول سبع حصيات فسبحن حتى سمعت لهن حنينا كحنين النحل ثم وضعهن فخرسن ثم أخذهن فوضعهن في يد أبي بكر فسبحن حتى سمعت لهن حنينا كحنين النحل ثم وضعهن فخرسن ثم تناولهن فوضعهن في يد عثمان فسبحن حتى سمعتُ لهن حنينا كحنين النحل ثم وضعهن فخرسن – الوفا بأحوال المصطفي ٣٢٥/١ عن أبي ذر، وإذا كان العجز عن تحصيل الأصوات قائماً فإنه لايدل على نفي الصوت بقدر ما يؤكد وجوده العلم الحديث، والدليل علي ذلك أن الغلافَ الجوي يحمل الملايين من الأصوات التي تحيط بنا وتمر علي أسماعنا ولانستطيع أن نحصلها. بل إنه لايقبل ذلك إلا المتعلمون – أما العامة إذا قيل لهم ذلك أبوا قبوله[4] ، فإذا مااستطعنا بآلة استقبال تلك الأصوات لاأقول يتأكد لنا وجود الصوت بل والصورة أحيانا بحسب حال الإرسال كذلك، وقد اكتشف العلماء أصواتا لأحياء ماكان بالإمكان قبول ذلك الأمر منذ فترة وجيزة من الزمن. مثل أصوات الأسماك وبعض الأحياء في قاع البحار والمحيطات، وقد ذهب بعض العلماء إلي أن السجود والتسبيح هو من باب المجاز لامن باب الحقيقة وقد ذكروا أدلتهم علي ذلك من القرآن ولغة العرب[5] .

---

(١) سورة الإسراء ٤٤. (٢) سورة ص آية ١٨.

(٣) سورة سبأ ١٠. (٤) يشارك العامة في ذلك بعض أدعياء العلم من المسلمين.

(٥) روح المعاني ٨٣/١٥–٨٦ ، الفخر الرازي ٢١٩/١٠–٢٢٠ والكشاف ٤٥١/٢ والفصل في الملل والأهواء والنحل ٨٣/١–٨٧.

وأما ماله عقل فإنه متفاوت بين الكمال والنسبي، وأهل العقول الكاملة حالها متفاوت بين فطرة علي الطاعة فلامحيص عنها ولاعدول لها عما جبلت عليه بجنسها وأفرادها - وهم الملائكة في عمومهم وخصوصهم - وبين فطرة علي المعصية فلاعدول عن ذلك - إبليس وجنده من بني جنسه - وبين صلاحية لأحد الأمرين أو لهما معا وهو الإنسان والجن.

وذوات العقول النسبية هي العجموات ، وهذا ما ذهب إليه جمهور المفسرين في بيان معنى قول الحق «قال فمن ربكما يا موسى* قال ربنا الذى أعطى كل شئ خلقه ثم هدى»[1] قيل : هدى الأشياء إلى منافعها [2] ولذا كانت مساءلتها بقدر إدراكها ثم ترد إلى التراب ، كما ورد في الحديث (يقتص للجماء من القرناء ثم يقال لهم كونوا ترابا) [3] وإن كان الراجح أنه تعبير عن العدل الإلهى فكان التصوير للتنفير من سوء استخدام القوة ضد الضعيف، وقد ذهب بعض قدامى المسلمين إلى أن هذه الأصناف قد أرسل إليها أنبياء من جنسها . وقد تكلف فيما ذهب إليه في شواهده قائلا إن الله تعالى قال في كتابه «وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم»[4] ثم ذكر قول الحق «وإن من أمة إلا خلا فيها نذير»[5] وقد ذكر الإمام ابن حزم أصحاب هذا المذهب ورد عليهم مبطلا ما ذهبوا إليه[6].

وحيث إن صلاحية الإنسان للأمرين أمر محتمل ، ورأفة بالصنعة من قبل الصانع ورعاية لهذا النوع من الخليقة والذى شيء له أن يختار بين البدائل وأن يميل إلى أحد الطريقين «وهديناه النجدين»[7] ، «إنا هديناه السبيل * إما شاكرا وإما كفورا»[8] . «فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر»[9] فقد أرشده الحق إلى ما ينبغى أن يكون عليه أمره ويقوم عليه حاله فيسر له أسباب الهداية وذلك على أسس ثلاثة هي :

---

(١) سورة طه ٥٠. (٢) ابن كثير ١٥٥/٣.
(٣) مسند أحمد ٢٣٥/٢ ، ٣٢٣ ، ٤٤٢،٣٦٣ ، ٧٢/١.
(٤) الأنعام آية ٣٨. (٥) سورة فاطر ٢٤.
(٦) الفصل في الملل والأهواء والنحل ٧٨/١-٨٢ وانظر البدء والتاريخ للمقدسي ٩/٣.
(٧) سورة البلد ١٠. (٨) سورة الإنسان ٣.
(٩) سورة الكهف ٢٩.

١ - فطرة مركوزة في النفس تحمل صاحبها بين الحين والحين على طلب الحقيقة والسر الكامن وراء هذا الكون وترى أن الخضوع لأعلى ليس بالأمر المنكر بل العدل عن الخضوع لأعلى بكسب الخضوع لأدنى وإن كان دون النوع الإنساني.

٢ - عقل يميز ويرجح ويختار بين البدائل إذا توافرت البراهين، كما أن العقل يهدى صاحبه إلى أن لكل صنعة صانع ولكل أثر مؤثر ولكل حدث محدث ولكل مخلوق خالق... ولذلك فإن من لاعقل له لا سبيل إلى هدايته لأن محل الخطاب منتف وإنما يبقى على حاله الأول وفي أمره خلاف بين علماء المسلمين[١].

٣ - إرسال نبي من الأنبياء يقوم بالبلاغ عن الله بما أمره بتبليغه ليكون ألزم حين الفصل بين المعرضين عن الله في ساحة القضاء «أن تقولوا ماجاءنا من بشير ولانذير فقد جاءكم بشير ونذير والله على كل شيء قدير» [٢].

وهذه الأسس الثلاثة مرتبطة ببعضها غاية الارتباط ولا تتأتى الهداية -وفق مراد الله- إلا بتكاملها وتفاعلها مع بعضها والدليل على ذلك أن الفطرة لو كفت وحدها لوجدنا الجميع ملتزمين وهو غير ماصرح به النص «إن الإنسان لربه لكنود»[٣]. «ولقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون» [٤] أما العقل فإنه لايكفى لمعرفة الألوهية بلازمها ، بل إن الدلائل الواقعية قد أعطت براهين عدة على أن العقل مهما تكلم عن الألوهية بغير وحي فحصيلته كشجرة أعطت ثمرا لم ينضج بعد ، ومن أشيد بأمرهم عبر التاريخ كأفلاطون وأرسطو وإخناتون وغيرهم أقيمت دلائل عدة على أن ما انتهوا إليه لايقبل من الناحية الشرعية لامن حيث الإعلان عن وجود الخالق بل من حيث ما ورد متعلقا بذات الخالق وصفاته وغاية فكر الحكماء السبحة وغاية الإيجاب في فكر كثير من الحكماء، توقف عند حد ما هو مركوز في النفس من الإقرار بخالق.

وإذا كان التاريخ قد عرف كثيرين قد دانوا بخالق أو بالخالق فإنه في غيبة النبي

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل ٨٢/١ وروح المعاني ٣٨/١٥-٤١.
(٢) سورة المائدة آية ٢٠. (٣) سورة العاديات آية ٧.
(٤) سورة الزخرف آية ٧٨.

أو الرسول كانت الحيدة عن الجادة فى تصورهم للطريق الموصل إليه فمنهم المشرك مع الله غيره ومنهم المجسم ومنهم المتوسل بشفعاء على سبيل الاعتقاد بأن لا إمكانية للوصول إلى الله إلا عن طريق هذا الباب «ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى»[1] ولذلك قال العلماء إن العقل وحده لايغنى عن الأنبياء للأسباب الآتية :

أولا: إن العقل لايثبت على حال فالإنسان يستحسن اليوم ما استقبح أمس، ويستقبح اليوم ما استحسن أمس فى كثير من الأحيان ، فضلا عن أن رأى الإنسان يتفاوت بتفاوت الزمان والمكان والثقافة. وإذا كان للتفاوت حكمة فى كونه باعث الرقى والتقدم إلا أنه ليس كل تفاوت محمود فبينما قام بعض العقلاء – من باب الفطرة والبراهين العقلية– بالدعوة إلى الإيمان بوجود الله وجدنا كثيرين قد دعوا إلى نفى ذلك وبذلوا جهودا لإقناع غيرهم بفكرهم حتى دان به كثيرون عبر التاريخ وصار لتلك الدعوة تيار عرف أتباعه بأنهم «الدهريون» نسبة لمعتقدهم كما هو صريح نص القرآن الكريم، «وقالوا ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون»[2].

ثانيا: تفاوت المعايير بين البشر والجهل بالحقيقة أحيانا أو العدول عنها أحيانا أخرى–لعوامل معينة– يحتاج إلى معيار ثابت منزه عن الهوى والعاطفة يتم الاحتكام إليه خاصة فى مواطن الفتنة فعلى سبيل المثال عندما اختلف اليهود مع الرسول صلى الله عليه وسلم فى بعض الأحكام أمره ربه بقوله «قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين»[3] وقوله «وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله ثم يتولون من بعد ذلك»[4] وليس الاحتكام إلى النص قاصرا على الخلاف بين ذوى العقائد المختلفة بل إن أهل العقيدة الواحدة ليختلفون فيما بينهم لظرف من الظروف وقد يصل أحد الأراء إلى حد مصادمة النص القطعى الثبوت الصريح الدلالة فعلى سبيل المثال عندما أعلن نبأ وفاة الرسول –صلى الله عليه وسلم– ما كان من عمر إلا أن رفض هذا النبأ معلنا أنه سيضرب بسيفه كل من قال إن محمد –صلى الله عليه وسلم– قد مات ،

---

(1) سورة الزمر آية ٣.
(2) سورة الجاثية آية ٢٤.
(3) سورة آل عمران اية ٩٣.
(4) سورة المائدة آية ٤٣.

إنه ذهب يناجي ربه كما ذهب موسى بن عمران وسيرجع ، وكان بالإمكان أن يروج لهذه الفكرة وأن تحظى بالتأييد لأنها تتفق مع العاطفة وهو حب الصحابة البالغ للرسول -صلى الله عليه وسلم- إلا أن أبا بكر قد حسم الموقف معتمدا على النص القرآني الصريح الدلالة فأعلن قوله : أيها الناس من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، ثم تلا قول الله تعالى «وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا.»[1] فردّ أبوبكر الأمور إلى نصابها حتى إن عمر قال: فكأني ما سمعت هذه الآية إلا ساعتها...» [2].

وإذا كانت الأمم قد تعارفت فيما بينها على الاحتكام إلى قوانين وضعتها لحسم الاختلاف والنأى عن الأهواء والأغراض فإن البشرية جمعاء هي أحوج ماتكون إلى أصول قانون سلم في وضعه من الهوى وينتزه واضعه عن المحاباة فضلا عن اتصافه بصفات الكمال المطلق .

وغاية ماتعارفت عليه البشرية بعض مبادئ إيجابية تدعو إليها وتتمسك بها كالصدق والعدل والأمانة والإخاء.... وكذلك عدلت عن بعض الأخلاق السلبية كالظلم والخيانة والغدر ...الخ وأصل هذه المعرفة وثيقة الصلة ببقايا الوحي بدءاً بالإنسان الأول الذى أوحى إليه وتباعا بالأنبياء الذين أرسلوا إلى أمم مختلفة، وقد ورثت البشرية من هذه التعاليم بعض ماينفعها وعلمت بعض مايضرها فصار ذلك عرفا وإن كان بيان ذلك يتفاوت في غيبة الشرع أيضا.

ثالثا: ليست العقيدة قاصرة عند حد الإيمان بالله فهذا أمر توصل إليه بعض البشر مع غيبة الوحي -وإن كان الوصول على غير وجهه- بل إن من أركان العقيدة ما هو غيبي مثل الإيمان بالملائكة والجن واليوم الآخر وما فيه من أحداث وما تنتهى إليه الأحداث من جنة أو نار وهذه أمور سماعية بالدرجة الأولى ، وإذا كان للعقل أن يقدم دليل الإمكان فهل كان بالإمكان أن يقدم المعرفة بهذه الأمور بدءا، وإن قدمها

---

(١) سورة آل عمران آية ١٤٤.   (٢) الجامع لأحكام القرآن ٢٢٣/٥. روح المعاني ٧٤/٤.

فهل تأتى المعرفة على الوجه الذى يأتى به الأنبياء مطابقا ؟ اللهم لا ، وإلا لاستوى خطاب الوحى مع استنتاج العقل فيكون البعث للأنبياء عبثا.

ومما سبق ندرك أن العقل لايكفى وحده للدلالة على متطلب الإيمان ولذلك كانت رحمة الله بادية فى بعث الأنبياء والمرسلين لرسم منهج الصلاح والفلاح لبنى الإنسان لا على سبيل التسخير كما فطرت السموات والأرض بما حويا وطويا – مما لا اختيار له – وإنما على سبيل الاختيار «ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حى عن بينة» [1] «وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر إنا أعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا» [2].

وحرية الاختيار مقرونة بتحمل عاقبته فى كثير من آى القرآن. فما ذكر الإيمان والمؤمنون إلا وكان الذكر شاملا الثواب فى كثير من الآى[3] وما ذكر الكفر والشرك والفسق إلا وكان ذكر الجحيم وسقر وجهنم والنار...[4] وذلك حتى تأتى المراجعة قبل الاختيار أويكون العدول بعد الاختيار الباطل فى إطار مارسمه الحق على ألسنة الأنبياء «فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون * ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم فى جهنم خالدون * تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون * ألم تكن آياتى تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون * قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين * ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون * قال اخسئوا فيها ولاتكلمون * إنه كان فريق من عبادى يقولون ربنا آمنا فاغفرلنا وارحمنا وأنت خير الراحمين * فاتخذتموهم سخريا حتى أنسوكم ذكرى وكنتم منهم تضحكون * إنى جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون»[5].

---

(١) الأنفال ٤٣. (٢) الكهف ٢٩.

(٣) البقرة ٥٢ المائدة ٦٩ النحل ٩٧ الكهف ٨٨ مريم ٦٠ الفرقان ٧٠، ٧١ الأحزاب ٣١ وغيرها.

(٤) البقرة ٣٩، ١٦١، ١٧١، آل عمران ٤، ٩٠، ٩١، ١١٦ والنساء ٤٢، ٥١، ٥٦ وراجع مادة كفر، وشرك فى المعجم المفهرس.

(٥) المؤمنون ١٠٢ – ١١١.

وعلى أساس بلوغ دعوة نبي من الأنبياء تكون المساءلة بحسب نسبة العلم بالدعوة وحالة البيان القائمة بها. وخلو الداعي من كل عصبية إلا حسن عرض الإسلام ولا عذر لجاهل في دار الإسلام، أما من لا علم له بالدعوة الحقة على وجه الإطلاق فأمره مفوض إلى ربه ، وإن كان للعلماء آراء في مساءلته عن التوحيد أو الفطرة -أي العهد الأول- دون لازم المعرفة وقيل سوى ذلك [1]. وإن كانت تلك الآراء لاتخلو من تكلف لأن ظاهر النص صـــريح «وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا»[2]. وقد حمّل الله الأمم والأفراد مسئولية الاختيار بعد بلوغهم رسالة الرسول، وبين أن من أسباب البعث للرسل نفى الاعتذار بعدم البلاغ عن الله. فكأن من لم يبلغه عن ربه شيء على وجه صحيح فهو في عداد الناجين أخذا بظواهر النصوص. قال تعالى «يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولانذير فقد جاءكم بشير ونذير والله على كل شيء قدير»[3] وقال تعالى «ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى »[4] كما بين سبحانه أن المؤاخذة مشروطة بالعلم بالدعوة، قال تعالى «ومن يشاقق الرسول من بعد ماتبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ماتولى ونصله جهنم وساءت مصيرا»[5] بل إن المؤاخذة الدنيوية ما وقعت إلا بعد الإعراض عن رسالة الرسول المرسل إليهم وتوفر أسباب العلم لديهم ، قال تعالى «وما أهلكنا من قرية إلا لها منذرون»[6] وقال تعالى «وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون» [7] وما ذهب إليه المعتزلة من أن المراد من الرسول - في سورة الإسراء- العقل. فمن توفر لديه العقل سئل وحوسب وإن لم تبلغه دعوة الرسول،غير مسلم،لأن في هذا التأويل تكلف. كما أن العرب لم يطلقوا كلمة رسول على العقل ، فضلا عن أن جمهور المسلمين على أن أهل الفترة من الناجين أيضا كما هو وارد في كتب علم الكلام والتفسير[8].

---

(١) الفصل لابن حزم ٦٠/٥ والمنار ٢٧٨/٢ وروح المعاني ٤١/١٥.

(٢) الإسراء ١٥. (٣) المائدة ١٩.

(٤) طه ١٣٤. (٥) النساء ١١٥.

(٦) الشعراء ٢٠٨. (٧) القصص ٥٩.

(٨) الرازي ١١٢/٦ والكشاف ٥٨٣/١ وروح المعاني ٣٦/١٥، مع الله. الشيخ الغزالي ٥٠-٧٦.

وشرط بلوغ دعوة الرسول لايلغى دور العقل أمام الوحى فهو محل الخطاب وبسقوطه يسقط التكليف وله حق فهم النص والاستنباط منه. ومن هنا ظهر الاجتهاد فى ميادين شتى تتعلق بالنص أخصها فقه الأحكام الشرعية.

وليس بلازم أن يكون البلاغ قاصرا على شخص المرسل من قبل الحق على سبيل التخصيص بالنبوة والرسالة ، بل يدخل فى عداد المبلِّغين كل من وصلته دعوة رسول من الرسل على وجهها الصحيح من مسئول عن البلاغ سواء أكان عل سبيل التكليف الإلهى أم التبعية.

والبلاغ على سبيل التكليف الإلهى يتجلى فى بعث الأنبياء والمرسلين، والبلاغ على سبيل التبع يتجلى فى اختيار أناس من قبل الأنبياء والمرسلين ليقوموا بمهمة البلاغ نيابة عن الأنبياء وتبعا لهم كما ورد فى السيرة من بعث مصعب بن عمير إلى المدينة حتى أسلم الكثير منهم قبل هجرة الرسول -صلى الله عليه وسلم إليها-[(١)] وكذلك بعث معاذ بن جبلٍ إلى اليمن[(٢)]. وإرسال رسل من قبله بكتب إلى بعض ملوك وحكام دول عصره[(٣)] كما أن الرسول صلى الله عليه وسلم ، قد أثر عنه أنه حذر أصحابه المرسلين من أن يكونوا كحوارى المسيح الذين أرسلهم. فأما من بعثهم مبعثا قريبا فذهبوا وأما من بعثهم مبعثا بعيدا فقعدوا[(٤)] وقد سلم أهل العقائد بهذا المبدأ -النبوة والأنبياء- إلا أن الأمور المتعلقة بهذا الأمر فيها خلاف بين فى بعض الأمور، وتضاد فى أمور أخرى.

ويلحق بالبلاغ على سبيل التبع للأنبياء والمرسلين. الطوائف التى أهلتها أمتها للبلاغ أو التى تأهلت عن طريق التخصص فى علوم الدين وتحملها أمانة الأداء عملا بقول الله تعالى (وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون). التوبة ١٢٢

---

(١) ابن هشام - السيرة النبوية ٤٣٤/٢ط الحلبى ١٩٩٥م والسيرة النبوية لابن كثير ١٨٠/٢.

(٢) مسلم بشرح النووى ١٩٦/١-٢٠٠.

(٣) راجع مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة، ومكاتيب الرسول للحسينملى. والرسائل النبوية دراسة وتحقيق أ. د. على السبكى.

(٤) سيرة ابن هشام ٢٥٤/٣ تحقيق مصطفى السقا وآخرين ط دار إحياء التراث العربى.

(ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون) آل عمران ١٠٤ .

صفات الأنبياء والمرسلين

— المتدبر لآيات القرآن الكريم، يدرك أن الحق سبحانه قد تحدث عن صفات الأنبياء الخَلقية والخُلقية بما يقطع ويرد رأى الكثيرين من الباحثين الذين تأولوا فى ليّ النصوص وصرفها عن ظاهرها أو إدعاء مالا تقويه الأدلة ، كما ذكر القرآن موقف الأمم السابقة من هذه الصفات وكذلك موقف المشركين وأهل الكتاب من الرسول -صلى الله عليه وسلم- لنفس الأسباب أو لبعضها مما يسلى ويسرى عنه ماكان يصيبه من أذى قومه ويمكن بيان بعض هذه الصفات على النحو التالى :

أولا : الصفات الخَلْقية

وهى الصفات التى تتعلق ببنية كل نبى من حيث طبعتهم التكوينية، ومن أخص هذه الصفات ما يلى :

اولا: البشرية : وهى قاسم مشترك بين سائر الأنبياء والمرسلين للبشر للأسباب التالية :

١ - إن أفراد النوع بينهم إلف وتجانس وقدرة على التخاطب والحوار والتفاهم ولذلك قال الحق «قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا»[١] ولذلك كان الأنبياء يقولون لأقوامهم «إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده»[٢] وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لقومه «قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى....»[٣] .

٢ - إقامة الدليل على أن مايطلب من المدعوين ليس فوق مقدور البشر . بدليل أن كل قول لنبى لابد وأن يحوله إلى سلوك من باب الالتزام والتفسير العملى للقول سواء أكان الالتزام إيجابيا- أى فعلا- أم سلبا - أى كفًا- وحيث إن القدرات

---

(١) الإسراء ٩٥. (٢) إبراهيم ١١. (٣) الكهف ١١٠.

العضلية للأنبياء والمرسلين لاتفوق سائر بنى جنسهم بأى حال. فكان الالتزام من أبلغ الأدلة على إمكانية التطبيق أما القدرات أو الطاقات المعنوية للأنبياء فإن للغير حق اكتساب الكثير من تلك الطاقة إذا ما ألزم نفسه بالطاعة «إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودًا..»[1].

٣ – الفطرة الكامنة فى النفس والغرائز القائمة بها فى الأنبياء والبشر سواء وكيفية التعامل معها بصورة إيجابية، وتهذيبها كما ينبغى، وصلاحية الاختيار مع الحرص على الجانب الإيجابى حين الاختيار، كل ذلك يلزم الأتباع حين السلوك ويرد دعوى التكليف بما هو فوق الطاقة.

٤ – إبطال دعوى الغلو فى شأن هؤلاء إلى حد اعتقاد ألوهيتهم أو كونهم أكبر من بشر مصطفون ولذلك كان الأنبياء يصرحون بعدم خروجهم عن إطار البشرية. كما سيأتى بعد.

موقف المدعوين من بشرية الانبياء والمرسلين:

من الأمور التى كانت سببا فى رفض رسالة الرسل، كونهم من البشر، حتى صارت ظاهرة الرفض قاسما مشتركا بين سائر الأمم بما فيها أمة الرسول –صلى الله عليه وسلم–.

وقد كان من البواعث على الرفض ظن هؤلاء وزعمهم أن النبوة أعلى قدراً ومنزلة من أن ينالها بشر أو لتغير الحال من حيث عيش هؤلاء بين أممهم قبل إعلانهم النبوة ثم تغير أحوالهم بعد الدعوة أو لأن معظم الأنبياء والمرسلين كانوا من الفقراء أو لأسباب أخرى، كان الرفض من البعض عبر التاريخ كله –منذ عهد نوح حتى محمد عليهم السلام– قاسما مشتركا كما صور ذلك القرآن الكريم بصيغة الجمع بين الأمم أحيانا وبصيغة الإفراد أحيانا أخرى وبيان ذلك كما يلى.

أولا: ماورد بصيغة الجمع فى حق الأمم قال تعالى :

– **«قالت رسلهم أفالله شك فاطر السموات والأرض يدعوكم ليغفرلكم من**

(١) مريم ٩٦.

ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى قالوا إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين * قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون»[1].

- «ألم يأتكم نبأ الذين كفروا من قبل فذاقوا وبال أمرهم ولهم عذاب أليم * ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فقالوا أبشر يهدوننا فكفروا وتولوا واستغنى الله والله غنى حميد»[2].

- «وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشرا رسولا»[3].

- «وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نورا وهدى للناس»[4].

ثانيا: ما ورد بصيغة الإفراد حيال بعض الأمم التى أبت قبول دعوة نبيها لأنه بشر. قال تعالى فى حق:

١ - قوم نوح «فقال الملأ الذين كفروا من قومه مانراك إلا بشرا مثلنا ومانراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأى وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين»[5].

«فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ولو شاء الله لأنزل ملائكة ما سمعنا بهذا فى آبائنا الأولين»[6].

٢ - قوم هود: «وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم فى الحياة الدنيا ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون * ولئن أطعتم بشرا مثلكم إنكم إذاً لخاسرون»[7].

---

(١) إبراهيم ١١.
(٢) التغابن ٥، ٦.
(٣) الإسراء ٩٤.
(٤) الأنعام ٩١.
(٥) هود ٢٧.
(٦) المؤمنون ٢٤.
(٧) المؤمنون ٣٣، ٣٤.

٣ – قوم صالح : «قالوا إنما أنت من المسحرين * ما أنت إلا بشر مثلنا فأت بآية إن كنت من الصادقين»[١] .

« كذبت ثمود بالنذر * فقالوا أبشرا منّا واحدا نتبعه إنا إذا لفي ضلال وسعر»[٢] .

٤ – قوم شعيب «قالوا إنما أنت من المسحرين * وما أنت إلا بشر مثلنا وإن نظنك لمن الكاذبين»[٣] .

٥ – قوم موسى وهارون «ثم أرسلنا موسى وأخاه هارون بآياتنا وسلطان مبين * إلى فرعون وملأه فاستكبروا وكانوا قوما عالين * فقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون»[٤] .

٦ – أصحاب القرية «واضرب لهم مثلا أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون * إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا إنا إليكم مرسلون * قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شيء إن أنتم إلا تكذبون»[٥] .

٧ – قوم محمد –صلى الله عليه وسلم– وصَفهم الحق سبحانه بقوله « لاهية قلوبهم وأسروا النجوى الذين ظلموا هل هذا إلا بشر مثلكم أفتأتون السحر وأنتم تبصرون»[٦] .

– «وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا» [٧] .

وأما ماورد من نفي البشرية عن يوسف –عليه السلام– ووصفه بالملائكية من قبل النسوة اللاتي رأينه وعبّر عن ذلك بأسلوب القصر، فليس المراد به الحقيقة بل هو ماجرت به العادة في كون الملاك مضرب المثل في الجمال ولذلك قالت النسوة حين رأينه « ... حاشا لله ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم»[٨] .

---

(١) الشعراء ١٥٣ ، ١٥٣ .
(٢) القمر ٢٣ ، ٢٤ .
(٣) الشعراء ١٨٥ ، ١٨٦ .
(٤) المؤمنون ٤٥–٤٧ .
(٥) يس ١٤ ، ١٥ .
(٦) الأنبياء ٣ .
(٧) الفرقان ٧ .
(٨) يوسف ٣١ .

البديل المقترح عن البشرية :

ومع أن البشرية كانت إحدى أسباب رفض قبول نبوة الأنبياء إلا أن المكذبين تفاوت حالهم بين قبول نبوة هذا البشر بشرط أن يكون معه ملك أو ينزل عليه ملك يسير معه تقوية وتعضيداً وبين طلب نبوة الملائكة على سبيل الابتداء دون أن يكون للبشر نصيب في هذه المهمة ، ومنهم من جحد لفساد الطبع نذكر من ذلك الحالتين التاليتين :

الحالة الأولى : قبول النبوة مشروطة بوجود ملك ينزل عليه مرئياً ويسير معه لإخبار سائر البشر بأمره وهذا ماورد في قول الحق حين الحديث عن قوم موسى وقوم محمد – عليهما السلام-.

أولا : قوم موسى -عليه السلام- : ذكر القرآن أن فرعون قال لقومه في إطار التشكيك في رسالة موسى عليه السلام «أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولايكاد يبين* فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين *فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوما فاسقين»(1).

ثانيا : قوم محمد -عليه السلام- : ذكر القرآن موقف المشركين منه في مواطن عدة. ومما هو وثيق الصلة بموضوعنا ما يلي :

– «فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز أوجاء معه ملك إنما أنت نذير والله على كل شيء وكيل»(2).

– «وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا»(3).

– وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكا لقضي الأمر ثم لاينظرون * ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم مايلبسون»(4).

---

(1) الزخرف ٥٢-٥٤. (2) هود ١٢.
(3) الفرقان ٧. (4) الأنعام ٨، ٩.

- «وقالوا يا أيها الذى نزل عليه الذكر إنك لمجنون * لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين* ما ننزل الملائكة إلا بالحق وما كانوا إذا منظرين»[1].

- « وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا * أو تكون لنا جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا * أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتى بالله والملائكة قبيلا» [2].

الحالة الثانية: جعل النبوة والرسالة قاصرة على الملائكة دون البشر، فلا سبيل للبشر إليها، وقد ورد ذلك فى قول الحق سبحانه.

أولا: فى قصة قوم نوح «فقال الملأ الذين كفروا من قومه ماهذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ولو شاء الله لأنزل ملائكة ما سمعنا بهذا فى آبائنا الأولين»[3].

ثانيا : فى قصة قوم هود وصالح قال تعالى «فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود * إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم أن لا تعبدوا إلا الله قالوا لو شاء ربنا لأنزل ملائكة فإنا بما أرسلتم به كافرون»[4].

ثالثا : قوم محمد عليه السلام «وقال الذين لايرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا فى أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا»[5].

موقف القرآن من هذين الاتجاهين:

لقد صرح القرآن الكريم بأن السبب فى عدم إرسال ملك أو ملائكة إلى البشر هو تفاوت الطبع ولذلك فإن بعث الملك -بناء على الطلب- لايخلو عن أحد أمرين.

الأمر الأول:

أن يأتى بصورته وعلى حقيقته التى خلقه الله عليها وفى هذه الحالة لا إمكان لرؤيته وإن لم تتعذر الرؤيا، تعذر السماع والتلقى، لأنهم غير مفطورين على رؤية مثل

---

(١) الحجر ٦، ٧، ٨.
(٢) الاسراء ٩٠ ، ٩٢.
(٣) المؤمنون ٢٤.
(٤) فصلت ١٣، ١٤.
(٥) الفرقان ٢١.

ذلك النوع أو سماع كلامهم – إلا من شاء الله– قال تعالى «وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر ثم لاينظرون»[1] ولعل فى حديث الرسول صلى الله عليه وسلم الذى صرح فيه برؤيته لجبريل عليه السلام «ناشرا جناحيه قد سد مابين الخافقين»[2] ما يكشف عن شيء من تعذر الرؤية لو ظهر الملك على حقيقته إلا من اصطفاهم الله بالنبوة والرسالة.

الأمر الثاني:

أن يأتى الملك على هيئة رجل وهنا يقع اللبس لأن التمييز بينه وبين غيره لن يتأتى فيبقى الإنكار كما هو قائم (ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم مايلبسون ..)[3] بل إن القرآن قد ذكر أن الملائكة حين مروا على إبراهيم فى هيئة رجال، لم يعرفهم من حيث طبيعتهم، ولذلك فإنه قد أعد لهم طعاما ليأكلوا «فلما رأى أيديهم لاتصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة..»[4] وعندما بلغ هؤلاء الملائكة إلى لوط عليه السلام فى صورة رجال، ضاق بهم ذرعاً وحزن أشد الحزن وقال «هذا يوم عصيب»[5] ولم يكن يعلم بأنهم ملائكة فى صورة بشر إلا بعد أن قالوا له «قالوا يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك ..»[6] وفى حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه وهو المعروف بحديث الإيمان وأم السنة ورد « بينما نحن جلوس عند رسول الله –صلى الله عليه وسلم– إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لايرى عليه أثر السفر ولايعرفه منا أحد فجلس حتى أسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه ثم سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإسلام والإيمان والإحسان والساعة وأماراتها وفى كل يجيب الرسول وهو يقول له صدقت. حتى عجب الصحابة يسأله ويصدقه فلما انصرف قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه من السائل؟ قالوا : الله ورسوله أعلم قال إنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم ،

---

(١) الأنعام ٨.

(٢) خ ك بدء الخلق ٧ ومسلم ك الإيمان وتفسير السورة ٥٣ ومسند أحمد ٣٩٥/١، ٤٠٧، ٤٤٩.

(٣) الأنعام ٩.　　(٤) هود ٧٠.

(٥) هود ٧٧.　　(٦) هود ٨١.

وفى رواية أراد أن تفقهوا إذ لم تسألوا ..[1] فهذا الحديث يفسر معنى اللبث الوارد فى الآية الكريمة.

كما بين الحق أن نزول الملك وعدم الإيمان به يترتب عليه هلاك المعاندين لامحالة، ورأفة ورحمة بهم لم يكن البعث من الملائكة . قال تعالى :

– «هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام والملائكة وقضى الأمر وإلى الله ترجع الأمور»[2] .

– «هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتى ربك أو يأتى بعض آيات ربك يوم يأت بعض آيات ربك لاينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيرا قل انتظروا إنا منتظرون»[3] .

– «ماننزل الملائكة إلا بالحق وما كانوا إذا منظرين» .[4]

– «هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتى أمر ربك كذلك فعل الذين من قبلهم وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون»[5] .

– «يوم يرون الملائكة لابشرى يومئذ للمجرمين ويقولون حجرا محجورا»[6] .

ثم تناول القرآن بيان مهمة الملائكة عامة ومهمة بعضهم خاصة بما يكشف النقاب عن الأمور القائمة بهم وما خلقوا من أجله وليس من جنس ذلك كونهم أنبياء إلى عموم البشر وإن قام بعضهم بالسفارة بين الله ورسله بحكم الكيفية التى فطر عليها لهذا الصدد وباستعداد خاص لدى الأنبياء والمرسلين.

ثانيا : الرجولة :

وهى تقتضى أمرين معا.

الأمر الأول : الذكورة.

الأمر الثانى : البلوغ مع كمال العقل.

---

(١) راجع مسلم بشرح النووى ١٥٦/١–١٦٥ .

(٢) البقرة ٢١٠ .

(٣) الأنعام ١٥٨ .

(٤) الحجر ٨ .

(٥) النحل ٣٣ .

(٦) الفرقان ٢٢ .

وقد صرحت آيات القرآن الكريم بذلك فى قول الحق «وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم من أهل القرى..»[1].

وقول الحق «وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم فسئلوا أهل الذكر إن كنتم لاتعلمون»[2].

وقوله «وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحى إليهم فسئلوا أهل الذكر إن كنتم لاتعلمون»[3].

وقوله «أكان للناس عجبا أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم قال الكافرون إن هذا لساحر مبين»[4].

وقد تناول المفسرون هذه الآيات بالبيان مركزين على الوصف بالرجولة من ناحية وأسلوب القصر من ناحية أخرى. ولذلك انعقد رأى جمهور المسلمين على أن النبوة لم تسند إلا للرجال[5] للأسباب الآتية :

السبب الأول : سلامة الرجل من العوارض التى تعترى المرأة والتى تؤثر بدورها على عقلها ونفسها ومزاجها تأثيرا يصل فى بعض الأحيان إلى حد الإعياء التام.

السبب الثاني : صلاحية الرجل فى كل حال لنزول الوحى عليه وصلاحيته للبلاغ أيضا. لأن كلام الله له آداب فى المعاملة لم تتوافر لغيره من الكلام، ولذلك حرم على الحائض والنفساء وذى الحدث الأكبر تلاوة القرآن بصوت يسمع وكذلك حمل المصحف[6]- إلا ما استثنى من الحكم- فلو سلمنا جدلا أن النبوة قد قامت

---

(١) يوسف ١٠٩.   (٢) النحل ٤٣.
(٣) الأنبياء ٧.   (٤) يونس ٢.
(٥) خرج عن رأى الجمهور الإمام ابن حزم الظاهرى والإمام القرطبى. حيث رأيا صحة نبوة النساء دون رسالتهم وقد استشهدا لذلك بظواهر النصوص المتعلقة بخطاب الله لمريم عليها السلام وخطاب الله لأم موسى. وكون الخطاب تضمن تكاليف شرعية أمرنا بالالتزام بها، كما ردا على من قال بعدم نبوة النساء بأدلة يرونها لاتنقض - من وجهة نظرهم- انظر الفصل فى الملل والنحل ١٧/٥-١٩، القرطبى ٨٢/٤ط دار إحياء التراث العربى ببيروت.
(٦) الجامع لأحكام القرآن ١٧-٢٢٥-٢٢٧ وروح المعانى ٢٧-٥٤-٢٢٥.

بسيدة ما ثم اعتراها ما يعترى النساء فهل يتوقف نزول الوحى فى فترة الطمث أم ينزل وهل تبلغ أم تمسك عن البلاغ فى هذه الفترة وقد تلقى حتفها - قبل أن تطهر - فلا تبلغ بعض الوحى.

السبب الثالث: أن الطباع قد جبلت على رفض القيادة العامة من المرأة للرجل. هذه هى القاعدة ويستثنى الحالات الفردية - والرسالة قيادة فى الدين وقيادة فى الدنيا فى وقت واحد، وإذا كان ستر جسد المرأة فرض عين-إلا ما أباح الشرع ظهوره- فمن باب الستر أن لاتتحمل عبء النبوة لعظم المسئولية التى ينوء بها كاهل الرجال ومن هذه المسئولية مايلى :

أ - قيادة الجيوش لمحاربة الأعداء إن لم يكن فى كل الحالات ففى بعضها على الأقل.

ب- القدرة على الجدل مع الخصوم . فالنساء مهما بلغن من رجاحة العقل والفكر فإن الجدل على الملأ قد يؤثر الحياء فيه على المرأة.

جـ- الخروج فى ظلم الليل وإشراقة الصباح وقيظ الظهيرة وغير ذلك من الأوقات لأداء واجب البلاغ .

د- عدم تعريضها لعادية قومها فما بعث الله نبيا من الأنبياء إلا أوذى وكذب وعورض «**ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ماكذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولامبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبأ المرسلين**»[1] وقد صرح القرآن بمواقف الأمم السابقة من أنبيائهم (**كذبت قوم نوح المرسلين**)[2]. (**كذبت عاد المرسلين**)[3]. (**كذبت ثمود المرسلين**)[4] (**كذبت قوم لوط المرسلين**)[5] (**كذب أصحاب الأيكة المرسلين**)[6] ولم يتوقف الأمر عند حد التكذيب بل إن الإيذاء قد امتد إلى هؤلاء حتى الحبس أو الضرب أو الحرق أو القتل أو ماسوى ذلك مما تسول به النفس الأمارة بالسوء فما هو حال المرأة لو أمرت بالبلاغ أمر نبوة ورسالة فى زمن كانت الجاهلية فيه قد بلغت مداها .

---

(١) الأنعام ٣٤.
(٢) الشعراء ١٠٥.
(٣) الشعراء ١٢٣.
(٤) الشعراء ١٤١.
(٥) الشعراء ١٦٠.
(٦) الشعراء ١٧٦.

هـ- التطبيق العملي لكافة جوانب التشريع تطبيقا يترتب عليه العلم بمراد المشرع من ناحية الأداء ولاشك أن بعض جوانب التطبيق لايتأتى القيام بها من قبل المرأة بحضرة الرجال لما فى نفوس البعض من ضعف يصرفها عن الفهم إلى الشهوة وإلا فكيف تشرح المرأة كيفية الغسل وآدابه والجماع وأحكامه وما شاكل ذلك مما ألفت النسوة علي سماعه من الرجل بغير فتنة دون أن يألف الرجل سماعه من النسوة فضلا عن أن الحياء يمنع من البيان ، كما أن الإمامة فى الصلاة والحج وغير ذلك لا تتأتى من المرأة بحضرة الرجال.

و - قدرات الرجل العضلية أقوى من قدرات المرأة، ولاشك أن النبوة من أشد الأعمال التى تنوء بها كواهل الرجل - قال تعالى «إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا»[1] وقد بينت السنة مشقة التلقى عن جبريل كما ورد في حديث الوحى الذي روى عن السيدة عائشة رضى الله عنها ، ومنه (ولقد رأيته ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقا)[2] وعن ابن عباس فى قوله تعالى (لاتحرك به لسانك لتعجل به) قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعالج من شدة التنزيل وكان مما يحرك شفتيه فقال ابن عباس فأنا أحركهما لكم كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحركهما وقال سعيد - بن جبير- أنا أحركهما كما رأيت ابن عباس يحركهما فحرك شفتيه (رواه البخارى . فى أول صحيحه) وقد ورد بصحيح مسلم (باب فى عرق النبى صلى الله عليه وسلم فى البرد وحين يأتيه الوحى) من ك الفضائل . فليراجع.

ز - وفوق ذلك فالرسالة اصطفاء ، ولله أن يصطفى من يشاء لما يشاء لأنه أعلم وقدرته مطلقة وإرادته لايتوجه إليها بالسؤال عن العلة أو السبب (لايسأل عما يفعل وهم يسألون)[3] وإن طلبت الحكمة فى بعض الأحيان لبيان مظاهر الأسماء الحسنى كالرحمن والرحيم. وصدق الله القائل «الله أعلم حيث يجعل رسالته»[4].

الأمر الثانى : البلوغ وهو شرط أساسى للإرسال كما أنه شرط أساسى للتكليف

---

(١) المزمل ٥.
(٢) صحيح البخارى ك بدأ الوحى.
(٣) الأنبياء ٢٣.
(٤) الأنعام ١٢٤.

أيضا، لأن العقل في هذه الفترة يبدأ التمييز والاستيعاب . وقد نسب إلى الرسول تقييد النبوة بسن معين (ما من نبي إلا نبيء على رأس الأربعين) [1] وقد ردّ العلماء القطع بمسئولية المسيح عن البلاغ في فترة الصبا. وأما ما نطق به في القرآن قائلا (.إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيا) فهو من باب الإخبار عن المستقبل بالماضي لتحقق الوقوع [2]. كما أنه إعلان مسبق لحقيقة المسيح دون أن يكون أكثر من ذلك. لردّ دعوى كونه أكبر من عبد لله، ورسوله. وخاصة أنه لمْ يثبت عنه وحي أو تشريع أو تكليف لنفسه أو لغيره في فترة الصبا . فضلا عن أن النبوة تكليف فوق تكليف ولا يتأتى التكليف إلا بعد البلوغ ، ولا يعدو الأمر أن يكون كما ورد في الحديث (متى كنت نبيا ؟ فقال : كنت نبيا وآدم منجدل في طينته) [3].

والبلوغ مع كمال العقل شرطان أساسيان للأسباب الآتية :

١ – أن النبي أول المكلفين برسالته سواء آمن برسالة غيره قبل الوحْي إليه–مثل لوط – إسحاق– إسماعيل– يعقوب– يوسف) أم كان بعثه على سبيل الابتداء كما في حق (نوح – هود– صالح – إبراهيم– موسى– محمد) وغيرهم عليهم السلام.

٢ – أن القدرة على التحمل والأداء لا تتأتى إلا مع العقل الراشد. بل إن الأنبياء يتميزون – دون سواهم– بهذا الجانب الخَلْقيّ . حتى يتأتى الإلزام من قبلهم لخصومهم . ومن يقف على دعوة الأنبياء في القرآن يتبين له أن قدراتهم العقلية فاقت غيرهم ليتأتى الإلزام فتكون المساءلة على أثر الاختيار بعد الاقتناع . نلمح ذلك في الآيات التالية :

أولا: حوار نوح مع قومه حتى قالوا له (..**يانوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا..**) [4].

ثانيا: عدل إبراهيم عن البراهين العقلية إلى البراهين الحسية في محاورة الملك

---

(١) جزم ابن الجوزي بوضعه وأقام الدليل على ذلك. كشف الخفا رقم الحديث٢٢٤٨.
(٢) خالف ابن حزم ذلك وابن الجوزي كذلك.
(٣) أخرجه الترمذي وأحمد وابن حبان وراجع كشف الخفا . حديث رقم ٢٠٠٧.
(٤) هود ٣٢.

(ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه أن ءاته الله الملك إذ قال إبراهيم ربىَ الذى يحيى ويميت قال أنا أحيى وأميت قال إبراهيم فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذى كفر..) [1] وكذلك سؤاله لعبدة الأوثان عن وجه استحقاقها لذلك (هل يسمعونكم إذ تدعون * أو ينفعونكم أو يضرون..) وتكسيره الأصنام ومحاجته لقومه (بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون) [2] وفى حق شعيب ورد الحديث (ذلك خطيب الأنبياء) [3] وكذلك صور الحوار بين موسى مع فرعون ومحمد مع اليهود والنصارى والوثنيين.....الخ.

٣ - إن سلامة العقل ورجاحته يحملان صاحبهما على أن يحقق مرتبة القدوة. وإلا فكيف يتأتى الاقتداء بسفيه أو ماجن وكيف يلزم الغير مع عجزه عن التفكير؟

ثالثا: السلامة من كل عيب يمنع من البلاغ أو يسبب نفرة عن الاستماع. ويتكوّن هذا الشرط من أمرين:

احدهما: عدم لكنة اللسان أو عجمته أو العجز التام عن الكلام وإلا تعذر البلاغ وضاعت المهمة التى أرسل من أجلها ، بل إنه ليعد من باب السفه -تنزه الله عنه- ولذلك قال الحق سبحانه «وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه» [4] أى يتحدث بلغتهم ويقدر على إلزامهم وإفحامهم. ولم تردّ أمة على نبيها لعجزه عن البيان أو خرس باللسان لأن هذا من العيوب -عرفا- ولذلك وجدنا فرعون قد عير موسى بتغاير لهجته وعوج لسانه حتى قال «أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين» [5] فإذا كان تغاير اللهجة عذرا يعير به الداعى ويعاب به فما بالنا بالخرس.

وما ذهب إليه جمهور المفسرين من عجمة لسان موسى على أثر تناوله للجمرة بدلا من التمرة فى فترة الطفولة حتى أثر تذوقها على لسانه تأثيرا عجز معه عن البيان

---

(١) البقرة ٢٥٨. (٢) الأنبياء ٦٣.

(٣) ذكره القرطبى فى تفسيره ولم أقف عليه في ما رجعت إليه من كتب السنة. الجامع لأحكام القرآن ٩١/٩.

(٤) إبراهيم ٤. (٥) الزخرف ٥٢.

بعد ذلك فهذا من الأباطيل المختلقة على موسى عليه السلام. والعقل لايصدقها. وإلا فكيف يمد طفل يده على جمرة دون أن يتأثر بحرارتها؟ بل كيف يحملها بيده ويضعها في فمه دون صراخ أو بكاء وإلقاء . وكيف يفتح فمه ليتذوقها بلسانه..الخ.

وأما دعواه ربه بقوله (واحلل عقدة من لساني * يفقهوا قولي..)[1] وقوله (وأخي هارون هو أفصح مني لسانا فأرسله معي ردئا يصدقني إني أخاف أن يكذبون...)[2] فللعلماء في ذلك آراء غريبة وعجيبة . كلها مردودة عقلا وشرعا. وقد انتقد الشيخ عبد الوهاب النجار هذه الآراء وبين أن سبب هذا الطلب من موسى لايرجع إلى شيء من ذلك وأن المسألة ذات وجهين :

أولهما : أن موسى ألقته أمه في اليم والتقطه آل فرعون ، وحرم الله عليه المراضع لطفاً بأمه الوالهة إلى أن جاءوا بها فأرضعته وكفلته، والطفل عادة إذا تأخرت عنه الرضاعة مدة كهذه يورثه ذلك حبسة في لسانه.

وقد رأينا من أصحابنا من كان لايكاديبين ولاسبب لذلك إلا احتباسه عن الرضاعة مدة.

ثانيهما : أن موسى خرج من مصر من عهد بعيد. واعتقادى أنه مكث في مدين زمنا طويلا فنسي اللغة المصرية -لغة القبط- لطول العهد وعدم وجود من يناغيه بها أو يكلمه. وأما هارون فكان بين المصريين وبني إسرائيل ومقيما معهم. فهو أفصح من موسى ، وحقيق بأن يشافههم بها. ونحن أولاء يسافر الواحد من أبنائنا إلى البلاد الأوربية- ولاتكون مدة إقامته أكثر من خمس أو سبع سنين -ثم يجيء إلى مصر ناسيا كثيرا من لغة أبيه وأمه. وللناس نوادر في حكاية ألفاظهم وأحوالهم.

بقى أن يقال : إذا كان موسى قد نسى لغة المصريين فكيف يحاور أخاه هارون الذى لم يخرج من مصر؟ وجوابى على ذلك أن هارون بحكم البيئة كان يجيد القبطية وبحكم طينته كان يجيد العبرية. ولغة أهل مدين ولغة العبرانيين متقاربة جدا لأن المديانيين إخوة للعبرانيين أبوهم واحد هو إبراهيم. لاجرم كان هارون يفهم من موسى

(١) طه ٢٧، ٢٨. (٢) القصص ٣٤.

مالايفهمه عنه للمصريون القبط. وإنى أميل إلى الرأى الأول...[(١)].

وقد مال إلى هذا الرأى الأستاذ الدكتور محمد شامة وذكر الدليل التجريبى على ذلك[(٢)].

ورغم وجاهة هذا الرأى إلا أن إلقاء الضوء على سنى حياة موسى ومراحله التربوية قد تكشف النقاب أكثر عن ذلك على النحو التالى :

١ - نشأة موسى عليه السلام فى قصر فرعون وسماعه للغتين مختلفتين:

أ - لغة الكهنة وامرأة فرعون والخدم بأنواعهم ولغاتهم.

ب- لغة أمه -من بنى إسرائيل- والتى كانت تسمع الوليد حين الرضاعة وتناغيه شأن أى مرضعة ولاشك أن ذلك استمر فترة من الزمن.

٢ - حياة موسى الفردية فى داخل القصر-رغم سماعه لأصوات عدة- إلا أن بعده عن الأطفال داخل المجتمع أو عدم وجود أولاد ذكور فى سنه كان له أثره على لسانه .

٣ - خروجه من ديار مصر إلى أرض مدين وتغاير اللغة من ناحية واللهجة من ناحية أخرى، ولايخفى على أحد الفرق بين حياة القصور ولغة أهلها، وحياة البادية ولغة أهلها.

٤ - ينبغى أن نفرق بين أمرين . القدرة على البيان بالأسلوب التقليدى والبيان بالأساليب التى تبهر العقول حين السماع كالخطابة والمحاضرة والحوار والجدل.... وقد تكون قدرة هارون على اللون الأخير أكبر من قدرة موسى.

٥ - لايخفى على أحد مشقة عبء النبوة فأى ضير أن يطلب موسى من ربه نصرة هارون له، خاصة أن الرسالة توجهت إلى بنى إسرائيل كما توجهت إلى فرعون وكانت حياة هارون مع بنى إسرائيل دائمة وقائمة فكانت قدرته على مخاطبتهم أكبر

---

(١) قصص الأنبياء ٢٢٤.

(٢) فى رحاب القرآن ٢٧٤.

من قدرة موسى على ذلك وهو معنى قوله (أفصح منى لسانا) أى بالنسبة لبنى إسرائيل .

وختاما فإن ما ذكره القرآن على لسان موسى عليه السلام من دعوة وحوار وبيان الخ يؤكد بوضوح مدى قدرته على البيان.

الاتجاه الثاني : ضرر يقوم بالجسم يترتب عليه نفرة من السماع لسوء المظهر أو عدوى المستمع أو لهما معاً :

ونذكر فى هذا المقام ما أصاب يعقوب عليه السلام من فقدانه لنعمة البصر[١] وهو أمر لايعد عيبا مانعا من البلاغ أو السماع . وكم من أناس خلقوا بلا بصر أو فقدوا تلك النعمة إلى حين دون أن ينفر الناس منهم . وأما المغالاة فى وصف الأمر فلا أساس له من الصحة.

وأمّا ما نسب إلى أيوب من أذى ومانسج حوله من أساطير فهو أمر من نسج الخيال. نقل أكثره عن التوراة. وبالغ الرواة فى النقل بهدف جعل أيوب إمام الصابرين فى هذه الحياة. ومن يقف على كتب التفسير وقصص الأنبياء يجد عجبا [٢]، ولو توفرّ لدى هؤلاء حياء من الله ما أقبلوا على ذكر ذلك.

كما أن قول الحق (وأيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الضرّ وأنت أرحم الراحمين)[٣] وقول الحق (واذكر عبدّنا أيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الشيطان بنصب وعذاب * اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب)[٤] فليست الدلالة فيهما قطعية. ويمكن تأويل الضر والنصب فى الآيتين على أنهما لون من الأذى النفسى الذى ترتب عليه ضيق الصدر لفترة زمنية طويلة ترتب عليها تبرم بما نزل به فأوحى إليه أن يستخدم الماء عن طريق الاستحمام والشرب أو أنّ ألما قد نزل به – كارتفاع درجة الحرارة مثلا– فكان الأمر باستخدام الماء من باب ماورد عندنا فى الإسلام (الحمى من

(١) اقرأ سورة يوسف الآية رقم ٨٤، ٩٣.

(٢) الطبرى ٤٢/١٧–٥٨ ابن كثير ١٨٨/٣، ١٨٩ القرطبى ٢٢٢/١١–٣٢٦ السيوطى فى الدر ٣٢٧/٤–٣٣٠ الألوسى ٧٩/١٧–٨١.

(٣) الأنبياء٨٣،٨٤.

(٤) سورة ص ٤١، ٤٢.

فيح جهنم فاطفئوها بالماء)[1].

والأولى التفويض في حقيقة النُصْب دون الاعتماد على ما ورد في الكتاب المقدس أو التراث الإنساني.

وأما الأذى البدني الذي لايترتب عليه نفرة من السماع أو عجز التبليغ فإن الأنبياء يجرى عليهم ما يجري على سائر البشر من مرض- غير معدى- وأذى بدني في الحروب وآلام عضوية بمثل ما ورد في السنة والسيرة النبوية.

ثانيا : الصفات الخُلُقية

وكما جَمل الله الأنبياء في جوانب الخِلْقة والبنية، فإنه كملهم في جوانب الأخلاق، حتى اتفق جمهور علماء الكلام، على أنه يجب للأنبياء كل كمال ويتنزهون عن كل نقص وحسبنا أن ثلث دعوة المرسلين يركز على الجانب الخلقي ، وأما جانب العقيدة والشريعة فإنهما يوصلان إلى حسن الخلق كذلك ، وقد نص العلماء على بعض الصفات الواجبة للأنبياء ومنها :

١ - الصدق : فما كان لنبى أن يكذب ، وإذا كان هذا الخلق مرذولا من العامة فهو من الخواص أشد، وقد تعارف المسلمون فيما بينهم على أن من كذب أو عهد عليه الكذب، ردت روايته، وقد استنطق الأنبياء أقوامهم بصدقهم فنطقوا بذلك كثيرا.

٢ - الأمانة : فالأنبياء أمناء على الوحي : وما كان لنبى أن يخون الأمانة التى تحملها بالزيادة أو النقصان حين البلاغ ، وقد صرح كثيرون منهم بصفة الأمانة التى تخلقوا بها كما ورد في القرآن [2].

٣ - الإخلاص : فالأنبياء لايبغون من وراء البلاغ مدحاً ولاعرضا دنيويا ، وإنما هدفهم رضى الله، وهداية الخلق، ولذلك صرحوا في مواطن شتى بأنهم لايطلبون الأجر إلا من الله، كما أنهم رفضوا كافة العروض الدنيوية المتعلقة بالملك والجاه والمال.....الخ.

---

(١) الحديث البخارى ك الطب ٢٨ والترمذى طب٣٣ ومسند أحمد ٨٥/٢، ١٢٠، ٢٨١/٥.
(٢) الشعراء ١٠٧، ١٢٥، ١٤٣، ١٦٢، ١٧٨.

٤ - الشجاعة : فقدرة الرجل على مواجهة أمة بأسرها، تخالفه فى المعتقد، فضلا عن الجهر بدعوته، والتحدى، وتكرار التحدى فى كثير من المواقف، يتطلب قدراً من الشجاعة لايتوفر إلا لقليلين من بنى البشر، أعانهم على التحلي بهذا الخلق قوة الاعتقاد، حتى كان الواحد منهم يقول لقومه (وكيف أخاف ما أشركتم ولاتخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا فأى الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون)[1]. (من دونه فكيدونى جميعا ثم لاتنظرون)[2]. (فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لايكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا إلى ولاتنظرون)[3].

وقد وردت صفات خاصة ببعض الأنبياء دون البعض الآخر، ذكرها القرآن لايتسع المقام لذكرها مجموعة هنا، كما أنها سترد مضافة إلى كل نبى حين الحديث عن دعوته إن شاء الله.

التفاضل بين الرسل

إن الصفات السابقة لاتكسب نبيا أفضلية على غيره لأنها من القاسم المشترك بين سائر المرسلين ولم يتمتع نبى بقدر من الصفات السابقة -على الدوام- دون من سواه من الأنبياء . وأما التفاضل المشار إليه فى كتب المؤرخين فإنه ينقسم إلى قسمين :

الأول : ما كانت الدلالة فيه صريحة لنص قرآنى أو حديث صريح صحيح فإنه يقبل ولايرد.

قال تعالى (تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس)[4] وقال تعالى (ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض وآتينا داود زبورا)[5] كما ورد فى السنة بعض الأحاديث التى تصرح ببعض وجوه الأفضلية للأنبياء السابقين وكذلك وجوه الأفضلية بالنسبة لمحمد عليه السلام[6].

---

(١) الأنعام ٨٥. (٢) هود ٥٥. (٣) يونس ٧١.

(٤) البقرة ٢٥٣. (٥) الإسراء ٥٥.

(٦) راجع كتب الفضائل فى السنة -باب فضائل النبى صلى الله عليه وسلم- المطهرة وبخاصة الصحاح والسنن.

الثاني: ما كانت الدلالة فيه احتمالية وهو التفضيل الوارد فى كتب الشمائل والخصائص والتاريخ والسير بلا دليل صحيح صريح وإنما التكلف مع التماس الأدلة على ذلك وهو ماينبغي التوقف فيه أورده.

ولايحيل العقل تفاوت منزلة الأنبياء عند الله بحسب مشقة البلاغ وشدة الإيذاء وطول العمر ولذلك خصص جمهور المسلمين خمسة من المرسلين بأنهم أولوا العزم من الرسل. مستشهدين بقول الحق لنبيه (فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل)(١) ونصوا عليهم قائلين إنهم (نوح – إبراهيم – موسى – عيسى) الذين وردت أسماؤهم فى سورة الشورى(١٣) وألحقوا بهم محمدا عليه السلام.

بينما يرى آخرون أن سائر الأنبياء أولوا عزم بلا استثناء . وأما التكريم فمرده إلى الله العليم الخبير.

النبي والرسول العلاقة بينهما

جمهور علماء الكلام والمفسرين وأهل الحديث متفقون على التفرقة بين الوصف بالرسالة والوصف بالنبوة حتى غلب على الفكر الإسلامى التفرقة بينهما حين السماع أو القراءة . ومرد التفرقة إلى الأسباب الآتية :

أولا:

وصف بعض الأنبياء بالنبوة فقط فى القرآن والسنة والبعض الآخر بالنبوة والرسالة فى وقت واحد . قال تعالى (ووهبنا له إسحاق ويعقوب وكلا جعلنا نبيا)(٢) . (واذكر فى الكتاب إدريس إنه كان صديقا نبيا)(٣) . (ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبيا)(٤) .

(فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب أن الله يبشرك بيحيى مصدقا بكلمة من الله وسيدا وحصورا ونبيا من الصالحين) (٥) . وفى حق موسى ورد (واذكر فى

---

(١) الأحقاف ٣٥. (٢) مريم ٤٩.
(٣) مريم ٥٦. (٤) مريم ٥٣.
(٥) آل عمران ٣٩.

الكتاب موسى إنه كان مخلصا وكان رسولا نبيا)[1] . (الذين يتبعون الرسول النبي الأمي...)[2]. (فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي)[3] ، (واذكر في الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا)[4] والجمع بين النبوة والرسالة يؤكد الفرق بينهما.

ثانيا:

عطف القرآن كلمة نبي على كلمة رسول في سورة الحج. قال تعالى (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولانبي إلا إذا تمنّى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله مايلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم)[5] والعطف يقتضي المغايرة.

ثالثا:

الأصل في اللغة العربية عدم الترادف. وكل ترادف من حيث الظاهر يحمل تغايراً من حيث المعنى كما يرى علماء اللغة . وقد عرف العرب فرقا كبيرا بين إطلاقات كلمة نبي وكلمة رسول [6] وبين النبوة والرسالة وبلغة العرب نزل القرآن فوجب أن يفرق بينهما.

رابعا:

فرقت السنة النبوية بين عدد الأنبياء وعدد الرسل في روايات عدة وردت في كتب السنة [7].

وقد نتج عن هذا الاتجاه ظهور تعريفات عدة للنبي والرسول نذكر منها:

١ - الرسول : ذكر حر بعثه الله تعالى بشرع جديد يدعو الناس إليه.

النبي : يعمه ومن بعثه لتقرير شرع سابق كأنبياء بني إسرائيل الذين كانوا بين

---

(١) مريم ١٥.　　(٢) الأعراف ١٥٧.

(٣) الأعراف ١٥٨.　　(٤) مريم ٥٤.

(٥) الحج ٥٢.

(٦) راجع مادة (نبو) ومادة (رسل) في كتب المعاجم العربية.

(٧) راجع الأحاديث الدالة على نبوة آدم عليه السلام ص ٩٠ - ٩٢من هذا الكتاب.

موسى وعيسى .

٢ - الرسول : ذكر حر بعثه الله تعالى إلى قوم بشرع جديد بالنسبة إليهم وإن لم يكن جديدا فى نفسه كإسماعيل -عليه السلام-.

النبى : يعمه ومن يبعث بشرع غير جديد.

٣ - الرسول : ذكر حرٌّ لهُ تبليغ فى الجملة وإن كان بيانا وتفصيلا لشرع سابق.

النبى : من أوحى إليه ولم يؤمر بتبليغ أصلا.

٤ - الرسول: من الأنبياء من جمع إلى المعجزة كتابا منزلا عليه.

النبى : من لا كتاب له وإن كانت له معجزات.

٥ - الرسول: من له كتاب أو نسخ فى الجملة.

النبى : من لا كتاب له ولا نسخ.

٦ - الرسول : من يأتيه الملك عليه السلام بالوحى يقظة.

النبى : يقال له ولمن يوحى إليه فى المنام لاغير.[١]

٧ - النبى : من أرسل إلى قوم مؤمنين أوحى إليه أم أمر بالعمل بشرع من سبقه.

الرسول: من أرسل إلى قوم كافرين[٢].

وقد شبه صاحب هذا الرأى مهمة الأنبياء فى الأمم السابقة بالعلماء فى هذه الأمة قائلا :

لأنه -أى النبى- لم يرسل إلى قوم بما لايعرفونه ، بل كان يأمر المؤمنين بما يعرفونه أنه حق كالعالم ولهذا قال النبى صلى الله عليه وسلم (العلماء ورثة الأنبياء)[٣].

---

(١) هذه التعريفات منقولة عن روح المعانى للألوسى ١٧٢/١٧ ط دار إحياء التراث العربى والتعريف الثالث ورد فى السراج المنير ٥٥٩/٢ والرابع عن روح البيان ٤٩/٦ .

(٢) النبوات لابن تيمية ٢٥٦.

(٣) النبوات ٢٥٧.

٨ – النبى : صفة تطلق على من اصطفاه الله فى فترة ما قبل الأمر بالبلاغ.

الرسول : نبى اصطفاه الله فكلفه بتبليغ رسالته لخلقه.[١]

وقد نتج عن هذه التعريفات قول العلماء : إن كل رسول نبى وليس كل نبى رسول[٢] وأن الرسول مأمور بالتبليغ والنبى بالخيار بين التبليغ وعدم التبليغ ورأى البعض جواز نبوة النساء دون إرسالهن.

ويرى بعض العلماء أنه لافرق بين الوصف بالنبوة والوصف بالرسالة. وأن الوصف بهاتين الصفتين يكون للشخص الواحد والتفاوت بحسب الحال. فمن حيث هو مخاطب من قبل الله بطريق الوحى مخبر بالاصطفاء ملهم بتشريعات قد توافرت لديه الأدلة على اختياره للبلاغ فهو نبى. ومن حيث تحمله للرسالة وتكليفه بالبلاغ فهو رسول..

وقد ردوا الرأي السابق بأدلة عدة نذكر منها :

أولا :

الوصف بصفة لايقتضى نفى ماعداها ، فالذين ورد ذكرهم فى القرآن موصوفين بالنبوة دون الرسالة فى بعض الآيات قد وصفوا بالإرسال صراحة أو ضمنا فى آيات أخرى . ويكفى للرد على هؤلاء أنهم حين تحدثوا عن عدد الرسل ذكروا أنهم خمسة وعشرون فلم يفرقوا بين النبى والرسول حين الحصر ومنهم من استثنى آدم وإدريس للخلاف فى رسالتهم –كما يزعمون–.

ثانيا :

القرآن وصف الأنبياء بما وصف به المرسلين بدلالة المنطوق ودلالة المفهوم. أما دلالة المنطوق ففى قول الحق سبحانه (**وما أرسلنا فى قرية من نبى إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يضرعون**)[٣]. (**وكم أرسلنا من نبى فى الأولين . وما يأتيهم**

---

(١) العقيدة الإسلامية – عبد الرحمن الميدانى ٣٠٠، ٣٠١.

(٢) راجع النبوة والأنبياء ص١٤ والنبوات ٢٥٧ .

(٣) الأعراف ٩٤.

من نبي إلا كانوا به يستهزئون) [1] . (كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه....) [2] (قولوا آمنا بالله وما أنزلنا إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لانفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون) [3] (قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى والنبيون من ربهم لانفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون) [4] .

ويفهم من منطوق هذه النصوص أنه لافرق بين النبي والرسول من ناحية الوحي والرسالة والبلاغ ووجوب الإيمان بهم بلا تفرقة في الإيمان.

وأما دلالة المفهوم فهي مأخوذة من سياق النصوص التي صرحت بعداء المشركين للأنبياء مع وصف الأنبياء بالإرسال في كثير من آي القرآن . قال تعالى (وكم أرسلنا من نبي في الأولين * ومايأتيهم من نبي إلا كانوا به يستهزئون) [5] وقوله (وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا من المجرمين وكفى بربك هاديا ونصيرا) [6] وحين لعن اليهود دلت النصوص على أنهم -أي الأنبياء- بلغوا فآذاهم اليهود إلى حد القتل (ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس وباءوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق) [7] . (إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فبشرهم بعذاب أليم) [8] . (ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تُعلّمون الكتاب وبما كنتم تدرسون) [9] .

---

(1) الزخرف ٦ .
(2) البقرة ٢١٣ .
(3) البقرة ١٣٦ .
(4) آل عمران ٨٤ .
(5) الزخرف ٦، ٧ .
(6) الفرقان ٣١ .
(7) آل عمران ٨٤ .
(8) آل عمران ٢١ .
(9) آل عمران ٧٩ .

يفهم من هذه الآيات أن الأنبياء بلغوا وقد ترتب على البلاغ الاستهزاء والعداء والقتل. بل إن الآية الأخيرة قد صرحت بالبلاغ (**ثم يقول للناس كونوا عبادا لى من دون الله ولكن كونوا ربانيين..**)(١).

ثالثا:

العطف الوارد فى سورة الحج لايؤكد وجوب البلاغ على الرسل وتركه فى حق الأنبياء. بل يؤكد تبليغ كل منهما والخطاب للجمع بين ماتعارف عليه الناس.

رابعا: فى ضوء اللغة العربية نقول إن كل نبى رسول وليس كل رسول نبياً بعكس ما ذهب إليه علماء الكلام . بل إن العرب قد فرقوا بين النبى -أى الموحى إليه بشرع- والمتنبىء -أى مدعى النبوة- وأما كلمة رسول فتطلق على من أوحى إليه بشرع ومن حمل رسالة إلى غيره دون اعتبار لمصدرها. وقد أطلق القرآن كلمة رسول على من كلفوا برسالة كما أطلقها على من تحملوا رسالة من غير الأنبياء والمرسلين (**فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك فسئله ما بال النسوة اللاتى قطعن أيديهن**)(٢) . (**وإنى مرسلة إليهم بهدية فناظرة بما يرجع المرسلون**)(٣) وفى السنة المطهرة قال صلى الله عليه وسلم لرسولىّ مسيلمة الكذاب (**لولا أن الرسل لاتقتل لقتلتكما**)(٤) وورود الكلمة غير مضافة لله يجعلها ذات دلالات عدة فإذا أضيفت أو وصفت بما يحدد المراد منها خصص معناها.

خامسا:

الأحاديث التى فرقت بين الرسل والأنبياء فيها ضعف كما ذكر ذلك بعض العلماء(٥) والروايات فيها مضطربة من حيث الأعداد وعلى فرض التسليم بصحتها عند من صححها يكون الوصف بالرسالة خاصا بمن نزلت عليهم كتب والوصف بالنبوة خاصا بمن أوحى إليهم مأمورين بالعمل بكتب من سبقهم (**إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذى أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار ..**)(٦).

---

(١) جزء آية ٧٩ آل عمران.
(٢) سورة يوسف ٥٠.
(٣) النمل ١٣.
(٤) الحديث السيرة النبوية لابن هشام ٢٤٧/٤.
(٥) راجع المنار ٦٠٥/٧، ٦٠٦.
(٦) المائدة ٤٤.

سادسا:

دلالة العقل «إذا كان التبليغ واجبا على كل الناس بحسب ما يدركون من الدين أفلا يكون واجبا على النبي الذي نزل عليه وحي الله...والقول بأن النبي هو من نزل عليه وحي ولم يؤمر بتبليغه خطأ من ناحيتين:

١ - أنه عطل مبدأ من مبادئ الدين وهو التبليغ....

٢ - إذا نزل عليه وحي فكيف لايؤمر بتبليغه إن هذا أمر يتنافى مع العقل بل هو عبث ينسب إلى الله تعالى وهو محال إذ كيف ينزل الله وحيا على إنسان اصطفاه ثم لا يأمره بتبليغه . إذا كان الأمر كذلك -وهو ماتنزه الله سبحانه وتعالى عنه- فما الفائدة من تنزيل هذا الوحي»[1] وقد صرح القرآن بحرمة كتم العلم (إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون)[2] وأولى الناس للعمل بهذا النص هم الأنبياء .

وبهذا يرجح لدينا أن كل رسول نبي وأن كل نبي رسول ولافرق بينهما.

وجوب الإيمان بالمرسلين

ذكر القرآن أن الإيمان بجملة المرسلين فرض عين على كل مسلم مع علم التفاوت في هذا الإيمان ، قال تعالى (آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لانفرق بين أحد من رسله..)[3] .

وقد عاب على الكافرين تفريقهم بين الرسل حيث الإيمان ببعضهم والكفر بالبعض الآخر، وامتدح المؤمنين لعدم التفرقة بينهم، قال تعالى (إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا * أولئك هم الكافرون حقا وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا * والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم وكان

---

(١) الإسلام كما ينبغي أن نعرفه ٧٤ بتصرف.
(٢) البقرة ١٥٩.   (٣) البقرة ٢٨٥.

الله غفورا رحيما)[1].

كما ذكر القرآن أن الكفر برسول يعنى الكفر بسائر المرسلين. فكم وصفت الأمم السابقة بأنها كذبت المرسلين مع أنه لم يرسل إليها إلا رسول واحد. قال تعالى (كذبت قوم نوح المرسلين)[2]. (كذبت عاد المرسلين)[3]. (كذبت ثمود المرسلين)[4]. (كذبت قوم لوط المرسلين)[5] (كذب أصحاب الأيكة المرسلين)[6] مع أن كل أمة من تلك الأمم لم يرسل إليها إلا رسول واحد كما ورد فى سورة الشعراء بحسب ترتيب الآيات السابقة نوح - هود- صالح- لوط- شعيب- مع وجوب الإيمان بالصفات المتعلقة بهم من جهة المدح فى ضوء القرآن والسنة وردّ الصفات التى نسبت إليهم من الأتباع ولايقرها الشرع. مدحا كالغلو فى المسيح ومحمد -عليهما السلام - أو قدحا كالصفات السلبية التى ذكرها القرآن عن لسان السابقين ثم أبطلها.

وأما الإيمان التفصيلى فهو التسليم بنبوة كل نبى ورد اسمه صراحة فى القرآن موصوفا بالنبوة والرسالة ، وليس بلازم حفظ جملة الأسماء -بالنسبة لغير المتخصصين- ولكن التمييز مطلوب حتى لايتأتى الخلط بين الأنبياء والأولياء والصالحين الوارد ذكرهم فى القرآن وذلك كعدم التمييز بين الخضر ولقمان وبين الأنبياء.

وقد جمع الحق ثمانية عشر رسولا فى قوله تعالى (وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم * ووهبنا له إسحاق ويعقوب كلا هدينا ونوحا هدينا من قبل ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزى المحسنين * وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كل من الصالحين* وإسماعيل واليسع ويونس ولوطا وكلا فضلنا على العالمين)[7] ويبقى سبعة هم آدم -

---

(١) النساء ١٥٠-١٥٢.
(٢) الشعراء ١٠٥.
(٣) الشعراء ١٢٣.
(٤) الشعراء ١٤٧.
(٥) الشعراء ١٦٠.
(٦) الشعراء ١٠٥.
(٧) الأنعام ٨٣-٨٦.

إدريس - ذو الكفل - هود - صالح - شعيب - محمد - عليهم الصلاة والسلام .

ولم يثبت من حديث صحيح نبوة أحد من الأنبياء - غير من ذكرهم القرآن - وما ورد بحق شيث - وغيره - في السنة (أنزل عليه خمسون صحيفة) فقد ردّه العلماء[1] . ولعلها حكمة الله في أن لا تثبت النبوة من طريق السنة وحدها لعلم الحق سبحانه بما سيصيبها من وضع فكان الإثبات من طريق القرآن لحفظ الله له لامن طريق السنة لحفظ الناس لها وقد أخطأ المؤرخون وكتاب السير والقصص الذين نقلوا عن الكتاب المقدس بعض الأسماء الموصوفة بالنبوة والرسالة على أنها من جملة المرسلين فذكروها مقرونة بوصف النبوة والرسالة كذلك[2] ومثل تلك الأمور مما ينبغي التوقف فيها لأن النبوة لاتثبت إلا من طريق الوحي أولا . والكتاب المقدس قد تصرف فيه أهله فصارت أدلته ظنية والقطعي منها كفانا إياه القرآن ولوكان في ذكر الأنبياء الذين أمسك عنهم القرآن فائدة ماتركه فوجب التفويض إلى الله في أمر هؤلاء .

من وجوه الحكمة في ذكر قصص المرسلين في القرآن

إن من رحمة الله بخلقه بعث الأنبياء والمرسلين . لتعريف الخلق بالحق كما يريد الخالق وتوضيح أصول الاعتقاد كما يريد الله لا كما يريد البشر ورسم منهج للعلاقه بين الإنسان وربه والإنسان وغيره بل الإنسان ونفسه، مع إخبار البشر ببعض قضايا المبدأ والمعاد بالطريق الذي لاسبيل لهم غيره في هذه الجوانب ، وكل عدول عنه - الوحي - إلى غيره لايحقق الهداية المرجوة للإنسان في هذه الحياة فضلا عن كونه غير هاد في طلب رضى الله عنه وقد بلغ الأنبياء حدا في الكثرة كما تصورهم الأحاديث النبوية الشريفة، وكان أصحاب الرسالات أقل عددا من جملة الموحى إليهم المكلفين بالبلاغ [3]، وفي القرآن تصريح بأن بعض الرسل قد ورد إسمهم في القرآن والبعض الآخر لم يرد (ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم

---

(١) تاريخ الأمم والملوك ١٥٢/١٠، ١٥٣ والبداية والنهاية ٩٨/١.

(٢) الطبري في المجلد الأول وابن كثير في البداية والنهاية المجلد الأول والثاني، الكامل في المجلد الأول.

(٣) راجع الأحاديث الدالة على نبوة آدم عليه السلام في هذا الكتاب صفحة ٩٠-٩٢.

عليك..)[1]. (ولقد أرسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك)[2]. وهؤلاء الذين ذكرهم القرآن قد أشار إلى الحكمة من ذكرهم فى بعض آياته نذكر منها :

١ – إقامة الدليل على نبوة الرسول-صلى الله عليه وسلم وصدق رسالته عن طريق إخباره بأمور غيبية لم يكن له بها علم ، وبعض القصص لم يكن لقومه بهاعلم، فأحيانا تذكر قصة نبى أو ماله صلة بنبى -كقصة مريم- ثم يقرن الحق ذكرها بقوله (ماكنت تعلمها أنت ولاقومك)[3]. (وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وماكنت لديهم إذ يختصمون)[4]. (ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون)[5].

٢ – قياس نبوة الرسول على نبوة السابقين (قل ماكنت بدعا من الرسل وما أدرى مايفعل بى ولابكم إن أتبع إلا ما يوحى إلى ...)[6]. (كذلك يوحى إليك وإلى الذين من قبلك اللهُ العزيز الحكيم)[7]. (إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده..)[8]. (شرع لكم من الدين ماوصّى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصّينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولاتتفرقوا فيه...)[9].

٣ – تثبيت قلب النبى-صلى الله عليه وسلم-لقول الحق سبحانه (وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك فى هذه الحق...)[10].

٤ – بيان مواقف الأمم السابقة من أنبيائها،والنتائج المترتبة على تلك المواقف، عظة واعتباراً لهذه الأمة -الصالحين منهم والطالحين- وقد ذكر القرآن من هذه المواقف مايكشف النقاب عن الجوانب التالية :

أ – إن تكذيب الرسل أمر حتم عبر التاريخ،وأن إيذاءهم سنة متبعة من قبل

---

(١) النساء ١٦٤.
(٢) غافر ٧٨.
(٣) هود ٤٩.
(٤) آل عمران ٤٤.
(٥) يوسف ١٠٢.
(٦) الأحقاف ٩.
(٧) الشورى ٣.
(٨) النساء ١٦٣.
(٩) الشورى ١٣.
(١٠) هود ١٢٠.

بعض المدعوين قال تعالى (وكم أرسلنا من نبي في الأولين * وما يأتيهم من نبي إلا كانوا به يستهزئون * فأهلكنا أشد منهم بطشا ومضى مثل الأولين)[1] . (ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ماكذبوا وأوذوا..)[2] . (ولقد استهزئ برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ماكانوا به يستهزئون)[3] . (ولقد استهزئ برسل من قبلك فأمليت للذين كفروا ثم أخذتهم فكيف كان عقاب)[4] . (ولقد استهزئ برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ماكانوا به يستهزئون)[5] ومثل ذلك وقع للرسول صلى الله عليه وسلم كما تصوره الآيات الواردة في سورة البقرة (١٤) والحجر (٩٥) والمائدة (٥٧)، (٥٨) والأنبياء (٣٦) والفرقان (٤١).

ب- إن النصر في النهاية ثابت لأهل الحق (إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد)[6] . (وكان حقاً علينا نصر المؤمنين)[7]. (فدعا ربه أني مغلوب فانتصر)[8] (فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون)[9].

جـ- إن استهزاء الكافرين المتكبرين المعاندين بالصالحين من الأمور التي عرفها التاريخ،وقد وصلت الأمور إلى حد الضرب أو السجن أو الطرد،فضلا عن الإيذاء بالقول كما يوضح ذلك في القصص،حديثه عن قوم هود وصالح ويوسف ومحمد-عليهم السلام-.

د - إنّ الترف من سبيل الإعراض عن الاستجابة في كثير من الأحيان،وهو من سبل الهلاك كذلك، قال تعالى (وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون)[10] . (وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال

---

(١) الزخرف ٧، ٨.
(٢) الأنعام ٣٤.
(٣) الأنعام ١٠.
(٤) الرعد ٣٢.
(٥) الأنبياء ٤١.
(٦) غافر ٥١.
(٧) الروم ٤٧.
(٨) القمر ١٠.
(٩) العنكبوت ٤٠.
(١٠) سبأ ٣٤.

مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون)(1).

هـ- إن المساومة على الدعوة من الأمور التى عرفها تاريخ الدعوة ، كما أن دعوة الحق كانت تجابه بدعوات مضادة لها ، كما يصور ذلك القرآن فى حديثه عن السابقين دون أن يستجيب الأنبياء لشيء من ذلك.

من مزايا القصة في القرآن :

لقد تميز قصص الأنبياء والمرسلين - ضمن ما تميز به قصص القرآن - بالجوانب التالية :

١ - إشباع الفطرة المركوزة فى النفس (من رغبة فى المعرفة) بذكر القصة كأمر عرفته البشرية عبر تاريخها ، حتى إن أهل مكة قد طلبوا ذلك من الرسول فى بعض الأحيان، وقيل إن المسلمين هم الذين طلبوا ذلك تسلية وترويحا (2) إلا أن القرآن قد ضمن أمر الإشباع، الكثير من الحكم النافعة، دون أن تتضمن القصة شيئا من التسلية لذات التسلية أو الترفيه لذات الترفيه .

٢ - اعتمد القرآن على القصص الواقعى وإن طال الزمن به وبعد العهد ، وحيث إن بعض الأمور لاتخضع للمشاهدة الآن، فقد أبى البعض واقعية القصة القرآنية وادعى رمزيتها أوخيالها بمثل ما يصورون قصة آدم وإبليس وقابيل وهابيل وسليمان والهدهد... تصويراً رمزيا مستبعدين ذلك واقعيا ، كما يؤلون سنى حياة نوح فى القرآن تأويلا غير مقبول، مع أن الغالب أن الرمزية لاتكون إلا فى حال الضغط الواقع أو المتوقع على أثر الصراحة، فيكون الرمز، ومن هنا وجب ردّ التأويلات المتعلقة ببعض القصص القرآنى لدى بعض الكتاب المحدثين، وهذا ماكتب فيه آخرون (3) رافضين الرمزية فى القرآن.

٣ - تشارك القصة القرآنية سائر القصص فى تعلقها بموضوع ما، ولكنها تختلف عن كثير من القصص فى كونها حقا ليس للباطل إلى محتواها سبيل، (نحن

---

(1) الزخرف ٢٣. (2) جامع البيان ١٢/٩٠ وروح المعانى ١٢/١٧٠.
(3) القصص القرآنى فى منطوقه ومفهومه - الخطيب ٣٢١-٣٤٨.

نقص عليك نبأهم بالحق)[1]. (نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن..)[2].

ولأن القصة القرآنية هادفة إلى شيء ما-أينما وردت- فإنها تركز على ذلك الشيء فقد يكون التركيز على :

الأشخاص: كما في قصة امرأة عمران وامرأة نوح ولوط وفرعون.

الزمان: كما في قصة عمر نوح في العنكبوت وأصحاب الكهف.

المكان: كما في قصة يوسف كذكر الجب وبيت العزيز والسجن، وسبأ والمسجد الحرام والمسجد الأقصى[3].

الأحداث: كما في قصة الحوار بين ابني آدم.

وأحيانا يكون الجمع بين العناصر الأربعة كما في كثير من قصص القرآن.

٤ – من غايات القصة النبوية في القرآن،الأخلاق العالية،والقيم الأصيلة وإعلاء شأن الفضيلة حتى في المواطن التي يشتم منها رائحة ما ، نجد أن الفضيلة ومنزلتها ومكانتها وأجر المتحلي بها من أهداف القصة في النهاية،وليس أدل على ذلك من قصة يوسف-عليه السلام-وبيان النتائج الحميدة المترتبة على حسن الخلق وكذلك قصة لوط وبيان النتائج السلبية المترتبة على سوء الخلق.

٥ – ورود القصة في القرآن بهذا النسق هو من أبلغ الأدلة على أنه وحي الله إلى النبي،وأن ترتيبه وتدوينه كان بحفظ من الله،ولم تمتد إليه يد بالتصرف، فكتاب القصص يحرصون -من ضمن مايحرصون عليه- على وضع بدء ونهاية ولب للقصة وأحيانا البدء والأحداث تاركين النهاية لخيال القارئ أو المشاهد وفي كل الأحيان ترد

---

(١) الكهف ١٣.

(٢) يوسف ٣.

(٣) الدعوة الإسلامية أصولها ووسائلها د/أحمد غلوش ص٢٨٩/٢٩١ ط دار الكتاب المصري -القاهرة ١٩٧٩.

القصة مجموعة إلى بعضها وإن أضمرت جانبا من الجوانب ، بينما نجد القصة فى القرآن قد اختلف سياقها عن غيرها، فأحيانا ترد القصة مجموعة إلى بعضها غير مكررة فى القرآن، وأحيانا نجدها مكررة الذكر في أماكن مختلفة بأساليب متغايرة ومعانى غير متكررة،وأحيانا يرد مقطع من القصة فى سورة ويذكر الباقى فى سورة أخرى ، ومع ذلك بقيت النصوص على ما هى عليه كدليل على الحفظ الإلهى لها فى غير تعارض أو اضطراب مع القدرة على التعبير بأساليب لاتمجها الأذواق السليمة .

٦ - تعتبر القصة النبوية فى القرآن،هى الأساس الأول والمصدر الوحيد الذى سلم من التحريف حين التأريخ لتاريخ الدعوة إلى الله، ولعلم تاريخ الدين -أُخُص بالذكر الرسالات السماوية- وبخاصة أن كثيراً من القصص يتعلق بأنبياء لم يبق لهم شيئ من الآثار إلا النص القرآنى أو ماورد بالكتب الدينية الأخرى التى امتدت إليها اليد بالتحريف أو كتب اعتماداً على تراث الإنسانية.

وقلما وقف الإنسان على نص يتعلق بقصة نبى من الأنبياء،إلا وأدرك من خلاله مايفيده فى الدعوة إلى الله،وذلك ببيانه للصفات التى ينبغى أن يتحلى بها الداعى،أو المنهج فى الدعوة،أو الإشارة إلى طبيعة الدعوة أو بيان موقف المدعوين ونتائج البلاغ....الخ .

٧ - تمكن القصة الداعى من الربط بين موقف المدعوين من الدعوة عبر التاريخ وإن اختلفت الأساليب فالوثنية كانت منذ نوح -ولا زالت حتى الآن- وإن اختلفت مظاهرها ، والملأ كانوا ولايزالون القوة الأولى فى الصد عن الدعوة أو معارضتها -ولايزال الكثير منهم كذلك- والترف -فى بعض الأحيان- كان ولايزال من أسباب الإعراض وسبيل الهلاك كما أن ديكتاتورية الحكم ووجود الطغاة يتصادمان مع دعوة الأنبياء والمصلحين.

٨ - تشير القصة النبوية فى القرآن إلى وحدة الدين وإن اختلفت الرسالات، ولذلك سميت الكتب السماوية بأسماء متغايرة،بينما سمى الدين باسم واحد، (الإسلام) فى آيات عدة فى القرآن منسوبة إلى الأنبياء فى بعض الأحيان وبأسلوب

الحكم العام في حين آخر (إن الدين عند الله الإسلام) [1] (ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين) [2] فبطلت في ضوء نصوص القرآن المسميات الوضعية كأسماء شرعية وإن قُبلت من باب الأعلام بالغلبة أو الاصطلاح .

٩ – تنزهت القصة النبوية في القرآن عن السير الذاتية التفصيلية،ولم تذكر منها إلا ما له صلة بالدعوة،وكم أضمرت أسماء لأشياء،لأن ذكرها لايترتب عليه فائدة، كالشجرة التي حرمت على آدم،واسم امرأته واسم امرأة نوح وإبراهيم ولوط،والمرأة التي راودت يوسف وأم موسى ونوع المرض الذي أصاب أيوب...

وكذلك سنوات حياة الأنبياء وأيام دعوتهم –باستثناء نوح عليه السلام– وأماكن دعوتهم في كثير من الأحيان، لأن الهدف بيان أمر الدعوة وتاريخها منذ بدء البشرية حتى محمد عليه السلام.

١٠– سمت القصة بحديثها عن الأنبياء سموا زاقيا بهم –في حدود الشرع– فلم تنسب إليهم ما ادعاه السابقون في بعض الأحيان من فساد خُلُقي أو خَلْقي بل ذكرت مانسب إليهم باطلا –في بعض الأحيان– وأبطلته كما أبطلت الاتهامات التي نسبت إليهم، وما كان من غلو في شأنهم بصورة سلبية من قبل المعرضين عنهم ، أو بصورة إيجابية –كما يدعي الأتباع– مثل تأليه المسيح أو بنوته لله.

١١– للعلماء في التكرار في القصة رأيان :

الرأي الأول : يرى أن التكرار وارد في اللفظ والمعنى،وأنه لون من ألوان إعجاز القرآن،ولهم أدلة على ذلك[3] .

الرأي الثاني: يرى أن التكرار في المعاني غير وارد،وإن وردت القصة في مواطن شتى،وبأساليب متقاربة،ولكن إمعان النظر في الآيات المتعلقة بالتكرار يكشف النقاب عن تنزه النصوص عن تكرار المعاني، فعلى سبيل المثال نجد قصة إبراهيم عليه السلام

---

(١) آل عمران ١٩.

(٢) آل عمران ٨٥.

(٣) الخطيب –القصص القرآني– ٢٣٠–٣٠١، الإمام أبو زهرة – المعجزة الكبرى القرآن١٥٩.

قد وردت فى خمس وعشرين سورة من سور القرآن دون أن يكون التكرار فى المعانى متطابقا فى بعض المواطن ومثل ذلك قصة نوح وموسى ، كما سيتضح فى حينه خشية الإطالة فى هذه المقدمة .

اتجاهات الكتابة في قصص الانبياء

كتب كثيرون فى قصص الأنبياء والمرسلين، إلا أن مستوى الكتاب واتجاهات الكتابة متفاوتة ويمكن تصنيفها على النحو التالى[1].

أ - أناس كتبوا للوعظ والترقيق -وهم القصاص- وشأنهم فى ذلك شأن مؤلفى القصص والمسرحيات ، فقد غضوا الطرف عن منهج الدعوة وحال المدعوين بينما ركزوا على الخرافات والترهات ومالا يقره شرع ولايصدقه عقل، وقد خالف بعض ما ورد فى هذه الكتب نصوص القرآن والسنة مخالفة ظاهرة للوهلة الأولى، ومع ذلك راجت تلك الكتب وانتشرت،لأنها ترضى العامة وتستهوى السذج وتشبع الفطرة الكامنة فى النفس وبخاصة الغرائب والطرائف ويميل إلى هذه الكتب كل من:

١ - المبتدئون فى العلم -إلا قليلا- باعتبارهم مثل غيرهم فى الطلب وبخاصة الغرائب فى القصص .

٢ - الوعاظ والقصاص الذين لايحرصون على رضى الله بقدر حرصهم على رضى الناس وجمع الجمهور الغفير والتغنى بأن أتباع المسجد قد بلغوا من الآلاف كذا وكذا...

٣ - العامة من الناس لسهولة أسلوب ذلك اللون من الكتب وخلوه من كل عمل عقلى أو حاجته إليه .

٤ - غير المسلمين وبخاصة فى إطار الاستشهاد والاحتجاج بما هو منسوب إلى الفكر الإسلامى .

---

(١) أمسكت عن ذكر الكتب هنا سترا لها ومن لديه علم بهذا الفن سوف ترد الكتب على ذهنه مباشرة بعد القراءة كما تم ذكر أمثلة منها للطلاب حين الشرح.

٥ - كاتبوا المسلسلات والمسرحيات والأفلام، التي لها صلة بالأنبياء، باعتبارها خادمة للتراسي لما بها من صيغة تأثيرية بذاتها.

ب- أناس كتبوا بأسلوب قوي، يعجز المبتدئون في طلب العلم عن استيعاب ما كتبوه في تلك الكتب، فكانت علاقتهم بتلك الكتب قائمة على المجاملة حيث لا إمكان للانتفاع بها.

جـ- أناس كتبوا القصص النبوي بالأسلوب الحديث، وصاغوه بصيغة تجعله إلى مادة المسلسلات والتمثيليات أقرب منه إلى مادة القصص الديني، كما أضافوا الكثير من نسج الخيال إلى المادة المكتوبة لأن الحبكة تتطلب ذلك.

د- أناس خلطوا عملاً صالحا وآخر سيئا ، فهم يذكرون من أثر الأنبياء بعض ماورد في القرآن والسنة ثم يضيفون إلى ذلك تراث الإنسانية ويخوضون في قضايا غيبية أمسك القرآن عنها ولا سبيل للعلم بها إلا من طريقه ولا يتأتى التمييز بين المادة المدونة إلا من قبل أهل الاختصاص ، بل إن الخلط بهذه الصورة يجعل ما يعلق بالذهن من اللامعقول أكثر من المعقول.

هـ- أناس حرصوا على أن يقحموا شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم مع قصة كل نبي بصورة مباشرة أو غير مباشرة صح ماذكروه أو لم يصح ، بدءاً بآدم الذي رأى اسم الرسول على باب الجنة وأقسم به على الله وجعل مهر حواء الصلاة على محمد آلاف المرات، وعلم بنبوته ورسالته، وآمن به وهو في الجنة ... كما يزعمون وانتهاء بعيسى عليه السلام.

و- أناس كتبوا بروايات شرنمة تتعلق بدعوة الرسل إما لتحقيق الإرهاب أو التيه أو حبا معاً أو لعلم تحفظ القرآن أو لراحة العقل وعدم إجهاده على المطالعة أو للاكتفاء بما كتبه غيرهم أو للتخفيف أو للوصول إلى الهدف من أقصر الطرق.

ز- أفرد أناس قصص بعض الأنبياء بالذكر أو كتبوا سلسلة تتعلق بكل نبي على حدة، بهدف الاستقصاء، ولم يكونوا من أهل الاختصاص فكانت كتاباتهم مزيجا بين الدين والتاريخ والسير كما ألبسوا الحق بالباطل في بعض الأحيان.

ح - أناس ركزوا على دلالة الكلمات والألفاظ، فعالجوها بأسلوب مسهب فى ضوء علم اللغة،حتى إن الإنسان ليجد نفسه فى بعض صفحات ما كتبوا -أحيانا- أمام تحقيق لغوى أكثر منه مع قصص دينى فضلاً عن التكرار الممل لتلك الظاهرة.

ط- اتجه كثيرون إلى العهد القديم فنقلوا عنه الكثير مما ورد بحق الأنبياء والرسل السابقين،مضيفين إليه ماراقهم من تراث الإنسانية،حتى إن الإنسان فى بعض الأحيان ليقرأ فى بعض الكتب فيتذكر مباشرة أين موقع ما يقرأ فى العهد القديم، غير محددين الهدف من النقل أو الذكر...

ى- جمع أناس الآيات المتعلقة بكل نبى إلى بعضها مع بقائها على حسب ترتيبها فى سورها ثم عقبوا عليها بالبيان والعظات والعبر المترتبة على ذكر تلك القصة .

ك- لم يقارن بين قصص الأنبياء فى القرآن والتوراة -على سبيل الاستقصاء- سوى «الشيخ عبد الوهاب النجار» مقارنة كانت قاصرة فى بعض الأحيان، وقد قارن آخرون بين بعض القصص أو بين قصة واحدة فى القرآن مع أخرى تماثلها فى الكتاب المقدس.

هذا وقد بدا لى أن أدون المحاضرات التى ألقيتها لأربعة أعوام متكررة على طلاب جامعة قطر وكان الشأن فيها قطف ما راق من الأزهار فى بساتين المعرفة ثم تنسيقها وتقديمها على خير وجه يرجى،معتمداً على النقل والعقل وما يستحسن من التاريخ والسير، وأشرت إلى كثير مما لايستحسن ذكره فى عنوان أو عناوين مع الإحالة إلى الكتب التى ذكرت هذا الأمر لتحذير الطلاب منه أو لبيان الفائدة فى علم العلم به،فى غير تطويل ممل، ولاتقصير مخل، وقد قارنت بين قصص الأنبياء فى القرآن والعهد القديم لبيان المزايا والخصائص التى زينت بها القصة القرآنية، وتنزيها للقرآن عن كون قصصه مقتبس من العهد القديم -كما يدعى المستشرقون والمغرضون- ولم أكن فى الأداء أو التدوين منساقا فى كل الأحوال مع رأى الجمهور أو الرأى الراجح بل انتصرت للرأى الفردى أو المرجوح فى بعض الأحيان لكونه أقرب إلى النص القرآنى والعقل الإنسانى من غيره من الآراء.

وفرق كبير بين من ينقل لذات النقل ومن يختار ليحسن العرض فيبنى الفكر ويحرك ملكة النقد وبخاصة أن أصولها إسلامية وفكر السابقين ثرى بهذا الجانب إلا أن المتأخرين يتصرون لرأى الجمهور أخذا بظواهر نصوص السنة -فى غير محلها- وطلباً للسلامة من مصادمة الرأى العام -رأى الجمهور-.

كما أن أمانة بناء عقل الطلاب فى المرحلة الجامعية ،كانت تفرض علىّ أن أذكر الآراء المتعددة فى الموضع الواحد،ليكون الطالب على بصيرة بتلك الآراء وحتى لايصدم أو يفاجئ إذا ماتخرج على رأى واحد -فيما كانت فيه آراء عدة- ثم سمع بآراء أخرى تجعله في حيرة من أمره فيتهم أساتذته بالعجز والجهل.....الخ.

وقد أشرت إلى الأحاديث النبوية فى مظانها،وطلبت من أهل الاختصاص النظر فى بعضها،من ناحية السند أو المتن أو هما معا وبخاصة إذا تطابق نص الحديث مع متن العهد القديم أو كان ظاهر المتن النكارة أو لمعارضته لأحاديث أخرى مع إيمانى بأن ما صح سنده ومتنه فقد وجب علينا قبوله،وإن خالف ظاهره العقل،مادام مستوفيا للشروط التى وضعها علماء الحديث بقبوله إلى أن تكشف الأيام عن حقيقته،ولا أظن أن شيئا صح يصادم العقل إلا من وجوه أخرى،والحق أن السنة بها الكثير من الأحاديث الواردة بشأن الأنبياء والمرسلين، فى غير الصحيحين بحاجة الى أن يجمعها أحد الإخوة المتخصصين فى علم الحديث ويعالجها معالجة حديثية متأنية ليميز الصحيح من الحسن من الضعيف من الموضوع -وهو كثير- حتى نرى قصصا للأنبياء فى يوم ما خاليا من الشوائب العالقة به.

وفى الختام أقول : إنه لاذكر لشيئ فى هذا الكتاب من اللا معقول (الإسرائيليات) فى ثنايا الحديث عن قصص الأنبياء فى ضوء القرآن، وأما ماورد مخالفا للعقل فى ضوء الكتاب المقدس،فليس لى فيه إلا أمانة النقل مع ذكر النص، ثم تذكر النتائج لبيان عدم التسليم بما أوردته منقولا عن العهد القديم.

وأسأل الله أن أكون من المنتفعين بتجارب السابقين والمهتدين بهدى الأنبياء والمرسلين ومن سلك سبيلهم فى تناولى لهذه المعالجة -آمين-.

اضواء علي قصص الانبياء في التوراة

ورد قصص كثير من الأنبياء في العهد القديم ، كما نُسِب إلى النبوة كثيرون ممن لم يتوفر لنا علم بنبوتهم ورسالتهم، وليس بالإمكان قبول أوردّ نبوة هؤلاء الأنبياء -إلا فى ضوء القرآن- ويبدو من قراءة العهد القديم -فى ضوء القرآن والعقل- أن مزجا بين الحق والباطل قد تم فى ثنايا السطور، فلا إمكانية لأن نقطع ببطلان القصة بالكلية لتضمنها ما يوافق النص القرآنى فى بعض الأحيان،ولا بصحة القصة بالكلية لتضمنها مايخالف النقل والعقل، ويمكن تحديد معالم القصة فى العهد القديم على النحو التالى :

١ - الحرص على الجانب التاريخى أكثر من الحرص على الدعوة،فأغلب الأنبياء قد ورد اسم أبيهم وأمهم وسنة ميلادهم وشيئ من السيرة الذاتية لهم وتاريخ وفاتهم،كما تذكر التوراة زوجتهم أو زوجاتهم وأولادهم وأولاد أولادهم وممتلكاتهم....الخ.

٢ - لم تشر التوراة إلى دعوة أى نبى من الأنبياء - إلا عرضا فى بعض الأحيان- بينما تركز على الخلافات مع الأقوام من أجل عرض الدنيا حتى إن سيرة الأنبياء لتعدل سيرة الطغاة فى الحرب والسلام.

٣ - نسبت التوراة إلى الأنبياء ما لايقبل عقلا ولا شرعاً بدءاً بآدم وانتهاء بآخر نبى ورد ذكره فيها،وقد علل الشراح ذلك بعلل غير مقبولة وهو ما يشار إليه فى حينه.

٤ - أسقطت التوراة كثيرا من الفضائل من معظم الأنبياء،ولم تستبق من ذلك إلا انتصارات أنبياء بنى إسرائيل،كما أن الصفات الخُلُقية للأنبياء لم تنسب إليهم (الإيجابى منها) إلا نادراً.

٥ - لايتضمن القصص النبوى فى التوراة ربطا بين الدعوات أو الأنبياء أوهما معا -إلا من طريق النسب- ، كما لم يحدد الهدف والغاية من ذلك،بل يصور بعض القصص العلاقة بين الأنبياء والمرسلين،على أساس من العداء والصراع والكفر ببعض والقتال فى بعض الأحيان .

٦ – لعب الخيال دوره حين الحديث عن بعض الأنبياء والمرسلين، فصورهم كأشخاص وصوروا قوتهم الشخصية والعسكرية تصويرا إلى الخيال أقرب منه إلى الواقع.

٧ – ترتب على التكرار فى الذكر لقصص الأنبياء فى التوراة،الكثير من الخطأ للغفلة والنسيان،كما أن التكرار يكون للنص بذاته فى كثير من الأحيان وكل تفاوت بين النصين يؤدى إلى الصدام أو المعارضة وقد ساعد ذلك النقّاد على إثبات التعارض بين النصوص المكررة من حيث المحتوى .

٨ – أغفلت التوراة قصص بعض الأنبياء والمرسلين العرب،كقصة هود وصالح، واكتفت من أمر إسماعيل بذكر إقامته فى برية فاران فقط،مما يدل على عصبية المدونين أكثر من جهلهم أو اهتمامهم بتاريخهم فقط.

٩ – ركز المدونون على الجانب التاريخى، وحرصوا على تحديد العمر الزمنى لقضية خلق الكون والإنسان، فمنذ الحديث عن خلق السموات والأرض والإنسان حتى الحديث عن يحيى –عليه السلام– نجد عمر معظم الأنبياء وصلته الزمنية بالذى قبله، حتى إن المؤرخين قد اعتمدوا على التوراة فى تحديد عمر الخلق العام وسنى حياة كل نبى والبعد الزمنى بين الأنبياء.....الخ.

١٠– خلت القصة النبوية فى الكتاب المقدس،من كثير من معالم الدعوة،فلا إمكانية لأن يستنبط الإنسان قضايا العقيدة أو الشريعة أو الأخلاق –إذ ما استثنينا دعوة موسى –عليه السلام–.

١١ – الجانب الخلقى الإيجابى فى القصة النبوية غير متوفر فى التوراة بمثله فى القرآن،بل إن الفساد الخلقى هو البادى فى بعض الأحيان،كما أن الفضيلة لا إعلاء لها –غالبا– بل إن إسقاطها وارد،بمثل الحديث عن زنا لوط بابنتيه حتى ولدتا عمون وموآب وزنا داود بزوجة أوريا الحثى –أحد جنوده– ثم ضمها بعد مقتل زوجها إلى نسائه وزنا أستير بملك الفرس وزنا يعقوب بكنته ثامارا.....الخ.

١٢– تضمن قصص التوراة عن الأنبياء مبدأ الغاية تبرر الوسيلة، فظاهرة الرق فى العصر الحديث جذورها –كما يرى اليهود والنصارى– تمتد إلى قصة نوح–عليه

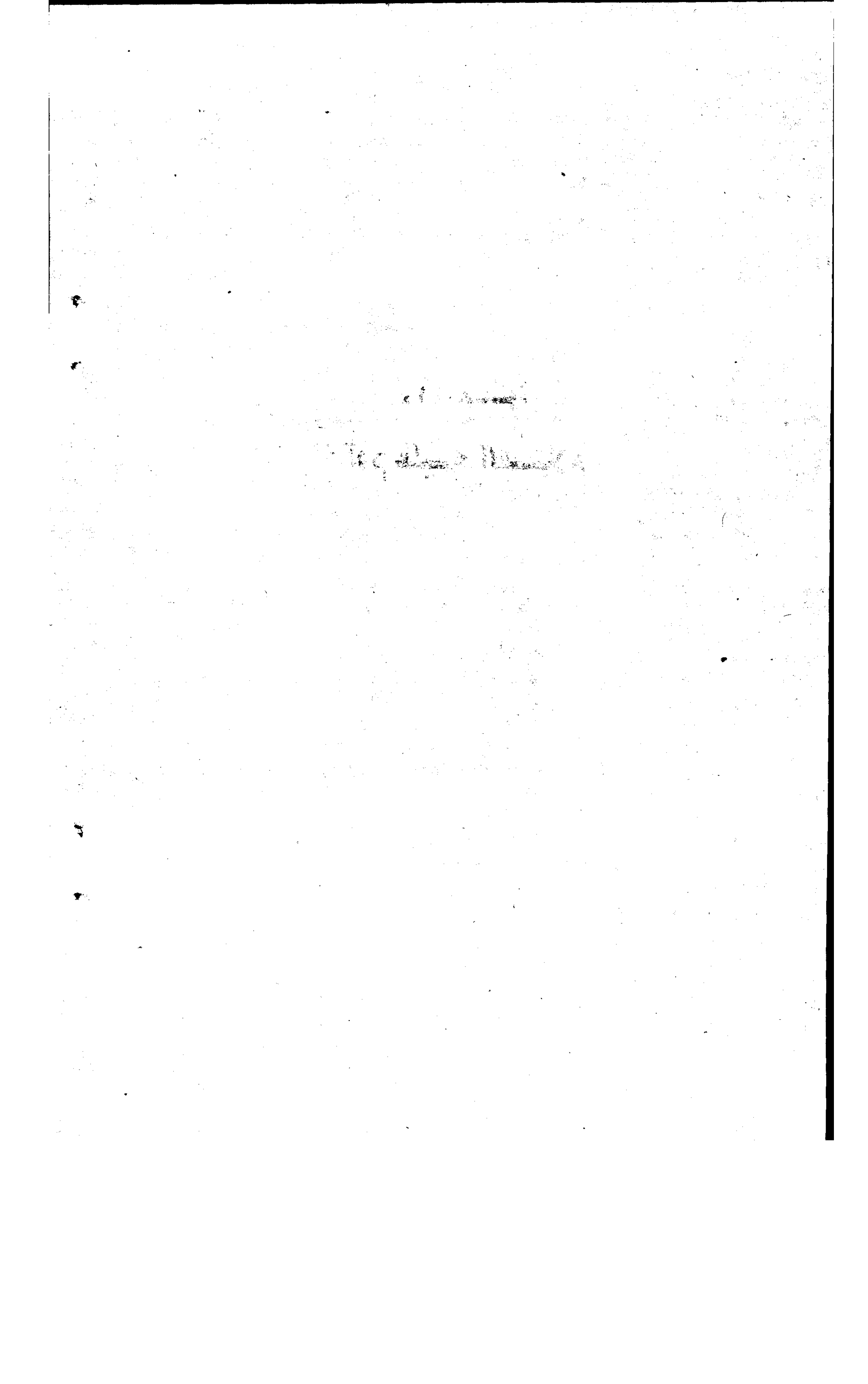
السلام ـ الذى نسب إليه الحكم على كنعان وأولاده بأن يكون عبد العبيد لغيره،بسبب ذنب ارتكبه والده حام ، فرأى اليهود والنصارى أحقيتهم فى استعباد غيرهم –من الحبش نسل حام– عملا بهذا النص،كما أن سرقة مال غير اليهودى ونهبه مردها إلى قصة هجرة موسى من مصر وأمره بنى إسرائيل أن يسرقوا من المصريين ما استطاعوا سرقته، كما أن فى قتل موسى للمصرى إيذانا بقتل الإسرائيلى لمن ليس بإسرائيلى.....الخ.

١٣– لايتيسر استنباط صفات خَلْقية أو خُلُقية –بصورة واضحة – بالنسبة للأنبياء والمرسلين،ولذلك وجدنا المدونين يضفون النبوة على الرجال والنساء وذوى العاهات وأصحاب الأمراض المعدية،حتى إن النبوة لتقوم بالعصاة والفسقة والمرتدين،وقد ترتفع عنهم ثم تحل عليهم مرة ثانية،وإن رأى البعض أن النبوة عندهم أوسع دلالة منها فى الإسلام .

١٤– الحشو فى القصص النبوى فى التوراة كثير،كذكر الأطعمة والأشربة والحوار والحفلات والهدايا والممتلكات والملابس.....الخ.

«١» دعــــوة

آدم عليــه الســـلام



الحديث عنه يتعلق بتلمس شيئ من دعوته لأن معالمها لم تتضح مفصلة من خلال القرآن الكريم أو السنة المطهرة ، كما أن مصادر العلم بدعوته من غير هذين المصدرين غير قطعية لاعتمادها على التراث الانسانى فى كتب وفكر المتقدمين، وفى دراسات المتأخرين ظهرت الحفريات فعول عليها كثيراً فى الحديث عن الإنسان الأول -دون أن يكون المراد به آدم- مع أنها افتراضات لم ترق بعد إلى طور الحقيقة كما لعبت الدراسات الحديثة دورها فى نشوء بعض النظريات -الداروينية- وروج لها أكثر مما روج لغيرها، فذاعت وانتشرت فترة من الزمن بين الناس، لم خفت ضوؤها حتى اختفت إلا من بلدان العالم العربى (المقررات الدراسية).

والحديث عن آدم - عليه السلام - غير مقبول إلا فى ضوء القرآن وصحيح صريح السنة، مع ترك رأى الجمهور فى بعض الأحيان لمخالفته نصوص القرآن والسنة والعقل، فضلاً عن ظهور تأثر ذلك الرأى بفكر أهل الكتاب بصورة مباشرة فى بعض الأحيان.

وإذا كان العرض فى هذا الكتاب سيعتمد على الكتاب والسنة ، فإن تشابها كبيراً سيقع لا محالة بين ما سأكتبه وما كتبه غيرى ، لوحدة المواضيع ووحدة النصوص وتقارب الهدف ووحدة اللغة، إلا أن تفاوتاً سيكون كذلك للمقارنة بين القصة فى القرآن والكتاب المقدس، ولتنزيل بعض جوانب القصة على الواقع ولتحرير كتاباتى من الخرافات ، والإسرائيليات ، التى وردت ببعض الكتب فضلاً عن ترك التفصيل للبحوث التجريبية العلمية وثيقة الصلة بالموضوع، وإنما الإشارة على عجل إن كانت تؤدى فائدة وتحقق الغرض من الكتابة .

وفى هذه القصة سوف نتناول الجوانب التالية :

أولا : خلق الأرض وتهيئتها لسكنى آدم عليه السلام :

ظواهر نصوص القرآن على أن الأرض أسبق فى التكوين من الإنسان ، قال تعالى ﴿وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة﴾[1] كما أشارت سورة

(١) البقرة ٣٠:

فصلت إلى أطوار خلق الأرض، قال تعالى ﴿قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين * وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين﴾[1] . والطور الأول (خلق الأرض) مندرج فى الطور الثانى (البركة فيها وتقدير الأقوات) فى الحساب النهائى (أربعة أيام) وقد عبر عن الفترات الزمنية الأربعة بكلمة يوم ، كما هو معهود العرب فى إطلاقه بإطلاقات عدة ، منها ما هو محدد المقدار كالأيام المعهودة ومنها ما هو غير محدد المقدار كيوم بدر ويوم حليمة ويوم حنين[2] .

وقد اشتغل كثيرون بكلمة يوم فطلبوا تحديدها واعتمدوا فى ذلك على حديث ورد فى صحيح مسلم ، رواه أبو هريرة عن كعب الأحبار وفيه (خلق الله عز وجل التربة يوم السبت وخلق فيها الجبال يوم الأحد وخلق الشجر يوم الاثنين وخلق المكروه يوم الثلاثاء وخلق النور يوم الأربعاء وبث فيها الدواب يوم الخميس وخلق آدم عليه السلام بعد العصر من يوم الجمعة فى آخر الخلق فى آخر ساعة من ساعات الجمعة فيما بين العصر إلى الليل)[3]

وللعلماء في هذا الحديث رأيان:

الرأي الأول: أنه صحيح السند والمتن ، وقد تكلف هؤلاء فى الإثبات لصحة المتن، فمنهم من تأول ومنهم من قال إن الكلام على المجاز ، ومنهم من قال إن هذه الأيام على ما هى عليه الآن وهى لاتعارض الأيام الأخرى الواردة فى القرآن الكريم[4] .

الرأي الثاني: أن متن الحديث غير صحيح وإن صح سنده،وأن الحديث موقوف وليس موفوعاً وأن الراوى للحديث عن أبى هريرة قد وهم فرفعه إلى الرسول مع أنه من مرويات أبى هريرة عن كعب الأحبار غير مرفوع إلى الرسول ويكفى أن البخارى لم يذكره فى صحيحه بل إنتقده فى تاريخه كما ردّه القرطبى وابن الجوزى وابن كثير

(١) فصلت ٩، ١٠

(٢) راجع كتاب (أيام العرب) محمد أحمد جاد المولى.

(٣) رواه مسلم. ك صفات المنافقين باب ابتداء الخلق وخلق آدم عليه السلام رقم ٢٧٨٩ عبد الباقي.

(٤) كتاب: فى موكب النبيين، ص٢٨ – ٣١.

وابن القيم[1] .

وتبدو مخالفة متن هذا الحديث للنقل والعقل من الجوانب التالية :

١- قصر الأيام السبعة على خلق الأرض وتسويتها على ماهى عليه حتى تصلح لسكنى الإنسان .

٢- مصادمة المتن لنص القرآن الذى صرح بأن الأرض قد خلقت وبورك فيها وقدر فيها الأقوات فى أربعة أيام .

٣- عدم الإشارة إلى خلق السماء فى هذا الحديث .

٤- تحديد الأيام بأسمائها مع أن العلم بهذه المسميات مرتبط بحركة دوران الأرض حول نفسها مرة كل يوم أمام الشمس ولم تكن شمس إذ ذاك .

٥-أغفل الحديث خلق المياه .

٦- توالى مراحل الخلق بين الأرض والإنسان،مع أن القرآن أشار إلى سبق الأرض على الإنسان من حيث الخلق بمراحل،كما ورد فى سورة فصلت.

ويبدو أن حرص المشتغلين بالسنة على عدم ردّ حديث كعب الذى أخرجه مسلم،هو الذى دفعهم إلى تأويل المتن فى محاولة للتبرير بين متن الحديث وبين آيات القرآن التى تعارضه بصورة صريحة والتى نصت على أن خلق السماوات والأرض كان فى ستة أيام[2] .

ثانيا: خلق آدم عليه السلام . وفيه نقاط عدة نذكر منها ...

ا-لم خلق الإنسان ؟ اشتغل بهذا السؤال كثيرون واختلفت الإجابة، ولا يزال هذا السؤال قائما لدى بعض الباحثين وإن لم يهتدوا إلى الإجابة ، من أين؟ إلى أين؟ ولماذا؟

وكان لتفاوت الزمان والمكان والثقافة كبير الأثر فى تفاوت الإجابة، فالفلاسفة

(١) تفسير القرطبى ٣٨٤/٦ بتفصيل، وهامش زاد المسير ٢٤٣/٧ ، وتفسير ابن كثير ٦٩/١ .
(٢) راجع المهموشة رقم (٤). الصفحة السابقة.

يرون ما لايراه غيرهم ، وعلماء الدين يرون ما لا يراه الملاحدة،والعامة لاتهمهم الأسئلة أو الإجابة عليها بقدر ما يهمهم ما يشغلهم في يومهم وغدهم ......إلخ .
والذى يفهم من نص القرآن أن الإنسان خلق لعمارة الأرض والاستخلاف فيها أخذاً من ظاهر النص الشريف ﴿وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إنى أعلم ما لا تعلمون﴾[1] ، وإذا كان الاستخلاف هو من الحكم الظاهرة التي تفهم من ظاهر النص؛ إلا أن الراجح عندي أن من اتصف بصفات الكمال شأنه أن يبدع،فإذا مااتصف بما لاقدرة للإنسان على الإحاطة به فشأنه أن يفعل وأن لا يسأل عما يفعل.

فنحن أحوج ما نكون إلى طلب الإجابة عن هذا السؤال: ماذا أريد منا ؟ لالماذا جئنا إلى هذه الحياة ؟ وقد سألت الملائكة عن الحكمة من خلق هذا النوع وشأنه الإفساد فى الأرض؟ فكانت الإجابة متضمنة وصف الله بالصفات التي لا قبل لهم بها دون أن يذكر الحق لهم الحكمة من الخلق ﴿قال إنى أعلم ما لا تعلمون﴾ وقد خاض المفسرون في بيان ذلك خوضاً كبيراً متكلفين فى غير دليل لما ذكروه[2] وقد ذكر بعض الكتاب أن الله شاء أن يُعرف فخلق الخلق فبه عرفوه معتمدين على الحديث القدسي (كنت كنزاً مخفياً فخلقت الخلق فبي عرفوني)[3] فخلقهم لعبادته ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون * ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون﴾[4] .

كما ذكروا أن الخلق الإنساني مُظهِر لرحمة الله وعفوه وقدرته....[5] وقد نسي هؤلاء أن لله من الخلق ما لا يعلمه إلا هو . وتظهر صفاته لتلك المخلوقات كذلك

---

(١) البقرة ٣٠.
(٢) زاد المسير٦١/١ وجامع البيان ١٦٨/١ وابن كثير ٦٩/١.
(٣) الحديث موضوع . كشف الخفا ١٣٢/٢ ط القدسي.
(٤) الذاريات ٥٦.
(٥) قصص الأنبياء- للثعلبي٣،٢.

فلا تقوى بهذا الحكمة من الخلق كما يرون.

ب- موقف الملائكة من خلق الإنسان:

لقد أخبر الحق الملائكة بإرادته خلق آدم، وحدد بعض المراحل التي سيمر بها أمر الخلق والمهام المنوطة به، قال تعالى ﴿إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من صلصال من حمأ مسنون * فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين﴾[1]. ﴿ وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من صلصال من حمأ مسنون * فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين﴾[2] ﴿وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون﴾[3].

ويبدو من الإجابة (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك .....) أن علما بدا للملائكة بما سيكون من أمر الإنسان من طريق الإلهام أو التوقع أو الفهم الصحيح حين يستخلف القاصر على شئ من ملك الكامل....إلخ.

وقد حمل الاستفهام في الآية الكثير من العلماء على أن يبحثوا في أمر الاستخلاف من ناحية،وحكم الملائكة على الإنسان بالفساد في الأرض من ناحية ثانية،إلى أن يخوضوا في قضايا غيبية لا دليل عليها.

فمنهم من زعم أن آدم قد سبق بأوادم أخرى على نفس الشاكلة وحددوا أزمانها وأعمارها[4]، ومنهم من زعم أن إبليس كان يسكن الأرض قبل الإنسان فأفسد فيها،ومنهم من زعم غير ذلك[5]، إلا أن طلب ذلك ليس من الدين في شئ ولو كان في الذكر فائدة ما أضمره القرآن ، كما أن الآثار التي تدل على وجود خلق على هيئة الإنسان -قبل آدم- قد سكن الأرض غير صحيحة من وجهة نظر دينية لدى اليهود والنصارى والمسلمين.

---

(1) سورة ص ٧١،٧٢.
(2) الحجر ٢٨، ٢٩.
(3) البقرة ٣.
(4) سمط النجوم العوالي ٣٥/١ ، ٣٦.
(5) المرجع السابق ٣٥/١.

خ- أطوار خلق الإنسان:

أشارت نصوص القرآن إلى مظاهر ثلاثة للخلق فى هذه الحياة بالنسبة للإنسان وهى.........

١-خلق الإنسان الأول (آدم عليه السلام) وله كيفية خاصة.

٢-تناسل النوع الإنسانى، وله أطوار خاصة ذكرها القرآن[1].

٣- استثناء من هذين المظهرين (خلق عيسى عليه السلام وفى خلق حواء خلاف) وقصة خلق الإنسان الأول محددة فى القرآن،وقد بلغت الأحاديث بشأنها حداً فى الكثرة فى سائر كتب السنة ، ويمكن بيانها فى ضوء القرآن كما يلى:

أولاً: أشار القرآن إلى العنصر الذى خلق منه الإنسان باعتباره أصل الطين ألا وهو التراب قال تعالى ﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب﴾[2] . ﴿ياأيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنّا خلقناكم من تراب﴾[3] . ﴿قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذى خلقك من تراب﴾[4] . ﴿ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون﴾[5] . ﴿والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجا﴾[6] . ﴿هو الذى خلقكم من تراب ثم من نطفة ثمّ من علقة﴾[7] .

ثانياً: مرحلة الطين : قال تعالى **﴿هو الذى خلقكم من طين ثم أجـلاً وأجل مسمى عنده﴾[8]**

﴿قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين﴾[9]

﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين﴾[10] . ﴿الذى أحسن كل شئ خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين﴾[11] . ﴿إذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشراً من طين﴾[12]

---

(١) المؤمنون ١٣، ١٤ والحج ٥.
(٢) آل عمران ٥٩.
(٣) الحج ٥.
(٤) الكهف ٣٧.
(٥) الروم ٢٠.
(٦) فاطر ١١.
(٧) غافر ٦٧.
(٨) الأنعام ٢.
(٩) الأعراف ١٢، وسورة ص ٧٦.
(١٠) المؤمنون ١٢.
(١١) السجدة ٧.
(١٢) سورة ص ٧١.

﴿فسجدوا إلا إبليس قال أأسجد لمن خلقت طينا﴾[1]

وقد وصف الطين بأنه لازب . قال تعالى:

﴿فاستفتهم أهم أشد خلقاً أم من خلقنا إنّا خلقناهم من طين لازب﴾[2] .

وبأنه من نوع الصلصال[3] . قال تعالى ﴿ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون﴾[4] . ﴿إني خالق بشراً من صلصال من حمأ مسنون﴾[5] . ﴿قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون﴾[6] . ﴿خلق الإنسان من صلصال كالفخار * وخلق الجان من مارج من نار﴾[7]

ومراحل خلق آدم نسبها الله إلى ذاته في عبارة جامعة في القرآن الكريم . قال تعالى ﴿فإذا سويته﴾ وقال تعالى في عتابه لإبليس ﴿ما منعك أن تسجد لما خلقت بيديّ﴾ قال بعض العلماء: لايتأتى كون المراد من اليد هنا القدرة وإلا لاستوت سائر الخلائق مع آدم في هذا الأمر وما كان للتعبير باليد أدنى خصوصية ولأمكن لإبليس أن يقول وأنا أيضاً بقدرتك[8] فكانت الإضافة إلى النفس (سويته) والتعبير باليد (خلقت بيدى) لونا من التخصيص بالتكريم لآدم لم يشاركه فيه غيره.

خامسة: نفخ الروح في آدم ، وهي السر الذي يحيا به الإنسان وإن اختلفت في ماهيتها[9] ، وعطف الحق الأمر بالسجود لآدم على التسوية ونفخ الروح فيه عطف ترتيب وتعقيب، قال تعالى ﴿فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين﴾[10] .

وبهذا تتضح لنا قصة خلق الإنسان الأول، وكل دعوى تخالف ذلك فهي باطلة، قال تعالى ﴿ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم وما كنت

---

(1) الإسراء ٦١.

(2) الصافات ١١ واللازب أى اللزج وقيل الملتصق بعضه ببعض.

(3) طين يابس أصله تراب وحالته بعد التسوية ملساء.

(4) الحِجْر ٢٦.

(5) الحِجْر ٢٨.

(6) الحِجْر ٣٣.

(7) الرحمن ١٤ ،١٥.

(8) روح المعانى ٢٢٥/٢٤، ٢٢٦.

(9) روح المعانى ٣٧/١٤-٤٤.

(10) سورة ص ٧٢.

متخذ المضلين عضداً﴾[1].

وأما السنة فقد فصلت أمر الخلق وكثرت الأحاديث التى ذكرت كيفية قبض التراب من الأرض وأثر ذلك التراب فى لون الإنسان (أحمر -أسود -أبيض-أصفر-.....) وطول آدم وشكله، وما أصابه لحظة دخول الروح فيه، وأول ما نطق به،وصلة بنيه به فى الدنيا، وأثر سلوكه على سلوك أبنائه ، وبخاصة صفتى (الجحود والنسيان) كما حددت اليوم الذى خلق فيه والساعة التى خلق فيها كذلك...[2] . وكثير من هذه الأحاديث بحاجة إلى مراجعة من أهل الاختصاص لأن بعض ما ورد بها يصادم نصوص القرآن فضلاً عن الاضطراب فى بعض الروايات والتعارض بين البعض الآخر وبخاصة ما ورد فى غير الصحيحين من أحاديث.

وأما كتب التاريخ والقصص فقد اشتغل أهلها بجوانب كثيرة وثيقة الصلة بقضية خلق آدم مثل حكمة التسمية ومردها والفترة الزمنية التى بقى فيها آدم بلا روح ..... وهو ما عقدنا له عنواناً خاصاً فى نهاية قصة آدم (قضايا خاض فيها كثيرون لا فائدة من ذكرها) وقد ذكرت الكتب والصفحات الخاصة بتلك القضايا ليرجع إليها من شاء من هواة الترف فى المعرفة والرغبة فى العظة مع حثنا على عدم التسليم أو الاعتبار بها وما كان ذكرها هنا إلا نوعاً من التحذير للمبتدئين[3] . ولتدريب الطلاب على نقد تلك الآثار.

ثالثاً: أمر الملائكة بالسجود لآدم: وهو مظهر من مظاهر التكريم لهذا المخلوق لما ميزه الله به على سائر خلقه . وإذا كان كثيرون قد خاضوا فى أمر السجود بين معناه اللغوى والشرعى[4] فإننا نعلم أن شأن المكلفين قبول التكاليف الشرعية بدءاً ثم معرفة

(١) الكهف ٥١.

(٢) راجع – صحيح مسلم ك صفات المنافقين، باب بدأ الخلق وخلق آدم عليه السلام، ك القدر باب حجاج آدم وموسى عليهما السلام، وسنن الترمذى. أبواب التفسير من سورة البقرة، من سورة الأعراف حديث رقم ٥٠٧١، ٥٠٧٢، ٨٠٧٣ والبخارى ك الأنبياء، أبوداود ك سنة ١٦ ومسند أحمد ٢٥١/١، ٢٩٩، ٣٧١ والبخارى ك الاستئذان ومسلم كتاب البر ١١٥ ومسند أحمد ٢٤٤/٢، ٢٥١، ٣١٥، ٤٦٣، ٥١٩.

(٣) انظر صفحة ٩٩من هذا الكتاب.

(٤) جامع البيان ١٧٧/١، ١٧٨، زاد المسير ٦٤/١-٦٥، تفسير ابن كثير ٧٥/١ وروح =

الحكمة ثانياً فإن بدت فهى زيادة طمأنينة وإن عميت كان التفويض، ألسنا نؤمر بما تبدو الحكمة منه فى كونه لصالح الإنسان فنقبل ﴿حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير﴾[1] وهناك من الأوامر ما هو لون من الابتلاء والفتنة ، ألسنا نؤمر بتكريم حجر وامتهان حجرفى الحج فلا نعترض أو نقول لم؟

إن الأصل أن يقبل الأمر وفق مراد الآمر بلا اعتراض ، وإن جاز السؤال عن حكمة الإخبار بخلق آدم إلا أنه لا يجوز الرفض أو الإنكار ، ولذلك يمكن القول : إن الملائكة أمرت بأن تسجد لآدم من قبل الله فاستجابت وقد ألهمها الله بمراده سواء أكان السجود بمعنى التحية أم الخضوع أم إظهار الفضل له من قبلهمَ (الدلالة اللغوية لكلمة سجد) أم كان السجود بالمعنى الاصطلاحى (وضع الجبهة على الأرض) كل ذلك مما يحتمله المعنى دون تردد من الملائكة أو سؤالهم عن الكيفية مما يدل علىٰ علمهم بمراد الله سبحانه واستجابتهم له مسرعين لأن حرف العطف فى كافة مواطن الذكر كان بالفاء(اسجدوا فسجدوا) .

وقد ظهر من بين الملائكة من كان فى صورة ملك،إلا أن طبعه مختلف من حيث مادة التكوين وكذلك السلوك ، ففى الحديث «خلقت الملائكة من نور وخلق الجان من مارج من نار وخلق آدم مما وصف لكم......»[2]

وللعلماء فى كون إبليس من الملائكة أو ليس منهم رأيان:

الرأي الأول : أنه من الملائكة وإلا لما كان مأموراً بالسجود ولما ترتب على امتناعه عقوبة ولأمكن له أن يحتج، كما أن الاستثناء متصل فى النص القرآنى.

الرأي الثانى: أنه ليس من الملائكة، لاختلافه فى الخلق معهم ولمغايرته لفطرتهم ولكفره مع إصراره على ذلك .....إلخ.

وتفاصيل ذلك وردت فى كثير من كتب المتقدمين والمُحدثين مع ذكر الشواهد

= المعانى للألوسى ١/٢٢٨-٢٢٩.

(١) المائدة ٣.

(٢) الحديث صحيح مسلم. ك الزهد ٦٠ ومسند أحمد ١٥٨/٦، ١٦٨.

والرد عليها[1]) ولقد ذكر الحق هذا الأمر فى مواطن عدة فى القرآن ، قال تعالى ﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى﴾[2] . ﴿ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين﴾[3] . ﴿وإذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشراً من صلصال من حمأ مسنون * فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين * فسجد الملائكة كلهم أجمعون * إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين﴾[4] . ﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس قال أأسجد لمن خلقت طيناً﴾[5] ﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه﴾[6] .﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى * فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك﴾[7] . ﴿فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين * فسجدالملائكة كلهم أجمعون * إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين﴾[8] .

ويبدومن هذه النصوص رجحان كون إبليس – قبل لعنه وطرده– من الملائكة وأنه خوطب معهم وأنهم استجابوا وأعرض هو وقد سأله الحق على سبيل التوبيخ له من ناحية وكشفاً لحقيقته أمام الإنسان من ناحية ثانية ولبيان العقوبة المترتبة على ردّ الأمر على الآمر من ناحية ثالثة . قال تعالى له ﴿قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين﴾[9] . ﴿قال يا إبليس مالك ألا تكون مع الساجدين * قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصل من حمإ مسنون﴾[10] . ﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس قال أأسجد لمن خلقت طيناً﴾[11] ﴿قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدى استكبرت أم كنت من العالين * قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين﴾[12] .

---

(١) جامع البيان ١٧٩/١-١٨١، زاد المسير ٦٥/١، وابن كثير ٧٥/١ وروح المعانى ٢٢٩/١-٢٣١.

(٢) طه ١١٦ .

(٣) الأعراف ١١ .

(٤) الحِجْر ٢٨ – ٣١.

(٥) الإسراء ٦١ .

(٦) الكهف ٥٠.

(٧) طه ١١٦، ١١٧.

(٨) سورة ص ٧٢، ٧٣، ٧٤.

(٩) الأعراف ١٢ .

(١٠) الحِجْر ٣٢، ٣٣.

(١١) الإسراء ٦١ .

(١٢) سورة ص ٧٥، ٧٦.

وتبدو علل الامتناع عن السجود من خلال تلك النصوص متجلية في:

١- كفره وكبره (استكبر وكان من الكافرين).

٢- مقارنته بين طبيعته وطبيعة آدم التكوينية (خلقتني من نار وخلقته من طين).

٣- حقده وحسده على آدم وبنيه ماهم فيه من منزلة (أرأيتك هذا الذي كرمت عليَّ لئن أخرتني إلى يوم القيامة لاحتنكن ذريته إلا قليلا)[1]

وقد ترتب على هذا الأمر طرد إبليس من عالم الملائكة، ومن منزلته ومكانته التي كان عليها، مع إظهار ما فطر عليه من عداء لآدم وبنيه، مع الحكم عليه بالرجم واللعنة إلى يوم الدين.

خلق حواء

لم يقطع القرآن بكيفية خلق حواء وإنما وردت آيات ثلاث تحدثت عن خلق زوج من النفس الأولى وهي قول الحق سبحانه ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا﴾[2] . ﴿هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها فلما تغشاها حملت حملا خفيفاً فمرت به فلما أثقلت دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحا لنكونن من الشاكرين * فلما آتاهما صالحاً جعلا له شركاء فيما آتاهما فتعالى الله عما يشركون﴾[3] . ﴿خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق فى ظلمات ثلاث......﴾[4].

وللعلماء فى الآيات الثلاث آراء تبلغ حداً فى الكثرة وكلها احتمالية ، مما يجعل القطع برأى دون سواه ضرباً من التعصب وانسياقاً مع العقل الجمعي، وبخاصة إذا انتفى الدليل الذى يرجح هذا الرأى على ما سواه من الآراء، نذكر من تلك الآراء ما يلى :

---

(١) الإسراء ٦٢.
(٢) النساء ١.
(٣) الأعراف ١٨٩، ١٩٠.
(٤) الزمر ٦.

١- أن النفس الواحدة هى نفس آدم عليه السلام ومنه خلقت حواء ومنهما خلقت البشرية .

٢- أن النفس البشرية مراد بها النوع الإنسانى فلا تزاوج بين الإنسان والحيوان.

٣- أن آدم وحواء خلقا من طينة واحدة خلق منها آدم أولاً وحواء ثانياً.

٤- أن النفس الواحدة هى الحيوان المنوى الذى يخصب البويضة ويكون الخطاب قاصراً على النوع الإنسانى .

وهناك آراء أخرى للعلماء فى المراد من النفس الواحدة[1]

وللعلماء فى المراد من الزوج آراء عدة نذكر منها :

١- أنها حواء خلقت من ضلع آدم من الجانب الأيسر وهو المشهور عند العلماء

٢- أنها حواء خلقت من بقية من الطينة التى خلق منها آدم

٣- لا يتأتى كون(مِنْ)هنا للتبعيض وإنما هى لابتداء الغاية كما وردت فى آيات أخرى فى القرآن وإلا لتزوج الإنسان بعضه، وهو مستهجن ، يقول أبو مسلم الأصفهانى : إن المراد من «وخلق منها زوجها» أى من جنسها وهو قوله تعالى ﴿والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا﴾[2] وقوله ﴿إذ بعث فيهم رسولاً من

(١) يقول الأستاذ الإمام: ليس المراد بالنفس الواحدة آدم بالنص ولابالظاهر فمن المفسرين من يقول: إن كل نداء مثل هذا يراد به أهل مكة أو قريش فإذا صح هذا هنا جاز أن يفهم منه بنو قريش أن النفس الواحدة هى قريش أو عدنان وإذا كان الخطاب للعرب عامة جاز أن يفهموا منه أن المراد بالنفس الواحدة يعرب أو قحطان، وإذا قلنا إن الخطاب لجميع أهل الدعوة إلى الإسلام أى لجميع الأمم فلاشك أن كل أمة تفهم منه ماتعتقده.... والقرينة على أنه ليس المراد هنا بالنفس الواحدة آدم قوله (وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء) بالتنكير، وكان المناسب على هذا الوجه أن يقول: وبث منهما جميع الرجال والنساء وكيف ينص على نفس معهودة والخطاب عام لجميع الشعوب وهذا العهد ليس معروفاً عند جميعهم فمن الناس من لايعرفون آدم ولاحواء ولايسمعوَن بهما.... لقد أبهم الله هنا أمر النفس التى خلق منها الناس وجاء بها نكرة فندعها على إبهامها... المنار ٣٢٣/٤ بتصرف ويرى الشيخ رشيد رضا أن المراد بالنفس الواحدة - بصرف النظر عن المسلمات - الماهية أو الحقيقة التى كان الإنسان بها إنساناً تميز بها على غيره من الكائنات.... ٣٢٧/٤.

(٢) النحل ٧٢.

أنفسهم﴾[1] وقوله ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم﴾[2] قال القاضي: والقول الأول أقوى لكى يصح قوله ﴿خلقكم من نفس واحدة﴾ إذ لو كانت حواء مخلوقة ابتداءً لكان الناس مخلوقين من نفسين لا من نفس واحدة، ويمكن أن يجاب عنه بأن كلمة (مِنْ) لابتداء الغاية فلما كان ابتداء التخليق والايجاد وقع بآدم عليه السلام صح أن يقال خلقكم من نفس واحدة ، وأيضاً فلما ثبت أنه تعالى قادر على خلق آدم من التراب، كان قادراً على خلق حواء من التراب وإذا كان الأمر كذلك فأى فائدة فى خلقها من ضلع من أضلاع آدم[3]

وإذا جازت تلك الآراء فى الآية الأولى والثالثة من الآيات السابقة – محل الذكر– فإنه لا يستقيم بأى حال من الأحوال أن يكون الحديث فى الآية الثانية مراداً به آدم وحواء وإن رأى البعض ذلك، وقد فصل البعض بين الحديث فى صدر الآية وخاتمتها، قائلين إن صدر الآية مراد به آدم وحواء، والخاتمة مراد بها أولادهما، وقد دفعهم إلى هذا الفصل انتهاء الآيات ببيان حال المتحدث عنهما وتصريح تلك الآيات بكفرهما وشركهما، ومن العلماء من يرى أن الخطاب لأهل مكة خاصة دون سواهم. ويرى علماء الطب أن الآية لا تخص آدم ولا حواء بل تخص سائر النوع الإنسانى باستثناء آدم وحواء وعيسى –عليهم السلام– وبذلك أصبحنا أمام أربعة آراء، يبطل معها القطع بأن المراد بالنفس الواحدة هى نفس آدم وجَعْل الزَّوْج المراد به حواء ويمكن إيضاح معنى الآية وفق هذه الآراء كما يلى :

الرأي الأول: يرى أن الحديث فى الآيات خاص بآدم وحواء، وأن الشرك قد وقع منهما بغواية الشيطان، ويستشهدون لذلك بآثار وردت فى كتب السنة، ويكون معنى الآية على هذا الرأى كما يلى ﴿هو الذى خلقكم﴾ الخطاب لكل من يتأتى له الخطاب من بنى الإنسان ﴿من نفس واحدة﴾ هى نفس آدم ﴿وجعل منها زوجها﴾ حواء وخلقت من ضلع آدم من الجانب الأيسر بعد أن ألقى عليه النوم ﴿ليسكن إليها﴾ بيان لعلة الخلق ﴿فلما تغشاها﴾ أى التقى بها لقاء الزوج بزوجته معاشراً إياها (حملت

---

(1) آل عمران ١٦٤.
(2) التوبة ١٠٨.
(3) مفاتيح الغيب ١٦٠/٩ – ١٦١.

حملاً خفيفاً فمرت به فلما أثقلت) أى زاد الحمل وتقدمت الشهور وقرب المخاض (دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحاً لنكونن من الشاكرين) الحديث خاص بآدم وحواء.
عن سمرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: لما حملت حواء طاف بها إبليس وكان لا يعيش لها ولد فقال سميه عبد الحارث فسمته عبد الحارث فعاش وكان ذلك من وحى الشيطان وأمره (رواه الترمذى)[1]

يقول أصحاب هذا الرأى: إن آدم وحواء كانا كلما ولد لهما ولد مات من وخز الشيطان إياه فلما ضاقا بذلك ذرعاً أتاهما الشيطان وكان اسمه «الحارث فقال لهما إن أردتما أن يحيى لكما ولد فانسباه إلىّ بالعبودية حتى لا يموت، فلما ولدت أسمياه (عبد الحارث) وهو معنى قوله **﴿فلما آتاهما صالحاً جعلا له شركاء فيما آتاهما فتعالى الله عما يشركون * أيشركون ما لا يخلق شيئاً وهم يخلقون﴾**[2] آدم وحواء وإبليس أو الشيطان .

وهذا الرأى مذكور فى كتب كثير من المفسرين[3] ومنهم من عقب على القصة بالرد[4] ومنهم من برر ذلك والتمس له علة شرعية[5] ويبدوا على هذه القصة سمة الوضع للأسباب التالية:

١- دعوى وفاة سائر ولد آدم قبل (عبد الحارث) هذه دعوى بلا دليل

٢- نسبة الإحياء والإماتة إلى الشيطان تصادم نصوص القرآن والسنة

٣- قدرة الشيطان على الإحياء والإماتة بحسب الاتفاق بينه وبين أبوى المولود

٤- إشراك آدم وحواء بالله مع أنه قد نال مرتبة النبوة بعد الخروج من الجنة على الراجح .

---

(١) متن الترمذى ٣٣٢/٤ رقم الحديث ٥٠٧٣ وقال فيه حديث حسن غريب لانعرفه إلا من حديث عمر بن إبراهيم ورواه بعضهم عن عبد الصمد ولم يرفعه.

(٢) الأعراف ١٩٠، ١٩١.

(٣) جامع البيان ٩٨/٩-١٠١ وابن كثير ٢٧٤/٢-٢٧٦ والجامع لأحكام القرآن ٣٣٧/٧-٣٤١.

(٤) المراجع السابقة.

(٥) المراجع السابقة.

الراي الثاني: أن صدر الآيات مراد به آدم وحواء ﴿خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها﴾ وأن تمام الآيات مراد به سائر ولد آدم،وهو من باب الإلتفات من صيغ الخطاب إلى الغيبة،لبيان حال النوع الإنساني الذى قابل أكثره نعمة الخلق بالشرك والكفر عبر التاريخ، وذلك بنسيان الخالق ونسبة الخلق إلى غيره وهو من باب التحذير من سلوك هذا المسلك من أناس جانبوا الصواب،ويكون السياق مراداً به العموم هنا للنوع الإنساني.

الراي الثالث: أن الخطاب هنا لقريش،وأن الحديث يتعلق بتبكيتهم وذمهم على كفرهم بنعمة الله عليهم فى الأولى،حيث جعلهم من أصل هو إسماعيل أو يعرب أو قحطان،وقيل قريشاً وقد استشهد أصحاب هذا الرأى بسياق الآيات بعد ذلك والتى تحدثت عن اتخاذ آلهة من دون الله،وانتقدت قريشاً على عبوديتها لتلك الآلهة وكشفت النقاب عن زيفها ﴿أيشركون ما لا يخلق شيئاً وهم يُخلَقون * ولايستطيعون لهم نصراً ولا أنفسهم ينصرون * وإن تدعوهم إلى الهدى لا يتبعوكم سواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون * إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين * ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم آذان يسمعون بها قل ادعوا شركاءكم ثم كيدونى فلا تنظرون﴾[1]

الراي الرابع: أن الخطاب لسائر النوع الإنسانى- باستثناء آدم وحواء وعيسى- وأن المراد من النفس الواحدة فى الآية (الحيوان المنوى) ومن الزوج (هى البويضة) ويكون المعنى على رأى هؤلاء: إن الغالب فى التوالد أن يلقح حيوان منوى بويضة أنثى إذا شاء الله أن يكون الحمل، علا الحيوان البويضة ولصغر حجمه بالنسبة لها فهى تسبح به فى الأيام الأولى داخل الرحم حتى إذا سكنت واستقرت (فلما أثقلت) وشعرت أو تأكدت المرأة من أمر الحمل أخبرت زوجها فيتوجه الاثنان معاً إلى الله داعِيَيْن أن يكون المحمول قرة عين لهما،فإذا ما رزقا الولد حسب ما يريدان نسيا المنعم وجحدا النعمة وشكرا غير الله وأشركا معه غيره ، وبذلك صارت دلالة (النفس) غير

---

(١) الأعراف الآيات من ١٩١ إلى ١٩٥.

قطعية على آدم وكذلك دلالة (زوجها) على حواء.

السنة وخلق حواء

وردت بعض الأحاديث فى كتب السنة تتحدث عن أثر المرأة فى غواية الرجل، وتشير إلى طبيعة المرأة التكوينية، من حيث العوج ونقصان العقل والدين، وأنه لا إمكانية لتقويمها فى بعض الروايات، كما أشارت بعض الأحاديث إلى مصدر خلق المرأة ، ومن هذه الأحاديث ما يلي:

(أ) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (استوصوا بالنساء فإن المرأة خلقت من ضُلَع وإن أعوج شيء فى الضُلَع أعلاه فإن ذهبت تقيمه كسرته وإن تركته لم يزل أعوج)[1]

(ب) عن أبى هريرة عن النبى -صلى الله عليه وسلم- قال: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فإذا شهد أمراً فليتكلم بخير أوليسكت واستوصوا بالنساء فإن المرأة خلقت من ضُلَع وإن أعوج شيء فى الضُلَع أعلاه إن ذهبت تقيمه كسرته وإن تركته لم يزل أعوج...)[2]

(ج) عن أبى هريرة قال :قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إن المرأة كالضلع إذا ذهبت تقيمها كسرتها وإن تركتها استمتعت بها وفيها عوج)[3].

(ء) عن أبى هريرة قال : قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-إن المرأة خلقت من ضلع، لن تستقيم لك على طريقة،فإن استمتعت بها استمتعت وبها عوج وإن ذهبت تقيمها كسرتها وكسرها طلاقها)[4]

(هـ) عن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم- قال من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذى جاره واستوصوا بالنساء خيراً فإنهن خلقن من ضلع وإن أعوج شيء فى الضلع أعلاه فإن ذهبت تقيمه كسرته وإن تركته

(١) البخارى ك الأنبياء ١، ك النكاح ٨٠ وابن ماجه. ك الطهارة ٧٧ ومسند أحمد ٨/٥.
(٢) صحيح مسلم . ك الرضاع باب الوصية بالنساء.
(٣) صحيح مسلم. ك الرضاع. باب استوصوا بالنساء خيراً.
(٤) المرجع السابق والصفحة.

لم يزل أعوج فاستوصوا بالنساء خيراً)[1]

وللعلماء في الخلق من الضلع الأعوج آراء منها :

١- أن الكلام على الحقيقة وأن حواء خلقت من ضلع آدم بعد أن ألقى الله النوم عليه أخذ ضلعاً من أضلاعه وسواه امرأة، وهو رأى الجمهور من المفسرين والنقل فيه عن الكتاب المقدس واضح سواء أدرك أصحاب هذا الرأى الأمر أم لم يدركوه (تكوين صح٢/٢١:٢٥).

٢- أن الكلام على سبيل الاستعارة وأن الضلع هنا عبر به عن العوج في الخلق (أى خلقن خلقاً فيه اعوجاج فكأنهن خلقن من أصل معوج)[2]

٣- أن ذلك من باب ضرب المثل لأعلى المرأة (لأن أعلاها رأسها وفيه لسانها وهو الذى يحصل منه الأذى)[3].

٤- أنه إشارة إلى الطبيعة التكوينية للنساء، وهى تغليب الفطرة على العقل، فهو حث للرجال على مخاطبة الفطرة والغرائز، قبل مخاطبة العقل، ودعوة للرجال للصبر على عوج النساء وليس فى الكلام شيء من الحقيقة.

ومن هنا تكون دلالة الرأى الأول من الحديث غير قطعية، فإن سلمنا بأنه المراد وحده من النص - جدلاً - فذلك لا يعنى نقصان حواء ولا امتهانها ولا كون الرجل أفضل منها لأن الحق يسوى من يشاء مما يشاء وينزله كيف يشاء، وقد كثرت النصوص فى القرآن والتى تؤكد على منزلة النوعين من ناحية، وكون المرأة مظهراً من مظاهر نعم الله على الرجال، فضلاً عن التسوية بينهما فى التكاليف والثواب والعقاب وسائر الحقوق والواجبات ،وكل إسقاط عن المرأة فى جانب التكاليف -أو إرجاء- فهو من باب التخفيف عليها من ناحية، مراعاة لطبيعتها التكوينية ولظروفها الاجتماعية كإسقاط وجوب الجمعة والجماعة والجهاد ، مع إعطائها استقلالية ذاتية بمثل ما يعطى الرجل، وما القوامة إلا لتحميل الرجل دوره تجاه المرأة فى الرعاية

---

(١) عون البارى ٥/٥٧٦.

(٢) عون البارى ٥/٥٧٦.

(٣) عون البارى ٥/٥٧٦ نقلاً عن فتح البارى.

والعناية، ودرء الأذى، ورد عادية المعتدى، حتى إنه ليقتل نفسه دفاعاً عنها فينال الشهادة **﴿ من قتل دون دينه فهو شهيد ومن قتل دون أهله فهو شهيد ومن قتل دون عرضه فهو شهيد ومن قتل دون ماله فهو شهيد ﴾**(١)

سكنى آدم وحواء الجنة :

بعد خلق آدم – عليه السلام– وخلق حواء أسكنهما الله بقعة مباركة فيها ... ما لذ وطاب، من الأطعمة والأشربة، وأمرهما بالإقامة فيها، وصرح لهما بأن يأكلا مما يشاءا فيها إلا شجرة معينة حددها لهما، دون أن يذكر القرآن اسمها أو يرد في السنة شيء صحيح يدل عليها قال تعالى **﴿وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين﴾**(٢) .

﴿ ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولاتقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين﴾(٣) .

كما كرم آدم فيها بوعد الحق **﴿إن لك ألا تجوع فيها ولاتعرى * وأنت لاتظمأ فيها ولاتضحى﴾**(٤)، وللعلماء فى المراد من الجنة آراء منها :

١– أنها جنة الآخرة التى وعد بها المتقون ودليل أصحاب هذا الرأى مايلى :

أ– الأصل فى الكلام الحقيقية، ولايصرفه عنها إلا قرينة مانعة من إرادة المعنى الحقيقى، وقد أمره الله بسكنى الجنة، ولاقرينة فى النصوص تمنع من ذلك.

ب– فى حديث الشفاعة، يسأل الناس آدم أن يشفع لهم عند ربهم، وأن يستفتح لهم أبواب الجنة فيقول لهم (وهل أخرجكم من الجنة إلا خطيئة أبيكم آدم)(٥) .

---

(١) الحديث. البخارى ك المظالم ٣٣ ومسلم ك الإيمان ٢٦٦ ومسند أحمد ٧٩/١، ١٧٨، ١٨٨، ١٨٩.

(٢) البقرة ٣٥. (٣) الأعراف ١٩.

(٤) طه ١١٨، ١١٩.

(٥) الحديث، صحيح مسلم ك الإيمان ص١٢٤/١ ط دار المعرفة بيروت.

جـ- الأمر بالهبوط يدل على أنها جنة الآخرة ذات المرتبة العالية إلى درجة أدنى منها بكثير وهى سكنى الأرض.

د- الصفات المتعلقة بها تدل على كونها جنة الأخرة (نفى الجوع- العرى- الظمأ- حر الشمس).

هـ- فى حجاج موسى لآدم كما فى البخارى، قال موسى له: أنت الذى خلقك الله بيده،وأسجد لك ملائكته،كنت سبباً فى إخراج أولادك من الجنة، فقال له آدم ياموسى أنت الذى اصطفاك الله برسالته وبكلامه أتلومنى على أمر كتبه الله علىّ قبل أن يخلقنى أو قدّره علىّ قبل أن يخلقنى،قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم- فحج آدم موسى[1].

ولهذا الرأى ذكر فى كتب المتقدمين والمتأخرين[2].

٢- أنها بقعة مباركة من هذه الأرض وأن كلمة (الجنة) مراد بها المعنى اللغوى عند العرب (البستان الكثيف الشجر الملتف الأغصان به ماء عذب) وقد كثر ذلك فى القرآن الكريم[3]. ولغة العرب وشعرهم وأدلة هؤلاء مايلى :

أ- أن الصفات التى وصفت بها جنة الآخرة هى بمثابة قرينة مانعة من كونها المرادة فى الآية فلقد وصف الحق سبحانه جنة الآخرة بأنها دار الخلد[4] ودار السلام[5] ودار المقامة[6] والنعيم[7] وأن من دخلها لايخرج منها ولايصاب بتعب ﴿لايمسهم فيها نصب وماهم منها بمخرجين﴾[8] والحياة فيها آمنة هادئة ﴿لايسمعون فيها لغوا ولاتأثيماً * إلا قيلا سلاماً سلاماً﴾[9] وأنها محرمة على المشركين ورأسهم إبليس ﴿إن الذين كفروا لاتفتح لهم

---

(١) الحديث. البخارى ك التوحيد ٣٧، ١٩، ك الأنبياء ٣ ومسلم ك الإيمان ٣٢٢ والقدر ١٥.
(٢) راجع: روح المعانى ٢٢٣/١ وابن كثير ٧٨/١ والقرطبى ٣٠٢/١، ٣٠٣.
(٣) البقرة ٢٦٥، ٢٦٦، الإسراء ٩١ والفرقان ٨ والقلم ١٧ والكهف ٣٢، ٣٥، ٣٩، ٤٠ سبأ ١٥، ١٦ الرعد ٤.
(٤) الأعراف ٤٢ ويونس ٢٣.
(٥) الأنعام ١٢٧.
(٦) فاطر ٣٥ وفصلت ٢٨.
(٧) المائدة ٦٥ والتوبة ٢١ ويونس ٩.
(٨) الحجر ٤٨.
(٩) الواقعة ٢٥، ٢٦.

أبواب السماء ولايدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط...﴾[1]
وإبليس قد دخل هذه الجنة ووسوس فيها لآدم، كما أن انتفاء التكاليف فى الجنة ثابت بنصوص القرآن والسنة، وآدم قد كلف فى هذه الجنة، ومن دخلها كتب له البقاء إلى أن يشاء الله ﴿وأما الذين سعدوا ففى الجنة خالدين فيها مادامت السماوات والأرض إلاّ ماشاء ربك عطاءً غير مجذوذ﴾[2] وآدم قد خرج مما كان فيه.

هذه الصفات المتعلقة بجنة الآخرة تبطل كون الجنة التى سكنها آدم جنة الآخرة.

ب- إن الأمر بالهبوط لايدل علّى الخروج من الجنة بل إنه يحتمل المكانة والمنزلة أو الهبوط من ذلك المكان العالى إلى غيره كما أنه يحتمل الهبوط المعنوى دون الحسى أو هما معاً.

جـ- الصفات الواردة فى سورة طه (نفى الجوع - نفى العطش والعرى، نفى الحر والأذى...) يتأتى توافرها فى حياة القصور والجنان الدنيوية.

د- مما يرجح كونها بستاناً فى الأرض: دخول إبليس فيها، ووسوسته لآدم وزوجه وإصابة آدم وزوجه فيها بالتعب والنصب والتجرد والوصف بالمعصية....[3] .

٣- أنها جنة سوى جنة المأوى اخترعها - الله - لآدم وحواء.

٤- التوقف فى أمرها وتفويض علم ذلك إلى الله تعالى[4] .

خطأ وجب ان يصحح...

اشتغل بعض المؤلفين بالبحث عن كيفية دخول إبليس إلى آدم وزوجه فى الجنة - الخلد كما يرونها- فذهبوا مذاهب شتى منها...

١- إن إبليس حين أراد أن يوسوس لآدم وتعذر عليه دخول الجنة لوجود خازن

---

(١) الأعراف ٤٠.   (٢) هود ١٠٨.
(٣) الجامع لأحكام القرآن ٣٠٢/١ - ٣٠٣.
(٤) قصص الأنبياء - النجار ٢٥.

على بابها،اتفق مع الحية على أن تستره بفمها تحت لسانها ففعلت ثم ألقت به فى الجنة،فأخذ تفاحة وأعطاها لحواء فأكلت منها ثم أعطت آدم فأكل... ولذلك عاقب الله الحية بعقوبات عدة منها،اشق لسانها وقطع أرجلها وأجنحتها،وجَعَل سيّرهَا على بطنها،وغرس العداء بينها وبين الإنسان، هى تلدغ عقبه وهو يسحق رأسها وجعل طعامها من الطين... إلخ.

كما عاقب المرأة بعقوبات عدة منها : ابتلاؤها بالحيض والولادة وإسقاط الجمعة والجماعة والجهاد وجعل الرجل يعلوها ولاتعلوه...[1] .

وهذا الكلام غير صحيح لامن ناحية الشرع،ولامن ناحية العقل،وما أسقط الله بعض الأشياء عن المرأة،إلا تخفيفاً وتكريماً،لا امتهاناً أو عقوبة،كما أن الصفات الملحقة بالحية تنطبق على كثير من الزواحف كلاً أو بعضاً،وبعضها غير صحيح بالمرة والقصة أغلبها مأخوذ عن التوراة.

٢- أن إبليس ظل على باب الجنة فترة من الزمن،يسبح بصوت شجىّ حتى تأثرت به الطيور بداخلها وكان أشدها تأثيراً الطاووس والحية (كانت فى صورة طائر) وقد اتفق مع الطاووس -من قصة طويلة- على أن يمكنه من دخول الجنة حتى لايَرَاهُ الخزنة مقابل تعليمه له اسم الله الأعظم ففعل[2] وهذه القصة من نسج الخيال والعجب ممن يذكرونها فى أمهات الكتب ولايعقبون عليها بخير ولاشر، والتسليم بأن آدم كان فى جنة على ظهر هذه الأرض (بالمعنى اللغوى) ينفى طلب السبيل المؤدى إلى الوسوسة ويكون وقوعها من جنس الوساوس التى تصيب أى إنسان من بنى آدم كما أن وجود إبليس فيها لايفتقر إلى حيلة.

هل كلف آدم فى الجنة

يرى بعض العلماء أن قول الحق لآدم وزوجه ﴿اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا

(١) قصص الأنبياء. للثعلبى ٣، ٤ وسمط النجوم العوالى ٣٠/١، ٥٠-٥٣، تاريخ الأمم والملوك ١٠٧/١-١١١.

(٢) سمط النجوم العوالى ٥٠/١-٥٣.

من حيث شئتما ولاتقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين﴾[1] هو لون من التكليف واستشهد البعض به على نبوة آدم عليه السلام[2] لأن التكاليف الشرعية لاتخرج عن كونها أوامر ونواهي –وإن تفاوتت مراتبها– بينما يرى آخرون أن الأمر والنهى هنا هما لونان من ألوان التربية للنفس الإنسانية،حيث الإباحة أولا والحظر ثانياً،مع بيان العقوبة المترتبة على السلوك[3]، وقد رُدّ ذلك الرأى بحجة أن الأمر والنهى لو لم يكونا من التكليف لما عوقب آدم –عليه السلام– وماوصف بالمعصية.

الوسوسة في ضوء القرآن

صرح القرآن بأن الحق أخبر آدم بعداوة إبليس له،وحذره من اتباع تعاليمه أوسماع كلامه،بعد أن طرد من منزلته ولعن من خالقه وتوعد آدم وذريته بالغواية. فخاطب الله آدم بقوله ﴿... إن هذا عدو لك ولزوجك فلايخرجنكما من الجنة فتشقى﴾ ويفهم من النص تنبيه آدم إلى حرص الشيطان على إخراجه من الجنة، وهو ماكان فعلاً.

لقد ذكر القرآن الوسوسة لآدم فى آيتين:

الأولى: تدل على كونها وقعت لآدم وحده، قال تعالى ﴿فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لايبلى﴾[4].

الثانية: تدل على كونها وقعت لآدم وحواء معاً، قال تعالى ﴿فوسوس لهما الشيطان ليبدى لهما ماوُورى عنهما من سوآتهما﴾[5].

وهنا تبدو المسئولية فى الخطأ مشتركة مع تحمل آدم القسط الأكبر منها ﴿وعصى آدم ربه فغوى﴾[6] ﴿ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزما﴾[7].

وظاهر النصين يبطل الأمور التالية :

---

(١) الأعراف ١٩.
(٢) قصص الأنبياء. النجار ص٢٧.
(٣) الشيخ شعراوى. خواطره فى تفسير القرآن.
(٤) طه ١٢٠.
(٥) الأعراف ٢٠.
(٦) طه ١٢١.
(٧) طه ١١٥.

١- أن المرأة هي سبب إخراج آدم من الجنة،كما أنها سبب المصائب عبر التاريخ، حتى رسخ ذلك في ذهن العامة وأنصاف المتعلمين، ووضعت بعض الأحاديث التي تنتقص من قدر المرأة كما وردت بعض الأحاديث في الكتب الستة كحديث (لولا حواء لم تخن امرأة زوجها ولولا بنو إسرائيل مافسد لحم)[1] وكلها بحاجة إلى دراسة وبيان من ناحيتي السند والمتن والحقيقة والمجاز.... إلخ.

٢- أن الحيل التي اعتمد عليها إبليس من أجل الوصول إليهما باطلة،أخذا بظاهر النصوص الواردة في القرآن ذات الصلة بموضوع الوسوسة.

٣- استواء المرأة مع الرجل في التكاليف منذ كانت ﴿فكلا من حيث شئتما ولاتقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين﴾[2] وفي الثواب والعقاب ﴿فأكلا منها فبدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين﴾[3] والتوبة والمغفرة ﴿قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين﴾[4].

عاقبة المعصية

تدل نصوص القرآن على أن المعصية،تكسب صاحبها الكثير من المخازي، وتخرجه من دائرة الحمد والثناء إلى دوائر أخرى -إن لم يتب- فإذا ما أصر الإنسان على المعصية،ساء حاله وفسد مآله،بمثل ماكان من أمر إبليس عليه اللعنة، وأما إذا أقلع عن المعصية وندم على مافعل،ستره ربه وأنزله منزلاً يرضى عنه،وإن كانت للمعصية حين الوقوع تؤثر على صاحبها،بمثل ما أثرت المعصية على آدم وحواء عليهما السلام بدءاً ﴿فأكلا منها فبدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة....﴾[5]. ﴿فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة﴾[6]، وبذلك انتهت فترة الترف،وبدأت حياة الجد والعرق،من أجل طلب العيش وفي القصة

---

(١) البخاري ك الأنبياء ١، ٢٥ ومسلم ك الرضاع ٦٤، ٦٥.

(٢) الأعراف ١٩.
(٣) الأعراف ٢٢.

(٤) الأعراف ٢٣.
(٥) طه ١٢١.

(٦) الأعراف ٢٢.

عبرة وعظة لكل من سولت له نفسه المعصية أو هَمَّ باقترافها.

كيف وقع آدم في المعصية ؟

لقد سلك الشيطان سبلاً عدة لغواية آدم منها....

أ- مخاطبة غريزة حب البقاء، وما من نفس بشرية إلا وهي تؤثر البقاء على العدم، ولذلك كان التوالد، كلون من ألوان البقاء الحكمي على ظهر هذه الأرض - إذا مااستثنيا الشواذ- قال تعالى **﴿فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لايبلى﴾**[1] .

ب- مخاطبة غريزة حب التملك (وملك لايبلى).

ج- التعبير بأساليب التوكيد المتعددة (القسم - إن - اسمية الجملة- لام التوكيد....).

د- النصوص لاتنفى وجود مغريات أخرى، ولاتثبت وإنما ذكرت قوله تعالى **﴿فدلاهما بغرور﴾** فمنه ماذكر ومنه مالم يذكر وقد يكون الذكر لجملة ماكان.

لهذه الأسباب، مع نسيان آدم الأمر الصادر إليه وقع فى المحظور، قال تعالى **﴿ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزما﴾**[2] .

ونسيان آدم ووقوعه فى المحظور هو الذى جعل كثيرين يطرحون هذا السؤال: كيف يعصى آدم عليه السلام؟

وقد تفاوتت الإجابة، فمن العلماء من يرى آدم قد تأول، حيث ترك الشجرة المنهى عنها وأكل من جنسها، ومن العلماء من يرى ذلك قبل النبوة وكان الوصف بالمعصية لمخالفة الأمر الصادر إليه لالتشريع كلف به، ومن العلماء من يرى ذلك من باب جواز وقوع الصغائر من الأنبياء دون الكبائر قبل النبوة وبعدها[3]، ورتبته هى التى جعلت الصغيرة منه توصف بالمعصية فى حقه وفى حق غيره بـ(اللمم). إلا أن

---

(1) طه ١٢٠. (2) طه ١١٥.

(3) النجار - قصص الأنبياء ٢٧، ٢٨.

نصوص القرآن تصرح بأمور منها:

أ- الغواية   ب- النسيان   ج- عدم العزم على المعصية أو العود إليها

وإذا كانت المعصية مع النسيان معفواً عنها،فإنها من الأنبياء محل مؤاخذة لمكانتهم ومنزلتهم وطبيعة مهمتهم.

وقد ورد فى الصحيح عن أبى هريرة عن النبى -صلى الله عليه وسلم- قال: حاج موسى آدم، فقال له أنت الذى أخرجت الناس من الجنة بذنبك وأشقيتهم قال: قال آدم ياموسى أنت الذى اصطفاك الله برسالته وبكلامه أتلومنى على أمر كتبه الله علىّ قبل أن يخلقنى أو قدره علىّ قبل أن يخلقنى، قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فحجّ آدم موسى[1] ، وفى رواية أخرى (قبل أن يخلقنى بأربعين عاماً. فحج آدم موسى أى غلبه).

توبة آدم عليه السلام

صرح القرآن الكريم بتوبة آدم عليه السلام. قال تعالى ﴿فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم﴾[2] ويرى بعض العلماء أن هذه الكلمات هى المذكورة فى قول الحق عنهما ﴿قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين﴾[3] ولم تشر النصوص إلى توبة حواء،لأنها لم تصفها بالمعصية فى سائر نصوص القرآن،بمثل ماوصف آدم بها،ولذلك أضمرت توبتها فى السياق، كما أضمرت المعصية،وخصص آدم بالمعصية بحكم النبوة والقوامة والمسئولية الاجتماعية فخصص بالنص على توبته قال تعالى ﴿وعصى آدم ربه فغوى * ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى﴾[4] .

ويرى بعض العلماء أن الكلمات التى قالها آدم غير ماورد فى النص القرآنى،وقد أكثروا فى بيانها[5] فى تفاصيل لافائدة من ذكرها.

---

(١) صحيح البخارى ك القدر ١١، ك الأنبياء ٣١.
(٢) البقرة ٣٧.   (٣) الأعراف ٢٣.
(٤) طه ١٢١، ١٢٢.   (٥) راجع صفحة ١٠٠من هذا الكتاب.

بعد توبة آدم عليه السلام ذكر القرآن صدور الأمر الإلهى ثلاث مرات بالهبوط من الجنة أو المنزلة والعيش أو هما معاً، من جنة فى السماء إلى الأرض كما يتضح من الآيات التالية...

﴿قلنا اهبطوا منها جميعاً فإما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولاهم يحزنون﴾[1].

﴿قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين * قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون﴾[2].

﴿فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين﴾[3].

وقد اختلف العلماء فيمن وجه إليهم الخطاب فى النصوص السابقة فقيل:

١- الخطاب لإبليس وآدم وحواء وبينهما تكون العداوة.

٢- الخطاب إلى آدم وحواء والعداوة بين ذريتهما ستكون.

٣- الخطاب إلى آدم وحواء وإبليس والعداوة ستكون بينهم وبين ذرياتهم وهناك آراء أخرى[4].

والرأى الثانى دلالته احتمالية،لأن نصوص القرآن قد صرحت بأن تنوع البشر واختلافهم مظهر من مظاهر القدرة الإلهية،إلا أنه ليس سبيلاً للخلاف أو العداء أو القطيعة بل هو من دواعيها، قال تعالى ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم...﴾ كما أن دلالة المفهوم من أساليب النداء فى القرآن (يابنى آدم) الإيحاء بالأخوة الإنسانية التى تتطلب عدم الصراع أو الشقاق.. إلخ.

---

(١) البقرة ٣٨. (٢) الأعراف ٢٤.

(٣) البقرة ٣٦.

(٤) راجع زاد المسير ٦٩/١، جامع البيان ٣١٨/١-٣١٩، روح المعانى ٢٣٦/١.

وأما الرأى الأول ففيه تخصيص بدون مخصص، والرأى الثالث راجح لتوافر الأدلة عليه فى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

نبوة آدم عليه السلام

اختلف العلماء فى نبوة آدم-عليه السلام-فمن العلماء من يرى عدم ثبوت نبوة آدم-عليه السلام-بأدلة يطمئن إليها القلب والعقل[1] -كما يزعمون- ومن العلماء من يرى نبوة آدم-عليه السلام-وهو رأى جمهور العلماء وقد ثبتت لهم نبوته من طريقين :

الطريق الأول : دلالته احتمالية وذلك بالاستنباط من معانى النصوص القرآنية. قال تعالى ﴿ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى﴾ [2] والاجتباء هو الاصطفاء للنبوة والرسالة، وبعد الحديث عن كثير من الأنبياء فى سورة البقرة قال تعالى ﴿تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله...﴾[3] إشارة إلى السابق ذكرهم قبل تلك الآية، كما أن التعليم دليل النبوة قال تعالى ﴿وعلم آدم الأسماء كلها... قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السموات والأرض...﴾[4] والأمر والنهى بعد سكنى الجنة يدل على النبوة،وفسر البعض قوله تعالى (منهم من كلم الله) بأن المراد بهم آدم وموسى والنبى محمد عليه السلام.

وقال تعالى ﴿إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين﴾[5].

يقول الشيخ النجار «إن القرآن لم يذكر لفظة النبوة بإزاء آدم،كما ذكر ذلك بإزاء غيره من الأنبياء،كاسماعيل وإبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم،ولكن ذكر أنه خاطبه بلاواسطة،وشرع له فى ذلك الخطاب،فأمره ونهاه وأحل له وحرم عليه بدون أن يرسل إليه رسولاً، وهذا هو كل معانى النبوة فمن هذه الناحية نقول إنه نبى وتطمئن أنفسنا بذلك»[6].

---

(١) تفسير المنار ٦٠٦/٧-٦٠٨.
(٢) طه ١٢٢.
(٣) البقرة ٢٥٤.
(٤) البقرة ٣١، ٣٣.
(٥) آل عمران ٣٣.
(٦) قصص الأنبياء ٢٧.

الطريق الثاني: دلالته ظنية من حيث ثبوتها ومفهومها،وهي الروايات الواردة في كتب السنة النبوية (منها ماهو في السنن، ومنها ماهو في المسانيد،ومنها ماهو في المعاجم) نذكر من تلك الروايات مايلي :

١- روى الترمذي عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولافخر،وبيدي لواء الحمد ولافخر،ومامن نبي يومئذ آدم فمن سواه إلا تحت لوائي،وأنا أول من تنشق عنه الأرض ولافخر)[1] قال الترمذي حديث حسن.

٢- روى أحمد والنسائي عن أبي ذر رضي الله عنه قال : أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وهو في المسجد فجلست فقال يا أباذر هل صليت؟قلت:لا قال:قم فصل فقمت فصليت ثم جلست فقال يا أباذر تعوذ بالله من شر شياطين الإنس والجن، فقلت يارسول الله أوللأنس شياطين؟ قال: نعم.... قلت يارسول الله أي الأنبياء كان أول؟ قال (آدم) قلت يارسول الله ونبياً كان؟ قال نعم نبي مكلم؟ قلت يارسول الله كم المرسلون؟ قال «ثلاثمائة وبضعة عشر جماً غفيراً» وفي رواية (وخمسة عشر)... الحديث. صححه ابن حبان والحاكم وسلمه الذهبي[2]

٣- روى ابن حبان في صحيحه عن أبي ذر قال: قلت يارسول الله كم الأنبياء؟ قال «مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً» قلت يارسول الله كم الرسل منهم؟ قال ثلاثمائة وثلاثة عشر جم غفير» قلت يارسول الله من كان أولهم؟ قال (آدم) قلت يارسول الله نبي مرسل؟ قال نعم خلقه الله بيده ونفخ فيه من روحه ثم سواه قبلاً.....) وافق على تصحيحه الحافظ بن كثير والحافظ بن حجر ورواه عبد بن حميد في تفسيره والآجري في الأربعين[3] .

---

(١) الحديث. الترمذي جـ٥ ك التفسير. سورة الإسراء حديث رقم ٥١٥٦.

(٢) مسند أحمد ٢٦٥/٥ من حديث طويل والرواية الواردة هنا في ١٧٩/٥، وبصيغة أخرى ١٧٨/٥.

(٣) الإحسان بترتيب صحيح بن حبان ٢٤/٨.

٤- روى الطبراني وأبو الشيخ في العظمة وابن مردويه عن أبي ذر قال قلت يارسول الله أرأيت آدم؟ أنبياً كان؟ قال:نعم نبياً رسولاً كلمه الله قبلاً، قال له ياآدم اسكن أنت وزوجك الجنة[(١)].

يقول السيد عبد الله بن محمد بن الصديق الغماري، والحديث يشير إلى أنه كان نبياً ورسولاً إلى زوجه.

٥- روى أحمد والبخاري في «التاريخ» والبزار والبيهقي في «الشعب» عن أبي ذر قال قلت يارسول الله أي الأنبياء كان أولاً؟ قال (آدم) قلت يارسول الله ونبياً كان؟ قال «نعم نبي مكلم» قلت كم كان المرسلون؟ قال: ثلاثمائة وخمسة عشر جماً غفيراً[(٢)].

٦- روى ابن أبي حاتم والطبراني والبيهقي في «الأسماء والصفات» عن أبي أمامه رضي الله عنه أن رجلاً سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله أنبياً كان آدم؟ قال: نعم نبي معلم مكلم، قال: كم بينه وبين نوح؟ قال: عشرة قرون قال: يارسول الله كم الأنبياء؟ قال: مائة ألف وأربعة عشر جماً غفيراً، صححه ابن حبان والحاكم على شرط مسلم وسلمه الذهبي[(٣)].

٧- روى أحمد وابن المنذر والطبراني وابن مردويه عن أبي أمامة أن أباذر قال: يانبي الله أي الأنبياء كان أولا؟ قال: «آدم» قال: أونبياً كان آدم؟ قال: نعم نبي مكلم خلقه الله بيده ثم نفخ فيه من روحه ثم قال له: يا آدم قبلاً، قال: يارسول الله كم عدة الأنبياء قال مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً. الرسل من ذلك ثلاثمائة وخمسة عشر جماً غفيراً[(٤)]. ولهذه الأحاديث طرق ذكرها الحافظ السيوطي في (الأمالي التفسيرية) بتوسع[(٥)].

---

(١) لم أقف على هذا الحديث.

(٢) مسند أحمد ١٧٨/٥.

(٣) المستدرك ٥٩٧/٢ ك التاريخ قال الذهبي وفيه السعد ليس بثقة.

(٤) مسند أحمد ٢٦٥/٥.

(٥) الأحاديث منقولة عن (آدم عليه السلام) عبد الله بن محمد بن الصديق الغماري مع التحقق من النسبة.

رسالة آدم عليه السلام:

تبين لنا أن جمهور المسلمين على نبوة آدم عليه السلام وقد اختلف هؤلاء في أمر رسالته -على أساس التفرقة بين النبى والرسول عندهم- فردّ بعضهم رسالته مستشهدين بحديث الشفاعة (عن أنس أن النبى -صلى الله عليه وسلم- قال: يجمع الله المؤمنين يوم القيامة، كذلك، فيقولون لو استشفعنا إلى ربنا حتى يريحنا من مكاننا هذا، فيأتون آدم فيقولون يا آدم أما ترى الناس، خلقك الله بيده، وأسجد لك ملائكته وعلمك أسماء كل شئ اشفع لنا إلى ربنا حتى يريحنا من مكاننا هذا فيقول لست هناك ويذكر لهم خطيئته التى أصاب ولكن ائتوا نوحاً فإنه أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض...)[1] فظاهر الحديث أن نوحاً أول رسول ومن رأى رسالة آدم عليه السلام، أوّلَ قوله (فإنه أول رسول بعثه الله) أى بعد الطوفان وقيل إلى عموم الأرض وقيل برسالة مدونة وليست تعاليم شفوية... إلخ.

ويمكن القول: إذا كانت النبوة تعنى الإعلام فى خفاء وهى تتضمن -بالنسبة للأنبياء- هَدى الله للناس فإن القرآن صرح بأن هدىً من الله سوف يأتى آدم عليه السلام مع بيان النتائج المترتبة على القبول والإعراض ﴿فإما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلايضل ولايشقى * ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى﴾[2] . ﴿فإما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلاخوف عليهم ولاهم يحزنون﴾[3] .

إلا أن محتوى الرسالة لم يرد عنه شئ فى القرآن ولا السنة -مبلغ علمى- وإن كان العقل يلزمنا بالتسليم بأن شريعة قد نزلت عليه باعتباره أول البشر عند أتباع الوحى ولايتأتى خلق الإنسان وتركه سدى فى هذه الحياة يضل فى بيداء بلاهداية. وعدم العلم بالرسالة لايعنى نفيها، ففرق كبير بين عدم العلم ومايترتب عليه وبين العلم بالعدم، فإذا ماسلمنا بأن ابنى آدم اللّذين ذكر القرآن أمرهما[4] كانا لصلبه تبين لنا أن آدم قد بلغ رسالة ربه بدليل ذكر الجنة والنار والحلال والحرام فى القصة.

---

(١) البخارى ك التوحيد ١٩، ٢٤ مسلم ك الإيمان ٣٢٢ ومسند أحمد ١١٦/٣.

(٢) طه ١٢٣، ١٢٤. (٣) البقرة ٣٨.

(٤) سورة المائدة الآيات من ٢٧ - ٣١.

- كما أن لدينا أسماء لأنبياء في القرآن،دون أن يرد شئ يتعلق برسالتهم،مثل (إسحق – يعقوب – أيوب – زكريا – يحي – اليسع – يونس – سليمان....).

بين دعوة الباطل ودعوة الحق:

بإباء إبليس السجود لآدم، وطرده والحكم عليه باللعنة،توعد إبليس آدم وذريته أن يكون سبباً من أسباب غوايتهم إلى يوم الدين.

وبخروج آدم من الجنة تائباً،وقبول الله منه تلك التوبة،ووعده الحق بهدى يأتيه من قبل الله،وبذلك ظهرت دعوتان إحداهما أسبق من الأخرى،من حيث الظاهر وهما :

١– دعوة الباطل،والداعي إليها إبليس وقبيله.

٢– دعوة الحق،والداعي إليها الأنبياء ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

ونظراً لأن هاتين الدعوتين تمثلان تاريخ الدعوة فيما نعهده فحسن إلقاء الضوء عليهما من خلال القرآن فنقول :

أولاً: بالنسبة لدعوة الباطل: لقد صرح القرآن بموقف إبليس بعد طرده من رحمة الله،والحكم عليه باللعنة إلى يوم الدين،فذكر تصريحه بالعداء،وإظهاره الحرص على الإضلال لبني آدم،وأعلن عدم فتوره عن غواية هذا النوع من الخلق باستثناء المخلصين – قال تعالى بشأن إبليس ﴿قال أنظرني إلى يوم يبعثون * قال إنك من المنظرين﴾[1].

﴿قال رب فأنظرني إلى يوم يبعثون * قال فإنك من المنظرين * إلى يوم الوقت المعلوم * قال رب بما أغويتني لأزين لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين * إلا عبادك منهم المخلصين * قال هذا صراط عليّ مستقيم * إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين﴾[2] ﴿قال فاخرج منها فإنك رجيم * وإن عليك لعنتي إلى يوم الدين * قال رب فأنظرني إلى يوم يبعثون * قال فإنك من المنظرين * إلى يوم الوقت

---

(١) الأعراف ١٤، ١٥. (٢) الحجر ٣٦-٤٢.

المعلوم * قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين * إلا عبادك منهم المخلصين﴾[1] .

كما صرح القرآن ببعض السبل التى وعد الشيطان باتباعها،حتى لايضل الإنسان،ومنها قوله : ﴿إن يدعون من دونه إلا إناثا وإن يدعون إلا شيطانا مريداً * لعنه الله وقال لاتخذن من عبادك نصيباً مفروضا * ولأضلنهم ولأمنينهم ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام ولآمرنهم فليغيرن خلق الله ومن يتخذ الشيطان وليا من دون الله فقد خسر خسراناً مبيناً * يعدهم ويمنيهم ومايعدهم الشيطان إلا غرورا﴾[2] .

﴿وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن أطعتموهم إنكم لمشركون﴾[3] .

﴿واتبعوا ماتتلوا الشياطين على ملك سليمان وماكفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر... فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرأ وزوجه وماهم بضارين به من أحد إلا بإذن الله ويتعلمون ما يضرهم ولاينفعهم ....﴾[4] .

﴿ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولاتجد أكثرهم شاكرين﴾[5]

﴿إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون﴾[6] .

وجملة النصوص،تشير إلى مدى حرص إبليس على غواية الإنسان،من كل طريق ممكن،ومنها الصرف عن الحق (لأضلنهم) والتحلل من الالتزام الدينى،مع الأمل فى رحمة الله،وشفاعة الرسول (ولأمنينهم) وصرفهم عن الجادة إلى الهذل ونزع الرحمة من قلوبهم (ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام) وتصرفهم تصرفاً غير مشروع فيما خلق الله،كتأنيث الذكر وتذكير الأنثى،ومحاولة التحكم فى النوع، والخروج عن الجنس إلى جنس آخر حكما،وإن لم يكن حقيقة، والإيحاء إلى بعض

---

(١) ص ٧٧-٨٣.
(٢) النساء ١١٧-١٢٠.
(٣) الأنعام ١٣١.
(٤) البقرة ١٠٢.
(٥) الأعراف ١٧.
(٦) المائدة ٩١.

البشر بالباطل لتضليل غيرهم، فضلاً عن أنفسهم ومجادلتهم للأنبياء والدعاة، ولفت نظر الناس إلى مالا فائدة فيه للعدول عما فيه الفائدة (يعلمون الناس السحر) مع عدم ترك الغرائز دون استخدامها، كسبيل للتأثير على الإنسان (الفروج- النساء- الأولاد- المال) مع صرفهم عن شكر النعمة وجحود حق المنعم.

منهج القرآن في الوقاية من دعوة الباطل:

اهتم القرآن بدعوة الباطل، فبين مصدرها وسبلها وحذر منها وبين سوء عاقبة متبعيها، وكان خطاب القرآن للإنسان كشأن خطاب سائر العقلاء دون غيرهم.

فمن لاعقل له ومن له عقل لم يبلغ درجة النضج بعد، لايكتفى بتوجيه النصح إليه، بل لابد من الأخذ بيده إلى نهاية الطريق، كما أنه لايؤاخذ كغيره إن قصر أو لم يلتزم، بل يؤاخذ مرشده ولعل إسقاط التكاليف عن هاتين الحالتين في الشرع خير برهان على ذلك.

وأما العقلاء فإنهم ينصحون، وتعطى لهم المقدمات، ويترك لهم استنباط النتائج، وأحياناً المقدمات مع النتائج المترتبة عليها، فإذا ما أعطوها فأعرضوا عنها، فإن ذلك يعد لونا من السفه ينأى عنه العقلاء، وقد وضع القرآن أسس الوقاية من دعوة الباطل للناس عامة وللمسلمين بخاصة نوجزها فيما يلي:

أولاً: التصريح بعداوة الشيطان للإنسان. قال تعالى: ﴿قلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين﴾[1].

﴿إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير﴾[2].

﴿يابنى آدم لايفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما إنه يراكم هو وقبيله من حيث لاترونهم إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لايؤمنون﴾[3].

---

(١) البقرة ٣٦. (٢) فاطر ٦.
(٣) الأعراف ٢٧.

﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا﴾[1] .

ثانية: النهي عن اتباع تعاليمه. قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لاتتبعوا خطوات الشيطان ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر ولولا فضل الله عليكم ورحمته مازكى منكم من أحد أبدا﴾[2] .

ثالثة: كشف زيفه وإيضاح ضعفه وبيان عاقبة إضلاله. قال تعالى: ﴿وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لاغالب لكم اليوم من الناس وإنى جار لكم فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال إنى برئ منكم إنى أرى مالا ترون إنى أخاف الله والله شديد العقاب﴾[3] .

﴿وقال الشيطان لما قضى الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وماكان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلومونى ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخى إنى كفرت بما أشركتمونى من قبل إن الظالمين لهم عذاب أليم﴾[4] .

﴿كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إنى برئ منك إنى أخاف الله رب العالمين * فكان عاقبتهما أنهما فى النار خالدين فيها وذلك جزاء الظالمين﴾[5] .

﴿يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا﴾. ﴿وكان الشيطان للإنسان خذولا﴾[6] .

رابعا: إعلان أن المخلصين لاسلطان للشيطان عليهم. قال تعالى : ﴿إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون * إنما سلطانه على الذى يتولونه والذين هم به مشركون﴾[7] .

---

(١) الكهف ٥٠.
(٢) النور ٢١.
(٣) الأنفال ٤٨.
(٤) إبراهيم ٢٢.
(٥) الحشر ١٦، ١٧.
(٦) الفرقان ٢٩.
(٧) النحل ٩٩، ١٠٠.

﴿إن عبادى ليس لك عليهم سلطان﴾[1] . ﴿قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين * إلا عبادك منهم المخلصين﴾[2] .

خامسة: إحياء قوة النفس،وإماتة ضعفها،وذلك باستمداد القوة من الله واستشعار ذلك ضد كيد الشيطان وقد دعانا الإسلام إلى الاستعانة بالله فى مواطن عدة، قال تعالى ﴿فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم﴾[3] . ﴿وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين * وأعوذ بك ربى أن يحضرون﴾[4] مع فتح باب التوبة إذا وقع الإنسان فى المعصية،حتى لايتسلط عليه الشيطان ويسيطر عليه اليأس ﴿إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون﴾[5]

كما نصت السنة على بعض الآيات،التى تقى الإنسان من تأثير الشيطان،ودعت المسلم إلى قراءتها قبل النوم وحين المرض، وهى من باب العلاج النفسى للإنسان. كى تنهض القوة الخيرة فيه فتغلب القوة الشريرة.

عمارة الإنسان للأرض:

صريح القرآن أن آدم نزل وزوجه إلى الأرض، دون إشارة من القرآن أو السنة - مبلغ علمى - إلى طريقة التوالد الأولى بالنسبة لأولاد آدم أو ذكر لكيفية تكاثرهم. وقد خاض فى ذلك كثيرون، معتمدين على التراث الإنسانى، دون نص صحيح أو دليل قطعى صريح، وقد أشار القرآن إلى وحدة الجنس البشرى،ومرد الإنسانية جمعاء إلى نفس واحدة وتفرعها عنها، إلا أن المفسرين تساءلوا من المراد بالوصف بنفس واحدة فى تلك الآيات[6] ؟ واختلفت الإجابة وقد تناول الإمام الألوسى منهج التقليديين بالجمع والتأكيد والدفاع[7] بينما تناول الإمام محمد عبده والشيخ رشيد رضا منهج المؤولين فى هذا الموضوع. فلتراجع آراؤهم فى كتبهم[8] .

---

(١) الحجر ٤٢. (٢) سورة ص ٨٣.
(٣) النحل ٩٨. (٤) المؤمنون ٩٧، ٩٨.
(٥) الأعراف ٢٠١.
(٦) الكشاف ٤٩٢/١. مفاتيح الغيب ١٦٤/٥-١٦٩، الجامع لأحكام القرآن ٢/٥، ٢.
(٧) روح المعانى ١٨٠/١-١٨٣. (٨) المنار ٣٢٢/٤-٣٢٨.

مايستفاد من العلم بقصة آدم عليه السلام:

ذكر القرآن الحكمة من ذكر القصة. قال تعالى ﴿**فاقصص القصص لعلهم يتفكرون**﴾[1] . ﴿**لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب**﴾[2] . وإذا كانت نتائج التفكر تختلف من فرد إلى فرد -أحياناً- كما أن الاعتبار كذلك، فإن ماندركه من قصة آدم -عليه السلام- وله صلة بالواقع مايلى:

١- وحدة منشأ النوع الإنسانى،مع اتحاد العناصر الأساسية التى كون منها الإنسان، ولو وقع تفاوت بين البشر فى العناصر الأولى، وتعدد الآباء واختلفوا باختلاف العنصر، فكان بعضها من ذهب أو فضة أو تراب أو حديد أو نحاس... إلخ لفتح باب التفاخر وتعذر الإبطال، ولذلك كان الرسول -صلى الله عليه وسلم- يبطل نزعات الجاهلية،ودعاوى التفاخر بالأحساب والأنساب،معتمداً على وحدة أصل الإنسان «ألا لافضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى،الناس لآدم وآدم من تراب»[3] .

كما تبطل النزعات العنصرية المعاصرة كأفضلية جنس على من سواه (السامية - الآرية) وتبطل أفضلية أمة على غيرها،لعلة دينية،إلا إذا التزمت تلك الأمة بالوحى كما أراد الله منها،فتكون لها الأفضلية من حيث الالتزام الدينى لا الجنس أو النوع. وكل تفاوت ظاهرى بين البشر لا يؤذن بالاستعلاء والتكبر بل هو لون من ألوان الابتلاء،لاستقامة شئون الحياة مع مراعاة آداب الشرع فى هذا المجال... إلخ.

٢- يصرح القرآن بأن اختلاف الألوان والألسنة دليل قدرة الله، وليس مرده إلى تفاوت التراب، الذى خلق منه آدم، حيث أثرت مصادر التراب على لون الإنسان كما تشير إلى ذلك بعض الآثار فى السنة[4] قال تعالى ﴿**ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين**﴾[5] وقد تأثر البعض بهذه الروايات فجعلوها مستنداً لمذاهبهم حين الحديث عن أسباب اختلاف البشرة بين

---

(١) الأعراف ١٧٦ . (٢) يوسف ١١١ .
(٣) مسند أحمد ٣٦١/٢ وبمعناه الترمذى ٦٥/٥ باب التفسير سورة ٤٨ .
(٤) سنن الترمذى حديث رقم ٤٠٣١ جـ٤ .
(٥) الروم ٢٢ .

البشر[1] وإن لم يرد في القرآن ما يؤيد ذلك أو يرفضه.

٣- تميز القرآن بحسن عرض القصة، فلم يرد في سياق النصوص مايصادم العقل عبر التاريخ،فأهل الكتاب يرون فيه تقارباً مع ماورد في الكتاب المقدس،من حيث أصل الخلق، ويرى الباحثون عدم مصادمته للمعطيات والبحوث العلمية.

٤- تكوين الإنسان الآن يستوى مع تكوين الإنسان الأول من حيث الطبيعة (جسد/روح) وكلاهما ضرورى للإنسان دون تغليب أحدهما على الآخر،أو النظرة إلى أحدهما نظرة تقديس،وإلى ثانيهما على أنه شر ينبغى التخلص منه،كما تفعل بعض المذاهب الدينية،التى تعلى قدر الروح على الجسد،إلى حد قتل الجسد أو تعلى الجسد على الروح،لأن توجهاتها مادية بالدرجة الأولى. وقد حث القرآن على المحافظة على العنصرين المكون منهما الإنسان فى آيات شتى، وكل من الخلق الأول والخلق الثانى قد مر بأطوار،إلا إنها تختلف فى الخلق الثانى عن الخلق الأول بالنسبة للجزء المحسوس من الإنسان،أما الروح فهى من القاسم المشترك بين الجميع،وقد ورد فى السنة مايؤكد وحدة الصورة بين آدم وبنيه،وإن وقع تفاوت فى الأعمار والأجسام بتفاوت الزمن.

٥- لايمنع القرآن من البحث العلمى المتعلق بقضية الخلق، بل إنه -إن سلم من المؤثرات- هاد إلى الحقائق الكونية فى القرآن، وإذا كان العلم يتعلق بالمحسوسات فى عصرنا الحاضر،فإن خوضه فى كيفية خلق آدم،أو كيف نشأ الإنسان وتكاثر على ظهر هذه الأرض،تدخل منه فى غير تخصصه،ولذلك رد كثيرون النظريات المتعلقة بقضية الخلق،كنظرية دارون وغيره من القائلين بالتطور.

٦- لم تقطع النصوص القرآنية بأن المرأة خلقت من ضلع آدم أو جزء منه،وإن كان خلقها من جزء من أجزاء آدم هو الشائع فى الفكر الإسلامى،وتوجد آراء أخرى سبقت الإشارة إليها لاتقل فى وجاهتها قدراً عن الرأى الراجح،وإن لم ينتصر لها من الباحثين،خشية مصادمة الجمهور.

---

(١) سمط النجوم العوالى ٣٧/١.

٧- ليست المرأة -فى ضوء القصة- سبب الغواية،ولاهى مصدر الشرور والآثام أو أنها سبب إخراج آدم من الجنة،وجلبها الشقاء على بنيها،بل المسئولية مشتركة والنتيجة مشتركة،والرجل أشد مسئولية من المرأة (بحكم القوامة والإصلاح الاجتماعى).

٨- فى تكريم الإنسان الأول تكريم لبنيه، فتعليمه من العلوم والمعارف مالاتدركه الملائكة فيه إظهار لقدره عليهم،وإشارة إلى أن رقى البشرية أو جماعة منها لن يكون إلا بالعلم،كما أن نسبة الخلق إلى يَدَىْ الرحمن وتسخير الكون له ووصفه بالخلافة... إلخ. ليؤكد قيمة الإنسان وقدره فى هذه الحياة.

٩- أظهرت القصة أثر المعصية،حتى لايقع الإنسان فيها،فإن وقع وجب عليه أن لا يصر عليها،فآدم نسى فعصى،ثم تاب،فكانت العاقبة الخروج من الجنة، وإبليس عصى وأصر على المعصية،فكانت النتيجة الطرد من رحمة الله إلى يوم الدين،وفى الآخرة فى الجحيم، وقد كثرت النصوص فى القرآن لتحذير الإنسان من الغواية وتبين له السبيل إن وقع فى المعصية حتى تنتفى المعاذير يوم القيامة.

١٠- استواء الأفراد أمام القانون،ونفى التفاوت فى الثواب والعقاب، أخذا بالمنهج الذى ورد فى القصة، وإن كان المخالف من أهل الصدارة والوجاهة، فإبليس كان مع الملائكة أو كان من الملائكة،فلما عصى ربه خرج من دائرة الملائكية ليكون إمام الأشرار، دون أن تشفع له مكانته السابقة، وهو أمر ينبغى الالتزام به فى واقعنا المعاصر،فى قضايا الثواب والعقاب ليستقيم أمر المجتمع كما كان فى صدر الإسلام.

١١- الدين قديم قدم الإنسان،سواء سلمنا بالوحى إلى آدم (القائلون بنبوته) أم قلنا إنه اهتدى بالفطرة التى فطره الله عليها، كما أن أصل الدين الوحى وليس الوضع كما يرى التطوريون فى مجال العقائد.

١٢- النفس البشرية مفطورة على الخطأ والصواب،وللإنسان القدرة فى حملها على أحد الجانبين (الخير - الشر) فإذا ماوقعت فى المحظور،فإن فتح باب التوبة منصوص عليه،حتى لايكون اليأس أو الإبلاس.

وهناك نتائج ذكرها آخرون يمكن العود إليها،وهي في جملتها وتفصيلاتها لايخرج عما ذكر هنا[1].

قضايا خاض فيها كثيرون لافائدة من ذكرها مفصلة...

لاسبيل للعلم بقصة آدم-عليه السلام-إلا من طريق الوحي (القرآن والسنة) ومايستنبط من معاني نصوصهما في ضوء القواعد المتفق عليها لتفسير القرآن أوشرح السنة،وقد ذهب كثير من القصاص مذاهب غير محمودة،حين تناولوا القصة بالبيان فذكروا أموراً شتى رأيت الإعراض عنها لمخالفتها للقرآن والسنة أحياناً وعدم اعتمادها على سند صحيح من النقل أو العقل فضلاً عن مصادمتها لهما.

وقد رأيت ذكر عناوين بعض هذه الجوانب،دون نقلها،وإنما الإشارة إلى مصادرها لمن شاء أن يقرأ التفاصيل،مع التذكير بأن دعاة العاطفة يعتمدون على تلك القضايا،لأنها أقرب إلى الإثارة والاستجابة الفورية،وإن انطفأت على عَجَل، فكان الذكر من باب التنبيه للطلاب،أثناء المحاضرات على جوانب الخطأ والضرر من مثل تلك الأفكار،مع تدريب بعضهم على النقد الموضوعي لذات القضية ومن هذه الأمور مايلي:

سبب التسمية بآدم[2] . الفترة التي قضاها جسداً قبل نفخ الروح فيه[3] . أحداث صاحبت آدم حين الخلق[4] . حال آدم حين دخول الروح فيه[5] . كيفية خلق

---

(1) قصص الأنبياء د/ النجار ٤١ في رحاب القرآن د/ شامة ١٦٢-١٦٩ النبوة والأنبياء / الصابوني ١٤٥ في موكب النبيين- سيد الكيلاني ٤٧ دعوة الرسل غايتها وتاريخها د/ الشتيوي ٥٥/٦٠.

(2) تاريخ الأمم والملوك ٩١/١ والكامل في التاريخ ٢٨/١ والبدء والتاريخ ٨٢/١ وسمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي ٣٩/١.

(3) تاريخ الأمم والملوك ٩٢/١، ٩٣ والكامل في التاريخ ٢٨/١ والبداية والنهاية ٨٦/١ ومروج الذهب ٣٠/١ والبدء والتاريخ ٥٦/١، ٨٤ وسمط النجوم العوالي ٣٩/١،٤٠ والثعلبي ٦٦.

(4) تاريخ الأمم والملوك ٩٣/١ والكامل في التاريخ ٢٩/١ والبداية والنهاية ٨٦/١ ومروج الذهب ٣١/١ والبدء والتاريخ ٨٧/١ والثعلبي ١٦.

(5) تاريخ الأمم والملوك ٩٤/١ والكامل ٢٩/١ وسمط النجوم ٤٠/١ والثعلبي ١٥،١٦.

حواء[1]. سبب تسميتها بهذا الاسم[2]. جمال حواء[3]. كيف عرف آدم حواء فتزوج بها وماهو مهرها وصلة محمد-عليه السلام-بذلك[4]. طعامهما فى الجنة[5]. اسم الشجرة التى نهيا عن القرب منها[6]. كيف وسوس لهما الشيطان[7]. الوقت الذى قضياه فى الجنة[8]. الكلمات التى قالها آدم وحواء[9]. الموضع الذى هبطا فيه[10]. كيفية أخذ العهد على ذرية آدم[11]. علة إرث الذكر مثل حظ الأنثيين[12]. كيف أشرك آدم وحواء[13]. كيف حج آدم وماهو الطريق الذى سلكه حين الحج[14]. عمر آدم حين الوفاة[15]. وفاة آدم ودفنه والكيفية[16]. عمر حواء حين الوفاة[17].

(١) تاريخ الأمم والملوك ١٠٤/١ والكامل فى التاريخ ٣٣/١ والبداية والنهاية ٧٤/١ والبدء والتاريخ ٨٤/١-٨٦ والمحرر الوجيز ٢٥٠/١ وسمط النجوم العوالى ١٤/١ والثعلبى ١٧.
(٢) تاريخ الأمم والملوك ١٠٤/١ والكامل ٣٢/١ والبداية والنهاية ٧٤/١ وحياة آدم ٦٢.
(٣) سمط النجوم العوالى ٤٧/١ وحياة آدم ٦٢،٦٣.
(٤) سمط النجوم العوالى ٤٣/١، ٤٤، ٤٧، ١٦ قصص الأنبياء المسمى عرائس المجالس ص١٨.
(٥) سمط النجوم العوالى ٤٩/١.
(٦) سمط النجوم العوالى ٤٨/١ والثعلبى ١٨.
(٧) تاريخ الأمم والملوك ١٠٧/١-١١١ والكامل فى التاريخ ٣٣/١-٣٥ والبدء والتاريخ ٩٥/١ والمحرر الوجيز ٢٥٥/١-٢٥٦ وسمط النجوم العوالى ٣٠/١، ٥٠/١-٥٣ والثعلبى ١٨.
(٨) تاريخ الأمم والملوك ١١٣/١-١٢٠ والكامل ٣٥/١، ٣٦، ٣٧ والبداية والنهاية ٨٠/١،٩١ ومروج الذهب ٣٤/١ والبدء والتاريخ ٨٥/١.
(٩) البداية والنهاية ٨١/١ والثعلبى ٢١.
(١٠) الطبرى ١٢١/١-١٢٢، الكامل ٣٦/١- البداية والنهاية ٨٠/١، ومروج الذهب ٣٤/١ وابن عطيه ٢٥٩/١ وسمط النجوم ٥٦/١،٥٧ والثعلبى ٢٠.
(١١) الطبرى: ١٣٤/١-١٣٥، الكامل ٤٠/١، البداية والنهاية ٩٠/١، البدء والتاريخ ٩٦/١، سمط النجوم ٤٤/١.
(١٢) سمط النجوم ٣١/١.
(١٣) تاريخ الطبرى : ١٤٨/١-١٥١.
(١٤) الطبرى ١٢٣/١-١٣١-١٣٤، الكامل: ٣٨/١-٤٠، سمط النجوم ٣٢/١-٣٣، ٦٠، ٦١، ٦٢.
(١٥) الطبرى: ١٥٦/١-١٥٨، الكامل ٥٠/١،٥١، البداية والنهاية ٨٧/١، ٨٩، سمط النجوم ٧٤/١.
(١٦) الطبرى ١٥٩/١-١٦٢، الكامل ٥٢/١، البداية والنهاية ٩٨/١، سمط النجوم ٧٤/١.
(١٧) البداية والنهاية ٩٨/١، سمط النجوم ٧٤/١، ٧٥.

اللغة التى كان يتكلم بها آدم وحواء[1] . أثر لون التراب على لون بنىّ الإنسان[2] . علم آدم بالرسول وهو فى الجنة[3] . موقف الملائكة من قبضة التراب لخلق آدم[4] . العقوبات التى فرضت على آدم بعد المعصية[5] وعلى حواء[6] وعلى الحية[7] . صناعة آدم[8] . ماخرج به آدم من الجنة[9] .

قصة آدم عليه السلام فى الكتاب المقدس...

ذكرت قصة آدم فى الكتاب المقدس بنصوص محددة المعنى ليس معها أدنى احتمال، ويمكن إيجاز حديثه عن قصة آدم-عليه السلام-على النحو التالى:

أولاً: شاء الله أن يخلق إنساناً على صورته – صورة الله – فقال: نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا: تك ٢٦/١ فخلق الله الإنسان على صورة الله خلقه ذكراً وأنثى خلقهم... تك ٢٧/١ ثم صرحت التوراة بأن الله قد سلط الإنسان على سائر المخلوقات الأرضية مع تخصيص بعضها بالذكر (تكوين ٢٨/١ :٣٠).

ثانياً: ذكرت النصوص قضية الخلق (وجبل الرب الإله آدم تراباً من الأرض ونفخ فى أنفه نسمة حياة. فصار آدم نفساً حية) تك ٧/٣.

ثالثاً: حددت التوراة مكان سكنى آدم مع الإشارة إلى أنهار أربعة تخرج من ذلك المكان (وغرس الرب الإله جنة فى عدن شرقاً.ووضع هناك آدم الذى جبله.وأنبت الرب الإله من الأرض كل شجرة شهية للنظر.وجيدة للأكل.وشجرة الحياة فى وسط الجنة،وشجرة معرفة الخير والشر. وكان نهر يخرج من عدن ليسقى الجنة ومن هناك ينقسم فيصير أربعة رؤوس. اسم الواحد فيشون وهو المحيط بجميع أرض الحويلة حيث

---

(١) سمط النجوم ٤٢/١.

(٢) سمط النجوم ٣٧/١ تحفة الأحوذى شرح عارضة الترمذى وفى السنن جـ٤ برقم ٤٠٣١.

(٣) سمط النجوم ٤٣/١، ٤٤، مولد شرف العالمين. للناوى ٦،٧.

(٤) تاريخ الأمم والملوك ١/ ١٠٤ والكامل ٣٣/١ والبداية والنهاية ٧٤/١ والبدء والتاريخ ٨٤/١والمحرر الوجيز ٢٥٠/١ وسمط النجوم ٤٤/١، الثعلبى ١٥.

(٥) الثعلبى ١٩،٢٠.

(٦) الثعلبى ٢٠.

(٧) الثعلبى ٢٠.

(٨) الثعلبى ٢٢.

(٩) الثعلبى ٢٣.

الذهب وذهب تلك الأرض جيد. هناك المقل وحجر الجزع.واسم النهر الثانى جيحون هو المحيط بجميع أرض كوش.واسم النهر الثالث حداقل وهو الجارى شرقى أشور، والنهر الرابع الفرات[1] .

رابعاً: لم تكن إقامة آدم فى الجنة على سبيل التكريم بل للعمل والحراسة مع صدور بعض التعاليم إليه (وأخذ الرب الإله آدم ووضعه فى جنة عدن ليعملها ويحفظها وأوصى الرب الإله آدم قائلاً من جميع شجر الجنة تأكل أكلا وأما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها لأنك يوم تأكل منها موتاً تموت)[2] .

خامساً: آدم هو الذى دعا الأشياء بمسمياتها بعد أن أتى بها الله إليه، وعرضها عليه فكل اسم سمى به شيئاً ما صار علماً عليه[3] .

سادساً: ذكرت التوراة كيفية خلق حواء (وأما لنفسه -أى آدم- فلم يجد معيناً نظيره فأوقع الرب الإله سباتاً على آدم فنام. فأخذ واحدة من أضلاعه وملأ مكانها لحماً، وبنى الرب الإله الضلع التى أخذها من آدم امرأة وأحضرها إلى آدم. فقال آدم هذه الآن عظم من عظامى ولحم من لحمى هذه تدعى امرأة لأنها من امرء أخذت... وكان كلاهما عريانين آدم وامرأته وهما لايخجلان... ودعا آدم اسم امرأته حواء[4] .

سابعاً: أفادت النصوص صراحة أن الحية هى التى أغوت حواء بالأكل من المنهى عنه فأكلت (وكانت الحية أحيل جميع حيوانات البرية التى عملها الرب الإله. فقالت للمرأة أحقاً قال الله لاتأكلا من كل شجر الجنة. فقالت المرأة للحية من ثمر شجر الجنة نأكل. وأما ثمر الشجرة التى فى وسط الجنة فقال الله لاتأكلا منه ولاتمساه لئلا تموتا فقالت الحية للمرأة لن تموتا. بل الله عالم أنه يوم تأكلان منه تنفتح أعينكما. تكونان كالله عارفين الخير والشر. فرأت المرأة أن الشجرة جيدة للأكل وأنها بهجة للعيون وأن الشجرة شهية للنظر. فأخذت من ثمرها وأكلت وأعطت رجلها أيضاً معها فأكل. فانفتحت أعينهما وعلما أنهما عريانان. فخاطا أوراق

(١) تكوين ٢/٨-١٤.
(٢) تكوين ٢/١٥-١٧.
(٣) تكوين ٢/١٨-٢٠.
(٤) تكوين ٢/٢١-٢٥.

تين وصنعا لأنفسهما مآزر)[1].

ثامنا: علم آدم وحواء بمشى الإله فى الجنة فاستترا منه فناداه الإله ودار بينهما هذا الحوار كما تصوره النصوص (وسمعا صوت الرب الإله ماشياً فى الجنة عند هبوب ريح النهار. فاختبأ آدم وامرأته من وجه الرب الإله فى وسط شجر الجنة. فنادى الرب الإله آدم وقال له أين أنت. فقال سمعت صوتك فى الجنة فخشيت لأنى عريان فاختبأت. فقال من أعلمك أنك عريان. هل أكلت من الشجرة التى أوصيتك أن لا تأكل منها. فقال آدم المرأة التى جعلتها معى هى أعطتنى من الشجرة فأكلت، فقال الرب الإله للمرأة ماهذا الذى فعلت. فقالت المرأة الحية غرتنى فأكلت...)[2].

تاسعا: عوقبت الحية بعد إغوائها لحواء بعقوبات عدة منها (فقال الرب الإله للحية لأنك فعلت هذا ملعونة أنت من جميع البهائم ومن جميع وحوش البرية على بطنك تسعين وترابا تأكلين كل أيام حياتك وأضع عداوة بينك وبين المرأة وبين نسلك ونسلها هو يسحق رأسك وأنت تسحقين عقبه)[3].

عاشرا: عوقبت المرأة بعقوبات عدة (وقال -أى الله- للمرأة تكثيراً أكثر أتعاب حبلك بالوجع تلدين أولادا وإلى رجلك يكون اشتياقك وهو يسود عليك)[4].

حادي عشر: وعاقب الله آدم قائلاً له (لأنك سمعت لقول امرأتك وأكلت من الشجرة التي أوصيتك قائلاً لاتأكل منها.ملعونة الأرض بسببك.بالتعب تأكل منها كل أيام حياتك. وشوكا وحسكا تنبت لك وتأكل عشب الحقل بعرق وجهك تأكل خبزاً حتى تعود إلى الأرض التى أخذت منها. لأنك تراب وإلى تراب تعود)[5].

ثاني عشر: تقوم العلاقة بين الله والإنسان على أساس من الصراع. وقد خشى الإله دوام البقاء لآدم ولذلك طرده من الجنة قبل أن يأكل من شجرة الحياة (وقال

---

(١) تكوين ٣/١-٧.
(٢) تكوين ٣/٨-١٣.
(٣) تكوين ٣/١٤-١٥.
(٤) تكوين ٣/١٦.
(٥) تكوين ٣/١٧-١٩.

الرب الإله هو ذا الإنسان قد صار كواحد منا عارفاً الخير والشر. والآن لعله يمد يده ويأخذ من شجرة الحياة أيضاً ويأكل ويحيا إلى الأبد. فأخرجه الرب الإله من جنة عدن ليعمل الأرض التى أخذ منها فطرد الإنسان وأقام شرقى عدن الكروبيم ولهيب سيف متقلباً لحراسة طريق شجر الحياة)[1].

ثالث عشر: تحدثت التوراة عن اتصال آدم بحواء وعن أولادهم لصلبهم وأشارت إلى قضية التكاثر. وقد وقع اضطراب فى الذكر لم ذكرت التوراة عمر آدم حين وفاته (فكانت كل أيام آدم التى عاشها تسع مئة سنة وثلاثين سنة ومات)[2].

مقارنة بين قصة آدم في القرآن والكتاب المقدس...

الأصل فى الدراسات المقارنة أن لاتذكر النتائج، بل تترك للقارئ ليستنبطها، ولما كانت تلك الدراسة قد ألقيت على مسامع الطلاب، وشأنهم عدم القدرة على الاستنباط فى المراحل الأولى، بالقدر الكافى، وعونا لهم على تربية ملكة الاستنباط فقد ذكرت بعض النتائج محددة لأسباب عدة - فضلاً عما ذكرت - منها

١- الرد على ماذكره بعض علماء المسلمين من التقارب التام بين قصص الأنبياء فى الكتاب المقدس والقرآن الكريم.

٢- عصبية بعض الباحثين فى معالجة تلك القضايا -غير مراعين المنهج العلمى- دفعت الكثير منهم إلى ادعاء مالا تتوافر الأدلة عليه، وبخاصة إذا جهل أسلوب الكتاب المقدس.

٣- مايقع فيه البعض من الفصل بين أطراف القصة فى الكتاب المقدس إن كانت مكررة والاكتفاء بنص يخدم نتيجة وضعت مسبقاً لدى الباحث، كمن يستشهد على سؤال الله لآدم بقوله: أين أنت يا آدم؟ بأن الله موصوف بالجهل فى الكتاب المقدس، مع أن بالقرآن الكثير من مثل تلك الأسئلة ومثل ذلك بالسنة.

٤- إذا ما قرأ مسلم شيئاً مثار عجب بشأن نبى من الأنبياء زعم أن ذلك من

---

(١) تكوين ٣/٢٢-٢٤.

(٢) تكوين ٨/٥.

الإسرائيليات، كما ذهب إلى ذلك بعض المفسرين، مع أن الأمر قد لايكون له أصل في الكتاب المقدس، وإنما هو من تراث الإنسانية، كالفكر الهندى واليوناني وسائر الأساطير التي واجت في الفكر البشرى قبل الإسلام،وهو ما يدفعنا إلى التفرقة بين التراث الإنساني والإسرائيلي، وأن علل البعض بأن فكر بنى إسرائيل قائم على العجائب والغرائب،حتى نسبت كل عجيبة وغريبة إليهم.

ومن نتائج المقارنة مايلي:

أ) تختلف القصة في التوراة عنها في القرآن،من حيث المضمون في معظم الجوانب،بعكس ماذهب إليه أحد العلماء حين قال (وقد ذكرت قصة آدم في الإصحاحين الثاني والثالث في سفر التكوين وهى لاتخالف ماجاء في القرآن إلا مخالفة بسيطة فإنها لم تذكر مسألة السجود لآدم ولامخالفة إبليس وتكبره وطرده من الجنة ولم تذكر الحوار بين الله تعالى وملائكته وجعلت الوسوسة لحواء من قبل الحية والوسوسة لآدم من قبل حواء[1].

ب) دلالة الأسلوب في القرآن احتمالية -في أغلب الأحيان- ولذلك تقبل نتائج البحث العلمي،ولاتصادم النتائج النهائية له،بينما الدلالة قطعية في العهد القديم بالنسبة لخلق آدم وحواء.

ج) ذكر القرآن أطوار الخلق الأول والثاني،ولم تشر التوراة إلى شئ من ذلك.

د) قطعت التوراة بأن الجنة التي كان فيها آدم في الأرض،وأن الإنسان خلق ليعمل فيها،وحددت موقعها، بينما كانت دلالة القرآن احتمالية مع نفى خلق الإنسان للعمل فيها.

هـ) لم يحدد القرآن نوع الشجرة المنهى عنها،بينما ذكرت التوراة نوعين (المعرفة - الحياة) وقد أكل آدم من شجرة المعرفة، فطرده الله قبل أن يأكل من شجر الحياة فيكون له البقاء.

و) جعلت التوراة المرأة سبب الغواية،ولولاها ماخرج آدم من الجنة،بينما صرح

(١) قصص الأنبياء - النجار ص٣٤.

القرآن بالمسئولية المشتركة/وحمّل آدم العبء الأكبر بحكم قوامته ومسئوليته الاجتماعية كرجل.

ز) صرحت التوراة بأن الإله قد خاف من عودة آدم إلى الجنة ليأكل من شجرة الخلد، فيكون له البقاء، ولذلك أقام أمام الجنة حارسين هما (الكروبيم ولهيب سيف متقلب لحراسة طريق شجر الحياة)[1].

ح) لم تشر التوراة إلى نبوة آدم بينما أشارت نصوص القرآن إلى النبوة احتمالاً وقطعت بها السنة المطهرة.

ط) لم يرد ذكر لتوبة آدم فى التوراة، بل بقيت الخطيئة قائمة بجميع بنيه حتى أتى المسيح ليخلص البشرية من ذنب الخطيئة الأولى -كما يعتقد النصارى-[2] بينما صرح القرآن بالتوبة وبقبول الله لها.

ى) ذكرت التوراة سنى حياة آدم وعدد أولاده وأحفاده... إلخ، ولم يرد لذلك ذكر فى القرآن، وأما ذكر (ابنى آدم) فى القرآن فقد نقل المفسرون الأسماء عن التوراة مع أن السنة اكتفت بنص القرآن فقط (ما من نفس تقتل ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل منها لأنه أول من سن القتل)[3].

---

(١) تكوين ٢٤/٣.

(٢) جمهور النصارى على أن آدم -عليه السلام- مات ولم يتب من ذنبه وقد بقى الذنب فى رقاب سائر ولده حتى أتى المسيح ليكفر الذنب عن السابقين واللاحقين وفقاً لشريعة الناموس، ولعظم الخطية فى حق الله وسقوط منزلة آدم وجدنا المسيح يقدم نفسه على الصليب فداء للبشرية ويستشهدون لذلك بالنصوص التالية:

- كما أن ابن الإنسان لم يأت ليخدم بل ليخدم وليبذل نفسه فدية عن كثيرين (متى ٢٨/٢٠).
- لأن هذا هو دمى الذى للعهد الجديد يسفك من أجل كثيرين لمغفرة الخطايا (متى ٢٨/٣٦).
- ولكن الله بين محبته لنا لأنه ونحن بعد خطاة مات المسيح لأجلنا (رومية ٨/٥).
- فإذا كما بخطية واحدة صار الحكم إلى جميع الناس للدينونة هكذا بير واحد صارت الهبة إلى جميع الناس لتبرير الحياة (رومية ١٨/٥).

(٣) البخارى ك الجنائز ٣٣، الأنبياء ١، ومسلم ك القسامة ٢٧ ومسند أحمد ٣٨٣/١، ٤٣٠، ٤٣٣.

ك) قطعت التوراة بأن الأنهار الأربعة (فيشون - جيحون - حداقل - الفرات) تخرج من الجنة التى كان يسكنها آدم، بصورة مباشرة، وليس فى القرآن ذلك، وقد أشارت السنة إلى أن النيل والفرات من الجنة على سبيل المجاز لا الحقيقة -كما يرى الشراح للحديث-.

ل) العقوبات التأديبية المنسوبة إلى الله والموضوعة على المرأة (الحمل - الولادة - الشوق إلى الرجل - الحيض - علو الرجل عليها- إسقاط الجمعة- إسقاط الجهاد....) وكذلك الموضوعة على الحية (قطع الأرجل- الأجنحة- شق اللسان- أكل الطين- المشى على البطن- العداء مع الإنسان... إلخ) هى من دلالة الوضع فى القصة وقد نقلها صاحب كتاب عرائس المجالس، صاحب كتاب سمط النجوم العوالى، عن الفكر الإسرائيلى وما ألحق به.

م) صرحت التوراة بأن الإله كان يمشى فى الجنة حين أكل آدم من الشجرة بينما ينزه القرآن الذات الإلهية عن الحلول والاتحاد.

ن) حددت التوراة صورة الذات الإلهية، وذلك بقطع النصوص أن الله خلق الإنسان على صورته كشبهه، بينما أشار القرآن إلى تكريم الإنسان حين الخلق، ومن مظاهر التكريم (جمال الصورة) قال تعالى ﴿يا أيها الإنسان ماغرك بربك الكريم * الذى خلقك فسواك فعدلك * فى أى صورة ماشاء ركبك﴾[1] .

(١) الإنفطار ٦، ٧، ٨.

« ٢ » دعــوة

إدريــس عليه الســلام

ورد ذكره في القرآن مرتين، وأشارت إليه السنة في بعض الأحاديث صراحة، وشراح السنة جعلوه المراد في أحاديث أخرى لم ينص فيها على الاسم المراد الحديث عنه بل الوصف، ويمكن بيان ذلك على النحو التالي :

ورد ذكر إدريس في القرآن في سورتين..

الأولى: سورة مريم في قول الحق سبحانه ﴿واذكر في الكتاب إدريس إنه كان صديقا نبياً * ورفعناه مكاناً علياً﴾[1] . وقد ذكرت هذه السورة -قبل إدريس- كلا من زكريا ويحيى وعيسى وإبراهيم وإسحاق ويعقوب وموسى وهارون وإسماعيل. وقد وُصِف في هذه السورة بالنبوة كما امتُدح بأخص الصفات الواجبة في حق الأنبياء وهي صفة الصدق، وورد الوصف بصيغة المبالغة (صدّيقا) كما أشارت إلى منزلته عند الله (ورفعناه مكاناً علياً). ويلاحظ أن ذكر الأنبياء في السورة لم يرد مرتباً ترتيباً زمنياً، لأن القرآن وإن ورد به شيء من التاريخ فليس من أهدافه التاريخ لذاته، ومن هنا يتعذّر تحديد زمن نبوة إدريس من خلال القرآن، لأنه لم يشر إلى خلافته لغيره أو استخلاف غيره له كما ورد بحق هود وصالح-عليهما السلام-كما لم يذكر عمود النسب كما ورد بحق إسحاق ويعقوب ويوسف.

الثانية: في سورة الأنبياء. قال تعالى ﴿وإسماعيل وإدريس وذا الكفل كل من الصابرين * وأدخلناهم في رحمتنا إنهم من الصالحين﴾[2] . وقد ذكرت هذه السورة عدداً من الأنبياء -كما ذكرت سورةُ مريم- وكلتا السورتين مكيتين، كما أشارت إلى بعض مايعترى الأنبياء من إيذاء أثناء البلاغ، فكان الصبر منهم على الأداء مع الاستعانة بالله في كل حال، غير مبالين بما يصيبهم، وذلك للربط بين حال أهل مكة وحال الأمم السابقة، وخصت بالذكر إبراهيم ولوطا وإسحاق ويعقوب ونوحاً وداود وسليمان وأيوب وإسماعيل وذا الكفل وذا النون وزكريا وعيسى -عليهم جميعاً السلام-.

وقد قرنت الآية بين إسماعيل وإدريس وذى الكفل، رغم بعد الزمن، لبيان اتحاد حال الدعاة، وتشابه حال المعارضين، ولبيان الصفة الثانية التي ينبغي أن يتحلى بها

---

(١) سورة مريم ٥٦، ٥٧. (٢) سورة الأنبياء ٨٥، ٨٦.

الدعاة حين البلاغ وهى صفة الصبر، كما وصفوا كذلك بالصلاح.

وأما معالم دعوة إدريس فلم ترد مفصلة فى القرآن،ولايتأتى استنباطها إلا من خلال النصوص العامة، كالتوحيد الذى أمر به جميع المرسلين،والتكاليف الشرعية التى لايستقيم أمر البشر إلا بها، والأخلاق التى امتدح إدريس ببعضها والتى لاغنى لأمة عن الحميد منها،لأنها سبيل الوقاية من المهلكات.

وأمّا ماورد من تحديد تكاليف معينة دعا إليها إدريس عليه السلام، فإن الأدلة عليها لم تتوافر بصورة صريحة -إذا مااستثنيا التوحيد المأخوذ من صيغ العموم فى القرآن- وبخاصة عدد الصلوات ونسبة الزكاة.....إلخ[1].

وقد إشتغل المفسرون والمؤرخون -ضمن مااشتغلوا به- ببعض القضايا الخاصة بإدريس -عليه السلام- نذكر منها...

اولا: زمن وجود إدريس عليه السلام:

جمهور المؤرخين والمفسرين متفقون على أن إدريس أسبق فى الزمن من نوح وبعد شيث-عليهما السلام-وإذا كانت نبوة نوح ثابتة فإن نبوة شيث مختلف فيها، والجمهور على عدم نبوته،لأن دلائل الإثبات غير صحيحة عند المحدثين، وقد اعتمد هؤلاء -فى تحديد الزمن- على روايات المؤرخين، ومردها على الأكثر إلى مسلمى أهل الكتاب، مما يدل على التأثر بالروايات التوراتية فى هذا الأمر، كما استنبط بعض المفسرين من آيات القرآن زمن إدريس-عليه السلام-وأنه أسبق من نوح، معتمدين فى ذلك على فهمهم لقول الحق سبحانه في سورة مريم بعد حديثه عن الأنبياء السابق الإشارة إليهم فى قول الحق **﴿أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم وممن حملنا مع نوح ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل وممن هدينا واجتبينا إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبكيا﴾**[2].

يقول الرازى: جمعهم فى كونهم من ذرية آدم،ثم خص بعضهم بأنه من ذرية

(1) عبد الله الغمارى: إدريس عليه السلام ٢٠.

(2) سورة مريم ٥٨.

من حمل مع نوح، والذى يختص بأنه من ذرية آدم دون من حمل مع نوح هو إدريس عليه السلام، فقد كان سابقاً على نوح على ماثبت فى الأخبار، والذين هم من ذرية من حمل مع نوح هو إبراهيم -عليه السلام- لأنه من ولد سام بن نوح، وإسماعيل وإسحق ويعقوب من ذرية إبراهيم -ثم خص بعضهم بأنه من ولد إسرائيل وهم موسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى من قبل الأم. ثم بين أنهم ممن هدينا واجتبينا منبهاً بذلك على أنهم اختصوا بهذه المنازل لهداية الله تعالى لهم ولأنه اختارهم للرسالة[1]... وقد تأثر بهذا الاستنباط بعض من كتب في قصص الأنبياء ودعوة الرسل[2].

وقد أخرج الحاكم فى المستدرك عن ابن عباس -رضى الله عنهما- أنه تلا هذه الآية (ولاتبرجن تبرج الجاهلية الأولى) قال: كانت فيما بين نوح وإدريس ألف سنة، وإن بطنين من ولد آدم كان أحدهما يسكن السهل والآخر يسكن الجبل، وكان رجال الجبل صباحاً وفى النساء دمامة، وكانت نساء السهل صباحاً وفى الرجال دمامة، وإن إبليس أتى رجلاً من أهل السهل فى صورة غلام الرعاة فجله فيه بصوت لم يسمع الناس مثله فاتخذوه عيداً يجتمعون إليه فى السنة، وإن رجلا من أهل الجبل هجم عليهم وهم في عيدهم ذلك، فرأى النساء وصباحتهن فأتى أصحابه فأخبرهم بذلك فتحولوا إليهن ونزلوا معهن فظهرت الفاحشة فيهن فذلك قول الله عز وجل (ولاتبرجن تبرج الجاهلية الأولى).

وعن وهب بن منبه أنه سُئل عن إدريس من هو وفى أى زمان هو؟ قال: هو جد نوح الذى يقال له خنوخ وهو فى الجنة حيّ.

وقال محمد بن إسحاق بن يسار: كان إدريس أول بنى آدم أعطى النبوة وهو أخنوخ بن يزيد بن إهلاليل بن قيناك ابن ناشر بن شيث ابن آدم.

يقول الذهبي: فى سنده عبد المنعم - أحد الرواة - كذبه أحمد.

وواضح من الرواية المنسوبة إلى ابن عباس أنها منقولة عن التوراة. ولايخفى

---

(1) مفاتيح الغيب ٢٣٥/٢١.

(2) فى موكب النبيين ١٢٨، ١٢٩.

على أحد منزلة وهب بن منبه عند رجال التراجم والسير.

وقد ذكر المؤرخون إدريس -عليه السلام- فى الحوادث الواقعة بين آدم ونوح عليهما السلام[1].

ثانية المراد برفع إدريس عليه السلام:

لعلماء المسلمين فى ذلك رأيان :

الرأي الأول: يرى أهله أن إدريس رفع بجسده إلى السماوات العلى، واختلفوا فى المكان الذى استقر فيه، وجملة الآراء ترجع إلى:

أ- أنه رفع إلى السماء الرابعة وينسب هذا الرأى إلى أنس بن مالك وكعب الأحبار وأبى سعيد الخدرى ومجاهد وأبى العالية[2]. وقد استشهدوا لرأيهم بما ورد فى السنة من أحاديث تتعلق بالمعراج، ففى الصحيحين من طريق مالك بن صعصعة كما ذكر البخارى، وعن أنس بن مالك فى صحيح مسلم أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ذكر المعراج وفيه (... ثم صعد بى حتى أتى السماء الرابعة فاستفتح قيل من هذا قال جبريل قيل ومن معك قال محمد قيل أوقد أرسل إليه قال نعم قيل مرحباً به فنعم المجيء ففتح فلما خلصت إلى إدريس قال هذا إدريس فسلّم عليه فسلّمت عليه فردّ ثم قال مرحباً بالأخ الصالح والنبى الصالح... الحديث[3].

وروى الترمذى عن قتادة فى قوله (ورفعناه مكاناً عليّاً) قال: حدثنا أنس بن مالك. أن نبى الله صلى الله عليه وسلم قال (لما عرج بى رأيت إدريس فى السماء الرابعة)[4]. وهذا الرأى هو الشائع لدى عامة المسلمين.

ب- أنه رفع إلى السماء السادسة وبه قال الضحاك. وفى رأى لابن عباس أنه

---

(١) تاريخ الأمم والملوك ١/١٦٤-١٧٨ والبداية والنهاية ١/٩٩، ١٠٠ والكامل ١/٦٢: ٦٤ البدء والتاريخ ٣/١١.

(٢) الكشاف ٢/٥١٣، زاد المسير ٥/٢٤١، قصص الأنبياء لابن كثير ١/٧٢.

(٣) البخارى باب المعراج ٥/٥٢، مسلم ك الإيمان. باب الإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السموات ١/١٤٦.

(٤) الترمذى. ك التفسير، من سورة مريم حديث رقم ٥١٦٦.

رفع إليها ومات بها. واعتمد أصحاب هذا الرأى على الحديث الذى ذكره الحاكم وفيه: عن الحسن البصرى عن سمرة بن جندب قال: ثم كان نبى الله إدريس رجلاً أبيض طويلاً ضخم البطن عريض الصدر قليل شعر الجسد كبير شعر الرأس وكانت إحدى عينيه أعظم من الأخرى وكانت فى صدره ثلاثة (بياض من غير برص) فلما رأى اللهُ من أهل الأرض ما رأى من جورهم واعتدائهم فى أمر الله رفعه الله إلى السماء السادسة فهو حيث يقول (ورفعناه مكانا عليا).

يقول الذهبي: إسناده مظلم لاتقوم به حجة[1].

جـ- أنه رفع بجسده إلى الجنة وأنه حي فيها حياة حقيقية في رأى وحياة كحياة الشهداء فى رأى آخر. وبه قال الحسن[2].

د- أنه رفع إلى السماء السابعة حكاه أبو سليمان الدمشقي[3].

هـ- أنه رفع إلى مكان عالٍ غير محدد وهذا أولى. لأن الرفعة المقرونة بالمكان تكون رفعة فى المكان لافى الدرجة وهذا ما رآه الرازى[4].

الرأي الثاني: يرى أهله أن الرفع الوارد في حق إدريس عليه السلام رفع منزلة. وهو أحد رأيين ذكرهما الطبرى[5] والرازى[6] قائلاً: إنه من رفعة المنزلة كقوله تعالى لمحمد -صلى الله عليه وسلم- (ورفعنا لك ذكرك) فإن الله تعالى شرفه بالنبوة وأنزل عليه ثلاثين صحيفة وهو أول من خط بالقلم ونظر فى علم النجوم والحساب وأول من خاط الثياب ولبسها وكانوا يلبسون الجلود...

وفى أحد رأيين للحسن أن الرفع مراد به شرف النبوة والزلفى عند الله تعالى

---

(١) المستدرك على الصحيحين ك التاريخ باب ذكر إدريس النبى ٢/٥٤٩ ط دار الكتاب العربى. بيروت – لبنان.

(٢) قصص الأنبياء لابن كثير ٧٣/١.

(٣) زاد المسير ٢٤٦/٥.

(٤) مفاتيح الغيب ٢٣٤/٢١.

(٥) جامع البيان ٧٢/١٦، ٧٣.

(٦) مفاتيح الغيب ٢٣٤/٢١.

كما روى عن الحسن وإليه ذهب الجبائى وأبو مسلم[1].

وقد ردّ هذا الرأى أحد الباحثين قائلا: وليس بعد بيان رسول الله -عليه الصلاة والسلام- بيان. والذين أوّلوا الآية على رفعة المكانة وشرف النبوة والزلفى، لانوافقهم على هذا التأويل، بل نرده لوجهين:

أحدهما: أنه مخالف لكلام النبى -صلى الله عليه وسلم-

ثانيهما: أن ذلك المعنى مشترك بين جميع الأنبياء-عليهم السلام-كما هو معلوم بالضرورة، بل لفظ «النبى» معناه مرفوع الرتبة والمكانة، لأنه مأخوذ من النوبة وهى الرفعة فلولا أن إدريس رفع حقيقة لم يكن لذكر الرفع بجانبه معنى، ولكان أولى به إبراهيم خليل الله أو موسى كليم الله، مع أنه لم يذكر الرفع بجانب اسميهما كما ذكر بجانب إدريس عليهم السلام[2].

ولايعدو ذلك الاتجاه أن يكون انتصاراً للرأى الأول.

ويمكن القول إن أحاديث المعراج فى معناها خلاف بين شراح السنة، وبخاصة أنه وردت روايات فى السنة بشأن الإسراء،تصرح بأن الأنبياء قد جمعوا للرسول فى بيت المقدس،فصلى بهم إماماً، فهل جمعوا من القبور إلى بيت المقدس أم نزلوا من السماء؟ وهل كان ذلك للأجساد والأرواح أو للأرواح فقط؟ وهل جمعوا بحياة كحياتنا الدنيوية،فيكون البعث بعد الموت ثم الموت ثانية ثم البعث الأخير وهو مايصادم قوله تعالى ﴿منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى﴾[3] . أومازالوا أحياء،وهو مايصادم كثيراً من النصوص فى القرآن والسنة...،الأمر غيب وأحاديث المعراج فيها تفاوت،من حيث ترتيب الأنبياء فى السموات،وإن رجح علماء الحديث بعض الروايات على بعض،وفق القواعد المتعارف عليها عندهم، إلا أنه لم يرد نص صريح قطعى الدلالة على أن رفع إدريس إلى السماء الرابعة كان بالجسد والروح بلاموت، وماحال إدريس فى أحاديث المعراج إلا كحال آدم ويحيى وعيسى ويوسف

---

(١) الألوسى ١٦/١٠٥.

(٢) عبد الله الغمارى: إدريس عليه السلام ١٢.

(٣) سورة طه ٥٥.

وموسى وإبراهيم -عليهم السلام- ولم يقل أحد برفع أجسادهم لأن وفاة كثيرين منهم تمت بين ذويهم ومقابر بعضهم معروفة -إن صحت روايات المؤرخين-

ووصف إدريس بالرفع المكانى فى سورة مريم لايحرم غيره من ذلك، لأن الأسلوب لم يرد بصيغة القصر، ولايتأتى قبول الرفع الجسمانى مع البقاء على قيد الحياة حتى يومنا هذا -فضلاً عن ملاقاته لعيسى في بعض الروايات وللخضر في روايات أخرى- إلا إذا غيب العقل وحيل بين الإنسان والتفكير وهو مايصادم طبع العقل وروح القرآن.

ثالثاً: أسباب رفع إدريس إلى السماء - عند من يرى ذلك-

يرى بعض المفسرين والمؤرخين أن إدريس هو الذى طلب الصعود إلى السماء فاستجيب له، فلما بلغ السماء الرابعة وافته المنية -ثم بعثه الله ثانية -ويعتمدون فى ذلك على الرواية التالية، عن هلال بن يساف قال: سأل ابن عباس كعب وأنا حاضر فقال له: ماقول الله تعالى لإدريس (ورفعناه مكانا عليا)؟ فقال كعب: أما إدريس فإن الله أوحى إليه: إنى أرفع لك كل يوم مثل جميع عمل بنى آدم فأحب أن يزداد عملاً. فأتاه خليل له من الملائكة فقال إن الله أوحى إلىّ كذا وكذا فكلم ملك الموت حتى أزداد عملاً. فحمله بين جناحيه، ثم صعد به إلى السماء فلما كان فى السماء الرابعة -أتاه ملك الموت منحدراً، فكلم ملك الموت فى الذى كلمه فيه إدريس فقال وأين إدريس؟ قال هو ذا على ظهرى. فقال ملك الموت بالتعجب بعثت وقيل لى اقبض روحه في السماء الرابعة وهو فى الأرض؟ فقبض روحه هناك فذلك قول الله عز وجل (ورفعناه مكانا عليا) رواه بن أبى حاتم عند تفسيرها. وعنده فقال الملك الملك: سل لي ملك الموت: كم بقى من عمرى؟ فسأله وهو معه كم بقى من عمره؟ فقال لا أدرى حتى أنظر فنظر فقال إنك لتسألنى عن رجل مابقى من عمره إلا طرفة عين. فنظر الملك إلى تحت جناحه إلى إدريس فإذا هو قد قبض وهو لايشعر.

يقول ابن كثير بعد ذكر هذه القصة. وهذا من الإسرائيليات وفى بعضه نكارة[1].

(١) قصص الأنبياء لابن كثير ٧٣/١، البداية والنهاية ١٠٠/١ والألوسى ١٠٦/١٦.

وقد ذكر هذه القصة غيرُ واحد من المفسرين[1]. وتبدو مخالفة القصة للنقل والعقل بصورة لاتحتاج إلى تفصيل.

رابعاً: هل إدريس هو إلياس؟

طرح هذا السؤال كثير من المفسرين. متأثرين بما ورد فى صحيح البخارى (ويذكر عن ابن مسعود أن إلياس هو إدريس) واستأنسوا لذلك بما جاء فى حديث الزهرى عن أنس فى الإسراء أنه لما مرَّ به عليه السلام. قال له مرحبا بالأخ الصالح والنبى الصالح[2]. ولم يقل كما قال آدم وإبراهيم مرحباً بالنبى الصالح والابن الصالح: قالوا فلو كان فى عمود نسبه لقال له كما قالا له. يقول ابن كثير: وهذا لايدل ولابد لأنهَ قد لايكون الراوى حفظه جيداً. أو لعله قال على سبيل الهضم والتواضع ولم ينتصب له فى مقام الأبوة كما انتصب لآدم أبى البشر[3].

وقد ردَّ جمهور المفسرين كون المراد بإدريس فى القرآن إلياس. وأنهما اسمان لمسمى واحد. يقول الرازى: فى إلياس قولان... يروى عن ابن مسعود أنه قرأ (وإن إدريس) وقال: إن إلياس هو إدريس وهذا قول عكرمة.

وأما أكثر المفسرين فهم متفقون على أنه نبى من أنبياء بنى إسرائيل وهو إلياس بن ياسين من ولد هارون أخى موسى عليهما السلام[4].

ويقول القرطبى: قوله تعالى ﴿وإن إلياس لمن المرسلين﴾ قال المفسرون: إلياس نبى من أنبياء بنى إسرائيل. وروى عن ابن مسعود قال. إسرائيل هو يعقوب وإلياس هو إدريس، وقرأ (وإن إدريس) وقاله عكرمة وقال: هو فى مصحف عبد الله (وإن إدريس لمن المرسلين) وانفرد بهذا القول.

وقال ابن عباس: هو عم اليسع. وقال ابن اسحاق وغيره. كان القيم بأمر بنى

---

(١) زاد المسير ٢٤١/٥ والقرطبى ١١٨/١١ والرازى ٢٣٤/٢١.

(٢) صحيح البخارى. باب المعراج جـ٥٢/٥، صحيح مسلم ك الإيمان باب الإسراء برسول الله صلوات الله عليه.

(٣) قصص الأنبياء لابن كثير ٧٣/١.

(٤) مفاتيح الغيب ١٦٢/٢٦.

إسرائيل بعد يوشع. كالب بن يوقنا ثم حزقيل. ثم لما قبض الله حزقيل النبي عظمت الأحداث في بني إسرائيل، ونسوا عهد الله وعبدوا الأوثان من دونه فبعث الله إليهم إلياس نبياً وتبعه اليسع[1].

وقد ردّ أبو حيان نسبة هذا القول إلى ابن مسعود، ومما ورد في البحر المحيط وإلياس، قال ابن مسعود وقتادة هو إدريس عليه السلام، ونقلوا عن ابن مسعود وابن وثاب والأعمش والمنهال بن عمر والحكم بن عتيبة الكوفي: أنهم قرأوا ﴿وإن إدريس لمن المرسلين﴾ وهي محمولة عندي على تفسيره، لأن المستفيض عن ابن مسعود أنه قرأ ﴿وإن إلياس﴾ وأيضاً تفسيره إلياس بأنه إدريس لعله لا يصح عنه لأن إدريس في التاريخ المنقول كان قبل نوح، وفي سورة الأنعام ذكر إلياس وأنه من ذرية إبراهيم أو من ذرية نوح على ما يحتمله قوله تعالى ﴿ووهبنا له إسحاق ويعقوب كلا هدينا ونوحاً هدينا من قبل ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزي المحسنين * وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كل من الصالحين...﴾[2]. وفصّل الألوسي القول في هذا الأمر، ونقل عن بعض السابقين رأيهم، ومما ذكره في روح المعاني (يقول الطبري عن نسب إلياس: هو إلياس بن ياسين بن فنحاص بن العيزار بن هارون أخي موسى عليهما السلام، فهو إسرائيلي من سبط هارون، وحكى القتبي أنه من سبط يوشع، وحكى الطبرسي أنه ابن عم اليسع وأنه بعث بعد حزقيل..

وفي إطار الردّ على دعوى : إن إدريس هو إلياس ورد قوله: إذا فسر إلياس بإدريس على أن أحد اللفظين اسم والآخر لقب، فإن كان المراد بهما من سمعت نسبه فلا بأس به، وإن كان المراد بهما إدريس المشهور والذي رفعه الله مكاناً علياً، وهو على ما قيل أخنوخ بن يرد بن مهلاييل بن أنوش بن قينان بن شيث بن آدم، وكان على ماذكره المؤرخون قبل نوح أشكل الأمر في قوله تعالى ﴿وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم * ووهبنا له إسحاق ويعقوب كلا هدينا ونوحاً هدينا من قبل ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١١٥/١٥.
(٢) البحر المحيط ٣٧٢/٧، ٣٧٣.

وهارون وكذلك نجزى المحسنين * وزكريا ويحيى وعيسى وألياس كل من الصالحين * وإسماعيل واليسع ويونس ولوطا وكلا فضلنا على العالمين﴾[1] . لأن ضمير (ذريته) إما أن يكون لإبراهيم لأن الكلام فيه وإما أن يكون لنوح لأنه أقرب. ولأن يونس ولوطا ليسا من ذرية إبراهيم.

وعلى التقديرين لايتسنى نظم إلياس المراد به إدريس الذى هو قبل نوح على ماسمعت في عداد الذرية.

ويرد على القول بالاتحاد مطلقاً أنه خلاف الظاهر فلا تغفل[2].

وقد ردّ كون إدريس هو إلياس كل من: الزمخشرى فى الكشاف (٧١٥/٣) والبقاعى فى نظم الدرر (٢٨٣/١٦) والخطيب الشربينى فى السراج الوهاج (٣٨٩/٣) وصديق حسن خان فى فتح البيان فى مقاصد القرآن (١٢٥/٨).

قلت: إنه لايتأتى كون إدريس هو إلياس للأسباب السابقة أولاً وللأسباب التالية ثانياً:

١- إن هذه الرواية رواية آحاد تنسب إلى ابن مسعود وهى لاترد المتواتر وقد أبطل البعض نسبتها إلى ابن مسعود.

٢- كيف يغيب عن جمهور الصحابة والتابعين ذلك وقد عاصروا التنزيل والتدوين.

٣- بالرجوع إلى بعض كتب القراءات لم أجد هذه القراءة فيها[3].

خامساً: هل إدريس حي او ميت الآن؟

للعلماء فى ذلك رأيان..

---

(١) الأنعام ٨٣-٨٦.

(٢) روح المعانى ١٣٨/٢٣، ١٣٩.

(٣) راجع: النشر فى القراءات العشر. بن الجزرى ٣٥٧/٢ ط دار الكتب العلمية بيروت. لبنان. الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها. مكى بن أبى طالب. ط مؤسسة الرسالة ٢٢٧/٢/٢٢٨. حجة القراءات ٦١٠، ٦١١. ط مؤسسة الرسالة ط٢ سنة ١٩٧٩.

الرأي الأول: أخذ أهله بظاهر النص (ورفعناه مكانا عليا) فادعوا أن إدريس عليه السلام مازال حياً حتى الآن وإن اختلفوا في مكانه (السماء الرابعة- السادسة- الجنة...) وأن حياته كحياة سائر البشر في هذه الحياة.

وقد استشهد القائلون بأنه حي في السماء الرابعة بحديث المعراج السابق.

وأما الذين قالوا: إنه في السماء السادسة فقد استشهدوا بما ورد في المستدرك سابقاً.

وأما القائلون بأنه دخل الجنة حياً فاعتمدوا على روايات مضرب المثل في الغرابة، منها مارواه الطبراني في الأوسط بإسناد ضعيف عن أم سلمة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إن إدريس كان صديقاً لملك الموت فسأله أن يريه الجنة والنار، فصعد بإدريس فأراه النار، ففزع منها وكان يغشى عليه فالتف عليه ملك الموت بجناحه، فقال ملك الموت: أليس قد رأيتها؟ قال: بلى ولم أر كاليوم قط، ثم انطلق به حتى أراه الجنة فدخلها، فقال ملك الموت: انطلق قد رأيتها، قال إلى أين؟ قال ملك الموت: حيث كنت، قال إدريس: لا والله لا أخرج منها بعد أن دخلتها، فقيل لملك الموت أنت أدخلته إياها وإنه ليس لأحد دخلها أن يخرج منها[1] رواه الطبراني في الأوسط بإسناد ضعيف.

وفي رواية لابن أبي حاتم من طريق داود بن أبي هند عن بعض أصحابه قال: كان ملك الموت صديقاً لإدريس عليه السلام فقال له إدريس يوماً: ياملك الموت، قال لبيك، قال أمتني فأرني كيف الموت؟ قال له ملك الموت: سبحان الله يا إدريس إنما يفر أهل السموات والأرض من الموت وتسألني أن أريك كيف الموت؟ قال: إني أحب أن أراه، فلما ألح عليه، قال له: يا إدريس إنما أنا عبد مملوك مثلك، وليس لي من الأمر شيء، فصعد ملك الموت فقال: يارب إن عبدك سألني أن أريه الموت كيف هو؟ فقال الله: فأمته، قال له ملك الموت: إنما يفر الخلق من الموت، قال: فأرني، فلما مات بقي ملك الموت لايستطيع أن يرد روحه إليه، فقال: يارب قد ترى ما إدريس

---

(١) نقلاً عن : عبد الله الغماري: إدريس عليه السلام ص١٤.

فيه، فرد الله روحه إليه، فمكث ماشاء الله حياً، ثم قال: ياملك الموت أدخلني الجنة فأنظر إليها. قال له: ياإدريس إنما أنا عبد مملوك مثلك ليس لي من الأمر شيء فألح عليه. فقال ملك الموت: يارب إن عبدك إدريس قد ألح يسألني أن أدخله الجنة فيراها. وقد قلت له: إنما أنا عبد مملوك مثلك وليس لي من الأمر شيء. قال الله: فأدخله الجنة، فكان فيها ماشاء الله، فقال له ملك الموت: اخرج بنا. قال: لاوالله، قال الله: مانحن بميتين إلا موتتنا الأولى وقال الله (وماهم منها بمخرجين) وما أنا بخارج منها، قال ملك الموت: يارب قد تسمع مايقوله عبدك إدريس قال الله: صدق عبدي هو أعلم منك. فاخرج منها ودعه فيها. فقال الله (ورفعناه مكاناً عليا)[1].

وهاتان الروايتان تصادمان النقل والعقل، لأنه لاستكنى لأحد في جنة الخلد بجسده وروحه قبل يوم الحساب، وقد نصتا على موت إدريس وبعثه، وأمر عدم الخروج من الجنة الذي احتج به إدريس مردود لأن آدم وحواء دخلاها وخرجا منها -عند من يرى أنها جنة الخلد- فضلاً عن قضية الحوار التي تجعل القصة أقرب إلى المسلسلات منها إلى الحقائق، وضعف سندها يبطل حجيتها.

سادسة: هل إدريس هو هرمس الهرامسة:

ذهب كثير من المؤرخين إلى أن إدريس عليه السلام هو هرمس الهرامسة وقيل غير ذلك -كما اختلفوا في البلد التي نشأ فيها والتي هاجر إليها- وقد أسماه كثيرون بغير هذين الاسمين. ونسبوا إليه كثيراً من الحكم والمواعظ والتعاليم، كما ادعى بعضهم بناءه الأهرام ونسبوا إليه من الأوليات الكثير والكثير كالنظر في النجوم وبناء الهياكل وعلم الطب ونظم الشعر والحياكة والخط بالقلم وأول من سبى في الحروب...

وقد وردت تلك الأمور كمسلمات لدى البعض. فأوردها ولم يعقب عليها وردها البعض الآخر[2]. وفي هذا الصدد يقول الشيخ النجار (فأنتم ترون أن ماجاء عن إدريس في هذا الكتاب- أخبار الحكماء- لم تؤيد بنقل صحيح ولم يعضدها نص

---

(١) المرجع السابق، ص١٦.

(٢) بدائع الزهور في وقائع الدهور ٨٢/١-٨٦ والبداية والنهاية ٩٩/١ تاريخ الأمم والملوك =

قاطع نشهد به على الله تعالى أنه صنعه لعبده ونبيه إدريس -عليه السلام- وكلها أقوال بماقمشت وضم حبل الحاطب، فهى أقوال لابأس بالاطلاع عليها كما يطلع المرء على غيرها من السير التى هى أشبه بالخرافات، والباحثون فى العاديات وأهل التاريخ القديم لايجدون فى بحوثهم مايؤيد هذه الأخبار -بل هم- يجدون مايناقضها من العلم بأسماء بناة الأهرام والملوك الأولين الذين قاموا بالدولة فى مصر من مينا وخوفو وخفرع ومنقرع وغيرهم. الذين شيدوا المعابد وحفروا البرابى ونقشوا عليها ماهو ماثل اليوم. وذلك كله بخطوط خاصة يقرؤونها ويفسرونها[1].

سابعة: هل إدريس هو أخنوخ الوارد في الكتاب المقدس؟

• هذا ماعليه جمهور المؤرخين والمفسرين المسلمين، حتى إنهم اعتمدوا فى نسب إدريس -عليه السلام- على ماجاء فى الكتاب المقدس بشأن «أخنوخ» ويبدو أن ولوعهم بذكر نسب كل نبى ورد اسمه فى القرآن، دفعهم إلى القول بأن إدريس هو «أخنوخ» إذ عندما تصدّوا لكتابة قصص الأنبياء، وجدوا أن القرآن الكريم أشار إلى بعضهم إشارات عابرة -لأنه ليس كتاب قصص فى المقام الأول بل هو تشريع- لذا بحثوا عما سكت عنه في الكتاب المقدس، فكان عملهم هذا غير علمى -فى محيط المجتمع الإسلامى- إذ المصدر الذى يعتمد عليه فى البحث العلمى يشترط فيه أن يكون صحيحاً، وخاصة فيما يتعلق بشرح ماجاء فى القرآن الكريم.

وعليه فقول المؤرخين المسلمين إن إدريس هو «أخنوخ» يفتقر إلى دليل صحيح من مصادر التشريع الإسلامى[2].

ومأورد من روايات فى السنة تصرح بأن إدريس هو أخنوخ ففيها ضعف ولعل الراوى ذكر «أخنوخ» تفسيراً لإدريس، أخرج ابن حبان فى صحيحه وابن مردويه فى تفسيره والآجرى فى الأربعين عن أبى ذر- رضى الله عنه- من حديث طويل. وفيه

____

= ١/١٧٠-١٧٨ وعرائس المجالس ٢٩-٣٢، وقصص الأنبياء - الشيخ النجار ٤٧-٥٢ والنبوة والأنبياء للصابونى ١٤٤/٢٤٥ والدعاة إلى الله فى القرآن الكريم ومناهجهم ٥٣/٥٤، فى رحاب القرآن. أ.د. محمد شامة ١٧٢.

(١) قصص الأنبياء ص٥٢.

(٢) فى رحاب القرآن ١/١٧٢.

«قلت يارسول الله كم كتاب أنزل الله؟ قال: مائة كتاب وأربعة كتب. أنزل الله على شيث خمسين صحيفة وعلى خنوخ ثلاثين صحيفة وعلى إبراهيم عشر صحائف وعلى موسى قبل التوراة عشر صحائف وأنزل التوراة والإنجيل والزبور والفرقان.

يقول أحد الباحثين: وهذا الحديث -وإن كان ضعيفاً- له طرق كثيرة. ووردت جمل منه فى أحاديث متفرقة[1].

امور خاض فيها كثيرون لافائدة من ذكرها مفصلة

سبب تسميته بإدريس[2]. نسبه[3]. ملامح شخصيته[4]. اسم زوجته[5]. اسم أولاده[6]. عدد الصحف التى نزلت عليه[7]. مهاراته بالتفصيل[8]. عموم رسالته[9]. مكان دعوته[10]. من معالم دعوته[11]. صلته بالرسول[12]. مدة إقامته فى

---

(١) عبد الله الغمارى- إدريس عليه السلام. عالم الكتب ط٢-١٩٨٦م.

(٢) بدائع الزهور ٨٢/١، الكشاف ٥١٣/٣، البدء والتاريخ ١١/٢ سمط النجوم ٨٩/١ أخبار الدول وآثار الأول ٢١، إدريس عليه السلام للغمارى ٣،٤.

(٣) الثعلبى ٢٩، تاريخ الأمم والملوك ١٧٢/١، البداية والنهاية ٩٩/١، بدائع الزهور ٨٢/١ قصص الأنبياء للشيخ النجار ٤٥.

(٤) كتاب أخبار الدول وآثار الأول فى التاريخ- القرمانى ٢١، قصص الأنبياء - للشيخ النجار ٥٠.

(٥) تاريخ الأمم والملوك ١٧٢/١.

(٦) تاريخ الأمم والملوك ١٧٢/١.

(٧) الطبرى ١٧٠/١، الكامل ٦٠/١، مروج الذهب ٤٠/١ سمط النجوم العوالى ٨٩/١ أخبار الدول وآثار الأول ٢١،١١/١، بدائع الزهور ٨٢/١.

(٨) تاريخ الطبرى ١٧٠/١، الكامل ٦٢،٥٩/١، مروج الذهب ٤٠/١، قصص الأنبياء للثعلبى ٢٩، البدء والتاريخ ١١/٢، بدائع الزهور ٨٢/١، أخبار الدول ٢١.

(٩) الطبرى ١٧١/١.

(١٠) قصص الأنبياء للنجار ٤٧ ،٤٨، إدريس عليه السلام. للغمارى ١٧-١٩ النبوة والأنبياء- للصابونى ٢٤٤.

(١١) قصص الأنبياء للنجار ٤٨-٥١، إدريس عليه السلام. للغمارى ١٩-٢٣، تاريخ الأمم والملوك ١٧٠/١.

(١٢) قصص الأنبياء - لابن كثير ٧١/١ بدائع الزهور ٨٣/١.

الأرض[1]. صداقته لملك الشمس[2]. صلته الشخصية بملك الموت[3]. سنه حين رفعه[4]. الخلاف بينه وبين خازن الجنة[5].

هل ذُكِر إدريس-عليه السلام- في الكتاب المقدس؟

لم يرد ذكر لاسم (إدريس) بهذا النص فى الكتاب المقدس، وإنما ورد اسم (أخنوخ) وهو مايراه المؤرخون المسلمون اسماً لإدريس عند أهل الكتاب، وقد نقلوه فى موطن الحديث عن إدريس-عليه السلام-فى كتبهم بعدة صور منها (أخنوخ- خنوخ- حنوخ- أهنوخ)[6].

فما هو حديث الكتاب المقدس عن «أخنوخ» هذا؟

ورد ذكره عشر مرات فى الكتاب المقدس. فى ثلاثة مواضع: كان الحديث منصباً على نسبه فى موضعين وصلة المسيح به فى موضع آخر. بيانها كمايلى...

الموضع الأول: سفر التكوين صح ١/٥-٢٤ كان الحديث منصباً على بيان نسب أخنوخ مفصلاً وعلى عقبه كذلك،دون الإشارة إلى شئ من رسالته أو تعاليمه، وغاية مانسب إليه وصفه بالنبوة والاستقامة،حتى رضى الله عنه فأخذه إليه ولم يُرَ بعد ذلك، وفى النص (وعاش أخنوخ خمسا وستين سنة، وولد متوشالح، وسار أخنوخ مع الله بعدما ولد متوشالح ثلاث مئة سنة وولد بنين وبنات، فكانت كل أيام أخنوخ ثلاث مئة وخمسا وستين سنة، وسار أخنوخ مع الله ولم يوجد لأن الله أخذه[7].

---

(١) مروج الذهب ٤٠/١ النبوة والأنبياء - للصابونى ٢٤٤.

(٢) إدريس عليه السلام - للغمارى ١٢،١٣.

(٣) بدائع الزهور ٨٢/١، أخبار الدول وآثار الأول ٢٢/٢١، إدريس عليه السلام - للغمارى ١٤-١٦، قصص الأنبياء للثعلبى ص٢٩،٣٠.

(٤) تاريخ الأمم والملوك ١٧٠/١، الكامل فى التاريخ ٦٠/١ سمط النجوم العوالى ٩١/١، أخبار الدول وآثار الأول ٢٢.

(٥) قصص الأنبياء. للثعلبى ٣٠، بدائع الزهور ٨٣/١، أخبار الدول وآثار الأول، ٢٢.

(٦) إدريس عليه السلام - الغمارى ٣، البداية والنهاية ٩٩، تاريخ الأمم والملوك ١٧٠/١، قصص الأنبياء للنجار، ص٤٥.

(٧) تكوين ٢١/٥-٢٤.

ومن النص ندرك...

- أن سن أخنوخ حين أنجب ولده الأول كان خمسة وستين عاماً.

- تم اصطفاء أخنوخ للنبوة بعدما أنجب متوشالح. وهو مايعبر عنه بـ (سار مع الله) كما وصف نوح بذلك (تك ٦/٩) وأمر إبراهيم بذلك (تك ١/١٧).

- وأنه بقى على ظهر الأرض ثلاث مئة سنة قبل أخذ الله له.

لم يرد فى النص مايدل على حياته أو موته.

الموضع الثاني: أخبار الأيام الأول: والحديث فيه منصب على عمود النسب فقط (آدم شيث أنوش قينان مهللئيل يارد. أخنوخ متوشالح. لامك. نوح سام....[1].

الموضع الثالث: فى إنجيل لوقا: حيث تحدث عن نسب المسيح، كما يظنه الناس من جهة يوسف، فذكر عمود النسب إلى آدم وقد بلغ آباؤه ثمانية وستين أبا بينه وبين (أخنوخ) لوقا ٣/٢٣-٣٨. كما ورد ذكر (أخنوخ) مرتين فى العهد الجديد. ففى الرسالة إلى العبرانيين ورد (بالإيمان نقل أخنوخ لكى لايرى الموت ولم يوجد لأن الله نقله، إذ قبل نقله شهد له بأنه قد أرضى الله)[2].

وفى رسالة يهوذا حذر من المعصية وبين عاقبة العصاة من البشر والملائكة، كما حذر من قيام معلمين كذبة فى الكنيسة، وذكر صفاتهم ومصيرهم وأشار إلى نبوءة أخنوخ عنهم. وفى النص: (وتنبأ عن هؤلاء أيضاً أخنوخ السابع من آدم قائلاً هوذا قد جاء الرب فى ربوات قديسيه. ليصنع دينونة على الجميع، ويعاقب جميع فجارهم على جميع أعمال فجورهم التى فجروا بها وعلى جميع الكلمات الصعبة)[3].

وبهذا يتبين حديث الكتاب المقدس عن (أخنوخ). ويبقى وجه الربط بينه وبين إدريس فى الفكر الإسلامي مفتقراً إلى دليل صحيح يعتمد عليه فى مجال البحث، ولم ترد إشارات تتعلق برسالته من قريب أو بعيد.

(١) أخبار الأيام الأول ١/١-٤. (٢) الرسالة إلى العبرانيين ١١/٥.
(٣) يهوذا ١٤، ١٥.

« ٣ » دعـــوة

نوح عليه السلام

سكن آدم الأرض، وكثر أولاده فيها حتى عمّرن بقاعاً منها، وقد ورث هؤلاء عن أبيهم عقيدة التوحيد مع تعريفهم بما يضادها من أجل الوقاية، كما أن العلم بالثواب والعقاب والجنة والنار توفر لديهم، وقصة ابنى آدم تؤكد ذلك، سواء أكانت البنوة لصلبه أم من عقبه، وقد أشار القرآن الكريم إلى أن الناس كانوا على التوحيد فترة من الزمن ثم ضلوا، فكان بعث الأنبياء وإرسال الرسل، قال تعالى ﴿كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه....﴾[1].

الإنسانية والوثنية : لم يشر القرآن إلى نشأة الوثنية، وإن أشار إليها كديانة عرفتها البشرية عبر التاريخ، ثم ناقش أتباعها، وأبطل ألوهية تلك المعبودات، في مواطن عدة عبر التاريخ، بدءاً بنوح وانتهاء بمحمد- عليهم السلام.

وإذا كان القرآن لم يشر إلى نقطة البدء في المعتقدات الوثنية، فإنه لم يمنع العقل من البحث في ذلك، ولعلها حكمة الله في الترك لتعدد الأسباب، ولتجددها قبل وبعد نزول القرآن.

ويرى بعض العلماء أن أصل الوثنية يرجع إلى أمة نوح -عليه السلام- هؤلاء القوم الذين عايشوا أناساً صالحين، حزنوا عليهم لوفاتهم فصوروا لهم صوراً حتى إذا مضى الزمن، أقاموا لهم تماثيل تذكارية، وبطول العهد كان التقديس لتلك التماثيل سواء أكان ذلك بوحي الشيطان أم بضلال الإنسان[2]. ويتمم ذلك بأمرين :

- تغيب العقل عن التفكير في شأن المعبود ومايتعلق به من صفات الكمال.

- موروثات الآباء ودورها في الإلزام إلى حد التقديس.

كما أن الإنسان إلى الحسى أقرب منه إلى الغيبى، فرؤياه إلهه وجلوسه إلى جواره، وإقامته في بيته، وتناول طعامه وشرابه بين يديه، وعبادته إياه عن قرب.... إلخ. كل ذلك أقرب إلى العاطفة منه إلى العقل، ولازلنا نرى ذلك في عالمنا اليوم، لمع

(١) البقرة ٢١٣.

(٢) اقرأ التفاصيل في تفسير الطبرى ٦٢/٢٩ والبداية والنهاية ١٠٦/١ والجامع لأحكام القرآن ٣٠٧/١٨-٣١٠.

التقدم الحضارى الذى انتهت إليه اليابان اليوم،نراها تقدس الأوثان يشاركها فى ذلك بعض الدول الشرقية من آسيا.

إرسال نوح إلى قومه : لم يشر القرآن الكريم إلى المكان الذى أقام به قوم نوح، كما لم يشر إلى الزمان،وإنما ركز على الأمة باعتبارها مدعوة،وبين موقفها من الدعوة كما أشار إلى الداع والدعوة والوسيلة،لأن شبهاً كبيراً بين دعوة نوح-عليه السلام- وبين دعوة محمد -عليه السلام- من ناحية موقف الأمتين وسبل الرسولين فى البلاغ.

وقد وصف القرآن نوحاً بالنبوة والرسالة فى آيات عدة (الأعراف٥٩، هود ٢٥، المؤمنون ٢٣، العنكبوت ١٤، الحديد ٢٦، نوح١). وصرح بالوحى إليه **﴿إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده﴾**[١].

﴿وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح...﴾[٢]. ووصفه -مع آخرين- بالاصطفاء **﴿إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين﴾**[٣]. ومع هذا الثناء على هذا الرسول، فإن السيرة الذاتية -فى غير مايتصل بالدعوة- ليس لها ذكر فى القرآن بمثل ماسيأتى فى العهد القديم، وإنما التركيز على مافيه الفائدة حين العلم به، وكان الأولى بالمؤرخين والقصاص وكتاب الدعوة أن ينأوا بأنفسهم عن نقل نسبه من الكتاب المقدس،لأنه من الأمور التى لايترتب على العلم بها فائدة، فضلاً عن كون العلم بها من مصدر غير موثوق.

كما أن النسب المحدود يتعارض مع الرواية «كان بين آدم ونوح عشرة قرون»[٤] سواء أريد بالقرن الأمة،وهو الغالب فى استخدامات القرآن له،أم كان القرن المعهود اعتماداً على المشهور عند الناس،وهو مائة عام «فإن كان المراد بالقرن مائة سنة كما هو المتبادر عند كثير من الناس فبينهما ألف سنة لامحالة، لكن لاينفى أن يكون أكثر باعتبار ماقيد به ابن عباس بالإسلام إذ قد يكون بينهما قرون أخر متأخرة لم يكونوا

---

(١) النساء ١٦٣.
(٢) الأحزاب ٧.
(٣) آل عمران ٣٣.
(٤) البداية والنهاية ١٠١/١، الإحسان بترتيب صحيح بن حبان ٢٤/٨.

على الإسلام...

وإن كان المراد بالقرن الجيل من الناس،كما في قوله تعالى ﴿وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح﴾[1] وقوله ﴿ثم أنشأنا من بعدهم قرنا آخرين﴾[2] ، وقال تعالى ﴿وقرونا بين ذلك كثيرا﴾[3] ، وقال ﴿وكم أهلكنا قبلهم من قرن﴾[4] وكقوله عليه السلام «خير الناس قرني»[5] فقد كان الجيل قبل نوح يعمرون الدهر الطويل فعلى ذلك يكون بين آدم ونوح ألوف السنين[6] والله أعلم».

نوح عليه السلام وأولية الرسالة: صرح القرآن بأن نوحاً -عليه السلام- قد دعا إلى الله،معلنا لقومه أنه يدعو إلى الإسلام،وأنه من المسلمين ﴿فإن توليتم فما سألتكم من أجر إن أجري إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين﴾[7].

وجمهور المسلمين على أن نوحاً -عليه السلام- أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض اعتماداً على حديث الشفاعة «يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد فينظرهم الناظر ويسمعهم الداعي وتدنوا منهم الشمس ويبلغ الناس من الغم والكرب مالايطيقون ولايحملون فيقول الناس ألا ترون ما أنتم فيه ألا تنظرون من يشفع لكم. فيقول بعضهم لبعض أبوكم آدم. فيأتونه فيقولون ياآدم أنت أبو البشر خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأسجد لك ملائكته وأسكنك الجنة ألا تشفع لنا إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه ومابلغنا؟ فيقول آدم عليه السلام إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعد مثله وإنه نهاني عن الشجرة فعصيت. نفسي نفسي. اذهبوا إلى غيري. اذهبوا إلى نوح فيأتون نوحاً -عليه السلام- فيقولون: يانوح أنت أول رسول إلى أهل الأرض وقد سماك الله عبداً شكوراً»[8].

وقد دفع هذا الحديث العلماء إلى بيان المراد من الأولية هل هي على الإطلاق

---

(1) الإسراء ١٧. (2) المؤمنون ٣١.

(3) الفرقان ٣٨. (4) ق ٣٦.

(5) البخاري ك بدأ الخلق باب فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم.

(6) البداية والنهاية ١٠١/١. (7) يونس (٧٢).

(8) البخاري ك تفسير القرآن «سورة بني إسرائيل» مسلم ك الإيمان حديث ٣٢٧ والترمذي. قيامة ١٠.

أو مقيدة فمن رآها على الإطلاق أخذ بظواهر النصوص. وفرق بينه وبين من سبقه بما هو معروف من الفرق بين النبي والرسول. فهو أول من أمر بالتبليغ ومن نزلت عليه رسالة.

ومن رآها مقيدة -عند من لم يفرق بين النبي والرسول- قال إن الأولية بعد الطوفان حيث أهلك الله الكافرين. وكان نوح أول رسول لقومه من هذا الوجه.

ويبدو أن الحديث بحاجة إلى معالجة من حيث المعنى لأن روايات وردت تصرح بأن الفترة بين نوح وآدم عليهما السلام عشرة قرون. ولايتأتى عقلاً أن تمضى تلك الفترة من الزمن دون إرسال رسل أو قيام دعاة بما يقوم به الرسل لأن ذلك يصادم نصوص القرآن. قال تعالى ﴿وإن من أمة إلا خلا فيها نذير﴾[1] . ﴿ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولاً فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى﴾[2] . ﴿رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل﴾[3] . ﴿ولقد بعثنا فى كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾[4] .

الحكمة من بعث الانبياء من بين المدعوين :

صرح القرآن بأخوة الأنبياء إلى المرسلين إليهم. وقد ذهب العلماء فى المراد من الأخوة مذاهب شتى منها :

١- الأخوة الحقيقية وهذا هو الأصل فى الكلام وهى تعنى رابطة الدم.

٢- الأخوة فى الصحبة حقاً كانت أو باطلة. ﴿كلما دخلت أمة لعنت أختها﴾[5] أى صاحبتها وشبيهتها ومنه ﴿إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا﴾[6] وقوله ﴿وإخوانهم يمدونهم فى الغىّ﴾[7] .

---

(١) فاطر ٢٤. (٢) طه ١٣٤.
(٣) النساء ١٦٥. (٤) النحل ٣٦.
(٥) الأعراف ٣٨. (٦) الإسراء ٢٧.
(٧) الأعراف ٢٠٢.

٣- الأخوة فى الدين ويتنزه الأنبياء عن مؤاخاة أهل الباطل فى شئ من المعتقدات الباطلة.

٤- الأخوة فى النوع، فأنبياء البشر من البشر،وأنبياء الجن من الجن.... إلخ[١].

ومن بين المرسلين نوح -عليه السلام- الذى وصف بالأخوة فى قول الحق ﴿كذبت قوم نوح المرسلين * إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون﴾[٢].

والوصف بالأخوة،يوحي بالحرص على المصلحة والصدق فى الدعوة والمشاركة فى النتائج المترتبة على الاستجابة،كما أن الأصل ألا يخون الأخ أخاه،وفيه إيحاء بالعلم بسيرته الذاتية لهم،والتى تؤكد حجته على قومه حين الدعوة.

ومن يأخذ بأقوال المؤرخين،يجد آراءً متفاوتة فى الأجيال التى بعث إليها نوح -عليه السلام- حيث ورد أنه قد بعث إلى عدة أجيال «وكان كل ما انقرض جيل وَصّوا من بعدهم بعدم الإيمان به ومحاربته ومخالفته»[٣].

فإن صح قول المؤرخين فى هذا الأمر فتكون الأخوة فى البشرية والصحبة الزمنية والعقب دون سواها.

معالم دعوة نوح -عليه السلام-

١- التوحيد الخالص لله رب العالمين. وقد ذكره القرآن بدلالة المنطوق، ودلالة المفهوم فى بعض المواطن. قال تعالى حاكياً عنه ماقاله لقومه ﴿مالكم لاترجون لله وقاراً﴾[٤] ﴿لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم﴾[٥] ﴿ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه إنى لكم نذير مبين * أن لاتعبدوا إلا الله إنى أخاف عليكم عذاب يوم أليم﴾[٦]. ﴿أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون﴾[٧] ﴿أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ولتتقوا

---

(١) الرازى : ١٦١/٤.
(٢) الشعراء ١٠٥، ١٠٦.
(٣) البداية والنهاية ١٠٩/١.
(٤) نوح ١٣.
(٥) الأعراف ٥٩.
(٦) هود ٢٥/٢٦.
(٧) نوح ٣.

ولعلكم ترحمون﴾[1] ﴿وقالوا لاتذرن آلهتكم ولاتذرن ودًا ولاسواعا ولايغوث ويعوق ونسرا﴾[2].

ومن جملة النصوص ندرك :

أ) إبطال ألوهية غير الله ﴿مالكم من إله غيره﴾[3]. ﴿أن لاتعبدوا إلا الله إنى أخاف عليكم عذاب يوم أليم﴾[4].

ب) دعوتهم إلى الخوف من الله،بالصورة التى ينبغى أن يكون عليها الخوف منه ﴿مالكم لاترجون لله وقاراً﴾.

ج) القيام بالتكاليف الشرعية بعد الاستجابة ﴿أن اعبدوا الله...﴾.

د) التقوى فهى من بواعث الإرسال من ناحية ﴿ولتتقوا﴾ ومأمورين بها من ناحية ثانية ﴿واتقوه﴾.

هـ) يفهم من النص الأخير أن نوحاً -عليه السلام- كان يدعوهم إلى العدل عن آلهتهم إلى الإيمان بالله الواحد إلا أن القوم أبوْا قبول دعوته.

٢- الإيمان به نبياً ورسولاً : وهو الركن الثانى من أركان الدعوة،من حيث الاعتقاد،والأول من حيث الترتيب فى الدعوة والتسليم بنبوة الداعى، وقد صرح نوح بذلك كما صرح سائر الأنبياء. قال تعالى ﴿كذبت قوم نوح المرسلين * إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون * إنى لكم رسول أمين * فاتقوا الله وأطيعون﴾[5]. ﴿أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ولتتقوا ولعلكم ترحمون﴾[6].

فكان الوصف بالإرسال،مع الوصف بالأمانة وطلب طاعته باعتبارها مؤدية إلى طاعة الله،مع التأكيد على الرسالة التى أوحى إليه بها ﴿ذِكْرٌ من ربكم﴾[7] وبيان مهمته ﴿لينذركم ولتتقوا﴾.

---

(١) الأعراف ٦٣.
(٢) نوح ٢٣.
(٣) الأعراف ٥٩.
(٤) هود ٢٦.
(٥) الشعراء ١٠٥-١٠٨.
(٦) الأعراف ٦٣.
(٧) جزء آية ٦٣ الأعراف.

هذان الأمران في ميزان الدعوة :

مابعث الله نبياً إلا وهو يركز فى دعوته على هذين الأمرين، لأن العقل لوسلم برسالة رسول مامن المرسلين،وآمن بخالق لهذا الكون مرسل لذلك الرسول،فإنه سيقبل كل مايُدْعَى إليه بعد، ولذلك كان الأنبياء يمكثون سنين عدداً داعين إلى هذين الأمرين فقط، كما أنهما من الأمور التى لاتقبل فيها شفاعة أو إسقاط،ولاتقبل إلا على وجهها، وقيامها بالأفراد أو قيام الأفراد بها، مشروط بصفة الدوام بعكس العبادات والمعاملات،فإنهما يقبلان الإسقاط والتخفيف والإنابة والإرجاء فضلاً عن تأخر الدعوة إليهما.

٣- الدعوة إلى الإيمان باليوم الآخر : الإيمان باليوم الآخر باعتباره باعثا على الخوف من الله،حاملاً النفس على الالتزام فى هذه الحياة، وقد حذر نوح قومه منه وقاس أمر البعث على أمر الخلق ﴿والله أنبتكم من الأرض نباتاً * ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجاً﴾[1] . ﴿وما أنا بطارد الذين آمنوا إنهم ملاقوا ربهم ولكنى أراكم قوماً تجهلون﴾[2] .

معجزة نوح -عليه السلام-

لم يرد ذكر لمعجزة نوح فى القرآن الكريم،أو السنة المطهرة على سبيل التخصيص، كما أن السفينة لايمكن أن تكون معجزة له،لأنه لم يقع بها تحدى حين الدعوة،أو تضمنت مايبهر المدعوين الذين حال الماء بينهم وبين السفينة ومن فيها. وإذا كان القرآن لم يخصص معجزة نوح بالذكر فذلك لايعنى النفي، لأن القرآن لم يجمع سائر المعجزات مضافة إلى أنبيائها،وإلا لكان كتاب قصص بالدرجة الأولى. وقد ورد فى السنة أن الله أعطى كل نبى آية تدل على نبوته ورسالته. وكانت الآيات السابقة إلى المحسوسات أكثر منها إلى المعقولات،وفى الحديث «مامن نبى أوتى من الآيات إلا مامثله آمن عليه البشر وكان الذى أوتيت وحياً أوحاه الله إلىّ وأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة»[3] .

---

(١) نوح ١٧، ١٨.   (٢) هود ٢٩.

(٣) البخارى ك فضائل القرآن ١ ، مسلم ك الإيمان حديث ٢٣٩ حم ٣٤١/٢، ٤٥١.

موقف قوم نوح من دعوته :

لقد طال عهد نوح بدعوة قومه، وهذا ماجعل القرآن يكثر من ذكر قصته،وذكر مواقف معينة متفاوتة لقومه نظراً للتقارب الشديد بين دعوة نوح ومحمد -عليهما السلام- من حيث البدء وبعد العهد بالنبوة لأمتيهما والوثنية والمعارضة -كما سيتضح فى آخر هذه القصة.

وقد أشارت نصوص القرآن إلى أن قلة قليلة هى التى استجابت لدعوة نوح ﴿وما آمن معه إلا قليل﴾[1] . وقد خاض فيها كثير من المفسرين بلا دليل يعتد به فى هذا الميدان[2] ، ولكن الذى لاخلاف عليه،أن عدد المؤمنين إلى عدد المكذبين كان أمراً لايذكر،لورود العبارة بأسلوب التنكير، وكانت هذه القلة من الفقراء وعامة الناس،الذين رأوا فى الدعوة لوناً من الحرية والعدل والمساواة فضلاً عن تحريرها لهم من التقليد والمحاكاة.

وأما وجوه الناس فقد أبوْا قبول الدعوة وناصبوا الداعين العداء؛ ويمكن بيان ذلك فيما يلى :

أولاً: موقف الملأ من نوح عليه السلام:

لقد أبى أهل الحول والطول،وذوى الجاه والسلطان وأصحاب المال والنفوذ قبول دعوة نوح -عليه السلام- وهذا ماصرح به القرآن فى سورة الأعراف (٦٠) وهود (٣٠) والمؤمنون (٢٤). وكانت علة التكذيب راجعة إلى اتباع التقاليد والموروثات بالدرجة الأولى. وقد ذكر القرآن أن من أسباب رفض قبول الدعوة النقاط التالية:

١- كون نوح من البشر. ولو أراد الله أن يرسل رسولاً لكان من الملائكة ﴿فقال الملأ الذين كفروا من قومه ماهذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ولوشاء الله لأنزل ملائكة ماسمعنا بهذا فى آبائنا الأولين﴾[3] . وقد خاطب محمد -صلى الله عليه وسلم- قومه بقول الحق ﴿ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود

---

(١) هود ٤٠.

(٢) القرطبى ٣٥/٩، والطبرى ٢٦/١١، مفاتيح الغيب ٢٣٦/٩، الألوسى ٥٥/١٢.

(٣) المؤمنون ٢٤.

والذين من بعدهم لايعلمهم إلا الله جاءتهم رسلهم بالبينات فردّوا أيديهم فى أفواههم وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به وإنا لفى شك مما تدعوننا إليه مريب * قالت رسلهم أفى الله شك فاطر السموات والأرض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى قالوا إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين * قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون...﴾[1] .

* ويفهم من الآية الأولى طول عهد القوم بالنبوة والرسالة أوانتفاء النبوة فى البقعة التى كان يقطنها قوم نوح عليه السلام «ماسمعنا بهذا فى آبائنا الأولين».

* ويفهم من النص الثانى عدم الاعتراف بالنبوة لأن المرسلين بشر شأنهم شأن المرسل إليهم – من حيث الظاهر- لاهمَّ لهم إلا صرف المدعوين عن موروثات الآباء مع تحديهم الرسل بطلب الدلائل الحسية الدالة على نبوتهم ورسالتهم «فأتونا بسلطان مبين».

٢- إنكار أهليته للرسالة بمقاييسهم (المال – الجاه – الوجاهة .....إلخ) لابمقياس الشرع ﴿الأفضلية بالاصطفاء والوحي والعصمة﴾ وهذا ماذكره القرآن عن لسان الملأ ﴿فقال الملأ الذين كفروا من قومه مانراك إلا بشراً مثلنا ومانراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأى ومانرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين﴾[2] . ﴿فقال الملأ الذين كفروا من قومه ماهذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ولو شاء الله لأنزل ملائكة ماسمعنا بهذا فى آبائنا الأولين﴾[3] .

٣- الإكثار من الجدل والتحدى بالقدرة على إهلاكهم. ﴿قالوايانوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين﴾[4] .

٤- طلبوا منه مطالب مادية فوق الإمكان تحدياً وتعجيزاً فردّ عليهم بما ذكره القرآن ﴿ولا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إنى ملك﴾[5] .

---

(١) إبراهيم ٩، ١٠، ١١.
(٢) هود ٢٧.
(٣) المؤمنون ٢٤.
(٤) هود ٣٢.
(٥) هود ٣١.

كما رماه الملا بالأمور التالية :

أولا: الرمي بالضلال والإضلال حتى ادّعوا أنه لاحاجة إلى دليل يدل على ضلاله لكونه ﴿ضلال مبين﴾[1] فضلاً عن ورود السياق بمؤكدات عدة، وكأن ضلاله عندهم لايحتاج إلى براهين بعد أن ثبت لهم وضوحه.

ثانياً: الرمي بالجنون لتشويه صورة الداعي والتشكيك في دعوته. ﴿كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر﴾[2] - ولو قاسوا الأمور بمقياس العقل ماكذبوا نوحاً،ولارموه بالجنون،لأن المجنون لايعقل مايقول حين الجنون، فكيف بمن يعي ما يقوله مع طول عهده بما قال، ولم يتوقف الأمر عند الوصف بالجنون وهو مما يستقبح عبر تاريخ البشر ويؤدى إلى الإعراض عن الداعي وإن عظمت دعوته بل إنهم آذوه وزجروه.

ثالثاً: الرمي بغير ماسبق وهو ماعبر القرآن عنه بالوصف بالسخرية وبخاصة عندما رأوه يصنع سفينة. قال تعالى ﴿ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه قال إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون﴾[3] .

ثانية: موقفهم من المؤمنين به:

لقد آمن بنوح قلة من البشر، أبى الملأ أن يشاركوهم في الاستجابة لدعوة نوح أو الجلوس معهم أمام نبي واحد، وقد تعلل الملأ برفض الاستجابة لأن أتباع نوح من الأراذل «أقل الناس قدراً من وجهة نظرهم» بمقياسهم الدنيوى ويفهم من النص الوارد في سورة هود -بشأن الأتباع- أمور منها

١- إن فقر هؤلاء وضعفهم وتردى مكانتهم الاجتماعية كان بادياً (ومانراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأى)[4] .

٢- إنه لاميزة للداعي وللمستجيبين له «ومانرى لكم علينا من فضل»[5] .

---

(١) الأعراف ٦٠.
(٢) القمر ٩.
(٣) هود ٣٨.
(٤) هود ٢٧.
(٥) هود ٢٧.

٣- اتهام نوح ومن آمن معه بقولهم له ﴿بل نظنكم كاذبين﴾[1].

٤- طلبوا من نوح أن يطرد الأتباع حتى يعطوا فرصة للاستماع لدعوته دون وعد بالاستجابة. فكان الرد حاسماً من نوح -عليه السلام- ﴿وياقوم لاأسألكم عليه مالا إن أجرى إلا على الله وما أنا بطارد الذين آمنوا إنهم ملاقوا ربهم ولكنى أراكم قوماً تجهلون * وياقوم من ينصرنى من الله إن طردتهم أفلاتذكرون * ولاأقول لكم عندى خزائن الله ولاأعلم الغيب ولاأقول إنى ملك ولاأقول للذين تزدرى أعينكم لن يؤتيهم الله خيراً الله أعلم بما فى أنفسهم إنى إذاً لمن الظالمين﴾[2].

٥- تعلل القوم بأن من أسباب تكذيبهم ورفضهم دعوة نوح اتباع هؤلاء الفقراء له، فقد سألوا نوحاً على سبيل الاستفهام الإنكارى قائلين ﴿أنؤمن لك واتبعك الأرذلون * قال وما علمي بما كانوا يعملون * إن حسابهم إلا على ربى لو تشعرون * وما أنا بطارد المؤمنين﴾[3].

ثالثاً: موقف القوم من الدعوة:

أشرنا إلى موقف القوم من نوح -عليه السلام- ومن المؤمنين به، وأما موقف القوم من الدعوة فهو واضح فى القرآن ويمكن عرضه فى النقاط التالية :

١- عدم فقههم للدعوة أو الاهتمام بها مع الإعراض عنها حتى قال لهم نوح ﴿.... ياقوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى وآتانى رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون﴾[4].

٢- الإكثار من الجدل أخذاً من ظاهر النص ﴿قالوا يانوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين﴾[5]. ومن مفهوم النص ﴿كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فأخذتهم فكيف كان عقاب﴾[6].

---

(١) هود ٢٧.
(٢) هود ٢٩-٣١.
(٣) الشعراء ١١١-١١٤.
(٤) هود ٢٨.
(٥) هود ٣٢.
(٦) غافر ٥.

٣- الإعراض عن الدعوة مع الاستخفاف بالداع والاستكبار على الاستجابة **﴿وإنى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكباراً﴾**[1] .

٤- الإصرار على الكفر ودعوة غيرهم إلى الثبات على الكفر وإغواء من اهتدى أو كان فى عداد المهتدين قبل النبوة. ويفهم من نص القرآن أن قلة منهم قد اشتغلت بهذه الدعوة الباطلة حتى ضاق نوح بهم ذرعاً **﴿قال نوح رب إنهم عصونى واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خساراً * ومكروا مكراً كباراً * وقالوا لاتذرن آلهتكم ولاتذرن وداً ولاسواعاً ولايغوث ويعوق ونسراً * وقد أضلوا كثيراً ولاتزد الظالمين إلا ضلالاً﴾**[2] .

٥- إعلانهم الكفر بالدعوة والشك فيها واتهامهم لنوح بأنه يريد صدهم عما كان يعبد آباؤهم وقد شاركهم فى هذا الموقف كثيرون من الأمم التالية لهم. ذكر القرآن ذلك الأمر حين هدد موسى -عليه السلام- قومه بما كان من شأن الأمم السابقة **﴿ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لايعلمهم إلا الله جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم فى أفواههم وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به وإنا لفى شك مما تدعوننا إليه مريب * قالت رسلهم أفى الله شك فاطر السموات والأرض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى قالوا إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين﴾**[3] .

الأساليب التي استخدمها نوح في الدعوة:

أولا: الترغيب: وهو من الأساليب الضرورية لأى داعي. لأن النفس البشرية قد فطرت على حب الكسب المترتب على فعل شئ ما دنيوياً كان الكسب أو أخروياً. ولذلك استخدمه نوح -عليه السلام- حين قال لقومه **﴿أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون * يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى إن أجل الله إذا جاء لايؤخر لو كنتم تعلمون﴾**[4] . فكان الترغيب واضحاً فى مغفرة الذنوب والإنساء فى

---

(١) نوح ٢٣-٢٤.　　(٢) نوح ٢١-٢٤.
(٣) إبراهيم آيتى ٩، ١٠.　　(٤) نوح ٣، ٤.

الهلاك،لأن سنة الله فى السابقين،أن يطول أجل الأمة الصالحة،وأن يعجل بهلاك الفاسدين مع بيان أن العقوبة إن وقعت لن يردها من الله راد، كما أشار القرآن إلى عرض آخر يترتب على الطاعة ﴿فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً * يرسل السماء عليكم مدراراً * ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً﴾[1] .

وهذه الآيات تفتح باب الأمل أمام العصاة منهم وتدرأ اليأس عنهم حيث وصف الحق بأنه «غفاراً» بصيغة المبالغة، ولم يتوقف الأمر عند الترغيب فى المغفرة بل قرن ذلك بدوام العطايا الدنيوية ومنها:

(١) إنزال المطر... يدرك الإنسان منه أن القوم كانوا أهل بادية،يدركون قيمة المطر فى إنبات الكلأ وملء العيون، أوكانوا أهل حضر عرفوا قيمة الأمطار فى جريان الأنهار، وفى كل الأحوال،تدل الآيات على تشوقهم إلى المطر،وتطلعهم إليه بدليل تقديمه على غيره من المعطيات الأخرى، وقد عبرعن ذلك بصيغة تهفو إليها النفس «يرسل السماء عليكم مدراراً» والسماء تطلق على المطر فى لغة العرب كما يقول الشاعر:

إذا نزل السماء بأرض قوم ... رعيناه وإن كانوا غضابا[2]

(٢) الثناء على آثار ذلك المطر... فليس هو بالمطر المهلك للزرع والضرع، والقاصف للأبنية والعمران،ولكنه مطر الخير الذى ينشأ عنه زرع يكسو الأرض حتى تصير جنات تيسر سبل العيش تجرى من خلالها الأنهار الناتجة عن المطر، وللإنسان أن يتخيل هذه الصورة فى أى بقعة من بقاع العالم،وكم تهفو النفس إلى الحياة فى تلك المنطقة.

(٣) كثرة الأموال الناتجة عن الأمور السابقة... فمن الطبيعى أن يكثر المال بعد وفرة الزرع،أو يكون المراد بالمال هنا معناه العام «كل مايتمول» وهو يشمل الحيوان والتجارة.

(٤) البركة فى الولد... إما بكثرته وإما بطول عمره وإما بسلامته من العاهات

---

(١) نوح ١٠-١٢.

(٢) خزانة الأدب ١٣٩/٢ والبيت لجرير وفى ديوانه ص١٧ من بحر الوافر.

ولايخفى على أحد منزلة الولد، وهل أراد نوح كثرة الولد الذكر وهو سر التعبير بـ «بنين» والتى وردت فى مقابل البنات فى كثير من القرآن ﴿اصطفى البنات على البنين﴾[1] . ﴿وخرقوا له بنين وبنات بغير علم﴾[2] . ﴿أم له البنات ولكم البنون﴾[3] فيكون النص دليلاً على جاهلية القوم فى تفضيلهم الذكر على الأنثى،أو أراد المعنى العام للنوع «الذكر والأنثى». يبدو من السياق رجحان المعنى الأول.

ثانياً الترهيب: وهذا هو الأسلوب الثانى من الأساليب التى استخدمها نوح فى الدعوة، وذلك لأن من الأنفس من لاترجع إلا بالزجر، وإذا كانت النعم تسبب الغفلة فإن الترهيب يبعث اليقظة فى كثير من الأحيان، وكم يفكر الناس فى أشياء،ثم يتذكرون النتائج السلبية المترتبة عليها فيقلعون عنها مباشرة،وقد استخدم الأنبياء أسلوب الترهيب ،كوسيلة لردع النفس عن الغواية واتباع خطوات الشيطان، كما تضمنت الشرائع أحكاما للترهيب،كالحدود والقصاص وبعض العقوبات المقدرة على بعض المعاصى التى ترتكب ردعاً وزجراً.

وقد صرح القرآن بأن نوحاً -عليه السلام- قد استخدم الترهيب كوسيلة لحمل المدعوين على الاستجابة،وذلك بعرض النتائج المترتبة على الكفر،فى الدنيا والآخرة ليهلك من هلك عن بينة، ويحيا من حىّ عن بينة. ومن أساليب الترهيب التى استخدمها مايلى:

١- التصريح بأنه «نذير مبين» فى سورة نوح ﴿قال ياقوم إنى لكم نذير مبين﴾[4] وهود ﴿ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه إنى لكم نذير مبين﴾[5] والشعراء ﴿إن أنا إلا نذير مبين﴾[6] والنذير من يبين عواقب الأمور،والتعبير بصيغة المبالغة يدل على طول العهد بالإنذار وتكراره، وواضح أن القوم لم يستجيبوا بل سخروا واستهزءوا ورموا نوحاً بالضلالة، فقال لهم نوح -عليه السلام- ﴿أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ولتتقوا ولعلكم ترحمون﴾[7] . كما صرح نوح -عليه السلام-

---

(١) الصافات ١٥٣.
(٢) الأنعام ١٠٠.
(٣) الطور ٣٩.
(٤) نوح ٢.
(٥) هود ٢٥.
(٦) الشعراء ١١٥.
(٧) الأعراف ٦٣.

بنزع مايتلوهم بخاوهو وقوع عذاب يوم عظيم بهم ﴿لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم﴾[1] سواء أكان اليوم العظيم في الدنيا ﴿فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وماكان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾[2]، أم كان في الآخرة وهو الغالب عند الإطلاق.

٢- التذكير بالبعث بعد الموت باعتباره باعث الخوف من المعصية،فضلاً عن الكفر مع إقامة الدليل على يسر البعث ﴿والله أنبتكم من الأرض نباتاً * ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجاً﴾[3].

٣- التوعد بعذاب ينزل بهم عندما استهزأ به قومه قال لهم ﴿...إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون * فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم﴾[4].. ويبدو أنه كان يتوعدهم عذاباً يحيق بهم فقالوا له ﴿فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين * قال إنما يأتيكم به الله إن شاء وما أنتم بمعجزين﴾[5].

ثالثاً: التذكير بالنعم: وهو من الأمور المشتركة بين الأنبياء عبر التاريخ،باعتبارها باعثة على شكر المنعم،محركة العقل في التفكير نحو مصدرها،وقد خص نوح -عليه السلام- من هذه النعم مايلي:

(١) نعمة الخلق من لاشيء يذكر: فأي عقل يفكر بهدوء وروية في تسوية قبضة التراب بشراً سوياً، في أجمل صورة، يرى وجوب شكر الصانع على صنعته، كما أن النص،يتضمن الدعوة إلى التفكير في النفس،سواء تعلق الأمر بالمنشأ أم بالحياة «والله أنبتكم من الأرض نباتاً» حقيقة بخلق آدم «أصل الإنسان» وحكماً لأنها مصدر العيش بالنسبة للإنسان عبر الزمان، فالطعام والشراب والملبس والمسكن وسائر الآلات مردها إلى الأرض،وإن بدت في مظاهر شتى أمام الإنسان.

---

(١) الأعراف ٥٩. (٢) العنكبوت ٤٠.
(٣) نوح ١٧، ١٨. (٤) هود ٣٨، ٣٩.
(٥) هود ٣١، ٣٢.

(٢) التذكير بنعمة تسخير الأرض،حتى يتأتى لهم الانتفاع بها ﴿والله جعل لكم الأرض بساطا﴾[1] وكم نقرأ ونسمع عن التكاليف التى تنفق على بقعة ما من بقاع الأرض، وقد يكون العائد أقل قدراً من التكلفة،ولكنها الضرورات أحياناً أو الخطأ فى التقدير أحياناً أخرى، ولم يكتف نوح -عليه السلام- بالإشارة إلى بسط الأرض وتسخيرها، بل ذكر لهم نعمة الانتفاع الناجمة عن هذا البسط مع الحث من طرف خفى إلى وجوب الانتفاع ﴿لتسلكوا منها سبلاً فجاجا﴾[2] متحركين بالتجارة،باحثين عن خيراتها،وصِيغُ الجمع بالتنكير،لتذهب النفس فيه كل مذهب.

(٣) لفت النظر إلى نعمة الله فى السموات العلا،والتعبير عن العدد بسبع، ويكونها طباقاً سواء أكان العدد للتكثير أم أُريد به الحقيقة،كما خصص جِرْمَين من الأجرام السماوية بالذكر، صلة الإنسان بهما قوية وهما «القمر والشمس» ولما كان نطق نوح -عليه السلام- وحياً ألهمه الله به فإنه قد نطق بالصواب حين الوصف حيث فرق بين وصف القمر بـ «نورا» ووصف الشمس بـ «سراجاً» فالأول يضيئ ولايحرق، والثانى يضيئ ويحرق، وهاتان الآيتان من أبرز الآيات السماوية بالنسبة للإنسان من حيث قوة الصلة بهما،وتوقف كثير من المصالح عليهما،كالأيام والشهور والسنين واليقظة والنوم والصحة والمرض والزرع والحصاد والمناخ حتى فتن بهما كثيرون عبر الزمن،فعبدوهما من دون الله،فكان النص مذكراً بنعمة الخلق والتسخير نافيا دعوى التأليه والتقديس،وكأنه يعطى جرعة وقائية من تأليه تلك الأجرام العلوية بمثل ما ألهت بعض الأجرام الأرضية.

وبذلك نجد نوحاً -عليه السلام- قد جمع بين آيات الله فى الكون وآيات الله فى النفس،كسبيل من سبل الدعوة إلى الله.

---

(١) نوح ١٩. وقد استشهد بعض العلماء على كروية الأرض بهذا النص قائلاً: لو كانت الأرض على أى شكل هندسى غيرالكروى لما كانت مبسوطة ولانتهت أطرافها وظهرت مع تلك الأشكاله والشكل الوحيد الذى لاطرف له ولانهاية لجوانبه هو الشكل الكروى، وإن كانت تلك اللفتة الطيبة محمودة إلا أن المستوى العقلى والعلمى فى ذلك الزمن -وقت التنزيل- لايسمحان بإدراك ذلك. فهل ذلك من الإعجاز العلمى للقرآن؟ هذا مايراه البعض.

(٢) نوح ٢٠.

رابعة: العرض بالترغيب والترهيب: على سبيل الابتداء أو البيان أو الدفاع أو الجدل أو القياس، وهو ما تشير إليه بعض الآيات الواردة في سورة الأعراف ويونس وهود والمؤمنون والشعراء مع التنويع في أساليب الدعوة، فلم يأخذ نوح منهجاً معيناً للدعوة بل يفهم من سياق النصوص، تفاوت طرق البلاغ لاختلاف الطباع حين السماع وتفاوت الأمزجة حين العرض. ولذلك شهد القرآن لنوح بالإخلاص والصبر والثبات والدوام ﴿قال رب إني دعوت قومي ليلاً ونهاراً﴾[1] . ﴿ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم إسراراً﴾[2] وقد شهد القوم لنوح بذلك حتى إنهم ﴿قالوا يانوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين﴾[3] . والقياس في قوله ﴿والله أنبتكم من الأرض نباتا. ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا﴾.

خامسة: التصريح بالحرص على مصلحتهم دون فائدة دنيوية تعود عليه: وقد ذكر القرآن ذلك في بعض الآيات، والتي تدل دلالة قطعية على الإخلاص التام، وإظهار كون الدعوة لخير المدعوين. قال تعالى حاكيا عنه ﴿ وياقوم لا أسألكم عليه مالاً إن أجرى إلا على الله﴾[4] . ﴿فإن توليتم فما سألتكم من أجر إن أجرى إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين﴾[5] وهذا الأجر من كريم برزق الخلق أجمعين ﴿وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين﴾[6] .

نهاية المواجهة: في ضوء ماسبق وجدنا العناد قد وصل حداً بالغاً من قوم نوح حتى انتهى بالمواجهة والتهديد، فنوح -عليه السلام- يهدد في مواطن عدة بالعذاب وسوء العاقبة، والقوم لايبالون بالتهديد قائلين له (إئتنا بما تعدنا) شاكّين في صدق تهديده لهم ﴿إن كنت من الصادقين﴾[7] ونوح عليه السلام يواجههم بهذا القول ﴿إن كان كبر عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لايكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا إليّ ولا تنظرون﴾[8] وقد حذره قومه من الاستمرار في الدعوة وتكرار الإنذار قائلين له ﴿لئن لم تنته يانوح لتكونن من

---

(١) نوح ٥.
(٢) نوح ٩.
(٣) هود ٣٢.
(٤) هود ٢٩.
(٥) يونس ٧٢.
(٦) الشعراء ١٠٩.
(٧) هود ٣٢.
(٨) يونس ٧١.

المرجومين﴾[1] . وبهذا تبين الإعراض عن التفكير فى طبيعة الدعوة،إلى التفكير فى إيذاء الداعى،وهو أمر عرفته البشرية فى تاريخها، فالعجز عن الحوار الفكرى يلجأ العاجز إلى الحوار العضلى،مما يحمل الخصم -غالباً- على سلوك نفس الأسلوب، وهو علة من علل مشروعية القتال فى الرسالات السماوية،وباعث العنف بين الحكومات والتيارات الفكرية فى واقعنا المعاصر.

وبهذه المرحلة أصبحت الدعوة أمام طريق مسدود،عبّر عنه نوح بقوله ﴿وإنى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكباراً﴾[2] .

كما أخبر الحق نوحاً بانتهاء زمن الاستجابة لدعوته ﴿وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلاتبتئس بما كانوا يفعلون﴾[3] .

أمام هذه الحالة لم يجد نوح مناصاً إلا أن يلجأ إلى ربه أن ينصره على هؤلاء القوم الذين آذوه وآذوا أتباعه وآذوا الدعوة ﴿فدعا ربه أنى مغلوب فانتصر﴾[4] . ﴿قال رب انصرنى بماكذبون﴾[5] . ﴿قال رب إن قومى كذبون * فافتح بينى وبينهم فتحاً ونجنى ومن معى من المؤمنين﴾[6] .

كما حدد نوح-عليه السلام-موقفه من الكافرين قائلاً ﴿رب لاتذر على الأرض من الكافرين دياراً * إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولايلدوا إلا فاجراً كفاراً﴾[7] .

وقد استجاب الله دعاء نوح ﴿ونوحا إذ نادى من قبل فاستجبنا له ونجيناه وأهله من الكرب العظيم * ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوم سوء فأغرقناهم أجمعين﴾[8] .

وجملة النصوص يفهم منها مايلى :

١- دعاء نوح ربه بأن ينصره على المكذبين.

---

(١) الشعراء ١١٦.
(٢) نوح ٧.
(٣) هود ٣٦.
(٤) القمر ١٠.
(٥) المؤمنون ٢٦.
(٦) الشعراء ١١٧، ١١٨.
(٧) نوح ٢٦، ٢٧.
(٨) الأنبياء ٧٦، ٧٧.

٢- دعاء نوح ربه أن ينجيه ومن معه من المؤمنين.

٣- دعاء نوح ربه أن يهلك الكافرين/مبينا علة الطلب (إضلال العباد وخروج جيل جديد من أصلابهم أسوأ حالاً من آبائهم).

٤- استجابة الله دعاء نوح مع تنجيته وقومه مما نزل بالقوم من عذاب.

وليس لدعيّ أن يقول: كيف يدعو نوح على قومه وهو نبى وشأن الأنبياء الصبر والثبات؟ نقول: إن نوحاً مكث فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم إلي الإيمان بـ: أ) توحيد الله. ب)التسليم له بالنبوة والرسالة. ج) الإيمان باليوم الآخر.

فلم يجد استجابة،ولم يتوقف الكفرة عند حد الإعراض،بل إنهم وصلوا إلى دعوة المؤمنين للكفر والتأثير على الناشئة حتى لايؤمنوا بنوح، وقد ذكر المفسرون قضايا هى مضرب المثل فى الغرابة فى هذا الشأن يمكن الرجوع إليها[1] . وبهذا صار حالهم حال العضو الذى لاتستقيم الحياة إلا ببتره.

وإذا كنا فى الأطعمة والأشربة نلقى بالفاسد بعيداً عن الصالح،وإذا كنا لاننكر الحَجْر الصحى،ونسلم بل وندعو إلى وجوب عزل المرضى عن الأصحاء والعكس، فإن من أسوأ الأمراض، الأمراض الخلقية وبخاصة مايتصل منها بالعقيدة.

وقد تأكد لنوح عدم إيمان أحد من غير المؤمنين،وهو أمر لايصادف هوى فى نفسه بل يصادمه،ولذلك أعلن عجزه عن هدايتهم بعد إعراضهم ﴿ولاينفعكم نصحى إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم هو ربكم وإليه ترجعون﴾[2] فكان طلب الهلاك للكافرين من أجل وقاية المؤمنين طلباً عادلاً بعد أن انتفت المعاذير.

التماس أسباب النجاة من قبل نوح : صرح القرآن بأن الحق قد استجاب لنوح -عليه السلام- وكان العطف بالفاء فى بعض الآيات وبالواو فى البعض الآخر.

---

(١) القرطبى ١٨/٣١٢-٣١٤، الطبرى فى تفسيره ٦٣/٢٩، الألوسى ٧٩/٢٩، ٨٠، روح البيان ١٨٤/١٠، ١٨٥.

(٢) هود ٢٤.

والترتيب والتعقيب فى آيات العطف بالفاء هو فى الأحداث لا فى الأزمان. قال تعالى **﴿ونوحاً إذ نادى من قبل فاستجبنا له ونجيناه وأهله من الكرب العظيم﴾**[1] وعندما دعا ربه **﴿فافتح بينى وبينهم فتحاً ونجنى ومن معى من المؤمنين﴾** قال تعالى **﴿فأنجيناه ومن معه فى الفلك المشحون﴾**[2] . **﴿ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون﴾**[3] . وحيث إن الأنبياء هم القدوة لأتباعهم فى كل شئ،فقد أمر الله نوحاً أن يلتمس أسباب النجاة وذلك على النحو التالى :

١- أن يصنع سفينة تحمله والمؤمنين معه،وبذور وأصول بعض الكائنات التى ستكون مصدراً لإعمار الأرض بعد ذلك،ولم يشر القرآن إلى طولها أو عرضها أو عمقها أو نوع الخشب أو كيفية الصناعة أو عدد المشتركين فى صناعتها... إلخ. إلا أن الآيات ترجح كون الصانع لها هو نوح عليه السلام،مع إمكانية مشاركة الغير له فيها أو فعل الغير لها،مع نسبتها إليه بمثل مايقال فلان يبنى بيتاً أو يؤسس مسجداً أو يهدم مسكناً... إلخ.

وإذا كانت الاحتمالات الأخيرة واردة فإن الاحتمال الأول هو المقطوع به عند جمهور المفسرين[4] أخذا من ظاهر قول الحق سبحانه **﴿فأوحينا إليه أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا...﴾**[5] **﴿واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولاتخاطبنى فى الذين ظلموا إنهم مغرقون * ويصنع الفلك وكلما مرّ عليه ملأ من قومه سخروا منه قال إن تسخروا منّا فإنّا نسخر منكم كما تسخرون﴾**[6] .

٢- أن يأخذ من سائر الحيوانات زوجين اثنين (ذكراً وأنثى) لتكون بداية التوالد والإعمار.

٣- أن يدخل فى تلك السفينة وسائر المؤمنين معه،يستوى فى ذلك المؤمنون

---

(١) الأنبياء ٧٦. (٢) الشعراء ١١٨، ١١٩.

(٣) الصافات ٧٥.

(٤) تفسير القرطبى ٢١/١٢، الجامع لأحكام القرآن ٣١/٩، ٣٢، الكشاف ٢٦٨/٢، روح المعانى ٤٦/١٢.

(٥) المؤمنون ٢٧. (٦) هود ٣٧، ٣٨.

من ذوى القرابة في الدم مع سائر المؤمنين، ويستثنى من أهله كل كافر وإن قويت الصلة به كرابطة الدم البادية فى ابنه والرابطة الاجتماعية المتمثلة فى زوجته.

٤- وضع الله له علامة كنقطة بدء فى فوران الماء، وذلك بخروجه من تنور معهود لنوح-عليه السلام-ثم يكون انهمار الماء من السماء وتفجير الأرض عيوناً،مع نسبة هذه الأمور كلها إلى الله ،كي تذهب النفس فيها كل مذهب ﴿حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه إلا قليل﴾[١] . ﴿فأوحينا إليه أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا فإذا جاء أمرنا وفار التنور فاسلك فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول منهم ولاتخاطبنى في الذين ظلموا إنهم مغرقون﴾[٢] ﴿ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر * وفجرنا الأرض عيوناً فالتقى الماء على أمر قد قدر * وحملناه على ذات ألواح ودسر﴾[٣] .

القرآن يصور الطوفان : صرح القرآن بتفجير الأرض عيوناً، والجمع يصور مدى الفوران من باطن الأرض،وانبعاثه ونزول الماء من السماء منهمراً،مع التصريح بقوله (ففتحنا أبواب السماء) وكأن الماء مخزون خلف أبواب فى السماء تحول بينه وبين الانهمار،حتى إذا فتحت تلك الأبواب هطل الماء،واتحد مع ماء الأرض فصار ارتفاعه على ظهر الأرض عالياً،حتى كانت الموجة كالجبل فى ارتفاعها أو قوتها وضغطها وجمع الموج مع جمع الجبال يدل على التلاحق والكثرة وعدم التفاوت فى القدر بين موجة وأخرى، فبدأت حركة سريان السفينة، ابتدأها نوح بـ «بسم الله مجريها» فكانت الحركة برعاية الله وعنايته ﴿وحملناه على ذات ألواح ودسر * تجرى بأعيننا جزاء لمن كان كفر﴾[٤] وهنا ربط للأحداث بقدرة الله وإرادته،ففى الصنع كان الأمر الإلهى (فأوحينا إليه أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا) وفى الجريان كانت (تجرى بأعيننا) وفى المستقر بـ«بسم الله مجريها ومرساها» مع حفظها من كل أذى وحفظ كل من فيها ﴿قيل يانوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك﴾[٥]

---

(١) هود ٤٠.
(٢) المؤمنون ٢٧.
(٣) القمر ١١-١٣.
(٤) القمر ١٣، ١٤.
(٥) هود ٤٨.

مع أمر نوح بدعاء ربه ﴿وقل رب أنزلني منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين﴾[1].

فكانت شدة الريح وتلاحق الموج -مع ارتفاع المياه- سبيلاً من سبل دفع السفينة، وكان الماء سبيل النجاة لنوح، ووسيلة إهلاك المكذبين به ﴿فأنجيناه ومن معه في الفلك المشحون * ثم أغرقنا بعد الباقين﴾[2].

وقد ذكر الحق سبحانه أن الناجين كانوا بداية الإعمار للأرض من جديد، دون أن يحدد عددهم أو يذكر أسماءهم، قال تعالى ﴿ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون * ونجيناه وأهله من الكرب العظيم * وجعلنا ذريته هم الباقين * وتركنا عليه في الآخرين * سلام على نوح في العالمين﴾[3]. وفي سوة يونس ورد قول الحق ﴿فكذبوه فنجيناه ومن معه في الفلك وجعلناهم خلائف﴾[4] وفي سورة هود ﴿قيل يانوح اهبط بسلام منّا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم﴾[5].

ولم يكن الطوفان بالأمر الهيّن أو المألوف، بل إن خرقاً للعادة فيه قد بدا، حتى سبّب كربا في النفوس، نجى الله منه المؤمنين وعذب به الكافرين ﴿ونوحا إذ نادى من قبل فاستجبنا له ونجيناه وأهله من الكرب العظيم﴾[6].

ولم يشر القرآن إلى مدة الطوفان أو فترة جريان السفينة، وإنما صرح بموضع استقرارها (على الجودى) فى نواحى ديار بكر من بلاد الجزيرة وهو يتصل بجبال آرمينية)[7] كما يرى المؤرخون.

أسباب هلاك قوم نوح :

إن قصص القرآن ورد للعظة والاعتبار، بالنسبة للأفراد والأمم، وقد ذكر القرآن الأسباب التى استحق قوم نوح بها الهلاك، حتى تأخذ أمتنا حذرها من أن تسلك مسلك تلك الأمم، فيكون من شأنها ماكان من شأن الأمة الأولى. وإذا كان عذاب الاستئصال قد رفع عن هذه الأمة فإن العيش مع شظف العيش وسوء الحياة وفقدان

---

(1) المؤمنون ٢٩.

(2) الشعراء ١١٩، ١٢٠.

(3) الصافات ٧٥ - ٧٩.

(4) يونس ٧٣.

(5) هود ٤٨.

(6) الأنبياء ٧٦.

(7) النجار - قصص الأنبياء ٦٢.

الأمن، وسلب الحرية وإهدار الكرامة وانتهاك الحرمات، وتسلط الأراذل واختلال الموازين والمعايير، وارتفاع أهل الفساد وضياع أهل القيم، هو لون من العذاب بل إنه العذاب الذى لاتستريح الأنفس الأبية منه إلا بالموت. ولذلك ذكر القرآن أسباب الهلاك مفرقة فى آيات تجمعها فى الآيات التالية :

١- تكذيب نوح عليه السلام وذلك برفض الاستجابة للدعوة ﴿فكذبوه فأنجيناه والذين معه فى الفلك وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوماً عمين﴾[1].

٢- سلكوا مسالك السوء حتى صاروا من أهله ﴿ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوم سوء فأغرقناهم أجمعين﴾[2].

٣- تجاوز الحد فى الظلم سواء ما تعلق منه بحق الله أم بحق العباد أم بحق النفس ﴿واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولاتخاطبنى فى الذين ظلموا إنهم مغرقون﴾[3] ﴿فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك فقل الحمد لله الذى نجانا من القوم الظالمين﴾[4]

﴿وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم وجعلناهم للناس آية وأعتدنا للظالمين عذاباً أليما﴾[5] ﴿ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً فأخذهم الطوفان وهم ظالمون﴾[6].

٤- تجاوز الحد فى الظلم إذا قورنوا بمن بعدهم ﴿وأنه أهلك عاداً الأولى * وثمود فما أبقى * وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى﴾[7].

٥- الفسق ﴿وقوم نوح من قبل إنهم كانوا قوماً فاسقين﴾[8].

٦- كثرة الخطايا سواء منها ماسبق أم مالم يرد له ذكر ﴿مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا ناراً فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا﴾[9]. وقد استشهد بعض العلماء بهذا

---

(١) الأعراف ٦٤.
(٢) الأنبياء ٧٧.
(٣) هود ٣٧.
(٤) المؤمنون ٢٨.
(٥) الفرقان ٣٧.
(٦) العنكبوت ١٤.
(٧) سورة النجم ٥٠ – ٥٢.
(٨) الذاريات ٤٦.
(٩) نوح ٢٥.

النص على عذاب القبر لأن العطف ورد بالفاء والتي تفيد الترتيب والتعقيب.

بين الأحكام الإلهية والقوانين الوضعية :

شأن الأحكام الإلهيـة التنزه عن الأهواء. والعمـوم فى الأوامر والنواهى والاستثناءات، بلا مجاملة، وقد وعد الله بإهلاك المكذبين الكافرين ونجاة المؤمنين، دون اعتبار لدم أو لون أو نوع، وحيث إن النجاة مشروطة بالإيمان فقد هلك من أهل نوح اثنان لم تتوفر فيهما شروط النجاة وهما...

١- ابنه. دون أن يحدد القرآن اسمه. والراجح البنوة الحقيقية لصلبه. وقد أخذت نوحاً عاطفةُ الأبوة فطلب من ابنه الإيمان حتى يمكنه الركوب معه عملاً بالأوامر السابقة له **﴿ونادى نوح ابنه وكان فى معزل يابنى اركب معنا ولاتكن مع الكافرين﴾**[1] وفى الآية لفت نظر الابن إلى سبيل النجاة (الإيمان) إلا أن الابن لم يدرك ذلك السر الوحيد للنجاة، وظن إمكانية النجاة باللجوء إلى مكان مرتفع لاتصل إليه المياه، فبين له نوح-عليه السلام-أنه لانجاة إلا بأمرين (الإيمان، من شاء الله له النجاة) وحال الموج بين نوح وولده فأخذت نوحاً-عليه السلام-عاطفة الأبوة وطلب من ربه أن ينجي ولده، إما بالهداية أو بالشفاعة، فبين الحق له أن زمن الاستجابة قد ولى، لأن الإيمان مع الإكراه لايقبل، والتوبة حين الموت مردودة وقد أكّد القرآن على نفي صحة الإيمان عند الإلجاء كما فى قصة فرعون[2].

كما بين الحق لنوح أن نسب الدم يكون قبل يوم الحساب، وعند الحساب تتبدل المعايير، ولذلك رد الحق على نوح حين دعا ربه **﴿فقال رب إن ابنى من أهلى وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين * قال يانوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسألن ماليس لك به علم إنى أعظك أن تكون من الجاهلين * قال رب إنى أعوذ بك أن أسألك ماليس لى به علم وإلا تغفر لى وترحمنى أكن من الخاسرين﴾**[3].

وبذلك هلك ابن نوح مع من هلك، وقد أصابته دعوة والده حين قال **﴿رب لاتذر على الأرض من الكافرين ديارا﴾**[4]. ولم تجد شفاعة والده أو طلبه الهداية له بعد

---

(١) هود ٤٢.
(٢) يونس ٩٠ – ٩٢.
(٣) هود ٤٥، ٤٦، ٤٧
(٤) نوح ٢٦.

قوات وقتها.

٢- امرأته التي خانته في أمر النبوة والرسالة،حتى صارت مع امرأة لوط مضرب المثل في الكفر ﴿ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً وقيل ادخلا النار مع الداخلين﴾[1].

وقد ذكر أهل الكتاب أن نوحا حمل امرأته معه، وكان لذكرهم هذا أثره - في محاولة التوفيق بين ماوراه أهل الكتاب والمؤرخون،ومماورد بالقرآن الكريم- عند بعض العلماء، يقول أحدهم «مسألة زوج نوح لم تذكر -التوراة- أن نوحا كانت زوجته كافرة وهلكت مع قومه الهالكين. بل ذكرت أنه أمر أن يدخل زوجه السفينة مع من دخلها من المؤمنين فدخلت ونجت. وهذا ليس دليلاً على أن نوحا لم تكن له زوجة كافرة، لاحتمال أنه كان له زوجان إحداهما كافرة والأخرى مؤمنة نجت»[2]. وكنا في ضوء القرآن في غنى عن هذا التكلف.

عمر نوح عليه السلام: لا إمكانية للقطع بعمر نوح عليه السلام. لأن الأنبياء لايرسلون إلا بعد بلوغ الأشد،وهي فترة غير محددة المقدار،يستوى فيها الجميع. وإن ورد في الأثر أن الأنبياء يبعثون على رأس الأربعين[3]. وقد قطع القرآن بفترة الدعوة الأولى ﴿ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً فأخذهم الطوفان وهم ظالمون﴾[4]. وبعد النجاة عاش نوح ومن معه فترة زمنية غير محددة المقدار، بالنسبة له حتى وافته المنية،وقد كثرت الآراء حول تحديد عمر نوح، منها ماهو منسوب إلى أهل الكتاب،ومنها ما هو منسوب إلى الصحابة والتابعين،ومنها ماهو من تراث الإنسانية، ومن العلماء من يراها فترة زمنية طويلة المدى غير مراد بها المعنى الحقيقي.

وهناك رأي آخر: وهو أن الأقوام الأولين كانوا يعدون كل شهر عاما. فإذا قالوا

(١) التحريم ١٠. (٢) النجار - قصص الأنبياء ٧٣.
(٣) الحديث موضوع - كشف الخفا حديث رقم ٢٢٤٨.
(٤) العنكبوت ١٤.

ألفا ومائتى سنة فإنما يعنون مائة عام من أعوامنا. وقد أشار إلى ذلك المعرى بقوله ...

لست أدرى ماهن فى المشهور	ورووا للمعمـــرين أمـــورا
عدوا ســـنيهم بالشهـــور	أتراهم فيمـا تقضى من الأيـــام
كان عاما لديهموا فى الدهـــور	كلمـــا لاح للعيون هــــلال
يثنى فى حالـــة المبهـــور[1]	هكذا ينبغى وإلا فإن العقـــل

والبحث في هذا الأمر من باب الاجتهاد العلمى والعلم به لاينفع والجهل به لايضر فلزم التفويض.

عموم الطوفان : خاض فى هذا الأمر كثيرون. فبعض العلماء يرى عموم الطوفان إلى سائر الأرض،وأن الله أهلك به كل من لم يركب السفينة أخذاً بظاهر النص (رب لاتذر على الأرض من الكافرين ديارا) ومن العلماء من يرى محلية الطوفان وخصوصيته بالمنطقة التى كان يسكنها نوح وقومه دون غيرهم.

والنظر فى هذا الأمر فى ضوء الشرع والعقل يجعلنا نقول :

إما أن تكون البشرية قد عمت الأرض،وقد بلغت رسالة نوح إليهم جميعاً، فآمنت قلة وكفرت الكثرة منهم فكان الطوفان لإهلاك الكافرين. وهو أمر مستبعد لكون البشرية حديثة عهد بالتوالد وعمارة الأرض، ومازلنا حتى يومنا هذا –مع مضى ملايين السنين– لم نر عمران الأرض قد تم. ولتعذر بلوغ رسالة نوح إلى سائر الأرض فضلا عن اختلاف الألسنة والذى يحول دون البلاغ... إلخ.

أو تكون البشرية قد سكنت بقعة ما من الأرض،دون سائر البقاع فأرسل إليهم نوح فبلغهم جميعاً،فآمنت قلة وكفرت الكثرة فكان الهلاك بعد الإنذار وانتفاء المعذرة لهؤلاء الهالكين، والعقل لايحيل إغراق بقعة من الأرض دون سائرها بمثل مانشاهد فى الهند وبنجلاديش وباكستان والأعاصير فى بعض الولايات الأمريكية دون ماجاورها....

---

(١) النجار – قصص الأنبياء ٧٧.

أولاً: الإخبار بها دليل الوحي إلى محمد-عليه السلام- فالإجماع على أميته لم يشذ عنه إلا قليلون ممن لايقدسون النص القرآني -غير المسلمين- أو يتأولون في فهمه لهوى في النفس مع أنه قطعي الدلالة على أميته ﴿وماكنت تتلو من قبله من كتاب ولاتخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون﴾[1] . ﴿فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون﴾[2] .

والقطع بالأمية ينفي العلم بتاريخ الرسالات الغابرة، بل إن القرآن ليشير إلى أن أهل مكة لم يكن لديهم علم بذلك، قال تعالى ﴿تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ماكنت تعلمها أنت ولاقومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين﴾[3] .

والذي أراه أن نفي العلم مراد به العلم بالجزئيات والأحداث لا الكليات، وإلا لتعارض ذلك مع ما أثر عن عرب الجاهلية من شعر ونثر وثقافة[4] . فذكر نوح والطوفان والسفينة وارد بصفة العموم. وأما تفاصيل الدعوة والصراع فلم يتوفر.

ومثل ذلك أمر مريم في سورة آل عمران. قال تعالى مخاطباً رسوله ﴿ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وماكنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وماكنت لديهم إذ يختصمون﴾[5] . فالعلم بمريم عند العرب كان متوافراً والنصرانية في مكة كانت موجودة فضلاً عن سائر شبه الجزيرة العربية.

ويمكن أن يكون الغيب في سورة آل عمران خاصاً بالرسول-عليه السلام-دون قومه، وفي قصة نوح كان الغيب شاملاً الرسول وقومه، أو أن المراد بالغيب مايضرب بأصل في التاريخ توفر العلم به أو لم يتوفر.

ثانياً: قدم التيار المادي، فليست الوثنية بالظواهر الحديثة في تاريخ البشرية، بل إنها تضرب بأصل إلى ماقبل إرسال نوح -عليه السلام- فكان بعث نوح لتصحيح الاعتقاد وإبطال ألوهية غير الله.

---

(١) العنكبوت ٤٨ .
(٢) الأعراف جزء آية ١٥٨ .
(٣) هود ٤٩ .
(٤) تاريخ الطبري ١٩١/١ .
(٥) آل عمران ٤٤ .

ثالثاً: حرية الاعتقاد من مبادئ الرسالات السماوية عبر التاريخ. فلقد صرح نوح عليه السلام - كأول رسول تبلغنا رسالته- بذلك ونفى الإكراه على الاعتقاد ﴿قال ياقوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى وآتانى رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون﴾[1].

رابعاً: بيان أثر البيئة على الناشئة أخذا من قول الحق ﴿ولايلدوا إلا فاجرا كفارا﴾، مما يبين أثر الوالدين على الأولاد وأثر المجتمع على الناشئة فى ميدان العقيدة والسلوك وهذا ما أشارت إليه السنة «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء»[2]، وفى الحديث القدسى (وإنى خلقت عبادى حنفاء كلهم فأتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم)[3].

وقد أدرك المنصرون ذلك الأمر،فإذا بهم يتبنون أطفال المسلمين المعوزين واللقطاء،ليُربوا تربية مسيحية يكونون بها نصارى،فضلا عن كونهم عمد التبشير فى المستقبل.

خامسة: الإيمان بالرسل كل لايتجزأ،والكفر برسول كفر بسائر الرسل،وهذا قاسم مشترك بين سائر الرسالات السماوية،ولذلك حكم الحق على قوم نوح بتكذيبهم لسائر المرسلين،مع أنه لم يرسل إليهم إلا رسول واحد فكذبوه ﴿كذبت قوم نوح المرسلين * إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون * إنى لكم رسول أمين﴾[4]. ﴿وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم وجعلناهم للناس آية﴾[5].

سادسة: المساواة فى التكاليف والنتائج المترتبة على الاستجابة والإعراض، فالذين آمنوا بنوح نجاهم الله دون مراعاة لقرابة أو غربة، بل إن الإيمان أكسبهم الوصف بالأهلية بالنسبة له، والذين أعرضوا عن نوح أهلكهم الله وإن كانوا وثيقى الصلة به

---

(١) هود ٢٨.

(٢) خ ك الجنائز ٨٠، ٩٣ مسلم ك القدر ٢٢، حم ٢/٢٣٣.

(٣) مسلم. الجنة ٦٣.

(٤) الشعراء ١٠٥ - ١٠٧.

(٥) الفرقان ٣٧.

كابنه وامرأته. كما أخرجهم القرآن من الأهلية فى الدين ﴿قال يانوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسألنى ماليس لك به علم إنى أعظك أن تكون من الجاهلين﴾[1] .

وترك العمل بهذه النتيجة،يؤدى إلى فساد المجتمع،وذلك عندما تتفاوت العقوبة بحسب الجنس أو النوع أو الدم أوالحسب،فتكون الآلام النفسية،ويبدأ الخلل ويزدرى الناس بالقانون،ويظهرون أو يضمرون احتقار القائمين عليه. وهذا ماحذر الرسول منه أمته وأعلن رفضه له وصرح بأن الجميع أمام القانون سواء بدءاً بابنته (إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها)[2] .

سابعة: ينبغى أن لايحزن الداعى لعدم استجابة المدعوين،فدوره ومهمته البلاغ سائلا ربه الهداية لقومه، فإن لم يجد استجابة فقد سقط عنه الوزر بالبلاغ،وقلم بأعناق المدعوين الذين لم يستجيبوا لحكمة أرادها الله ﴿ولاينفعكم نصحى إن أردت أن أنصح لكم إن الله يريد أن يغويكم هو ربكم وإليه ترجعون﴾[3] .

ثامنة: الانتكاس سمة البشر فى الميدان العقيدى وليس التطور. فآدم عليه السلام نزل إلى الأرض موحداً وانتكست البشرية بعده،فكان بعث نوح الذى لم ينج معه إلاالمؤمنون فخاطبه الله بقوله ﴿قيل يانوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم﴾[4] . فأزهى عصور الدعوة وأنقاها، وقت النزول والبلاغ، حيث السلامة من الخلط والخبط والشوائب، كحال المطر حين ينساب من السحاب، وبمضى الزمن يكون الاختلاط ثم التغليب للباطل فالانتكاس، حتى تكاد معالم الرسالة أن تمحى بالكلية ويكون الكفر،فيأتى نبى جديد، حتى كانت الرسالة الخاتمة والتى حفظ الله مصدرها الأول (القرآن) بحفظه فلم يمسسه سوء، وناط حفظ السنة بالأمة، واعترى الفكر مايعترى الرسالات السابقة، إلا أن الباطل منه يرد حين العرض على القرآن.

---

(١) هود ٤٦.

(٢) أخرجه البخارى ومسلم وأصحاب السنن والإمام أحمد.

(٣) هود ٣٤.   (٤) هود ٤٨.

تاسعاً: من الصفات التي ينبغي أن يتحلى بها الداعي -في ضوء القصة- مايلي:

أ) **الإخلاص التام** وذلك بأن يقصد بالعمل وجه الله دون سواه،وهذا ماصرح به نوح في أكثر من موطن. يونس ٧٢، هود ٢٩، الشعراء ١٠٩.

ب) **الوضوح التام** حتى يتمكن من المحاجة والجدل،مع حسن العرض والتفنن فيه ويُلزم القوم بدعوته أخذا من النص الشريف ﴿قال ياقوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي....﴾[1]. ﴿قالوا يانوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا﴾[2].

ج) **الثبات على المبدأ** وإن طال العهد،مع الإيمان بنصر الله لأهل الحق،لأن اليأس يقطع الأمل،ويفتّر الهمم،ويؤثر على مسار الدعوة،مع الإيمان بأن العاقبة للمتقين.

عاشراً: لايعدل عن الحوار الفكري إلى الصراع العضلي إلا الأغبياء وضعاف الحجة وفاقدي البرهان. والتاريخ يذكر أن الأمم تكذب أنبياءها أولا بالحوار الفكري، فإذا ماضعفت قدراتهم العقلية أمام الوحي،لجأوا إلى إيذاء المرسلين مادياً وهذا ماينزل كثيراً بالمفكرين وأهل الدعوة في عصرنا، فكم يُؤذون من الحاقدين عليهم بالسجن أو النقل أو الخصم من الراتب والمكافآت أو المنع من الندب... وبخاصة إذا كانت الكراهية ناجمة عن الحوار الفكري.

وقد ذكر بعض العلماء نتائج تترتب على العلم بهذه الدعوة[3] لاتختلف كثيراً عما ذكرته هنا فلتراجع

الصلة بين دعوة نوح ودعوة محمد عليهما السلام

قليلا ماورد الربط بين الدعوتين في كتب تاريخ الدعوة أو قصص الأنبياء، مع أن القرآن قد ربط بين دعوة نوح ودعوة محمد -عليهما السلام- في جوانب عدة

---

(١) هود ٢٨. (٢) هود ٣٣.

(٣) في رحاب القرآن ١٨٠/١٨١. في موكب النبيين ١٤٢ - ١٤٤ دعوة الرسل د/ الشتيوى ٨١-٨٦ دعوة الرسل - العدوى ١ - ١٨.

متشابهة منها..

١- أولية بعث كل منهما إلى قومه، فنوح-عليه السلام-أول رسول إلى قومه ومحمد-عليه السلام-كذلك، وإن سُبقا بأنبياء قد مضى عليهما من الزمن الكثير مع هداية كل منهما إلى الله قبل النبوة وبعدها، فقد وصف نوح بقول الحق ﴿ونوحا هدينا من قبل﴾[1] ووصف محمد عليه السلام بقول الحق ﴿ووجدك ضالا فهدى﴾[2]. وأولية نوح إلى قومه فى قول الحق عنهم حين قالوا له (ماسمعنا بهذا فى آبائنا الأولين) المؤمنون ٢٤ وأولية محمد فى قول الحق ﴿لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك﴾. -السجدة : ٣.

٢- الوحى إلى كل منهما. لتأكيد الوحى عبر التاريخ ولإقامة الدليل العقلى على إمكانيته قال تعالى ﴿إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبورا﴾[3]. وفى سورة الأعراف ورد فى مطلعها مخاطبة الرسول -صلى الله عليه وسلم- بقول الحق ﴿كتاب أنزل إليك فلايكن فى صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين * اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلاً ما تذكرون﴾[4] وتستمر الآيات حتى تذكر بعث نوح عليه السلام مشيرة إلى نفس الغرض من بعث محمد -صلى الله عليه وسلم- ﴿أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ولتتقوا ولعلكم ترحمون﴾[5].

٣- أخذ العهد والميثاق على كل منهما بالإيمان والبلاغ مع الربط بينهما رغم التفاوت الزمنى ﴿وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم وأخذن منهم ميثاقا غليظا﴾[6].

٤- اتحاد الشريعة فى أصولها دون التعرض لكمّها أو كيفها ﴿شرع لكم من الدين ماوصى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن

---

(١) الأنعام ٨٤.
(٢) الضحى ٧.
(٣) النساء ١٦٣.
(٤) الأعراف ٢، ٣.
(٥) الأعراف ٦٣.
(٦) الأحزاب ٧.

أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه﴾[1] .

٥- تشابه المعارضة بين أمتى النبيين فى جوانب عدة منها:

أ) وثنية المعتقد لديهما. فقوم نوح كانوا وثنيين وتواصوا فيما بينهم بالثبات على الوثنية ﴿وقالوا لاتذرن آلهتكم ولاتذرن وَدًّا ولاسُوَاعا ولايغوث ويعوق ونسرا﴾[2] . وقوم محمد -عليه السلام- كانوا وثنيين ﴿وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشئ يراد * ماسمعنا بهذا فى الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق﴾[3] .

ب) التكذيب لكل منهما. فالحق سبحانه كان يسرى عن محمد -عليه السلام- بما أصاب الأنبياء السابقين،ويذكر له تكذيب الأمم السابقة لأنبيائها،كما يكذبه قومه، ويأمره بتهديد قومه أن يصيبهم ما أصاب الأمم السابقة،وذلك فى مواطن عدة جمعت بين مكى القرآن ومدنيّه، قال تعالى ﴿ألم يأتهم نبأ الذين من قبلهم قوم نوح وعادٍ وثمود وقوم إبراهيم وأصحاب مدين والمؤتفكت أتتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾[4] . وفى سورة إبراهيم، قال محمد -عليه السلام- لقومه ﴿ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لايعلمهم إلا الله جاءتهم رسلهم بالبينات فردّوا أيديهم فى أفواههم وقالوا إنّا كفرنا بما أرسلتم به وإنا لفى شك مما تدعوننا إليه مريب﴾[5] . وفى إطار الحث على الصبر ورد قول الحق ﴿وإن يكذبوك فقد كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وثمود * وقوم إبراهيم وقوم لوط﴾[6] وفى سورة «ص» ورد قول الحق ﴿كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وفرعون ذو الأوتاد * وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة أولئك الأحزاب﴾[7] . وفى سورة غافر خص قوم نوح بالذكر وجمع الآخرين فى سياق العموم. قال تعالى ﴿مايجادل فى آيات الله إلا الذين كفروا فلا يغررك تقلبهم فى البلاد * كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق...﴾[8] . وفى سورة «ق» ورد قول الحق ﴿كذبت قبلهم قوم نوح

(١) الشورى ١٣.
(٢) نوح ٢٣.
(٣) ص ٦، ٧.
(٤) التوبة ٧٠.
(٥) إبراهيم ٩.
(٦) سورة الحج ٤٢، ٤٣.
(٧) سورة ص ١٢، ١٣.
(٨) غافر ٤، ٥.

وأصحاب الرس وثمود * وعاد وفرعون وإخوان لوط * وأصحاب الأيكة وقوم تبع كل كذب الرسل فحق وعيد﴾[1].

ج) رفض نبوة نوح لكونه من البشر ﴿فقال الملأ الذين كفروا من قومه ماهذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ولو شاء الله لأنزل ملائكة ماسمعنا بهذا في آبائنا الأولين﴾[2].

وكذلك رفض أهل مكة نبوة محمد لكونه بشرا ﴿لاهية قلوبهم وأسروا النجوى الذين ظلموا هل هذا إلا بشر مثلكم أفتأتون السحر وأنتم تبصرون﴾[3].

د) وصف كل منهما بالجنون من قبل المعرضين. فقوم نوح قالوا له ﴿مجنون وازدجر﴾[4] وقوم محمد عليه السلام قالوا له ﴿وقالوا يا أيها الذى نزل عليه الذكر إنك لمجنون﴾[5].

هـ) التهديد لكل منهما بكل صور الإيذاء حتى القتل. فقوم نوح قالوا له ﴿لئن لم تنته يانوح لتكونن من المرجومين﴾[6] وقوم محمد أقدموا على ذلك أيضاً، قال تعالى ﴿وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين﴾[7].

و) إنكار أفضلية كل منهما لفقره، فقوم نوح قالوا له ﴿ومانرى لكم علينا من فضل﴾[8] وقوم محمد –عليه السلام– قالوا ﴿لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾[9].

ز) السخرية من كل منهما ﴿ويصنع الفلك وكلما مرّ عليه ملأ من قومه سخروا منه﴾[10] وفي زمن محمد –عليه السلام– ورد قول الحق ﴿إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون * وإذا مرّوا بهم يتغامزون * وإذا انقلبوا إلى أهلهم

---

(1) سورة ق ١٢ : ١٤.
(2) المؤمنون ٢٤.
(3) الأنبياء ٣.
(4) القمر ٩.
(5) الحجر ٦.
(6) الشعراء ١١٦.
(7) الأنفال ٣٠.
(8) هود ٢٧.
(9) الزخرف ٣١.
(10) هود ٣٨.

انقلبوا فكهين﴾[1] . .

ح) طلب كل أمة من نبيها العذاب تهكما أوسخرية فقوم نوح قالوا له ﴿يانوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين﴾[2] وقوم محمد قالوا ذلك كذلك ﴿وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم﴾[3] .

ط) التعنت في المطالب المادية مع الرغبة في خرق العادة. وقد أعلن نوح عدم استطاعته فعل ذلك،لأن الأنبياء لم يبعثوا بخرق العادة وفقاً للأهواء والشهوات،وإلا لاختل نظام الكون والحياة،وما توقفت المطالب عند حد، بل لطلب كل مكذب مطلباً يروق له أو مطالب عدة، وهذا مانفهم من إجابة نوح قومه حين قال لهم ﴿ولا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إني ملك...﴾[4] وعندما تحدى قوم محمد –صلى الله عليه وسلم– نبيهم بخرق العادة وحددوا مطالبهم كما ذكرها القرآن ﴿وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا* أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً * أوتسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً * أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه...﴾ أمره ربه أن يقول لهم ﴿قل سبحان ربي هل كنت إلا بشرا رسولا﴾[5] كما أعلن عدم علمه بالغيب ﴿ولوكنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير﴾[6] .

٦– إعلان حرية الاعتقاد عندهما. فنوح عليه السلام صرح بذلك حين قال لقومه ﴿أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون﴾[7] . ومحمد –عليه السلام– أعلن ذلك في مواطن عدة منها ﴿لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي﴾[8] . ﴿وقل الحق من ربكم فمن

---

(١) المطففين ٢٩، ٣٠.
(٢) هود ٣٢.
(٣) الأنفال ٣٢.
(٤) هود ٣١.
(٥) الإسراء ٩٠ – ٩٣.
(٦) الأعراف ١٨٨.
(٧) هود ٢٨.
(٨) البقرة ٢٥٦.

شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر إنا أعتدنا للظالمين ناراً...﴾[1].

٧- تشابه حال المتبعين لكل منهما فى البدء. فالفقراء فى بدء الدعوة كانوا أسبق إلى الاستجابة من الأغنياء، ومطالب الأغنياء -رغم بعد الزمن- كانت واحدة وذلك بطرد الفقراء حتى يفكروا فى أمر الدعوة وإمكانية الاستجابة، وكان الرد واحداً من النبيين أيضاً وهو الرفض لذلك المطلب. ذكر ذلك القرآن فى حديثه عن قوم نوح مع نبيهم ﴿..وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأى وما نرى لكم علينا من فضل﴾[2]. وكان طلب الطرد من مفهوم قول نوح لهم ﴿وياقوم من ينصرنى من الله إن طردتهم أفلا تذكرون * ولا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إنى ملك ولا أقول للذين تزدرى أعينكم لن يؤتيهم الله خيراً الله أعلم بما فى أنفسهم﴾[3].

وقوم محمد -صلى الله عليه وسلم- قالوا عن أتباعه ﴿وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيراً ما سبقونا إليه﴾[4] وفى كتب التفسير ورد أن الأغنياء المشركين قالوا لبعضهم: لو كانت دعوة محمد خيراً ماسبقنا إليها الفقراء[5]. كما طلبوا من الرسول أن يطرد الفقراء من عنده حتى يتمكنوا من سماعه ثم يفكروا فى الاستجابة. فنزل قول الحق ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ماعليك من حسابهم من شئ وما من حسابك عليهم من شئ فتطردهم فتكون من الظالمين﴾[6] بل إنه أمر بالصبر حين الجلوس معهم ﴿واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا﴾[7].

٨- إعلان الدعوة بلامقابل من النبيين، فنوح عليه السلام يعلن عن دعوته بلا أجر من قومه فى مواطن عدة ﴿فإن توليتم فما سألتكم من أجر إن أجرى إلا على الله

---

(١) الكهف ٢٩. (٢) هود ٢٧.
(٣) هود ٣٠، ٣١. (٤) الأحقاف ١١.
(٥) جامع البيان ٨/٢٥، الجامع لأحكام القرآن ٨٩/١٦، روح المعانى ١٤/٢٦.
(٦) الأنعام ٥٢. (٧) الكهف ٢٨.

﴿وأمرت أن أكون من المسلمين﴾[1] . ﴿وياقوم لاأسألكم عليه مالا إن أجرى إلا على الله﴾[2] . ﴿وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين﴾[3] .

ومحمد صلى الله عليه وسلم يؤمر بقول الله تعالى ﴿...قل لاأسألكم عليه أجرًا إن هو إلا ذكرى للعالمين﴾[4] . ﴿قل ماسألتكم من أجر فهو لكم إن أجرى إلا على الله﴾[5] . ﴿قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين﴾[6] وقد عاب القرآن على قريش عدم الاستجابة وطرح هذا السؤال بصيغة الاستفهام الإنكارى ﴿أم تسألهم أجرا فهم من مغرم مثقلون﴾[7] .

وبهذا يتبين لنا مدى الربط بين الدعوتين وإن بعد الزمان ونأى المكان.

قضايا خاض فيها كثيرون امسكنا عن ذكرها مفصلة :

خاض كثير من المفسرين والمؤرخين وكتاب القصص،فى أمور لافائدة من ذكرها،وأسرفوا فيها،لأنها مما يستهوى العامة،ويضر الدعوة،فضلاً عن مصادمة الكثير من ذلك للقرآن والسنة،وقد جَمَعتُ بَعْضَ هذه الأمور للتحذير منها ولترويض الطلاب على نقدها بأسلوب علمى، ومن هذه الأمور مايلى :

نسب نوح[8] . سبب التسمية بنوح[9] . تاريخ ميلاد نوح[10] . صفته الخلْقية[11] . سنه حين المبعث[12] . عدد الأجيال التى دعاها[13] . عدد المؤمنين بنوح

---

(1) يونس ٧٢.
(2) هود ٢٩.
(3) الشعراء ١٠٩.
(4) الأنعام ٩٠.
(5) سبأ ٤٧.
(6) ص ٨٦.
(7) الطور ٤٠ ، القلم ٤٦ .
(8) البداية والنهاية ١/١٠٠ ، النجار ٥٣، الثعلبى ٣٢، الشتيوى ٦١ ، الصابونى ١٤٧ بدائع الزهور ١/٨٧.
(9) سمط النجوم ١/٩٨ بدائع الزهور ١/٨٧.
(10) البداية والنهاية ١/١٠٠، سمط النجوم العوالى ١/٩٨.
(11) سمط النجوم ١/٩٨.
(12) الطبرى ١/١٧٩ البداية والنهاية ١/١٠١ بدائع الزهور ١/٨٧.
(13) الطبرى ١/١٨٠، ١٨٢، سمط النجوم ١/١٠٠.

كتبى ورسول[1] . الخشب الذى صنع منه السفينة[2] . وصف السفينة[3] . مدة صنع السفينة[4] . من أساليب السخرية بنوح[5] . تاريخ بدء الطوفان[6] . حمل الأزواج وكيفية اختيارها[7] . إسم ابن نوح وهل كان لصلبه[8] . التنور الذى فار ومكانه[9] . مدة المطر والطوفان[10] . مدة جريان السفينة[11] . حال الحرم وقت الطوفان[12] . كيف دخل الشيطان السفينة[13] . كيف خلق الفأر[14] . كيفية خلق الخنزير والخنزيرة[15] . حمل جسد آدم فى السفينة[16] . خط سير السفينة[17] . منزلة الحمامة وصلتها بالإنسان[18] كيف خلقت الهرة[19] منسوب المياه على الأرض[20] مكان استقرار

(١) الطبرى ١٨٧/١، البداية والنهاية ١١١/١، ١١٢، ١١٦، سمط النجوم ١٠٤/١، الثعلبى ٣٤ بدائع الزهور ٩٣/١.

(٢) الطبرى ١٨٠/١، والبداية والنهاية ١١٠/١، سمط النجوم ١٠٢/١، والثعلبى ٣٣ بدائع الزهور ٩٠/١.

(٣) الطبرى ١٨١/١، ١٨٢ والبداية والنهاية ١١٠/١، سمط النجوم ١٠٢/١، الثعلبى ٣٣ بدائع الزهور ٩٢/١.

(٤) الطبرى ١٨١/١ والبداية ١١٠/١.

(٥) الطبرى ١٨٣/١ والبداية ١١٣/١ الثعلبى ٣٣ بدائع الزهور ٩٢/١.

(٦) بدائع الزهور ٩٩/١، ١٠٤.

(٧) الثعلبى ٣٤.

(٨) الطبرى ١٨٣/١، ١٩٩، البداية ١١٣/١، سمط النجوم ١٠٥/١.

(٩) الطبرى ١٨٦/١ والبداية والنهاية ١١١/١ الثعلبى ٣٣ بدائع الزهور ٩٩/١.

(١٠) الطبرى ١٨٥/١ الثعلبى ٣٣.

(١١) الطبرى ١٨٥/١، ١٨٦، ١٩٠ والبداية ١١٦/١ وسمط النجوم ١٠٦/١ بدائع الزهور ١٠١/١.

(١٢) الطبرى ١٨٥/١، ١٨٩ والبداية ١١٢/١، الثعلبى ٣٤ بدائع الزهور ١٠٠/١.

(١٣) الطبرى ١٨٤/١ والبداية والنهاية ١١١/١ وسمط النجوم ١٠٣/١، ١٠٤، الثعلبى ٣٣ بدائع الزهور ٩٣/١.

(١٤) سمط النجوم ١٠٣/١.

(١٥) الطبرى ١٨١/١، البداية والنهاية ١١٦/١، الثعلبى ٣٥ بدائع الزهور ٩٤/١.

(١٦) الطبرى ١٨٥/١، البداية والنهاية ١١٩/١ بدائع الزهور ٩٣/١، ١٠٥.

(١٧) الطبرى ١٩٠/١ بدائع الزهور ١٠١/١.

(١٨) الطبرى ١٨٢/١، البداية والنهاية ١١٦/١، سمط النجوم ١٠٧/١ بدائع الزهور ١٠٣/١.

(١٩) البداية ١١١/١.

(٢٠) البداية ١١٢/١، الثعلبى ٣٤.

السفينة فى غير ماذكره القرآن[1] كيفية عمران الأرض ثانية[2] كيف حج نوح[3]. تقسيم الأرض بين ولده[4]. أسباب تبلبل الألسنة[5]. أسباب اسوداد بعض البشرات[6]. عمر نوح الإجمالى[7]. وفاة نوح ودفنه والمكان الذى دفن فيه[8]. خصائص نوح دون سواه من الأنبياء[9]. كيف دخلت الحية والعقرب السفينة[10]. قصة عوج بن عنق[11]. صلته بمحمد والصحابة[12]. صلة الأهرام بالطوفان[13]. صلة عاشوراء بنوح[14].

قصة نوح -عليه السلام- في الكتاب المقدس

١- ذكر مدونوا الكتاب المقدس نسب نوح-عليه السلام-وعنهم نقل بعض المسلمين[15] كما فصلوا القول فى أمره من حيث: الفاصل الزمنى بينه وبين آدم[16] ووقت ميلاده، وعدد زوجاته وأولاده، وكثير من السيرة الذاتية، مع الإشارة إلى ماكان عليه الناس في زمنه، من فسق ومعصية[17] دون ذكر لعبادة الأوثان التى أشار إليها القرآن. وقد بلغ الفسق المدى (فاتخذ الله قرارا بأن لايزيد عمر إنسان ما على وجه الأرض أكثر من مائة وعشرين عاما بعد حزن شديد أصاب الله حتى أسف فى قلبه لأنه خلق الإنسان)[18]. وقد خالف نوح قومه فى سلوكهم.

(١) الطبرى ١٨٦/١، ١٨٩، البداية ١١٥/١، ١١٧، سمط النجوم ١٠٦/١ بدائع الزهور ١٠٢/١.
(٢) الطبرى ٢٠٣/١، ٢٠٥، ٢٠٦.
(٣) سمط النجوم ١٠٨/١ بدائع الزهور ٩٣/١، ١٠٧.
(٤) الطبرى ١٩٣/١، ٢٠٢، ٢٠٣، سمط النجوم ١٠٨/١ بدائع الزهور ١٠٥/١.
(٥) البداية والنهاية ١١٦/١. (٦) البداية ١١٦/١.
(٧) الطبرى ١٧٩/١، ١٩١ - البداية ١٢٠/١، سمط النجوم ١٠٩/١ بدائع الزهور ١٠٧/١.
(٨) البداية ١٢٠/١ بدائع الزهور ١٠٧/١.
(٩) الثعلبى ٣٦. (١٠) الثعلبى ٣٤.
(١١) بدائع الزهور ٩٠/١، ٩١، ١٠٠.
(١٢) بدائع الزهور ٩٢/١، قصص الأنبياء لابن كثير ٩٥/١.
(١٣) بدائع الزهور ٩٥/١. (١٤) بدائع الزهور ١٠٢/١.
(١٥) راجع المهموشة رقم (٨) من صفحة ١٦٤
(١٦) تك ١/٥-٣٢. (١٧) تك ١/٦-٧، ١١/٦، ١٢.
(١٨) تك ٥/٦-٧.

٢- لم تشر التوراة إلى أن نوحاً دعا قومه بصورة صريحة وإن وقع تكلف في تلك الدعوى[1] وإنما اكتفت بذكر (ظفر نوح بنعمة في عيني الرب)[2] وهو من أساليب التعبير عن النبوة والرسالة في العهد القديم، وقد شاء الحق إهلاك العصاة وإنجاء نوح فأمره بصنع الفلك ووصف له كيفية الصناعة وأوصاف السفينة[3] وحدد له الذين سيحملهم معه من البشر (فتدخل الفلك أنت وبنوك وامرأتك ونساء بنيك معك[4] مع أخذ اثنين من كل كائن حي من غير البشر[5] وحمل مايلزم من الأطعمة لسائر المحمولين[6].

وقد اضطرب المدونون فادّعوا ثانية التفاوت بين عدد المأمور بحمله من الحيوانات حيث أمر نوح بحمل سبعة أزواج من كل حيوان طاهر وطيور السماء، والتي ليست بطاهرة اثنين اثنين[7]. وقد حمل نوح من كل نوع -الطاهر والنجس- اثنين اثنين[8] وهو دليل التناقض.

٣- وقد أخبر نوح أنه بعد سبعة أيام من تلك التعاليم سيكون المطر على الأرض أربعين يوماً وأربعين ليلة[9] (وحدث بعد السبعة أيام أن مياه الطوفان صارت على الأرض وذلك في سنة ست مئة من حياة نوح في الشهر الثاني في اليوم السابع عشر)[10] وقد تفجرت عيون الأرض بالماء ونزل المطر من السماء ودخل نوح السفينة ومعه من الرجال ثلاث سام و حام ويافث ومن النساء أربع: امرأة نوح ونساء بنيه الثلاث[11].

كما تحدثت التوراة عن مدة الطوفان وارتفاعه وشموله وآثاره ومدة بقاء المياه على الأرض[12]. ثم بدأت المياه في النقصان حتى استقر الفلك في (الشهر السابع في اليوم السابع عشر من الشهر على جبل أراراط) وكانت المياه تنقص نقصاً متواليا إلى

---

(١) حزقيال ٣٣/١٢-١٧.
(٢) تك ٨/٦.
(٣) تك ١٣/٦-١٦.
(٤) تك ١٨/٦.
(٥) تك ١٩/٦، ٢٠.
(٦) تك ٢١/٦.
(٧) تك ١/٧-٤.
(٨) تك ٨/٧.
(٩) تك ٤/٧.
(١٠) تك ١٠/٧.
(١١) تك ١٠/٧-١٦.
(١٢) تك ١٧/٧-٢٤.

الشهر العاشر. (وفي الشهر العاشر في أول الشهر ظهرت رؤوس الجبال)[1] وبدأ نوح يستطلع أمر الطوفان على ظهر الأرض فأرسل الغراب فخرج ولم يعد ثم أرسل الحمامة ثلاث مرات، تأكد له في الثالثة صلاحية الأرض للسكنى، وصدرت إليه الأوامر الإلهية بالنزول هو ومن معه إلى الأرض ليكونوا بداية إعمار جديد لها[2].

٤- **نوح يتقرب إلي ربه:** بعد نجاة نوح وبنيه (بنى نوح مذبحا للرب وأخذ من كل البهائم الطاهرة ومن كل الطيور الطاهرة وأصعد محرقات على المذبح. فتنسم الرب رائحة الرضا وقال الرب في قلبه لاأعود ألعن الأرض أيضاً من أجل الإنسان لأن تصور قلب الإنسان شرير منذ حداثته ولاأعود أيضاً أميت كل حي كما فعلت)[3].

٥- ***التعاليم التي أُوحي بها إلي نوح -عليه السلام- في ضوء التوراة:***

أ) إخباره بأن الكون مسخر له ولبنيه (ولتكن خشيتكم وهبتكم على كل حيوانات الأرض وكل طيور السماء مع كل مايدب على الأرض وكل أسماء البحر قد دفعت إلى أيديكم كل دابة حية تكون لكم طعاما كالعشب الأخضر دفعت إليكم الجميع)[4].

ب) تحريم الدم أو أكل الحيوان الحي حتى يذبح (غير أن لحما بحياته دمه لاتأكلوه)[5].

ج) وجوب القصاص وعدم جواز العفو (وأطلب أنا دمكم لأنفسكم فقط. من يد كل حيوان أطلبه. ومن يد الإنسان أطلب نفس الإنسان. من يد الإنسان أخيه. سافك دم الإنسان بالإنسان يسفك دمه. لأن الله على صورته عمل الإنسان)[6].

٦- ***الرب يقطع عهدا مع نوح بأن لايعم الطوفان سائر الأرض مرة ثانية:***

بعد تقديم نوح ذبائح للرب نالت رضاه، تعهد الرب بأن لايغرق الأرض مرة ثانية، وقد نصب علامة في السماء تذكره بهذا العهد إذا وقع مطر (وهي قوس قزح) متى

---

(١) تك ٨/٤، ٥.
(٢) تكوين ٨/١-١٩.
(٣) تكوين ٨/٢٠. ٢١.
(٤) تكوين ٩/١-٣.
(٥) تكوين ٩/٤.
(٦) تكوين ٩/٥، ٦.

رآها الرب أمسك المطر حتى لايهلك الإنسان ولاالحيوان (وقال الله لنوح هذه علامة الميثاق الذى أنا أقمته بينى وبين كل ذى جسد على الأرض)[1].

٧- **بداية العمران مرة ثانية:** صرحت التوراة بأن نوحاً نزل إلى الأرض ومعه بنوه الثلاثة (سام وحام ويافث) وقد ابتدأ عمارة الأرض فقام نوح بزراعة الكرم وقد صنع من ناتجها خمراً شرب منه فنام وانكشفت سوأته فأبصرها حام ولم يسترها وأخبر أخويه بما كان فعادا سائرين للوراء حتى سترا عورة أبيهما دون إبصارها (فلما استيقظ نوح من خمره علم مافعل به ابنه الصغير فقال ملعون كنعان عبد العبيد يكون لإخوته. وقال مبارك الرب إله سام. وليكن كنعان عبدا لهم. ليفتح الله ليافث فى مساكن سام وليكن كنعان عبدا لهم)[2].

وتدل القصة علي الامور التالية :

أ- حل الخمر فى الكتاب المقدس أو أن الأنبياء غير معصومين من ارتكاب الكبائر.

ب- لعن الولد بسبب فعل أبيه (كنعان بن حام) وهذا أمر يتعارض مع الشرع والعقل.

ج- مشروعية الرق، فاليهود والنصارى يرون أن استرقاق ذى البشرة السوداء مشروع لأنه من نسل كنعان وقد دعا نوح عليهم بأن يكونوا عبيداً لسام ويافث وأولادهما.

د- ظهور النزعة العنصرية بتقسيم الناس إلى ساميين وآريين.

٨- (وعاش نوح بعد الطوفان ثلاث مئة سنة وخمسين. فكانت كل أيام نوح تسع مئة سنة وخمسين)[3].

وفي العهد الجديد: ورد الحديث عن نوح فى إنجيلى متى ولوقا وبعض الرسائل.

ففى إنجيل متى: استشهد على عودة المسيح إلى الأرض بلامقدمات بمثل ماوقع

---

(١) تكوين ١٢/٩ - ١٧. (٢) تكوين ٩/ ٣٤ - ٣٧.
(٣) تكوين ٢٨/٩.

الطوفان بلامقدمات (وكما كانت أيام نوح كذلك يكون أيضاً مجيء ابن الإنسان. لأنه كما كانوا فى الأيام التى قبل الطوفان يأكلون ويشربون ويتزوجون ويزوجون إلى اليوم الذى دخل فيه نوح الفلك. ولم يعلموا حتى جاء الطوفان وأخذ الجميع. كذلك يكون مجيء ابن الإنسان)[1].

وفى لوقا: ورد (نسب المسيح على ماكان يظن الناس أنه ابن يوسف ابن هالى... بن سام بن نوح بن لامك)[2].

وفى الرسالة إلى العبرانيين وفى إطار بيان منزلة الإيمان فى نجاة صاحبه ورد (بالإيمان نجيّ نوح لما أوحى إليه عن أمور لم تر بعد خاف فبنى فلكا لخلاص بيته، فبه دان العالم وصار وارثاً للبر الذى حسب الإيمان)[3].

وفى رسالة بطرس الأولى: ورد قياس ماء المعمودية لغسل الجسد من الأوساخ على ماء المطر لتنجية نوح وسبعة من أهل بيته (فى أيام نوح إذ كان الفلك يبنى الذى فيه خلص قليلون أى ثمانى أنفس بالماء. الذى مثاله يخلصنا نحن الآن. أى المعمودية لإزالة وسخ الجسد)[4].

وفى رسالة بطرس الثانية: أشار إلى أثر المعاصى فى هلاك الأمم بمثل ما أهلكت أمة نوح بسبب معاصيهم (ولم يشفق –أى الله– على العالم القديم. بل إنما حفظ نوحاً ثامنا –أى واحداً من ثمانية– كارزا للبر إذ جلب طوفاناً على عالم الفجار)[5].

تنبيه... هذه مواطن ذِكْر نوح فى الكتاب المقدس. وقد بينتها كما وردت وماذهب إليه كثيرون من المسلمين من ذكر قضايا لافائدة منها ودعوى أن ذلك من الإسرائيليات أمر يفتقر إلى دليل. إلا إذا أخذنا بقول البعض: إن كل عجيبة وغريبة تنسب إلى بنى إسرائيل وتسمى بالإسرائيليات، ولوقلنا: إنها من التراث الإنسانى لكان الكلام أقرب إلى الصواب. وهو ماتميل إليه النفس لأن أمر الطوفان معروف لدى كثير من الأمم وعند كثير من ذوى العقائد والديانات.

---

(١) متى ٣٧/٢٤ – ٤٠ ومثل ذلك فى لوقا ٢٥/١٧.

(٢) لوقا ٢٣/٣ – ٣٨.　　(٣) ا–عب ٧/١١.

(٤) بطرس الأولى ٢٠/٤ – ٢١.　　(٥) بطرس الثانية ٥/٢.

١) ركزت التوراة على نسب نوح حتى آدم بينما لم يشر القرآن إلى ذلك.

٢) ركزت التوراة على سني حياة نوح منذ الميلاد حتى الوفاة، ولم يشر القرآن إلى ذلك.

٣) لم تشر التوراة إلى نبوة نوح صراحة بينما نص القرآن كثيراً على ذلك ولم تشر إلى وثنية قومه بل وصفتهم بالمعصية والفسق فقط، بينما خالف القرآن التوراة فى ذلك.

٤) لامعالم لدعوة نوح في التوراة باستثناء (حرمة النفس - حرمة الدم- حل طيور السماء وسمك البحار وكل مايدب على الأرض) ويمكن اعتبار ذلك لونا من الثقافة السائدة لاشريعة موصى بها، بينما أشار القرآن إلى جوانب من دعوة نوح تتمثل فى: الإيمان بالله، والرسل، واليوم الآخر، وعلمهم بالملائكة كان متوفراً.

٥) ترتب على عدم ذكر البلاغ من نوح عدم ذكر شئ يتعلق بالصراع بينه وبين قومه فى التوراة.

٦) ركزت التوراة على كيفية صناعة السفينة ومايتعلق بها من طول وارتفاع... إلخ ولم يشر القرآن إلا إلى صناعة سفينة برعاية الله وعنايته.

٧) حددت التوراة أسماء الناجين (ذكوراً وإناثاً) ولم يشر القرآن إلى شئ من ذلك.

٨) الحديث عن الطوفان فى التوراة ركز على كيفيته وزمنه وآثاره ونقطة البدء والتوقف وما بينهما زمنياً ولم يشر القرآن إلى شئ من ذلك.

٩) لم تشر التوراة إلى حركة السفينة وكونها برعاية الله وعنايته حين الحركة والاستقرار عكس القرآن.

١٠) ذكرت التوراة أمر الذبح بعد النجاة ولم يشر القرآن إلى ذلك.

١١) ذكرت التوراة العهد بين الله ونوح بعدم إهلاك أهل الأرض ثانية ولم يشر

القرآن إلى ذلك.

١٢) ذكرت التوراة طرق التوالد وعمران الأرض من جديد مفصلاً ولم يشر القرآن إلا إلى أن ذرية نوح من الباقين ﴿وجعلنا ذريته هم الباقين﴾[١] .

(١٣) لادلالة فى الإسلام على أن سُمْر البشرة يكونون عبيدا لبيض البشرة بل الكل سواء عكس دعوى التوراة فى ذلك.

(١٤) جعلت التوراة السبب فى إهلاك ابن نوح رؤيته لعورة أبيه فلم يسترها، وجعل القرآن سبب الإهلاك الكفر بالله.

(١٥) قطعت التوراة بعموم الطوفان لسائر الأرض بينما أشار القرآن إلى ارتفاع منسوب المياه حتى تمكنت السفينة من الجريان فيه دون القطع بالعموم.

هذا وقد ورد ذكر نوح عليه السلام فى بعض أسفار العهد القديم، إما لبيان نسب فرد من بنى إسرائيل، أولبيان العقوبة المترتبة على المعصية والثواب المترتب على الطاعة، ففى أخبار الأيام الأول تم حصر مواليد آدم حتى نوح عليه السلام[٢] . وفى سفر أشعيا أقسم الرب أن لايغضب الكنيسة مرة ثانية بمثل وعده لنوح أن لايعم الطوفان الأرض مرة ثانية[٣] . وفى سفر حزقيال ورد الحديث عن هلاك الأشرار مع بيان سبب النجاة الوحيد ألا وهو صلاح العبد بمثل ماَنجى نوح بسبب صلاحه وأهلك قومه بسبب معاصيهم[٤] .

---

(١) الصافات ٧٧.
(٢) أخبار الأيام الأول ١/١ : ٤ .
(٣) أشعيا ٥٤/٨ – ١٠.
(٤) حزقيال ١٤/١٢ – ٢٠.

« ٤ » دعــــوة
هــود عليه السلام

بين يدي الموضوع ، أشار القرآن الكريم إلى هلاك المكذبين من قوم نوح -عليه السلام- ونجاة قلة قليلة من الهلاك هي التي آمنت بنوح، قال تعالى: ﴿وما آمن معه إلا قليل﴾ وبانتهاء الطوفان وجفاف الأرض بدأت حركة العمران، وجمهور المفكرين المسلمين -من أصحاب الدراسات الدينية والتاريخية- على أن التناسل قد نتج عن أولاد نوح الثلاثة (سام، حام، يافث) واعتمدوا فى ذلك على حديث ورد في بعض السنن ومسند أحمد وصحيح ابن حبان عن النبى -صلى الله عليه وسلم- أنه قال (سام أبو العرب وحام أبو الحبش ويافث أبو الروم)[1] . وعن سعيد بن المسيب أنه قال (وَلَدَ نوح ثلاثة سام ويافث وحام، ووَلَدَ كل واحد من هذه الثلاثة ثلاثة. فولد سام العرب والفرس والروم. وولد يافث الترك والسقالبة ويأجوج ومأجوج. وولد حام القبط والسودان والبربر)[2]. وقد ذكر البزار فى مسنده هذه الرواية مرفوعة إلى الرسول -صلى الله عليه وسلم- من طريق سعيد بن المسيب عن أبي هريرة وقد رجح ابن كثير كون الكلام مرسلاً عن يحيى بن سعيد وضعف طريق رفعه[3] .

وهذا الكلام لايختلف فى قليل أو كثير مع ماورد فى التوراة -المحرفة- الآن. وهو كلام لا يسلم من الناحية العقلية، لأن قصر عدد المؤمنين على ثلاثة رجال وثلاث نسوة بعد فترة زمنية استمرت ألف سنة إلا خمسين عاماً أمر لايقبل.

وقد سلم به كثيرون وادعوا أن نوحا هو الأب الثانى للبشرية بعد أبيهم الأول (آدم) وهذا الاتجاه يؤكد نزعة الأجناس وتقسيم البشرية إلى ساميين وآريين... الخ

وأما تفرق هؤلاء الأولاد فى الأرض فهو مانصت عليه التوراة. وتأثر بذلك جمهور المؤرخين والقصاص وبعض المفسرين. حتى إن النقل كاد أن يطابق العهد القديم.

والذى تميل إليه النفس فى الأمر مايلى :

أولا: أن عدد المؤمنين أكثر من ذلك، وقد أطلق على هؤلاء الوصف بالأهلية لنوح -أى في الدين- وإن لم يكونوا من نسبه فى الدم، واستبعد من تلك الأهلية من

---

(١) الترمذى ك التفسير، سورة الصافات رقم الحديث ٣٢٨٣، ٣٢٨٤.

(٢) البداية والنهاية ١١٥/١.   (٣) البداية والنهاية ١١٥/١.

لم يستجب وإن كان من نسل نوح عليه السلام. قال تعالى ﴿ونوحا إذ نادى من قبل فاستجبنا له ونجيناه وأهله من الكرب العظيم﴾[1]. وقال في حق ابنه ﴿إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح...﴾[2].

ثانيا: أن آية الصافات لاتفيد القصر. قال تعالى ﴿وجعلنا ذريته هم الباقين * وتركنا عليه في الآخرين﴾[3] وإنما تفيد نجاة بعض ولد نوح دون منع نجاة غيرهم. وقد يكون التعبير للتغليب.

ثالثا: وردت روايات عدة تصرح بأن عدد الناجين مختلف فيه. وقد جَمَعَتْ تلك الآراء بين ذرية نوح وذرية شيث وذرية غيرهم. ومن هذه الآراء :

عن ابن عباس: كان في سفينة نوح ثمانون رجلاً أحدهم جرهم.

وعن ابن عباس -كذلك- قال: حمل نوح في السفينة بنيه،سام وحام ويافث وكنائنه وثلاثة وسبعين من بني شيث،ممن آمن معه فكانوا ثمانين في السفينة.

قال سفيان: كان بعضهم يقول كانوا ثمانين نفسا.

عن قتادة والحكم:كانوا ثمانية أنفس.

عن الأعمش قال:كانوا سبعة نوح وثلاث كنائن وثلاثة بنين له.

قال آخرون:كانوا عشرة سوى نسائهم وهو منسوب إلي ابن اسحق[4].

وبذلك تسقط دلائل القطع،في كون البشرية تولدت من جديد من نسل نوح عليه السلام وحدهم،وقد أمر الحق سبحانه نوحا-عليه السلام-أن يخرج من السفينة وينزل لعمارة الأرض هو ومن معه من الإنس والطير والحيوان... مع التصريح بغواية بعض البشر بعد حين من الزمن،ولم يشر القرآن إلى كيفية انتشار نسل الناجين في بلاد العرب،والسبل التي أدت إلى ذلك،وفترة العمران لأن ذلك ليس من أهدافه.

---

(١) الأنبياء ٧٦. (٢) هود ٤٦.

(٣) الصافات ٧٧، ٧٨.

(٤) تاريخ الأمم والملوك ١/١٨٦ والبداية والنهاية ١/١١٦.

إلا أن نصوصه قد أشارت إلى أن أمة هود هي من الأمم التي خلفت أمة نوح عليه السلام وهو مايدفعنا إلى إلقاء الضوء عليها من خلال القرآن.

قوم هود عليه السلام:

أشار القرآن إلى قوم هود من جوانب عدة نذكر منها :

اسمها- مكانها- زمانها- إمكاناتها- أخلاقها ومعتقداتها.

وهو مايمكن بيانه على النحو التالي ...

أولا: اسمها: (عاد) اسم لقبيلة من القبائل العربية التي تضرب بعمق في التاريخ البشري إلا أن العلم بها كان متوفرا لدى العرب -قبل الإسلام- فذكروها في أشعارهم وضربوا بها في أمثالهم وقد وردت كلمة عاد في القرآن أربعاً وعشرين مرة كما حصرها صاحب المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم. كما أضيفت -كجماعة- إلى هود عليه السلام (قوم هود)[1] ووصفت بالقدم فقيل (وأنه أهلك عاداً الأولى)[2] دون أن يتعرض القرآن إلى النسب التفصيلي الخاص بها و هو الأمر الذي اشتغل به المؤرخون.[4]

ثانيا: مكان عاد: صرح القرآن بأن عاد كانت تسكن الأحقاف وبها سميت إحدى سور القرآن قال تعالى **﴿واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه﴾**[3] فهل كانت الأحقاف معروفة عند العرب حتى لايخاطبون بما يجهلون أو أنها ذكرت لحمل المسلمين على البحث؟ إن ذلك ماتحدده مصادر الفكر الأولى في التاريخ الإسلامي، وبخاصة أن ذكر المكان لايخلو من فائدة لتنزه القرآن عن العبث. ورد في كتب المعاجم والأحقاف المذكورة في الكتاب العزيز: واد بين عمان وأرض مَهْرة عن ابن عباس. وقال ابن اسحاق: الأحقاف رمل فيما بين عمان إلى حضر موت، وقال قتادة: الأحقاف رمال مشرفة على بحر بالشحر من أرض اليمن. وهذه ثلاثة أقوال غير مختلفة المعنى.

---

(٤) تاريخ الأمم والملوك ١٨٦/١ والبداية والنهاية ١١٦/١.

(١) سورة هود ٨٩. (٢) النجم آية ٥٠.

وقال الضحاك: الأحقاف جبل بالشام. وفى كتاب العين الأحقاف جبل محيط بالدنيا والصحيح -عند ياقوت الحموى- ماورويناه عن ابن عباس وابن اسحاق وقتادة. أنها رمال بأرض اليمن كانت عاد تنزلها ويشهد بصحة ذلك قصة رواها تؤكد المكان وقبر هود به وتصديق عليّ رضى الله عنه لصاحب الرواية)[١].

«الأحقاف التى كانت منازل عاد اختلف فيها. فقيل هو جبل بالشام عن الضحاك. وقال مجاهد: حشَاف من حِسْمَى. والحشاف الحجارة فى الموضع السهل. وروى أبو عبيد الهروى عن الأزهري أنه قال: الأحقاف منازل عاد رمال مستطيلة بشحر عمان، وقال الهمدانى الأحقاف بحضر موت، ونقل قصة عن ابن الكلبى تؤكد كونها بحضر موت. وهى نفس القصة التى ذكرها ياقوت الحموى[٢].

وقد حدد الموقع أحد العلماء فذكر قوله «كانت مساكن عاد فى أرض الأحقاف. وهى تقع فى شمال حضر موت. وفى شمالها الربع الخالي. وفى شرقها عمان. وموضع بلادهم اليوم رمال ليس بها أنيس بعد ذلك العمران والنعيم المقيم»[٣].

ثالثاً: من ناحية الزمن: صريح القرآن أن قوم عاد -من ناحية الزمن- كانوا بعد قوم نوح وقبل قوم صالح. دون أن يحدد سنّة الابتداء أو الانتهاء لتنزه القرآن عن التاريخ لذات التاريخ ولأن البشرية كان تؤرخ بالأحداث لابالسنين.

قال تعالى عن هود عليه السلام وهو يُذَكّر قومه بنعمة الله عليهم ﴿واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم فى الخلق بسطة﴾[٤]. وقال صالح لقومه ﴿واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد...﴾[٥]. وقد روعى الترتيب الزمنى للأمم السابقة بصورة صريحة فى تسعة مواطن. ذكرت آيات القرآن قوم نوح أولا وقوم عاد ثانيا وقوم ثمود ثالثاً فى بعض الآيات وفى آيات أخرى يستبدل بهم غيرهم. وهذه الآيات هى :

---

(١) مراصد الاطلاع ١/١١٥، ١١٦ دار صادر بيروت سنة ١٩٧٧.

(٢) معجم ما استعجم سنة ١٩٤٥ ط لجنة التأليف والنشر القاهرة.

(٣) قصص الأنبياء – النجار ٨١.

(٤) الأعراف ٦٩.　　(٥) الأعراف ٧٤.

﴿ألم يأتهم نبأ الذين من قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وأصحاب مدين﴾[1] .

﴿ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لايعلمهم إلا الله﴾[2]

﴿وياقوم لايجرمنكم شقاقى أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح﴾[3]

﴿ وإن يكذبوك فقد كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وثمود * وقوم إبراهيم وقوم لوط﴾[4] .

﴿وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم وجعلناهم للناس آية وأعتدنا للظالمين عذابا أليما * وعاداً وثمود وأصحاب الرس...﴾[5] .

﴿كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وفرعون ذو الأوتاد * وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة﴾[6] .

﴿ وقال الذى آمن ياقوم إنى أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب * مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود...﴾[7] .

﴿وأنه أهلك عاداً الأولى وثمود فما أبقى * وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى﴾[8] . وفى سورة القمر ورد الحديث عن نوح عليه السلام أولاً (٩-١٦) وتبعه الحديث عن هود عليه السلام (١٧-٢٤) فصالح عليه السلام (٢٣-٣١).

كما ورد الحديث بصيغة الاحتمال فى سورة (المؤمنون) وذلك بالإشارة إلى إنشاء قرن آخرين بعد هلاك قوم نوح (الآيات من ٣١ إلى ٤١) حيث يرى بعض

---

(١) التوبة ٧٠.
(٢) إبراهيم ٩.
(٣) هود ٨٩.
(٤) الحج ٤٢، ٤٣.
(٥) الفرقان ٣٧، ٣٨.
(٦) ص ١٠، ١١.
(٧) غافر ٣٠ ، ٣١.
(٨) النجم ٥١،٥٢.

العلماء أن الآيات لايراد بها قوم هود[1]. لأن الدلالة ليست قطعية، ولأن أسلوب إهلاك ذلك القرن يختلف عن هلاك قوم هود.

وجمهور المفسرين على أن المراد به هو قوم هود-عليه السلام-والرسول هو هود -عليه السلام-[2].

انتفاء الترتيب الزمني:

وإذا كانت الدلالة فى الآيات السابقة - وبخاصة ماورد فى الأعراف- صريحة فى مراعاة الترتيب فإن الحديث عن قوم هود ورد فى ثلاث آيات لم يتبع فيها الترتيب وهى :

﴿ كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود * وعاد وفرعون وإخوان لوط﴾[3].

﴿فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم وهو مليم * وفى عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم * ماتذر من شئ أتت عليه إلا جعلته كالرميم * وفى ثمود إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين * فعتوا عن أمر ربهم فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون * فما استطاعوا من قيام وما كانوا منتصرين * وقوم نوح من قبل إنهم كانوا قوما فاسقين﴾[4].

﴿كذبت ثمود وعاد بالقارعة * فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية * وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية﴾[5].

رابعا: إمكانات قوم عاد: صريح القرآن يدل على أن أمة عاد قد عرفت الرقى الحضارى وبلغت شأوا فى العمران فضلا عن القوة العسكرية والمادية التى تمتعت بها تلك الأمة.

---

(١) الطبرى ١٥/١٨ وذكره الألوسى وأبطله ٢٢/١٨، وغرائب القرآن ١٩٠/١٨.
(٢) الكشاف ٣١/٣ الرازى ٩٨/٢٣ روح البيان ٨١/٦ القرطبى ١٢١/١٢ روح المعانى ٢٢/١٨ غرائب القرآن ١٩/١٨.
(٣) ق ١٢، ١٣.
(٤) الذاريات ٤٠ - ٤٦.
(٥) الحاقة ٤، ٥، ٦.

وهنا وقفة!! لماذا لم يشر القرآن إلى شيء من زمان ومكان وإمكانات أمة نوح عليه السلام واكتفى بالحديث عن الفساد العقيدي والخلقي القائم بها فقط، بينما صور أمة هود تصويراً يجعل الإنسان يتخيل ذلك على أرض الواقع ؟

إن الإجابة على هذا التساؤل أضمرها القرآن ليبقى للعقل دوره في الاستنباط. وهنا يمكن القول إن أمة نوح عليه السلام كانت تضرب بعمق في التاريخ، والفاصل الزمني بينها وبين آدم محدود، إن سلمنا بصحة الروايات الواردة في هذا (عشرة قرون كلهم على الإسلام) ولم تكن البشرية قد بلغت حداً من الكثرة يتطلب عمارة وعمراناً، وكان الحياة بالنسبة لهم كحياة البدو في زمننا هذا، كما أن علم العرب بأمة نوح -على وجه التفصيل- كان مختفيا وماعلموا إلا حادث الطوفان وأمر الفلك.

وأما أمة هود -عليه السلام- فعلم العرب بها متوفر والحديث عنها كثير في شعرهم، وصلتهم بها قوية لرجحان سكنى عاد في الجنوب الشرقي لشبه الجزيرة العربية وتفرع بعض القبائل منها وسكناهم أماكن أخرى في جزيرة العرب.

وللبيئة دورها في العمران، فعندما تكون الطبيعة صحراء قاحلة جرداء فإنها لاتمكن أهلها من العمران، لأن الظعن يكون وصفاً ملازما لها، ولا إمكانية لقياس الماضي على الحاضر في هذا المجال، لتفاوت الإمكانات مع إمكانية الاستشهاد بالحاضر على الماضي لتوافق الأحداث، فالجفاف يدفع إلى الهجرة والعدل عن الاستقرار، بمثل مايشاهد في وسط أفريقيا، وهذا ماكان يغلب على الحياة الأولى للإنسانية كما يروى المؤرخون.

فإذا ما توفرت الآبار وجرت الأنهار وصلحت التربة، فرض الاستقرار نفسه على المقيمين، فتكون الحضارة ويكون العمران، الذي يدفع بنفسه إلى السبق دون التوقف عند حد، بمثل ماهو مشاهد الآن، وهو ماتوفر لأمة هود عليه السلام، فقد توفر لها من الإمكانات

١- طاقة بشرية مكنتها من تشييد الصروح وبناء المصانع مع وفرة في تلك الطاقة ﴿أمدكم بأنعام وبنين﴾[1] ، وقوله تعالى ﴿وزادكم في الخلق بسطة﴾[2] .

---

(١) الشعراء ١٣٣.   (٢) الأعراف ٦٩.

٢- قوة لم يفصلها أو يحددها القرآن،لتذهب النفس فيها كل مذهب. ذكر ذلك هود حين دعاهم إلى الله قائلاً لهم ﴿ويٰقوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدراراً ويزدكم قوة إلى قوتكم﴾(١). وقد دفعتهم تلك القوة إلى الغرور والاستكبار وإساءة استخدام النعمة ﴿فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة أولم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون﴾(٢).

٣- تيسير سبل العيش وبخاصة الملأ إلى حد الترف، حتى منعهم ذلك من الاستجابة للدعوة ﴿وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم في الحياة الدنيا ماهذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون﴾(٣).

٤- تقدم بارز في العمران حتى وصفت بعض الأبنية بأنها «آية» إلا أن تلك الآيات لم تكن لهدف محمود وباعث مشروع بل للعبث والتلهي، هل هي أوكار دعارة؟ أو أبنية للخيلاء مع التكتي فيها،أو أبنية على هيئة المتاحف الآن...؟ ﴿أتبنون بكل ريع آية تعبثون﴾(٤).

٥- بناء مصانع ولم يقل مصنعا دون بيان ماتتجه تلك المصانع، هل هي لإنتاج الأدوية التي تقي الجسم من المرض أو تدرأ عنه المرض أو لإنتاج مايقي الجسم من البيئة أو لإنتاج آلات حربية تفتك بالمعتدى؟ أو التعبير للتهكم؟ كل ذلك مما يحتمله النص ﴿وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون﴾(٥).

٦- بسط لهم في النعم وخص منها نعمة الولد والبركة في الأنعام (الإبل - البقر - الغنم....)

٧- كانت التربة صالحة للزراعة مع تيسير أسبابها،مع وفرة في المياه الجوفية، (عيون) وصلاحية في المزروع مع سلامة من الآفات، قال تعالى ﴿واتقوا الذي أمدكم بما تعلمون * أمدكم بأنعام وبنين وجنات وعيون﴾(٦).

---

(١) هود ٥٢. (٢) فصلت ١٥.
(٣) المؤمنون ٣٣. (٤) الشعراء ١٢٨.
(٥) الشعراء ١٢٩. (٦) الشعراء ١٣٢، ١٣٣، ١٣٤.

٨- تقدموا فى فن المعمار إذا ماقيسوا بأهل زمانهم. حتى إن بلدانهم لم يرق إليها مثلها فى هذا الميدان﴿ألم تر كيف فعل ربك بعاد * إرم ذات العماد * التى لم يخلق مثلها فى البلاد﴾[1].

من النقاط السابقة ندرك صورة تلك الأمة التى مُكِّن لها خير تمكين فلم تحسن استخدام تلك النعمة. وقد شاءت إرادة الله أن يرسل إليهم نبياً منهم للإعذار من ناحية،وللحث على الطاعة كى تدوم النعم من ناحية ثانية،مع توجيههم إلى حق الله عليهم وذلك بتصحيح الاعتقاد.

خامساً: معتقدات قوم هود:

البشرية عرفت الإلحاد كظاهرة تدعو إليها قلة قليلة،لاتتوافر لها الأدلة القاطعة على نفى وجود الله، ولكن المشكلة الأساسية فى تاريخ البشرية تتجلى فى رفض الدين أو التدين بالباطل،وهو ما يبدو فى صور شتى منها: الإيمان باله أعلى وآلهة معاونة له، تعدد الآلهة مع الاستواء، الإيمان باله أعلى مع آلهة وسطاء، التحول عن الاله الأعلى إلى آلهة محسوسة لها مظاهر شتى (إنسان- حيوان- نبات- جمادات علوية كالشمس والقمر وبعض الكواكب. وسفلية كالأوثان والأصنام...)

وماتفشى التدين الباطل إلا عن الانحراف بالفطرة التى تلزم صاحبها بالإيمان بخالق أو مصدر لهذا الكون، ثم يأتى دور الأنبياء فى التعريف بالخالق وماله من حقوق.... إلخ.

وحيث أن قوم هود كانوا من نسل بقية من حمل مع نوح،فقد بقى لديهم بقية من صحيح الاعتقاد،شابوها بمعتقدات أخرى فاسدة،حتى تغلبت المعتقدات الفاسدة فى النهاية على المعتقدات الحقة، ويمكن إيضاح معتقداتهم فى الجوانب التالية:

أ) الإيمان بالله . آمن قوم هود بالله مع الإيمان بغيره من الآلهة الوضعية. وهذا ماتصوره الآيات التالية :

---

(١) الفجر ٦، ٧، ٨.

﴿إن هو إلا رجل افترى على الله كذبا ومانحن له بمؤمنين﴾[1] .

﴿ قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ماكان يعبد آباؤنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين﴾[2] .

كما عرفوه ربًا لهم ﴿ فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود * إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم ألا تعبدوا إلا الله قالوا لو شاء ربنا لأنزل ملائكة﴾[3] .

وأما دلائل الشرك فهى واضحة فى الآيات التالية :

﴿ قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ماكان يعبد آباؤنا...﴾[4] . ﴿ قالوا ياهود ما جئتنا ببينة ومانحن بتاركى آلهتنا عن قولك ومانحن لك بمؤمنين * إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء...﴾[5] .

﴿قالوا أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين﴾[6] .

ب) الإيمان بالملائكة : آمن قوم هود بالملائكة وهو مايدرك من قول المكذبين له ﴿ لو شاء ربنا لأنزل ملائكة﴾[7] ، معتقدين أن النبوة أسمى من أن ينالها إنسان،أو من باب الحقد على الداعى لكونه بشراً مثلهم،لايتميز عنهم فى مطعم ولامشرب،فأنّى لهم بالمساواة معه فى أمر النبوة.

ج) العلم بالنبوات : يفهم من نصوص القرآن أن قوم هود علموا بالنبوة،فلم ينكروها لذاتها،ولكنهم أبوا قبولها من بشر مثلهم،لأنها أسمى من أن ينالها بشر قائلين (لو شاء ربنا لأنزل ملائكة) كما اتهموا هوداً بأنه يردد ماقاله السابقون،أو أن الذى يدعو إليه دعا إليه السابقون،مما يؤكد علمهم بالنبوة، قال تعالى عن لسانهم ﴿قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين * إن هذا إلا خلق الأولين﴾[8] . كما أن النص الشريف ﴿واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف وقد خلت النذر من بين

---

(1) المؤمنون ٣٨.
(2) الأعراف ٧٠.
(3) فصلت ١٣ ، ١٤.
(4) الأعراف ٧٠.
(5) هود ٥٣ ، ٥٤.
(6) الأحقاف ٢٢.
(7) فصلت ١٣.
(8) الشعراء ١٣٦ ، ١٣٧.

يديه ومن خلفه أن لاتعبدوا إلا الله ﴾[1] يدل على إرسال رسل إليهم قبل هود أو أن لديهم علم برسالات السابقين على هود عليه السلام.

د) موقفهم من اليوم الآخر: صريح القرآن أن القوم كانوا منكرين للبعث بعد الموت، وهم أول من أشار إلى عدم وقوعه حيث قال الملأ منهم ﴿ولئن أطعتم بشراً مثلكم إنكم إذا لخاسرون * أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم ترابا وعظاما أنكم مخرجون * هيهات هيهات لما توعدون * إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا ومانحن بمبعوثين ﴾[2] وعندما خوفهم هود بالعذاب قائلاً لهم ﴿ إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ﴾ قالوا له ﴿سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين * إن هذا إلا خلق الأولين * ومانحن بمعذبين ﴾[3].

حاجة هذه الأمة إلى النبوة والرسالة

لقد تبين لنا أمر قوم هود، من ناحية الزمان، والمكان، والإمكانات المتاحة، والعقائد بما يعطى تصوراً عن دولة فتية بلغة العصر، ولا إمكانية للقول بأنها قبائل بدوية أو عشائر، لأن الحضارة التي نسبت إليهم لاتنهض بها القبائل ولا العشائر.

إلا أن هذه الأمة قد عتت عن أمر ربها وطغت وبغت، وكل أمة بهذا الحال ولاتنتفع بوحي تمثل خطرا لامحالة على نفسها وعلى غيرها، وبخاصة إذا سيطرت نزعة الجاهلية عليها مما يجعلها بحاجة إلى علم بالجوانب التالية لاستقامة أمرها وهي:

١- عقيدة صحيحة تربى ملكة المراقبة في الفرد والأمة.

٢- شريعة تضبط العلاقة بين المخلوقين والخالق وبين الأفراد بعضهم البعض.

٣- أخلاق إلهية (من طريق الوحي) يستقيم بها السلوك ويرقى فلا يكون التوقف عند حد الواجب بل إجتيازه إلى مراتب أعلى. لتكون الصورة الجمالية للمجتمع الإنساني، كما أنه لاإمكانية لضبط الغرائز والشهوات إلا بأمرين هنا:

أ) السيف. وهو مايفعله الأقوياء بالضعاف أو السلطان. وهو بحاجة إلى

---

(١) الأحقاف ٢١.   (٢) المؤمنون ٣٤ – ٣٧.

(٣) الشعراء ١٣٥ – ١٣٨.

ضابط أيضاً لأنه يشارك البشر الطبيعة التكوينية.

ب) الدين. وهو الذى يربى فى النفس ملكة الالتزام،والتحلى بالفضائل، ويوحد الأخلاق (الإيجابى منها والسلبى) فضلاً عن تضمنه مايردع.

٤- النبوة. فالأمور السابقة بصورتها الشرعية لاتكون إلا من طريق نبى أو آثار للنبوة ولذلك كانت رحمة الله فى..

إرسال هود عليه السلام

هود: هو الاسم الذى سماه القرآن به دون ذكر نسبه -لعدم الحاجة إليه- ولأن هذا من اهتمام المؤرخين، وقد خاض فى ذلك كثيرون معتمدين على الكتاب المقدس وهو مادعانا إلى الإعراض عنه هنا مع الإشارة إليه فى حينه[1].

وقد دعا هود قومه إلى :

أولا: توحيد الله : والقيام بحقه عليهم. فلم يرد فى نصوص القرآن إشارة إلى نكران وجود الله عند القوم، وإنما الدلائل صريحة على إيمانهم به مع إشراكهم معه غيره وهو ماركز عليه هود من دعوة إلى التوحيد وترك الشرك كما يتضح من الآيات التالية :

﴿وإلى عاد أخاهم هوداً قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره إن أنتم إلا مفترون﴾[2].

﴿فأرسلنا فيهم رسولا منهم أن اعبدوا الله مالكم من إله غيره أفلا تتقون﴾[3].

﴿فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود * إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم ألا تعبدوا إلا الله﴾[4].

﴿واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه ألا تعبدوا إلا الله﴾[5].

---

(١) انظر المهموشة رقم ٥ صفحة ٢١٦ (٢) هود ٥٠.
(٣) المؤمنون ٣٢. (٤) فصلت ١٣، ١٤.
(٥) الأحقاف ٢١.

﴿وإلى عاد أخاهم هوداً قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره أفلا تتقون﴾[1] .

وحسبنا أن هذه الآيات مكية لبيان مدى المطابقة بين حال أمة هود وحال أمة محمد -عليهما السلام-.

موقف القوم من قضية التوحيد:

القرآن والتاريخ يؤكدان أن طول العهد بالمقدَّس يكسب المقدّس تعصباً له وإن بدا الباطل في الاعتقاد. ولاإمكانية للعدول عنه إلا إذا غيبت العاطفة بالكلية وحكّم العقل وصحح أصوله. وكانت حركة النقد قوية -مع هداية من الله للإنسان-.

وكل تغييب للعقل أو اكتفاء بإشباع الفطرة من طريق العقل الناقصة صورة غير محمودة. وكلما طال العهد بالباطل اكتسب قوة تعدل قوة الحق عند أهله حتى إن الدفاع عنه ليصل إلى حد الدفاع عن الحق. ولذلك كان التركيز على تصحيح الاعتقاد يستغرق فترة زمنية طويلة من عمر سائر الدعوات التي أتت على سبيل الابتداء (أي بعد العهد بالوحي كأهل مكة وأمة إبراهيم. مثلا) ولذلك وجدنا قوم هود -عليه السلام- يعرضون عن الاستجابة لدعوته إلى التوحيد. لابثين على الشرك مؤمنين بآلهة شتى مع الإله الأعلى. بل إنهم تعللوا للرفض بعلل شتى منها:

١- إن تعدد الآلهة أمر عرفه الآباء فلا إمكانية للعدول عنه ﴿قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ماكان يعبد آباؤنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين﴾[2] . وهو مايشير إلى أن آباءهم كانوا يعبدون آلهة أخرى قد أسموها بأسماء وردت في شعرهم وذكرها المؤرخون في كتبهم[3] . وهو الأمر الذي جعل هوداً يقول لهم ﴿أتجادلونني في أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم مانزل الله بها من سلطان...﴾[4] .

٢- إن دعوة هود نتاج مسّ آلهتهم له بسوء وليست أثرا لوحي. وبخاصة أنه لم يأت بمعجزة تدل على نبوته -من وجهة نظرهم- أو أن دلائل نبوته لم تتوافر عندهم وإنما مابه نتج عن أذى آلهتهم له فكان الجنون ﴿إن نقول إلا اعتراك بعض

(١) الأعراف ٦٥. (٢) الأحقاف ٢٢.

(٣) الطبري ٢١٦/١، ٢٢١ والبداية والنهاية ١٢١/١.

(٤) الأعراف ٧١.

آلهتنا بسوء قال إني أشهد الله واشهدوا أني بريء مما تشركون﴾[1] .

٣- ميلهم إلى الآلهة المحسوسة وطول عهدهم بعبادتهم لها حتى إنهم جعلوا الدعوة للعدول عنها إلى التوحيد لونا من الإفك. ولا إمكانية للاستجابة ولوبالتهديد ﴿قالوا أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين﴾[2] .

وبذلك بدا إصرار طائفة من قوم هود على الشرك.

ثانية الإيمان به نبيا ورسولا : وهو ما عبر عنه في قوله ﴿قال ياقوم ليس بي سفاهة ولكني رسول من رب العالمين * أبلغكم رسالات ربي وأنا لكم ناصح أمين. أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم﴾[3] . ﴿فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم﴾[4] .

﴿كذبت عاد المرسلين * إذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون * إني لكم رسول أمين * فاتقوا الله وأطيعون﴾[5] ﴿قال إنما العلم عند الله وأبلغكم ما أرسلت به ولكني أراكم قوما تجهلون﴾[6]. وبذلك حدد هود عليه السلام مهمته في النقاط التالية:

أ) أنه رسول من رب العالمين.

ب) متحمل رسالة مسئول عن أدائها.

ج) مطالب بالبلاغ للإنذار والإعذار.

كما وصف نفسه بأنه أمين حين التحمل والأداء مع نفيه السفه عن نفسه.

موقف قوم هود من دعواه الرسالة :

لقد أبى كثيرون الإيمان بنبوة هود -عليه السلام- وتعللوا بعلل شتى منها...

أ- أنه لم يأتهم بآية تدل على نبوته ورسالته ﴿قالوا ياهود ماجئتنا ببينة﴾[7] .

---

(١) هود ٥٤.
(٢) الأحقاف ٢٢.
(٣) الأعراف ٦٧، ٦٨، ٦٩.
(٤) هود ٥٧.
(٥) الشعراء ١٢٢ - ١٢٦.
(٦) الأحقاف ٢٣.
(٧) هود ٥٣.

ب- أنه بشر مثلهم شأنه فى الحياة شأنهم ﴿ماهذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون * ولئن أطعتم بشراً مثلكم إنكم إذا لخاسرون﴾[1] .

ج- اتهامه بالكذب على الله ﴿إن هو إلا رجل افترى على الله كذباً ومانحن له بمؤمنين﴾[2] .

د- أن الرسالة لاتكون لواحد من البشر ﴿قالوا لوشاء ربنا لأنزل ملائكة﴾[3] .

وبهذا يتبين لنا مدى إصرار المكذبين على الإعراض وعدم التسليم له بالنبوة أوالرسالة.

ثالثاً: القيام بالتكاليف الشرعية على الوجه المطلوب:

فالبشرية وإن عرفت التدين إلا أنها لم تعرفه صحيحاً إلا من طريق الوحى -قبل أن تلعب الأهواء به- أو أن يبقى الوحى محفوظاً بحفظ الله له -القرآن الكريم- وفى إطار التصرف فى بقايا الوحى،كان العدول عن مراد الله إلى مراد الشيطان. فعبدت الآلهة من دون الله وأشرك مع الله غيره فى القصد والطلب،وتقرب الناس إلى الآلهة الوضعية،أكثر من تقربهم إلى خالق السموات والأرض، بل نسى الخالق وعبدت المخلوقات فى بعض الأحيان، وهذا ماكان عليه قوم هود من عبادة غير الله معه فكان صريح القول أحياناً،وأحياناً أخرى التلميح بعبادة الله وحده.

فالأمر بعبادة الله وحده مالهم من إله غيره ورد فى ثلاث آيات (الأعراف ٦٥) و(هود ٥٠) و(المؤمنون ٣٢) وكان إبطال عبادة غير الله أمراً وارداً بدلالة المفهوم فى سورة (فصلت ١٤) و(الأحقاف ٢١) مع الأمر بعبادته وحده بدلالة المنطوق.

ولم يشر القرآن إلى نوع العبادة التى أمرهم هود بها على سبيل التحديد. وإن وردت إشارات تتعلق بالاستغفار والتوبة دون ذكر لصلاة أو صيام أوحج. فهل عبد القوم آلهتهم بعبادات من هذا اللون؟ فدعاهم هود إلى التوجه بها نحو الله أو عبدوا بغيرها فلفت هود نظرهم إلى مستحق العبادة ونوع العبادة وكيفية العبادة وأمسك عن

---

(١) المؤمنون ٣٣، ٣٤. (٢) المؤمنون ٣٨.

(٣) فصلت ١٤.

ذلك القرآن؟ الأمر غيب !!

وقد قُرِن الأمر بالعبادة لله وحده بالحث على التقوى والحض عليها لأنها باعثة على ذلك كما فى سورة (الأعراف آية ٦٥) وسورة (المؤمنون آية ٣٢) والنص على أن عبادة غير الله لون من الافتراء (هود ٥٠) وهو مايكسب العابدين العذاب الدنيوى والأخروى (الأحقاف ٢١).

رابعاً: الدعوة إلى الإيمان باليوم الآخر:

وهو ماأشارت إليه سورة المؤمنون فى إطار حديثها عن إثبات البعث. وقد بينت أن القوم لم يستجيبوا لهذا المطلب. قال تعالى ﴿ **وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم فى الحياة الدنيا ماهذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون * ولئن أطعتم بشراً مثلكم إنكم إذاً لخاسرون * أيعدكم أنكم إذا مِتّم وكنتم تراباً وعظاماً أنكم مخرجون * هيهات هيهات لما توعدون * إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين**﴾[1]. كما ورد قول الحق ﴿**كذبت ثمود وعاد بالقارعة**﴾[2].

فتوجه هود إليهم بالإنذار بذلك اليوم،والتحذير من الكفر،خشية العذاب العظيم الذى يحل عليهم،وإن كانت الدلالة احتمالية فى قوله ﴿**إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم**﴾[3] هل هو يوم القيامة أو يوم دنيوى يحيق بهم؟ إلا أن الدلالة قطعية فى سورة المؤمنون.

ويبقى استفهام : لماذا لم يتناول هود أمر الملائكة والكتب بالذكر فى دعوته؟

وللإجابة نقول : إن العلم بالملائكة كان متوفراً لدى قوم هود،كما سبقت الإشارة إلى ذلك،فلم يحتج الأمر إلى إعادة. وأما أمر الكتب فلم يرد، لأنه لم ترد كتب عدة قبل هود -عليه السلام- ولم يتوافر علم على تدوين رسالة نوح-عليه السلام- أوصحف شيث -إن سلمنا بنبوته- وشأن الإيمان بالكتب السابقة الإيمان بأسمائها دون طلب محتواها،لأن الرسالة القائمة زمن الدعوة تتضمن الرسالة أو الرسالات

(١) المؤمنون ٣٣ - ٣٧. (٢) الحاقة ٤.
(٣) الشعراء ١٣٥.

السابقة. فكان العلم بها إجمالا مطويا فى عداد الإيمان بالرسالة التى يدعي إليها زمن الدعوة. أ.هـ.

هذه هى الأركان الأساسية التى دعا إليها هود عليه السلام، والإيمان بنبوته يتضمن الإيمان بنبوة السابقين وهو مالم يتحقق لكثيرين منهم.

الأساليب التي استخدمها هود في الدعوة إلي الله في ضوء القرآن الكريم:

أساليب الأنبياء في البلاغ تتقارب لتقارب طباع البشر. ولذلك اتحدت السبل. طالت فترة الدعوة أو قصرت. وقد سلك هود عليه السلام -من أجل البلاغ- السبل التالية:

١- سبيل الترغيب وهو يتجلى فى بيان النتائج المترتبة على الاستجابة فى الدنيا والآخرة،وذلك بالمخاطبة من الطريق الذى تهواه النفس،وبخاصة أن القوم طغوا وبغوا (وقالوا من أشد منا قوة) فكان قول هود لهم ﴿ استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدراراً ويزدكم قوة إلي قوتكم ﴾[1] . فقد جمع الوعدُ إلى قوة الأبدان قوة الإمكان. وبين أن الطاعة لن تحول بينهم وبين ماهم فيه،بل إنها تكسبهم رضا الله وعطاءه الذى لايقف عند حد.

ويبدو أن القوم كانوا بوضع اجتماعى لايستدعى الإكثارمن سبل الترغيب بمثل ماسبق فى قصة نوح عليه السلام.ولذلك اقتصر الترغيب فى الطاعة على دوام المطر،حتى تبقى مياه العيون فلاتنضب،لتبقى ببقائها الجنات التى يتمتعون بها مع الإمداد بقوة معنوية ومادية.

٢- سبيل الترهيب: وقد أكثر هود منه، لأن القوم جمعوا مفاسد عدة منها:

الشرك، الإصرار على الشرك، الاغترار بآلهتهم، الغرور بقوتهم، إساءة استخدام تلك القوة، انتفاء الرحمة من قلوبهم.

وهى حالة تستدعى الترهيب فلايفل الحديد إلا الحديد. وكما يقول الشاعر

---

(١) هود ٥٣.

والشر إن تلقه بالخير ضقت به ذرعا   وإن تلقه بالشر ينحسم[1]

وقول آخـر...

فقسا ليزدجروا ومن يك حازما   فليقس أحيانا على من يرحم

ويبدو أسلوب الترهيب فى الجوانب التالية :

أ) التهديد بعذاب يحل عليهم دون الإفصاح عن طبيعته، فاستهزأوا به قائلين **﴿فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين﴾**[2] .

ب) بيان أنه لاقبل لهم بهذا العذاب. دون القطع بكونه دنيويا أو أخرويا **﴿إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم﴾**[3] . **﴿واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه ألا تعبدوا إلا الله إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم﴾**[4] .

ج) تحديد نوع العذاب بعد كثرة الطلب ودوام التحدى منهم له قائلين: إن كنت صادقا فأتنا بهذا العذاب **﴿قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين﴾**[5] . فأجابهم بقوله **﴿قال قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب﴾**[6] .

د) التهديد بإهلاكهم واستبدالهم بأمة أخرى إن أصرّوا على العناد والتكذيب **﴿فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم ويستخلف ربى قوما غيركم ولاتضرونه شيئاً إن ربى على كل شئ حفيظ﴾**[7] .

٣- التذكير بالنعم : علها تبعث فى النفس شكر المنعم وقد ذكر هود منها...

أ) نعمة الماضى حيث ذكرهم بنجاة آبائهم وإهلاك غيرهم ممن عصوا فى الأرض وتعيد إلى ذاكرتهم سنة الله فى الأمة السابقة وتبعث فيهم ماينبغى أن يكون

---

(١) من البردة للإمام البوصيرى.
(٢) الأعراف ٧٠.
(٣) الشعراء ١٣٥.
(٤) الأحقاف ٢١.
(٥) الأعراف ٧٠.
(٦) الأعراف ٧١.
(٧) هود ٥٧.

عليه أدب الاستخلاف في الأرض وذلك في قوله لهم ﴿واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح﴾[1].

ب) نعمة الحاضر ومن مظاهرها :

١- القوة التي تمتعوا بها دون سواهم من أهل زمنهم (الأعراف ٦٩، هود ٥٢، الشعراء ١٢٨-١٣٠، فصلت ١٥، الفجر ٧، ٨).

٢- الموارد الطبيعية التي توفرت لهم ﴿واتقوا الذي أمدكم بما تعلمون * أمدكم بأنعام وبنين وجنات وعيون﴾[2].

٣- التذكير بالنعم عامة ماسبق ومالم يرد به بيان ﴿فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون﴾[3].

٤- **العرض لمجرد العرض والبيان :** وهو مايتجلى في كثير من الآيات التي تضمنت التعريف به كرسول والتعريف بالرسالة وبيان معالم الدعوة غير مقرونة بشيء من الترغيب والترهيب أو التذكير بشيء من النعم.

٥- **إظهاره الحرص على خير المدعوين** وإعلان غايته من البلاغ. فلامطالب مادية، ولامطامع دنيوية، ولا آمال زائفة زائلة، إنما هو الإخلاص والحرص على سعادة الأمة. فخاطبهم بما يألف القلوب (ياقوم) ويظهر المصلحة. والتقاليد العربية أن الرجل لايخون أهله فكيف بالأنبياء -عليهم السلام- مع إعلانه أنه لايريد أجراً منهم على دعوته. وإنما هو النصح من أجل سعادتهم ﴿أبلغكم رسالات ربي وأنا لكم ناصح أمين﴾[4].

٦- **الجمع بين القلب (العاطفة) والعقل في الخطاب :** فقد طرح هود عليهم هذا السؤال (أفلاتتقون) والتقوى محلها القلب. وفي الحديث أن الرسول صلى الله عليه وسلم أشار إلى صدره وقال (التقوى هاهنا) وفي سورة الشعراء حضهم عليها قائلاً (ألا تتقون) وآمراً ﴿فاتقوا الله وأطيعون﴾[5].

---

(١) الأعراف ٦٩.
(٢) الشعراء ١٣٢ - ١٣٤.
(٣) الأعراف ٦٩.
(٤) الأعراف ٦٨.
(٥) الشعراء ١٣١.

كما خاطب العقل حين دعاهم إلى التوحيد ووصفهم بالافتراء لشركهم وأعلن أنه لايريد من وراء دعوته أجراً إلا من الله. وهو مايدفعهم إلى تحريك العقل للتفكير فى أمر الداعى ومايدعو إليه. فالمقارنة بين المعبودات الوضعية والإله الأعلى عملية عقلية، والنزول على دعوة الداعى الذى لايطلب أجراً على دعوته عمل عقلى ولاينهض بذلك إلا أناس لم يعطلوا مداركهم، قال تعالى ﴿وإلى عاد أخاهم هوداً قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره إن أنتم إلا مفترون * ياقوم لاأسألكم عليه أجراً إن أجرى إلا على الذى فطرنى أفلا تعقلون﴾[1].

فهل استجاب القوم لصيغ الخطاب تلك وهل أثر ذلك الأسلوب فيهم؟

قال تعالى ﴿ولقد مكناهم فيما إن مكنّاكم فيه وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولاأبصارهم ولاأفئدتهم من شئ إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ماكانوا به يستهزئون﴾[2].

وقد جمع هود بين خطاب العقل والقلب فى وقت واحد فى دعواه القوم إلى طاعته والاستجابة له. وهى تتطلب تسليم العقل والقلب وتوجههما معاً إلى الاستجابة لأن العقل قد يقتنع والقلب مصروف. والقلب قد يطمئن والعقل يُحاجّ ويكابر. أو يعطله صاحبه عن وظيفته وهو ما أشارت إليه نصوص القرآن. النمل١٤ والأنعام٣٣ وغافر٦٣ وفصلت ١٥ و ق٣٧ والأنفال٢٤ والأعراف١٧٩ والحج٤٦ ومحمد ١٦، ٢٤ والبقرة٧ والتوبة ٨٧، ٩٣ والنحل٢٢ والمنافقون٣.

٧- **الزجر**: وذكره هنا من باب ذكر الخاص بعد العام للاهتمام به. فالترهيب سبقت الإشارة إليه بصيغ العموم. إلا أن نصوص القرآن قد أشارت إلى زجر هود لقومه لعلهم يتحركون عقليا فيفكرون فى أمر ماوصفوا به. وهو لون من التربية وإصلاح النفس أشار إليه الإمام الغزالى حين تحدث عن النهوض بالأخلاق قائلاً: ينبغى الاستفادة من مدح، المادحين وقدح القادحين، وعيوب الآخرين، ومحامد الآخرين، فالأول للمداومة والثانى للمراجعة، فالنفس قد يكون بها ذلك الخلق ولايدرك الإنسان ذلك كالجشع أو الجبن أو البخل أو النفاق، والثالث للإعراض عن

(١) هود ٥٠، ٥١.
(٢) الأحقاف ٢٦.

الخلق السيء، والرابع للتأسي.

وقد تبين لي من خلال معايشة النصوص أن هوداً عليه السلام. قد زجر قومه ووصفهم بما يستقبح حتى يراجعوا أنفسهم ولايتمادوا في غيهم. وهو ما يتضح من أقواله لهم ﴿إن أنتم إلا مفترون﴾[1]. ﴿ولاتتولوامجرمين﴾[2]. ﴿واشهدوا أني بريء مماتشركون﴾[3]. ﴿وإذا بطشتم بطشتم جبارين﴾[4]. ﴿ولكني أراكم قوماً تجهلون﴾[5].

فهل حركت تلك الأساليب فيهم دواعي الاستجابة؟ وهل تحقق لهود ماكان يرجوه؟ ذلك مانبينه الصفحات التالية..

موقف قوم هود من دعوته :

من خلال آيات القرآن الكريم يتضح لنا أن القوم انقسموا إلى فريقين :

الفريق الأول: أناس استجابوا لهود عليه السلام وهم الذين تحققت لهم النجاة من الهلاك. كما تشير إلى ذلك سورة الأعراف٧٢، هود ٥٨ دون الحديث عن عددهم أووصفهم بالقلة أو الكثرة. وإنما الإشارة إلى الإيمان والتبعية لهود عليه السلام.

الفريق الثاني: أناس أعرضوا عن الاستجابة لهود عليه السلام. وهم الكافرون ويمكن بيان موقفهم من الدعوة والداعي والمؤمنين على النحو التالي :

أولا: موقفهم من الدعوة : لقد رفضت تلك الطائفة الاستجابة متعللين بالعلل التالية :

١- موروثات الآباء.. وهي العقبة الكئود أمام حركات الإصلاح في ميدان الدين. فكم يستغل الحمقى تقاليد الآباء في الإبقاء على الحال الفاسدة مع الإلزام. حتى إنه في ميدان الفكر يتم رفض الرأي الثاني -وإن توافرت الأدلة على صوابه- لالشيء إلا لأن السابقين لم يقولوا به، وعندها يثار الرأي العام ضد ذلك الرأي. حتى

---

(١) هود ٥٠.
(٢) هود ٥٢.
(٣) هود ٥٤.
(٤) الشعراء ١٣٠.
(٥) الأحقاف ٢٣.

إن صاحبه -فى إطار مايُشاهِدُ- ليعيد النظر فى مقولته كرد فعل للرأى العام. ثم يكون التذكر لتلك العلة فيستبقى ماكتب غير مُجْرٍ لشيء من التعديل مؤمنا بامكانية التغيير أويحْيا على أمل التغيير والإصلاح.

وهذا ماتفعله الأمم مع أنبيائها من حيث الاعتماد على تقاليد الآباء لرفض دعوة الأنبياء. قال تعالى ذاكراً لقول المعرضين من قوم هود ﴿قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ماكان يعبد آباؤنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين * قال قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب أتجادلوننى فى أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم مانزل الله بها من سلطان﴾[1].

٢- العادات والتقاليد -الباطلة-... فكم تسيطر الأباطيل على المجتمع وكم يرفض المجتمع حركة الإصلاح ودعوات المرسلين لالشئ إلا لأنهم أَلِفُوا الشئ المراد تغييره وإن كان فاسداً وهذا ماقاله القوم لهود ﴿ماجئتنا ببينة ومانحن بتاركى آلهتنا عن قولك ومانحن لك بمؤمنين﴾[2]. ﴿قالوا أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين﴾[3]. وكلامهم هذا صريح فى إلف القوم للعقيدة الباطلة حتى إنهم أعلنوا إصرارهم على دوام عبادتها دون الإقلاع عنها فى الحال أو المآل.

٣- دعواهم عدم الوحى إليه... وإنما هى حكايات السابقين يكررها عليهم ثانية دون التأثر بها من قبلهم وبخاصة تخويفه إياهم من عذاب يوم عظيم. وهو ماورد فى قول الحق عن لسانهم ﴿قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين * إن هذا إلا خلق الأولين * ومانحن بمعذبين﴾[4]. وذلك بقراءة (خَلْق) على ذلك النحو. مع القراءة الواردة (خُلُق) وكلتاهما تدل على عدم الوحى إليه.

كما صرح القرآن بأن من أسباب عدم الاستجابة مايلى:

أ) اتباعهم خطوات الشيطان. فكم يزين للطالحين سوء صنيعهم حتى يظنوا أنهم يحسنون صنعاً. وهذا ما أصاب قوم عاد. قال تعالى ﴿وعاداً وثمود وقد تبين لكم من مساكنهم وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل وكانوا

---

(١) الأعراف ٧٠، ٧١.
(٢) هود ٥٣.
(٣) الأحقاف ٢٢.
(٤) الشعراء ١٣٦ - ١٣٨.

مستبصرين﴾[1].

ب) تعطيل الحواس عن الانتفاع بها بعد عرض الدعوة عليهم، وصرفها إلى طلب العلل لردّ الدعوة دون قبولها. قال تعالى ﴿ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شي إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ماكانوا به يستهزئون﴾[2].

ثانياً موقفهم من الداعي

لقد قدّم هود نفسه إلى قومه كرسول من رب العالمين متصف بالصفات التالية:

١- أخوته للقوم المرسل إليهم (الأعراف ٦٥ هود ٥٠ الأحقاف ٢١).

٢- أنه (ناصح) يبغى مصلحتهم وتحريرهم من سلطان الشرك فى المعتقد (الأعراف ٦٨).

٣- أنه (أمين) بصيغة المبالغة (الأعراف ٦٨ والشعراء ١٢٥).

٤- راجح العقل ليس به سفه أو شطط (الأعراف ٦٧).

٥- لايبتغى أجرا من وراء دعوته إلا من الله (هود ٥١).

٦- يخاف عليهم مايصيبهم بسبب تكذيبهم (الشعراء ١٣٥ والأحقاف ٢١).

٧- توفرت لديه القدرة على البيان والبلاغ (التوبة ٧٠).

وهذه الصفات الشخصية فضلاً عن الاصطفاء كانت كافية لحمل المدعوين على الاستجابة لذلك الداعي. فهل تم ذلك؟

لقد آمنت طائفة بهود -كما سبق الإشارة إليه- وطائفة لم تؤمن به بل ناصبته العداء وأصرت على الكفر بالداعى والدعوة لعوامل عدة هى السبب فى عدم استجابتهم لدعوته -كما يزعمون- ومنها..

١) البشرية.. وهى من القاسم المشترك بين كثير من الأمم ﴿وقال الملأ من قومه

---

(١) العنكبوت ٣٨.   (٢) الأحقاف ٢٦.

الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم فى الحياة الدنيا ماهذا إلا بشر مثلكم يأكل مماتأكلون منه ويشرب مماتشربون ولئن أطعتم بشراً مثلكم إنكم إذا لخاسرون﴾[1] . دون التصريح بفقره أوغناه أو قوته أو ضعفه بمثل مافعل قوم نوح معه.

٢) أن النبوة لاتكون إلا لملكٍ من الملائكة، كبديل عن نبوة البشر ﴿فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود * إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم أن لاتعبدوا إلا الله قالوا لو شاء ربنا لأنزل ملائكة فإنا بما أرسلتم به كافرون﴾[2] .

٣) السلوك المشوّه لهود -كما يزعمون- وذلك بوصفه بـ :

- أ- السفه : أى شطط فى العقل، يضر صاحبه فضلاً عن ضرره بغيره. ودعوى جنون فلان من الناس، لها أثرها السلبى على الداعى تجاه من لم يعرفه أو تشكيك من يعرفه -ولونسبيا- فيه.

ب- وصفه بالكذب : للحيلولة دون الاستجابة له.

وهذان الوصفان جمعهما قول الحق ﴿قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك فى سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين﴾[3] .

٤) عدم اتيانه بخوارق تدل على نبوته، وهو ماعبر عنه قول الحق ﴿ قالوايا هود ماجئتنا ببينة﴾[4] . فهل المراد بالبينة هنا معجزة هود عليه السلام. إن ذلك محتمل فى بدء الرسالة ومستبعد بمضى الزمن، لأن المعجزة هى دليل صدق النبى، وقد ورد بالسنة أن كل نبى قد أوتى من الآيات مامثله آمن عليه البشر. كما أشار القرآن فى آيات أخرى إلى أن دلائل النبوة قد توفرت للسابقين، ووقعت للإلزام ولكن القوم أعرضوا، قال تعالى ﴿وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيد﴾[5] . ﴿ألم يأتهم نبأ الذين من قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وأصحاب مدين والمؤتفكت أتتهم رسلهم بالبينت﴾[6]. فهل الآيات والبينات فى الآيتين مراد

---

(١) المؤمنون ٣٣، ٣٤.
(٢) فصلت ١٣، ١٤.
(٣) الأعراف ٦٦.
(٤) هود ٥٣.
(٥) هود ٥٩.
(٦) التوبة ٧٠.

بهما المعجزة الدالة على نبوة هود،أو الآيات الدالة على وجود الله،أوهما معا ذلك؟ الكل محتمل.

والرابع تحدى أن القوم تحدوه بمطالب حسية فيها خرق للعادة لم يستجب لهم فيها،فأعلنوا عجز هود عن الاتيان ببينة من جنس مايريدون.

٥) اتهامه بمس آلهتهم له بالسوء،الذى نتج عنه ماهو فيه، وهذا الاتهام دليل تعطيل للمدارك فعلاً، فكيف بآلهة صماء لاتملك نفعاً ولاضراً قد صنعت بيد البشر تقدر على أن تؤذى بعض البشر، وهذا ماورد فى قول الحق عنهم ﴿إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء﴾[1].

موقف هود من هذه الاتهامات: صرح القرآن بأن هوداً – عليه السلام – لم يُسَلِّم بشئ من هذه الصفات على وجه الإطلاق –باستثناء بشريته– لأنها لم تقم به وباعتبارها من سبل الصد عن دعوته،فأعلن سلبها عنه، كما أعلن براءته من مس آلهتهم له بسوء،لعجزها عن ذلك،وقد أشهد الله على براءته من ذلك،وأشهدهم كذلك مع تحدِّيهم أن يقدروا على إيذائه بشئ مما يدَّعون ﴿قال إنى أشهد الله واشهدوا أنى برئ مما تشركون * من دونه فكيدونى جميعاً ثم لاتنظرون﴾[2].

وهنا تظهر تساؤلات...

لماذا لم يوصف هود بالضعة،كما وصف نوح عليه السلام؟

لماذا لم يُهَدَّد بالرجم أو الطرد كما هُدِّد غيره من المرسلين؟

لماذا لم يُؤْذَ حسيا كما أوذى غيره وكان الإيذاء نفسيا فقط؟

هل كان هود عليه السلام غنياً غناهم،قوياً قوتهم،ذا عصبة فيهم،حتى حالت قوته دون أذاه الحسى.من ناحية،ودون وصفه بالفقر أو الضعف أو الضعة من ناحية ثانية،ودون التهديد بالطرد من ناحية ثالثة؟ كل ذلك محتمل.

---

(١) هود ٥٤.

(٢) هود ٥٤، ٥٥.

ثالثاً: موقف المكذبين من المؤمنين:

لم يتعرض المكذبون للمؤمنين بالذكر مدحاً أو قدحاً، ولم يرد شئ من التهديد أو الوعيد، وقد دعتنى تلك الحالة إلى مراجعة نصوص القرآن أكثر من مرة طلباً للعلة فتبين لى أن القرآن قد قسم الملأ إلى قسمين:

القسم الأول: الذين استجابوا لهود-عليه السلام-ولم يوصفوا بالملأ بعد الاستجابة لأن الإيمان لايعرف التفاوت الاجتماعى بين المؤمنين على أساس من الجاهلية.

القسم الثاني: الذين لم يستجيبوا للدعوة،وهم الذين قادوا حركة المعارضة لدعوة هود-عليه السلام-وهو مايفهم من قول الحق سبحانه **﴿قال الملأ الذين كفروا من قومه﴾**[1] . **﴿وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم فى الحياة الدنيا﴾**[2] .

فتقييد الملأ بالذين كفروا،فيه دلالة على أن هناك من الملأ الذين لم يكفروا.

إن عدم التعرض للمؤمنين يدل على الاحتمالات التالية :

١- أن أتباع هود كانوا من الكثرة بحيث خشى القوم بطشهم.

٢- أنهم تساووا معهم فى الإمكانات فلم يروا علة لانتقادهم أو قدحهم،كالفقر والرق...إلخ.

٣- كانت روابط الدم قوية،فحالت بين المشركين وبين الاستهزاء أو الإيذاء للمؤمنين.

٤- أو أن الأتباع لم يشتغلوا بنصرة هود،بالقدر الذى يستثير المشركين فيعرضوا بهم أو يوجهوا إليهم نقداً أو قدحاً.

٥- كون ذلك وقع وأمسك عنه القرآن من الأمور المستبعدة لأن الحال فى مكة تتطلب ذكر ذلك -إن وقع- للتسلية والتسرية..

---

(١) الأعراف ٦٦. (٢) المؤمنون ٣٣.

الدعوة والطريق المسدود:

كان الشأن في الدعوات السابقة أن تصل إلى مرحلة التوقف عن الاستجابة،وهو ماتدل عليه آيات القرآن، ولذلك كانت النهاية فناء المعرضين من الأمم السابقة، وقد بقي الباب مفتوحا أمام الدعوة الخاتمة، لأن سنة الله اقتضت أن لايهلك المعرضين عن هذه الرسالة بالاستئصال،فضلاً عن كونها غير محدودة بأفراد معينين،يعلنون عدم الاستجابة وآخرين يستجيبون،بل من سنة الله أن يستجاب لهذه الدعوة،في كل زمان ومكان ومن جميع البشر على اختلاف الأجناس والألوان.

وقد ذكر القرآن مرحلة الجمود عن الاستجابة بين هود وقومه والتي انتهت ببيان موقف القوم من حيث:

١- إصرار المكذبين على عدم الإيمان بما توافرت الدلائل على صدقه ﴿ومانحن لك بمؤمنين﴾[١] . ﴿ومانحن له بمؤمنين﴾[٢] .

٢- طلبهم العذاب إن كان صادقاً ﴿فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين﴾[٣] .

٣- استواء الدعوة وعدمها عندهم فلا استجابة ﴿ سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين﴾[٤] .

٤- التصريح بالكفر بالرسول وبرسالته ﴿فإنا بما أرسلتم به كافرون﴾.

٥- إنكار الآيات الدالة على نبوة هود ووحدانية الله ﴿إذ كانوا يجحدون بآيات الله﴾[٥] .

وقد واجههم هود بالتحديات التالية :

أ- عدم الاهتمام أو المبالاة بشأن آلهتهم المزعومة، لأن الإله الذي يدعو إليه يملك كل شيء، وخص الدواب بالذكر لما توهمه طبيعتها وظاهرها من قدرة على الحركة والحرية ﴿إني توكلت على الله ربي وربكم مامن دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن

---

(١) هود ٥٣.
(٢) المؤمنون ٣٨.
(٣) الأعراف ٧٠، الأحقاف ٢٢.
(٤) الشعراء ١٣٦.
(٥) الأحقاف ٢٦.

ربى على صراط مستقيم﴾[1] . كما أنهم مندرجون فى الدلالة اللفظية للكلمة لغوياً.

ب- توعدهم بعذاب ينزل بهم شأنه أن لايدفع،فلم يهتموا بذلك قائلين له ﴿فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين * قال قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب أتجادلوننى فى أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما نزل الله بها من سلطان فانتظروا إنى معكم من المنتظرين﴾[2] .

ج- تحديهم أن يؤذوه وهو واحد وهم جمع،مع ضمه آلهتهم إليهم حين التحدى، وقد ورد التحدى مرتين بلفظ موجز عبر عنه بقوله ﴿من دونه فكيدونى جميعاً ثم لاتنظرون﴾[3] . وضمير الجمع (الواو من كيدونى) والتأكيد بقوله (جميعاً) يؤكد الشمول للأفراد والآلهة، وطلبه عدم الإنظار فى الكيد هو من أبلغ الأدلة على عجز الآلهة والأتباع كذلك.

د- التهديد بقدرة الله على إهلاكهم، واستبدالهم بغيرهم، غير قادرين على فعل شئ مايتعلق بذات الله، لقدرته عليهم دون قدرتهم عليه ﴿فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم ويستخلف ربى قوما غيركم ولاتضرونه شيئاً إن ربى على كل شئ حفيظ﴾[4] .

النهايـــة..

فى ضوء ماسبق بدأت النهاية للمكذبين من قوم هود، وقد أشار إليها القرآن غير مرتبة،ولامجموعة فى سورة واحدة، كما وردت بعض أحاديث بالسنة تشير إلى سبل الإهلاك،ويمكن بيان ذلك على النحو التالى :

١- وصلت الدعوة إلى طريق مغلق، فالقلوب أُوصِدَت،والعقول تحجرت، والأهواء تسلطت،والتحدى بوقوع العذاب -إن كان صادقاً- تم....إلخ.

٢- لم يجد هود أمام ذلك التحدى سبيلاً إلا طلب النصر من ربه، لأن عدم إهلاك هؤلاء فيه إضعاف لشأن هود،وانتصار للباطل،وبخاصة أنهم جعلوا نزول العذاب

---

(١) هود ٥٦.
(٢) الأعراف ٧٠، ٧١.
(٣) هود ٥٥.
(٤) هود ٥٧.

دليل صدقه،فعدم الاتيان دليل الكذب (الأعراف ٧٠).

٣- توجه هود إلى ربه بطلب النصر ﴿قال رب انصرني بما كذبون﴾[1]. فاستجاب الله دعاءه وفق وعده الحق ﴿إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد﴾[2] ﴿وكان حقاً علينا نصر المؤمنين﴾[3]. ﴿حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجي من نشاء ولايرد بأسنا عن القوم المجرمين﴾[4].

٤- علِمَ هود عليه السلام بأن عذابا سيحل بهم فأخبرهم علّهم يرتدعون، أوبين لهم أن ما هم عليه سوف يجلب عليهم اللعنة إن استمروا على ماهم عليه، فلم يهتموا بما قاله لهم (قال قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب) الأعراف ٧١. والتعبير عن المستقبل بالماضي لتحقق الوقوع.

٥- أهلك الله المكذبين من عاد، بالظواهر الجوية،التي تبدلت فيها السنن الإلهية،من كونها سبيلا للحياة أو العون على الحياة، إلى كونها سبيلاً للإهلاك وبيان ذلك كما يلي :

أ) أرسل الله سحباً ملأت جو السماء،رآها القوم ففرحوا بها كل الفرح متوقعين أنها تحمل إليهم مايتمناه أهل الزرع والضرع، وقد أشار كثير من المفسرين والمؤرخين إلى أن السماء لم تمطر لثلاث سنوات،حتى أرسل القوم وافدهم ليستمطر لهم عند الكعبة، وإن كان القرآن لم يشر إلى ذلك،ولم يصح في السنة مايدل عليه، قال تعالى ﴿ فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا﴾[5] أي تلبدت السماء بالغمام متجهاً نحو أوديتهم حتى توقعوا سقوط المطر لامحالة.

ب) أرسل الله عليهم ريحا يستعصى عليهم دفعها،لأنها خرجت على غير المألوف،موصوفة بصفات الإهلاك لا الاستبقاء، من صفاتها التي وردت في القرآن..

١) أنها ريح صرصر، قال تعالى ﴿فأرسلنا عليهم ريحا صرصراً في أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لاينصرون﴾[6].

---

(١) المؤمنون ٣٩. (٢) غافر ٥١.
(٣) الروم ٤٧. (٤) يوسف ١١٠.
(٥) الأحقاف ٢٤. (٦) فصلت ١٦.

والوصف بالإرسال،ونسبته إلى الله،وشمول الريح لسائر المكذبين (عليهم) مع العلية يفيد الاستعلاء والتمكين. فلم يقل الحق أرسلنا إليهم ، بل (عليهم) فى أكثر من آية ،ووصف الريح المسلطة عليهم لإهلاكهم بأنها (صرصر) يشير إلى ثلاث خصائص لهذه الريح،مضمنة هذا الوصف،وكل خصيصة منها مما له دور فى إهلاكهم:

الخصيصة الأولى: إنها شديدة الهبوب،قوية،بلغت من قوتها وشدة سرعتها أنها كانت (تنزع الناس) وذلك لتكون عقوبتهم من جنس مااغتروا به من قوة إذ قالوا (من أشد منا قوة).

الخصيصة الثانية: إنها ذات برد شديد محرق، فوصفها بصرصر، مأخوذ من (الصر) الذى هو البرد الشديد المحرق، ومنه قوله تعالى ﴿كمثل ريح فيها صر﴾ أى فيها برد شديد محرق.

ومنه قول حاتم الطائى لغلامه...

أوقد فإن الليل ليل قرّ والريح ياواقد ريح صرّ

علّ يرى نارك من يمرّ إن جلبت ضيفاً فأنت حرّ

الخصيصة الثالثة: إنها عاصفة مصوته يسمع لهبوبها صوت شديد (صرصر) ووصفها بهذا مأخوذ من (الصرة) التى هى الصيحة المزعجة ومنه قوله تعالى (فأقبلت امرأته فى صرة) أى صيحة، ومنه صرير الباب أى صوته»[1].

وقد وصفت الريح التى أهلكتهم بأنها (صرصر) فى ثلاث آيات من القرآن وردت فى القمر ١٩، فصلت ١٥، الحاقة ٦.

٢- كما وصفت الريح بأنها عاتية : وهذا الوصف يطابق ماكان عليه حال القوم الذين أعلنوها صراحة قائلين ﴿من أشد منها قوة﴾ كما أنها مخيبة لآمالهم التى بنوها على قوتهم المادية ﴿ أتبنون بكل ريع آية تعبثون * وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون * وإذا بطشتم بطشتم جبارين﴾[2] ، وفى المراد من وصفها بالعتو آراء منها:

(١) من نبأ المرسلين ص١٧٢، ١٧٣. (٢) الشعراء ١٢٨-١٣٠.

الرأي الأول: -أي في الترتيب- قال الكلبي: عتت على خزنتها يومئذ، فلم يحفظوا كم خرج منها، ولم يخرج قبل ذلك ولابعده منها شيء إلا بقدر معلوم.

الرأي الثاني: عن ابن عباس يريد الريح عتت على عاد، فما قدروا على ردّها بحيلة، من استتار ببناء أو استناد إلى جبل، فإنها كانت تنزعهم من مكانهم وتهلكهم.

الرأي الثالث: إن هذا ليس من العتو الذى هو العصيان، إنما هو بلوغ الشيء قوته وانتهاؤه، ومنه قولهم: عتا النبت أى بلغ منتهاه وجف، قال تعالى ﴿وقد بلغت من الكبر عتيا﴾[1] فعاتية أى بالغة منتهاها في القوة والشدة[2].

الرأي الرابع: نسب إلى ابن عباس وعلى بن أبي طالب، أن الله لم يرسل ريحا قط إلا بمكيال، ولاأنزل قطرة إلا بمثقال، إلا يوم نوح ويوم عاد، فإن الماء طغى يوم نوح على خزانه فلم يكن لهم عليه سبيل، وإن الريح عتت على خزانها فلم يكن لهم عليها سبيل، ثم قرأ بريح صرصر عاتية[3].

٣- ووصفت بأنها عقيم، ووصفها بالعقم فيها آراء منها: الشديدة التى لاتلقح شيئاً، عن ابن عباس، وفى لفظ هى ريح لابركة فيها ولامنفعة، ولاينزل منها غيث ولايلقح بها شجر، كأنه شبه عدم تضمن المنفعة بعقم المرأة... وقال بعضهم وهو حسن -أى القول- سميت عقيماً لأنها أهلكتهم وقطعت دابرهم، على أن هناك استعارة تبعية حيث شبه إهلاكهم وقطع دابرهم بعقم النساء وعدم حملهن لما فيه من إذهاب النسل ثم أطلق المشبه به على المشبه واشتق منه العقيم[4]. ووصفها بالعقم مع أنها كانت (صر) أى باردة فيه قولان..

أحدهما.. أنها كانت باردة فكانت فى أيام العجوز، وهى ثمانية أيام من آخر شباط، وأول آذار والريح الباردة من شدة بردها تحرق الأشجار والثمار وغيرها وتسودهما.

---

(١) مريم ٨.

(٢) مفاتيح الغيب ١٠٣/٣٠ - ١٠٤ ط دار الفكر الأولى، الكشاف ١٤٩/٤، الألوسى ٤٠/٢٩.

(٣) الطبرى ٢٩ / ٣٢.

(٤) الألوسى ١٦/٢٧ بتصرف وانظر الكشاف ١٩/٤ والرازى ٢٢٢/٢٨.

الثاني.. أنها كانت حارة والصر هو الشديد لاالبارد، وبالشدة فسر قوله تعالى (فى صرة) أى شدة من الحر[1].

٤- ووصفت بأنها مدمرة لكل شئ أمرت بتدميره، كما ورد فى قول الحق عنها (ماتذر من شيئ أتت عليه إلا جعلته كالرميم)[2] وقول الحق ﴿تدمر كل شئ بأمر ربها﴾[3].

فإن قيل: هل فى قوله تعالى (ماتذر من شئ أتت عليه) مبالغة ودخول تخصيص كما فى قوله تعالى (تدمر كل شئ بأمر ربها) نقول هو كما وقع، لأن قوله (أتت عليه) وصف لقوله (شئ) كأنه قال: كل شئ أتت عليه أو كل شئ تأتى عليه جعلته كالرميم، ولايدخل فيه السماوات لأنها ماأتت عليها،وإنما يدخل فيه الأجسام التى تهب عليها الرياح، فإن قيل فالجبال والصخور أتت عليها وماجعلتها كالرميم؟ نقول: المراد أتت عليه قصداً وهو عاد وأبنيتهم وعروشهم، وذلك لأنها كانت مأمورة بأمر من عند الله،فكأنها كانت قاصدة إياهم فما تركت شيئاً من تلك الأشياء إلا جعلته كالرميم، ووصف الريح بالتدمير، وكونه بأمر الله «المعنى أن هذا ليس من تأثيرات الكواكب والقرانات، بل هو أمر حدث ابتداء بقدرة الله تعالى،لأجل تعذيبكم فكل شئ أتت عليه جعلته كالرميم،أى الشيئ البالى من عظم أو نبات أوغير ذلك من رمّ الشئ بلى، ويقال للبالى: رُمَام كغراب... وفسّره السدى هنا بالتراب،وقتادة بالهشيم وقطرب بالرماد،وفسره ابن عيسى بالمنسحق الذى لايرم أى لايصلح... والشئ هنا عام مخصوص، أى من شئ أراد الله تعالى تدميره وإهلاكه من ناس أوديار أو شجر أو غير ذلك، روى أن الريح كانت تمر بالناس فيهم الرجل من قوم عاد فتنتزعه فتهلكه...[4]

٥- ورَد فى السنة أنها الدَّبور، ففى الحديث (نصرت بالصَّبا وأهلكت عاد بالدَّبور)[5]. والصبا هى الريح الشرقية والدبور مقابلها[6].

---

(١) الرازى ٢٢٢/٢٨ بتصرف.
(٢) الذاريات ٤٢.
(٣) الأحقاف ٢٥.
(٤) الألوسى ١٦/٢٧ بتصرف.
(٥) البخارى ك الاستسقاء ٢٦ والمغازى ٢٩ وباب بدء الخلق ٥ والأنبياء ١ ومسلم ك الاستسقاء ١٧ ومسند أحمد ٢٢٣/١، ٢٢٨.
(٦) فتح البارى ٣٠١/٦ط دار المعرفة بيروت.

الوسيلة الثانية لإهلاكهم (الصاعقة)

وهى ما أُمِر الرسول -صلى الله عليه وسلم- أن يهدد بها قريشاً إذا تمادوا فى الإعراض عن الاستجابة. قال تعالى **﴿فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود﴾**[1].

«والصاعقة هى كل ما أفسد الشئ وغيّره عن هيئته. وقيل فى هذا الموضوع عنى بها وقيعة من الله وعذاب[2]، وقيل هلاكا مثل هلاك عاد وثمود[3]. وقيل عذاب شديد الوقع كأنه صاعقة[4]. قال المبرد: والصاعقة الثائرة المهلكة لأى شئ كان...[5].

وجملة الآراء: أن قوم عاد قد أهلكوا -ضمن ما أهلكوا به- بالصاعقة التى عرف العرب آثارها سابقاً،ولم يعرفوا حقيقتها كغيرهم، لأن المعرفة لم تصل فى زمنهم إلى حقيقة الصواعق بمثل ماوصلت إليه فى زمننا هذا.

الوسيلة الثالثة (الصيحة)

ففى سورة المؤمنون ورد قول الحق **﴿قال رب انصرنى بما كذبون * قال عما قليل ليصبحن نادمين * فأخذتهم الصيحة بالحق فجعلناهم غثاءً فبعدا للقوم الظالمين﴾**[6]

وما المراد بالصيحة؟ ذكروا فيها وجوها منها.

الوجه الأول: أن جبريل عليه السلام صاح بهم وكانت الصيحة عظيمة فماتوا عندها.

الوجه الثانى: الصيحة هى الرجفة عن ابن عباس رضى الله عنهما.

الوجه الثالث: الصيحة هى نفس العذاب والموت كما يقال فيمن يموت دعى فأجاب.

الوجه الرابع: أنه العذاب المصطلم عن الحسن.

---

(١) فصلت ١٣.
(٢) الطبرى فى تفسيره ٦٥/٢٤.
(٣) القرطبى ٣٤٦/١٥.
(٤) الكشاف ٤٤٧/٣.
(٥) الرازى ١١١/٢٧.
(٦) المؤمنون ٣٩-٤١.

والأول أولى لأنه هو الحقيقة.

وأما قوله (بالحق) فمعناه أنه دمّرهم بالعدل من قولك: فلان يقضى بالحق، إذا كان عادلاً فى قضاياه، وقال المفضل: بالحق، أى بما لايدفع كقوله (وجاءت سكرة الموت بالحق)[1] . ومن قال: إنهم قوم هود عليه السلام أشكل ظاهر هذا عليه بناء على أن المصرح به فى غير هذه السورة (سورة المؤمنون) أنهم أهلكوا بريح عاتية. وأجاب بأن جبريل عليه السلام صاح بهم من الريح كما روى فى بعض الأحاديث. وفى ذكر كل على حدة إشارة إلى أن كلاً لو انفرد لتدميرهم لكفى[2] .

وهنا يطرح هذا السؤال نفسه. هل جمع الله عليهم هذه الوسائل. أم أهلكهم مجموعات كل مجموعة بلون من العذاب؟

إن ذلك كله محتمل،ولعل الحق سبحانه أهلك البعض أمام البعض الآخر بصور مختلفة ليكون العذاب أنكى، أو أن منهم من أهلكته الريح ومن استتر منها أهلكته الصيحة،وآخرون أهلكوا بالصاعقة، (فقد ذكر ابن قتيبة أنهم كانوا ثلاث عشرة قبيلة ينزلون الرمل بالدوّ والدهناء وعالج ووبار وعمان إلى حضر موت اليمن)[3] .

وبالإمكان أن يكون الهلاك قد تم بالوسائل الثلاث مجموعة فى وقت واحد، فعندما تضطرب الظواهر الجوية وتكثر السحب وتشتد الريح يرى الناس الرعد والبرق وآثار الصواعق، فالرعد هو الصوت الناتج عن تفريغ كهربائى فى طبقات الجو العليا بين سحابتين ينتج عنه تمدد الهواء ثم اجتماعه بشدة. وأما الصواعق فهى شحن كهربائية تنتج عن اتحاد سحابتين بقوة بالغة تفرغ شحنا كهربائية فى طبقات الجو ما أصابت شيئاً إلا أهلكته. والبرق هو الضوء الناتج عن الشرر الكهربى.

ما هو موقف هود والمؤمنين معه ؟

رُوِى أن هوداً لما أحس بالريح خط على نفسه وعلى المؤمنين خطا إلى جنب عين تنبع، فكانت الريح التى تصيبهم ريحا لينة هادئة طيبة، والريح التى تصيب قوم

(١) الرازى ١٠٠/٢٣ والآية من سورة ق ١٩ (٢) الألوسى ٣٣/١٨.
(٣) فتح البارى ٣٧٧/٦.

عاد ترفعهم من الأرض، وتطيرهم إلى السماء وتضربهم على الأرض وأثر المعجزة إنما ظهر فى تلك الريح من هذا الوجه[1].

وإذا كان الرازى –رحمه الله– قد ذكر هذه الرواية ولم يعقب عليها، فإنى أقول: إن الريح أرسلت إلى هدف معين،ماكانت تعدل عنه إلى ماسواه،ولاتخطأ الهدف، ونحن نرى، القناصة ورجال الرماية وصائدى الطيور يختارون الشئ من بين المئات ولايخطئون الرمية، كما أن الإنسان –مع ضعفه– قد صنع ملابس للوقاية من النار والبرد ورمى الرصاص ولاينكر ذلك إلا مكابر، فكيف بقدرة الله إذا توجهت لنصرة مجموعة من البشر.

إن رؤيا الهلاك للمعاندين المكذبين فيه شفاء لنفس المكذبين،وفيه إظهار للمنة على المؤمنين،وفيه شدة حسرة على المُهلكين حين يرون غيرهم سالمين غير مصابين بما أصيبوا به، وليس بلازم فى كل الأمور أن تلتمس سبل النجاة وبخاصة إذا لم يتوفر نص يشير إلى ذلك.

زمـــن الإهـــلاك

وكما أشار القرآن إلى سبل الإهلاك، فإنه أشار إلى زمن الإهلاك بأساليب العرب المتبعة زمن التنزيل.

فالعرب عرفوا اليوم مقابل النهار،من طلوع الفجر إلى غروب الشمس،وهو الأصل وبه ورد قول الحق ﴿ فصيام ثلاثة أيام ﴾ والصوم زمنه كما ورد ﴿ وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ثم أتموا الصيام إلى الليل ﴾[2] وعرفوا اليوم بأنه مابين الشروق إلى الشروق وهو ما تسمت به الأيام عندهم –على الراجح– وبأنه الفترة الزمنية غير محددة المقدار، فقد تكون لحظة وقد تكون شهوراً وأطلقوا اليوم على الحوادث التى تستغرق شهراً أو أكثر كيوم بدر وحنين ويوم بعاث، ويطلق على الوقت الحاضر أو الوقت مطلقاً، ويطلق على الشدة فيقال يوم أيوم وليلة ليلاء، ويراد به الوقائع، يقال فلان عالم بأيام العرب أى وقائعها[3].

---

(١) الرازى ٢٨/٢٨.　　(٢) البقرة ١٨٧.

(٣) لسان العرب مادة «يوم» ٦٤٩/١٢ – ٦٥٢ صادر. بيروت.

وهذه التقدمة تيسر سبيل الجمع بين الآيات التي أشارت إلى العذاب محدداً بعدد للأيام والليالي وبالإفراد كذلك. قال تعالى ﴿وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية * سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما﴾[1]. فالليل هنا غير النهار وهو ماعبر عنه باليوم الذي هو أصل الوضع للكلمة (من مشرق الشمس إلى غروبها)[2] وهو يدل على أن العذاب قد ابتدأ بالنهار وانتهى بآخر النهار،حتى يستقيم الجمع وبخاصة أنها وصفت بالتتابع «حسوما». وقد وصفت تلك الأيام بأنها ﴿في أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا﴾[3] كما ورد في سورة القمر زمن العذاب مقدراً بيوم واحد ﴿إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في يوم نحس مستمر﴾[4].

يقول المفسرون (قال هنا في يوم نحس مستمر) وقال في فصلت (في أيام نحسات) وقال في الحاقة (سبع ليال وثمانية أيام حسوما) والمراد من اليوم هنا الوقت والزمان كما في قوله تعالى ﴿يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا﴾[5] وقوله «مستمر» يفيد مايفيده الأيام لأن الاستمرار ينبئ عن أسرار الزمان كما ينبئ عنه الأيام وإنما اختلف اللفظ مع اتحاد المعنى، والوصف بـ «مستمر» فيه وجوه :

الأول: ممتد ثابت مدة مديدة،من استمر الأمر إذا دام،وهذا كقوله تعالى (في أيام نحسات) لأن الجمع يفيد معنى الاستمرار والامتداد. وكذلك قوله (حسوما).

الثاني: شديد،من المرة،وهذا كقولهم أيام الشدائد، وإليه الإشارة بقوله تعالى (في أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا) فإنه يذيقهم المر المضر من العذاب[6].

وقوله (سبع ليال وثمانية أيام حسوما) الفائدة فيه أنه تعالى لو لم يذكر ذلك لما كان مقدار زمان هذا العذاب معلوماً، فلما قال سبع ليال وثمانية أيام،صار مقدار هذا الزمان معلوماً،ثم لما كان يمكن أن يظن ظان أن ذلك العذاب كان متفرقاً في هذه المدة أزال هذا الظن بقوله (حسوما) أي متتابعة متوالية، واختلفوا في الحسوم على

---

(1) الحاقة ٧.
(2) لسان العرب «يوم».
(3) فصلت ١٦.
(4) القمر ١٩.
(5) مريم ٣٣.
(6) الرازي ٤٧/٢٩ بتصرف.

وجوه:

أحدها.. وهو قول الأكثرين حسوماً أى متتابعة، أى هذه الأيام تتابعت عليهم بالريح المهلكة فلم يكن فيها فتور ولاانقطاع، وعلى هذا القول تكون حسوماً جمع حاسم،والحسم فى اللغة القطع بالاستئصال، وسمى السيف حُساماً لأنه يحسم العدو عما يريد من بلوغ عداوته فلما كانت تلك الرياح متتابعة ماسكنت ساعة حتى أتت عليهم...

ثانيها.. أن الرياح حسمت كل خير،واستأصلت كل بركة،فكانت حسوماً، أوحسمتهم فلم يبق منهم أحد.

ثالثها.. أن يكون الحسوم مصدر كالشكور والكفور.. وفيه تقدير أى يحسم حسوماً بمعنى يستأصل استئصالاً...[1].

امر المكذبين وما انتهى إليه :

إن نهاية المكذبين من قوم عاد تناسبت مع حالتهم الأولى. فلقد أعلنوا عتوهم واستكبارهم قائلين «من أشد منا قوة»

إن أمة هذا حالها قد توجهت إرادة الله إليها بالهلاك بصورة تجعلها عبرة. فلقد وصفت أجسامهم بقول الحق ﴿فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية * فهل ترى لهم من باقية﴾[2] ويقول الحق فى شأن الريح المرسلة عليهم ﴿تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر﴾[3]، وقول الحق ﴿فأخذتهم الصيحة بالحق فجعلناهم غثاء فبعداً للقوم الظالمين﴾[4]. كما أنهم يدخلون فى الوصف العام المتعلق بالريح ﴿ماتذر من شئ أتت عليه إلا جعلته كالرميم﴾[5].

وبذلك وصفت أجسامهم بعد الهلاك بالصفات التالية :

---

(١) الرازى ١٠٤/٣٠ بتصرف وبمثل ذلك ذكر الألوسى ٤١/٢٩، ٤٢ ونسبة تلك الآراء إلى أصحابها الطبرى ٣٢/٢٩،٣٣ والكشاف ١٥٠/٤.

(٢) الحاقة ٧. (٣) القمر ٢٠.

(٤) المؤمنون ٤١. (٥) الذاريات ٤٢.

١- أنها كأعجاز نخل خاوية.

٢- أنها كأعجاز نخل منقعر

٣- إن أجسامهم صارت غثاء كغثاء السيل.

٤- أنها فتتت بعد تعفنها وصارت بالية.

٥- ذابت تلك الأجسام بعد تحللها واندثرت بغيرها فلم يبق لها أثر ﴿فهل ترى لهم من باقية﴾. ﴿وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وماكانوا مؤمنين﴾[1] .

وتشبيه القوم بأنهم أعجاز نخل يدل على مايلى :

ضخامة الأجسام وارتفاعها، قطع رؤوس هؤلاء عن الأجساد، لا بقاء بتلك الأجساد ولاأثر للحياة فيها لأنها «منقعرة» أى اقتلعت من الأرض فلاثبات لها كما أنها يبست فصار جوفها خاوياً وهو النوع المستقبح من النخل لأن منه مالا يخوى جوفه ومنه ما يخوى جوفه، ولم يقل رؤوس نخل لأنّ رأس النخلة وإن قطع عن أصله فإن الحياة تبقى به فترة من الزمن، ويرى بعض المفسرين أن الريح كانت تقتلع الرجل من على الأرض وترفعه إلى أعلى ثم تلقى به ثانية على أم رأسه فتتهشم الرأس ويبقى سائر الجسد.

كما أن تلك الأجسام قد تفتتت بمضى الزمن تلقائياً أو لوجود مطر أصابها فاسودت وتهلهلت حتى صارت كغثاء السيل وهو مايُحمل مع مجارى المياه فى الأنهار والقنوات، مما تعفن من الأعشاب والنبات، ثم انتهت إلى ماتنتهى إليه سائر الأجسام من تحولها إلى تراب اختلط بغيره، فلم يبق لتلك الأجسام أى أثر يميزها عن غيرها من الناحية الظاهرة، فهل خبأت الأرض من أجسادهم مايدل عليهم، ذلك ماتكشف عنه البحوث عندما نلتمس الأسباب.

(١) الأعراف ٧٢.

قضايا وثيقة الصلة بدعوة هود:

القضية الأولى:

لماذا لم توصف قصة هود فى القرآن بأنها غيب -حيث وردت فى القرآن- بعكس ماورد فى قصة نوح وآخرين؟

إن القصة -بتفاصيلها- وإن كانت غيباً بالنسبة للرسول صلى الله عليه وسلم فإنها لم تكن -بالكلية- غيبا بالنسبة لأهل مكة أولسكان الجزيرة العربية. فعلمهم بعاد وهود كان متوفراً وورد كثيراً فى أشعارهم تهديداً أو اعتباراً. وقد وجدنا القرآن الكريم يذكر أمر عاد فى غير تفصيل فى بعض الآيات ويذكرها بقليل من التفصيل فى بعض الآيات ويفصل فى قليل من مواطن الذكر.

فقصة عاد وردت فى تسع عشرة سورة من سور القرآن لم تفصل إلا فى الأعراف - هود- المؤمنون، كما يرى بعض المفسرين، الشعراء- الأحقاف. خمس سور. ثم وردت بإيجاز فى اثنتى عشرة سورة بصورة موجزة هى «الفجر- النجم- ق- القمر- ص- الفرقان- فصلت- الذاريات- إبراهيم- الحاقة- العنكبوت- غافر» كلها مكية ولم ترد فى السور المدنية إلا مرتين هما التوبة والحج.

كما ذكرت كتب التاريخ أن قوم عاد كانوا يأتون إلى البيت الحرام يستسقون به وأن من نسائهم من تزوجن بمكة فكانوا أخوالاً لبعض المكيين[1]. ولذلك وجدنا القرآن يأمر النبى -صلى الله على وسلم- بأن يذكر قريشاً ما أصاب قوم عاد، فى بعض المواطن بطريق الاستفهام، وأحياناً بطريق العرض، وكم سلى الله عن النبى -صلى الله عليه وسلم- مايصيبه من قومه بما أصاب هوداً قبله وأشار إلى أن قريشاً ليست أول من كذب، بل كذبت قبلهم قوم عاد... وقد ورد فى بعض الأحاديث وصف عاد بالعربية. وذكر هود على أنه من أنبياء العرب وفي الحديث «منهم أربعة إلى العرب هود- صالح- شعيب- نبيك ياأباذر»[2].

---

(١) الطبرى ٢١٦/١-٢١٩ والبداية والنهاية ١٢٦/١، ١٢٨.
(٢) مسند أحمد ١٧٨/٥، ١٧٩، ٢٦٥.

كما أن هوداً أتى إلى مكة وحج البيت الحرام، وفى الحديث «لما مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بواد عسفان حين حج قال: يا أبا بكر أى واد هذا؟ قال وادى عسفان. قال لقد مر به «هود وصالح على بكرات حمر خُطُمها الليف. أزرهم العباء وأرديتهم النّمار يلبُّون يحجون البيت العتيق»[1].

القضية الثانية:

هل هناك عاد ثانية بعد أن وصفت عاد التى أهلكها الله بالأولى؟

للمفسرين أقوال تبلغ حداً فى الكثرة يمكن إيجازها فى رأيين:

الرأى الأول: أن قبيلة عاد واحدة وأن الوصف بالأولى مرده إلى...

أ) تقدمهم فى الزمن عن ثمود وقوم إبراهيم وموسى وغيرهم.

ب) قدمهم فى سكن الجزيرة العربية عمن تبعهم.

ج) الذين رأوا فى أنفسهم مالم ير غيرهم من القوة.

الرأى الثانى: أن الوصف بالأولى للتمييز بينها وبين الثانية والآخرة. وبيان ذلك كما يلى:

١- عادٌ الأولى هم عاد إرم نسبة إلى عاد بن إرم بن عوص بن سام بن نوح. طال العهد بهم كأمة فبعث الله إلى المتأخرين منهم هوداً عليه السلام فهم عاد الآخرة.

٢- أن عادا الأولى أى الذين كذبوا فأهلكهم الله فلم يترك منهم أحداً وأن الذين آمنوا نجاهم الله فتناسلوا وتكاثروا وعمروا الأرض ثانية، فهم عاد الآخرة أى المتأخرة أو المتبقية.

٣- أن طائفة من عاد استوطنت مكة وأقامت بها وفى مرد هذه الطائفة خلاف فقيل:

«إن بنى القيم بن هزال بن هزيل ابنة بكر كانوا سكانا بمكة مع أخوالهم، لم

---

(١) ذكره ابن كثير فى البداية والنهاية ١١٩/١ وقال فيه غرابة.

يكونوا مع عاد بأرضهم، فهم عاد الآخرة، ومن كان من نسلهم الذين بقوا من عاد»[1].

وقيل «إن بطوناً من عاد أتت إلى مكة واستوطنتها فلم يصبهم ما أصاب عاداً الأولى وهم الذين عرفوا بالثانية. فالأولى بالأحقاف والثانية بمكة»[2].

٤- أن عادا الأولى هي التي وردت في كافة قصص القرآن وعادا الثانية هي التي وردت في سورة الأحقاف فقط[3].

٥- أن عادا الأولى هم قوم هود وعادا الثانية هم قوم صالح[4].

وهذه الآراء اجتهادات لم تتوافر عليها أدلة. ومادفع إليها إلا وصف عاد بأنها الأولى أي التي تضرب بعمق في التاريخ وهي ماتعرف ضمن العرب العاربة[5].

أسباب هلاك عاد:

أولا: الكفر.. وهو من موجبات الإهلاك قبل دعوة محمد -عليه السلام- فما كفرت أمة بنبيها -من الأمم السابقة- إلا أهلكها الله بعد توافر الدلائل الدالة على نبوة الداعي ووصول الدعوة إلى طريق مسدود من الأمم التي ذكرها القرآن.

ثانيا: طلبهم العذاب.. مع جعله دليل صدق هود عليه السلام (الأعراف ٧٠) وعدم الاستجابة لدعوته بعد إخبارهم أن العذاب سينزل بهم لامحالة (الأعراف ٧١).

ثالثا: الجحود.. وهو أسوأ حالا من الكفر. لأن الجاحد يقر في نفسه أمر الشئ الذي ينكره ولكنه يكابر بالإعراض عنه. مع اتباعهم لدعاة الضلالة والعناد (هود ٥٩).

رابعا: تغييب العقل.. عن التفكير في الدعوة بهدف النجاة (إبراهيم ٩) وتعطيل آلات الحس عن الانتفاع بها في ميدان الوحي (الأحقاف ٢٦).

خامسا: الترف.. وهو من الصوارف عن التفكير في عواقب الأمور، وسبب من أسباب هلاك الأمم -أتتها رسالة أو لم تأتها- عبر العصور لأنه يؤدي إلى فساد خلقي

(١) تاريخ الطبري ٢٢٢/١، ٢٢٩ والبداية والنهاية ١٢٧/١.
(٢) الرازي ٢٤/٢٩.
(٣) البداية والنهاية ١٣٠/١.
(٤) روح المعاني ٢٢/١٨.
(٥) البداية والنهاية ١٢٠/١.

وانحلال اجتماعي.

سادسا: الاتجاه المادي الدهري في امر الآخرة.. لأن الإيمان بالبعث يحمل على الالتزام غالبا وهو سبيل من سبل الوقاية للأفراد والمجتمعات (المؤمنون ٣٥، ٣٦ الشعراء ١٣٨).

سابعا: الاستعلاء والاستكبار بغير الحق.. دفعهم ذلك إلى إيذاء الآخرين بلا هوادة (فصلت ١٥، الشعراء ١٣٠) مع نسيان قوة الخالق فوقهم، وعندما ذكرهم هود بذلك لم يأبهوا به (مامن دابة إلا هو آخذ بناصيتها) ولذلك وصفهم الله بقوله **﴿فبعدا للقوم الظالمين﴾**[١] ووصفهم بالإجرام **﴿كذلك نجزى القوم المجرمين﴾**[٢].

آثـــار عــــاد:

يفهم من نصوص القرآن أن الهلاك أصاب البشر المكذبين، وأن المساكن الخاصة بهم بقيت بعدهم فترة من الزمن ليتعظ بها من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، قال تعالى **﴿وعاداً وثمود وقد تبين لكم من مساكنهم وزين لهم الشيطان أعمالهم﴾**[٣]. **﴿فأصبحوا لايرى إلا مساكنهم كذلك نجزى القوم المجرمين﴾**[٤] وهو مايستدعي توجه بعثات علمية إلى تلك الديار للتنقيب عن آثارها بعد أن أدركنا من شأنها الكثير مما ورد بالقرآن. فهل من مجيب؟

امور خاض فيها كثيرون امسكنا عنها:

نسب هود عليه السلام[٥]. لغة هود وعاد[٦]. أسماء الأصنام[٧]. استسقاء عاد

---

(١) المؤمنون ٤١. (٢) الأحقاف ٢٥.

(٣) العنكبوت ٣٨. (٤) الأحقاف ٢٥.

(٥) تاريخ الطبرى ٢١٦/١ – البداية والنهاية ١٢٠/١ قصص الأنبياء للنجار ٨٠، ٨١ الكامل ٨٥/١ تاريخ ابن خلدون ٢٠/٢ وسمط النجوم ١٣٠/١، البدء والتاريخ ٣٢/٣ معجم البلدان ١٥٦/١ مادة (إرم) بدائع الزهور ١٠٨/١.

(٦) البداية والنهاية ١٢٠/١ تاريخ ابن خلدون ٢١/٢ سمط النجوم ١٢٧/١ مروج الذهب ١٣٢/٢ قصص الأنبياء لابن كثير ١٢١/١.

(٧) تاريخ الطبرى ٢١٦/١، ٢٢١، ٢٢٤ وقصص الأنبياء للنجار ٨٢ الكامل ٨٥/١ سمط النجوم ١١٨/١، البدء والتاريخ ٣١/٣ قصص الأنبياء لابن كثير ١٢١/١.

بالبيت الحرام[١] . الدعاء الذى دعا به وفد الاستسقاء[٢] . حديث هود مع الخلجان[٣] . تاريخ بدء الهلاك ونهايته[٤] . مدينة إرم والغرائب حولها[٥] . أول من رأى العذاب[٦] . وصف إهلاكهم[٧] . إلقاؤهم فى البحر[٨] . حج هود[٩] . عمر هود[١٠] . قبرهود[١١] . أشعار فى قوم عاد[١٢] . نسب قوم هود عليه السلام[١٣] . مصدر التسمية بإرم[١٤] . وصف قوة الأفراد[١٥] . صلتهم بمصر[١٦] . علم عاد بمحمد -صلى الله عليه

---

(١) تاريخ الطبرى ٢١٧/١، ٢١٨، ٢١٩، ٢٢٣ والبداية والنهاية ١٢٦/١-١٢٨ والثعلبى ٣٦، تاريخ ابن خلدون ٢٠/٢ سمط النجوم العوالى ١٢٤/١، ١٢٥ البدء والتاريخ ٣٢/٣ وتفسير الطبرى ١٥٣/٨ بدائع الزهور ١٠٩/١ قصص الأنبياء لابن كثير ١٣٥/١.

(٢) تاريخ الطبرى ٢٢٤/١ - الثعلبى ٣٧ تفسير الطبرى ١٥٥/٨.

(٣) تاريخ الطبرى ٢٢٤/١، الثعلبى ٣٨ الكامل فى التاريخ ٨٨/١ وتفسير الطبرى ٥٨/٢٦.

(٤) البداية والنهاية ١٢٨/١ روح المعانى ٨٤/٢٧، ٨٥، ٨٦ تفسير القرطبى ١٣٥/١٧.

(٥) البداية والنهاية ١٢٠/١، تاريخ ابن خلدون ١٩/٢، مراصد الاطلاع ٥٩/١ معجم البلدان مادة (إرم) ١٥٥/١ معجم مااستعجم ١٤١/١، ٤٠٨ روح البيان ٤٢٣/١٠ تفسير الطبرى ١١٣/٣٠ القرطبى ٤٧/٢٠ بدائع الزهور ١١٣/١.

(٦) البداية والنهاية ١٢٧/١، الثعلبى ٣٨ الكامل ٨٧/١ تفسير الطبرى ١٥٥/٨.

(٧) الكامل ٨٧/١ تاريخ ابن خلدون ٢٠/٢ سمط النجوم العوالى ١٢٣/١ برواية غريبة، ١٢٦، معجم البلدان مادة (إرم) تفسير الطبرى ٥٨/٢٦ بدائع الزهور ١١٠/١.

(٨) الطبرى ٢٢٥/١ الكامل ٨٨/١ وتفسير الطبرى ١٥٦/٨ وتفسير القرطبى ٢٦٢/١٨ بدائع الزهور ١٢١/١.

(٩) البداية والنهاية ١٣٠/١.

(١٠) الطبرى ٢٢٥/١، الثعلبى ٣٩ البدء والتاريخ ٣٦/٣.

(١١) البداية والنهاية ١٣٠/١ والنجار ٨٥ والثعلبى ٣٩ معجم مااستعجم ١٢٠/١، معجم البلدان ١٠١٦/١ البدء والتاريخ ٣٦/٣. وتفسير الطبرى ١٥٣/٨ بدائع الزهور ١١١/١.

(١٢) الطبرى ٢٢٠/١-٢٢٤ والبداية والنهاية ١٢٦/١، ١٢٧ والثعلبى ٣٩ سمط النجوم ١٢٥/١ مروج الذهب ١٣٣/٢ البدء والتاريخ ٣٥/٣، معجم البلدان ١٥٧/١ مادة (إرم)، ١١٦/١ ومادة (أحقاف).

(١٣) سمط النجوم العوالى ١١٦/١، مروج الذهب ٤٠/٢ روح المعانى ١٢٢/٣٠ القرطبى ٤٤/٢٠.

(١٤) سمط النجوم العوالى ١١٦/١ معجم مااستعجم ٤٠٩/٢ روح المعانى ١٢٢/٣، ١٢٣.

(١٥) سمط النجوم ١١٦/١، ١٢٤، ١٢٦ مروج الذهب ٤٠/٢ البدء والتاريخ ٣٧/٣ الألوسى ١٢٣/٣٠ تفسير الطبرى ٥٩/٢٦ القرطبى ٤٤/٢٠.

(١٦) سمط النجوم ١١٧/١.

وسلم-[1]. عدد قبائل عاد[2]. كيف عبدوا الأصنام[3]. الحرب بين هود والمكذبين وصلة عاد بعوج بن عنق[4]. أولاد هود عليه السلام[5]. سن هود حين المبعث[6]. مدة دعوته[7]. عاد الأولى والثانية بصورة مفصلة[8].

مايستفاد من العلم بدعوة هود عليه السلام:

يمكن أن نستفيد من تلك الدراسة الجوانب التالية :

١- إن اختيار الداعي من بين المدعوين أمر صرح به القرآن سواء أكانت الصلة صلة نوع أم صلة دم أم هما معاً وهو الراجح. وهو مايتطلب تبنى أفراداً من الأقليات الإسلامية فى معاهد وكليات الدعوة كى يعودوا دعاة إلى بلادهم وهم أقدر على البلاغ من غيرهم.

٢- أشار القرآن إلى بقاء آثار من ديار عاد وإن كانت عوامل التعرية قد طمستها الآن، إلا أن الأمر يتطلب دراسة علمية للوقوف على تلك الآثار وبخاصة أنه لم يتوصل إلا إلى نقوش محدودة تدل على آثار القوم[9].

٣- على الأمة الإسلامية أن تراجع سلوكها فى ضوء القرآن وصحيح السنة لأن العدول عن الالتزام من أسباب الهلاك -الحقيقى أو الحكمى- طالت فترة الوجود أو قصرت.

٤- كل حضارة لاتعرف لله حقاً ولا للإنسانية واجباً ولا للأخلاق وزنا فإنها

---

(١) سمط النجوم ١١٧/١.

(٢) سمط النجوم ١١٨/١. البدء والتاريخ ٣١/٣.

(٣) سمط النجوم ١١٨/١.

(٤) سمط النجوم ١١٩/١ بدائع الزهور ١٠٨/١، ١٠٩.

(٥) سمط النجوم ١٣٠/١.

(٦) بدائع الزهور ١٠٨/١.

(٧) بدائع الزهور ١٠٩/١.

(٨) مروج الذهب ٤١/٢، البدء والتاريخ ٣٣/٣، ٣٦ القرطبى ٤٥/٢٠ قصص الأنبياء لابن كثير ١٣٩/١.

(٩) قصص الأنبياء - النجار ٨١، ٨٢.

ستودى بأهلها قبل غيرهم وأسرع أسباب الهلاك فقدان الأخلاق.

٥- أصول الدعوات واحدة، فالإيمان بالله وملائكته ورسله واليوم الآخر، من الأمور التى دعا إليها نوح وهود وغيرهم -عليه السلام-

٦- التفنن فى سبل البلاغ أمر حتم على الداعى لأن الطبائع متفاوتة. وقد وجدنا هوداً عليه السلام يرغب ويرهب ويذكر ويزجر ويظهر المصلحة ويخاطب العقل أو العاطفة ويخاطبهما معا كى يصل بدعوته إلى مايريد.

٧- ينبغى التحلى بالصفات التى تكسب صاحبها جمالاً فى أى الميادين كان وبخاصة ميدان الدعوة كالأمانة والإخلاص وسلامة العقل والقدرة على البلاغ..

٨- وجوب نفى التهمة عن النفس وبخاصة إذا لم يقم شئ بالداعى من الاتهامات التى توجه إليه مع الإيمان بأن من سار على درب الدعاة أوذى حسياً ومعنوياً.

٩- التوكل على الله فى كل الأحوال فهو القادر على أن يرد عادية المعتدين ويقصم ظهر الظالم وينتصر للمظلومين وقد وعد بذلك كثيراً فى القرآن الكريم.

١٠- أن وسائل الحياة هى وسائل الممات إذا شاءت إرادة الله ذلك فبالهواء يحيا الإنسان والحيوان والنبات وبالريح أهلك الله قوم هود وهزم الأحزاب.

١١- إن الطاعة تيسر سبل العيش. لأن التماس الأسباب من مبادئ الدين. ومن يفقه دينه يعمل ليكتسب ويعتدل حين يملك ويستثمر مابقى حتى لايكون كانزاً. فضلاً عن كون الطاعة تحمل أهلها على الأمانة والإخلاص والصدق... ومن هنا تيسر سبل الحياة فضلاً عن كونها تجلب رضى الله.

١٢- وصف الدعاة بما ليس فيهم أمر عرفته الدعوة فى عهدها الأول وبخاصة الوصف الذى يؤدى إلى النفرة كالجنون والسفه والسحر والإفساد والكذب... إلخ.

١٣- إذا أردنا أن ننهض فكريا فعلينا أن نفرق بين احترام التراث وتقديس التراث.. ففى الحالة الأولى نقول فى حق أهله -أى التراث- رحمهم الله. اجتهدوا

لزمنهم أواجتهدوا فأخطأوا. أو أناروا لنا الطريق لنستنير ونسير. وهنا نأخذ وندع فلايكون الحرج.

وأما الحالة الثانية -تقديس التراث- فهى التى حالت وتحول دون الإصلاح. فالفقه والاجتهاد والبيان لحكم نص فى زمننا هذا تثار حوله ضجة لالشئ إلا لأن هذا الرأى مخالف لرأى السلف أو مخالف لتقاليد الآباء أو الأعراف (العادات والتقاليد القائمة) وقد يكون للرأى الجديد من الوجاهة مالم يتوافر للقديم. كل ذلك بسبب الموروثات مع أن القرآن قد أشار إليها للتنبيه إلى أنها من العوامل التى حالت بين كثيرين وبين التوحيد عبر التاريخ وإلى يومنا هذا. ألسنا ندرك إلى أى مدى بلغت اليابان وأمريكا وبريطانيا وفرنسا والمانيا قدراً من الرقي الحضارى. ومع ذلك يقدس اليابانيون التماثيل حتىّ وقتنا هذا. ومن تجرأ على شئ من ذلك اتهم بالهرطقة لأنه تجرأ على النظر فى موروثات مقدسة من قبل المخلوق لاالخالق.

١٤- أشارت بعض الكتب التى ذكرت قصة هود إلى بعض النتائج ولم ننقل عنها شيئاً فمن شاء الوقوف عليها فليراجع تلك الكتب[1].

بين دعوة هود ودعوة محمد عليهما السلام:

ورد ذكر عاد فى تسع عشرة سورة فى القرآن هى (الأعراف- التوبة- هود- إبراهيم- الحج- المؤمنون- الفرقان- الشعراء- العنكبوت- ص- غافر- فصلت- الأحقاف- ق- الذاريات- النجم- القمر- الحاقة- الفجر)[2].

والسور المكية كان الربط بإحيا فى ثلاث عشرة سورة منها بين مجتمع هود ومجتمع مكة من حيث المعتقدات السائدة والتكذيب والمعارضة وهذه السور هى (النجم- ق- القمر- ص- الأعراف- الفرقان- الشعراء- هود- فصلت- الأحقاف- الذاريات- إبراهيم- الحاقة).

---

(١) قصص الأنبياء- الشيخ النجار ٨٨، ٨٩، فى موكب النبيين ١٥٨/١، ١٥٩، دعوة الرسل إلى الله تعالى د/ الشتيوى ٩٨-١٠٤، دعوة الرسل الشيخ محمد أحمد العدوى ٢٦.

(٢) واجع الخطأ الذى وقع فيه أحد الباحثين فى كتابه (الدعاة إلى الله فى القرآن الكريم) أ.د. طلعت أبو صير ص٥٥ ط سنة ١٩٨٦.

وكان الذكر من أجل التهديد لأهل مكة -أن يصيبهم مثل ما أصاب قوم هود واردًا في ثلاث سور هي (المؤمنون- العنكبوت- الفجر).

وفي سورة غافر ذكرت في حديث مؤمن آل فرعون وهو يحذر قومه ما أصاب الأمم السابقة. ﴿وقال الذى آمن ياقوم إنى أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب * مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود...﴾[1].

ومن خلال هذا التفصيل نقول:

إن تشابها بين الأمتين قد بدا من خلال نصوص القرآن الكريم،ويتضح ذلك من خلال النظر إلى الجوانب التالية:

اولا: معتقدات المجتمعين: في جانب العقيدة عرف المجتمعان الاله الأعلى. كما ورد في حق قوم عاد بسورة (المؤمنون ٣٨ وفصلت ١٤) وأهل مكة (العنكبوت ٦١، ٦٣ والزخرف ٨٧) ولكنهما أشركا معه غيره، إلا أن أهل مكة أشركوا بباعث الوساطة قائلين ﴿مانعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى﴾[2]. وأما قوم عاد فقد عبدوا الآلهة لذاتها، وتشابها الاثنان -إلا من هدى الله- في البقاء على الوثنية. كما ورد في حق قوم هود (سورة الأعراف ٧٠- هود ٥٢- الشعراء ١٣٥- الأحقاف٢٢) وفي حق أهل مكة (سورة الفرقان ٤٢- والصافات ٣٦) وفي سورة ص ورد قول الحق حاكيًا موقفهم ﴿أجعل الآلهة إلاها واحداً إن هذا لشئ عجاب * وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشئ يراد * ماسمعنا بهذا في الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق﴾[3].

واما العلم بالملائكة: فقد توفر عندهما إلا أن أهل مكة جعلوا الملائكة بناتاً لله ﴿وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا أشهدوا خلقهم ستكتب شهادتهم ويسألون﴾[4] ﴿ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم مايشتهون﴾[5]. كما اختلف أهل مكة عن عاد في عبادة الملائكة ﴿ويوم يحشرهم جميعاً ثم نقول للملائكة أهؤلاء

---

(١) غافر ٣٠، ٣١.
(٢) الزمر ٣.
(٣) ص ٥-٧.
(٤) الزخرف ١٩.
(٥) النحل ٥٧.

إياكم كانوا يعبدون﴾[1] . ولذلك لم يتعرض هود لأمر الملائكة بالبيان بينما ركز محمد صلى الله عليه وسلم على تصحيح التصور عن الملائكة عند العرب (آل عمران ١٨، ٨٠، ١٢٤، ١٢٥، والأنعام ٨، ٩ والأنفال ٩، ١٢، ٥٠ والرعد ١٣، ٢٣ والنحل ٢، ٢٨، ٣٢ والسجدة ١١ والنجم ٢٦ والحاقة١٧) وغير ذلك من الآيات[2] .

والعلم بآثار النبوة : توفر لديهما- فقوم هود قالوا له **﴿ إن هذا إلا خلق الأولين﴾**[3] . مع علمهم بأمر نوح عليه السلام (الأعراف ٦٩) . وإرسال منذرين إلى آبائهم وإن لم يرد لهم ذكر (الأحقاف ٢١) .

وعلم العرب بالنبوة كان متوفراً. فقد ورد فى أشعارهم وأمثالهم. فضلاً عن كون بعض الأنبياء كانوا يسكنون شبه الجزيرة العربية ،كهود وصالح عليهما السلام. وارتحل إليها إبراهيم وإسماعيل، كما أن صلتهما بدعوة موسى وعيس كانت قائمة.

وأما علمهما باليوم الآخر : فإن طائفة من أهل مكة اعتقدت بعدم وقوعه، وأنكروا ذلك على الرسول فى مواطن شتى -مشاركين بذلك قوم عاد فى هذا التصور- ذكر القرآن بعضها **﴿وضرب لنا مثلاً ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم * قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم﴾**[4] . **﴿وقالوا ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا ومايهلكنا إلا الدهر ومالهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون﴾**[5] . **﴿وقالوا إن هذا إلا سحر مبين * أئذا متنا وكناترابا وعظاما أئنا لمبعوثون * أوآباؤنا الأولون﴾**[6] كما أشارت سور أخرى إلى ذلك (هود ٧- النحل٣٨- الإسراء ٤٩، ٩٨- الحج ٥ التغابن ٧، الجن ٧) .

ثانياً: أسباب الإعراض عن الاستجابة :

كادت أسباب الإعراض عن الاستجابة أن تتحد مع تفاوت الزمن. فموروثات الآباء هى التى حالت دون الاستجابة،وبخاصة الوثنية والعادات والتقاليد الفاسدة

---

(١) سبأ ٤٠.

(٢) راجع مادة (ملائكة) فى المعجم المفهرس لألفاظ القرآن.

(٣) الشعراء ١٣٧.

(٤) سورة يس ٧٨، ٧٩.

(٥) الجاثية ٢٤، ٢٥.

(٦) الصافات ١٥، ١٦، ١٧.

كذلك[1].

كما أن للأغنياء وأرباب المواقع (الملأ) دور كبير فى الصد عن الدعوة. واشتغال بعضهم بالدعوة المضادة. كما طلب المجتمعان العذاب كدليل على صدق الداعى[2]، تهكما واستهزاءً أوعناداً واستكباراً، وقد عطلوا الحواس عن الإدراك[3]. واتبعوا خطوات الشيطان الذى زين لهم سوء صنيعهم وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً.

ثالثاً: أركان الدعوة:

اتحدت دعوة النبيين فى..

أ) عبادة الله وحده وترك عبادة ماسواه من الآلهة الوضعية، واكتفى هود بنسبة التأليه إلى الآباء، مع إظهار عجز آلهتهم الوضعية بالتحدى حين قال لهم (من دونه فكيدونى جميعاً ثم لاتنظرون) دون أن يشكك فى ذات الأصنام، أو يصدر حكماً على نهايتها كما يبدو من نصوص القرآن.

بينما أظهر محمد -صلى الله عليه وسلم- عجزها من ناحية ﴿إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لايستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب﴾[4]، مع التشكيك فيها من ناحية ثانية ﴿إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين * ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم آذان يسمعون بها قل ادعوا شركاءكم ثم كيدونى فلاتنظرون﴾[5].

كما حكم عليها من ناحية ثالثة ﴿إنكم وماتعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون * لو كان هؤلاء آلهة ماوردوها وكل فيها خالدون﴾[6] وكسّرها فى

---

(١) المؤمنون ٣٨، فصلت ١٤ العنكبوت ٦١، ٦٣ الزخرف ٨٧ ص٥-٧.
(٢) الأعراف ٧٠، ٧١ والأنفال ٣٢، ٣٣ والإسراء ٩٢.
(٣) الأحقاف ٢٦، الأعراف ١٧٩، محمد ٢٤، فصلت ٥، الإسراء ٤٦.
(٤) سورة الحج ٧٣. (٥) الأعراف ١٩٤، ١٩٥.
(٦) الأنبياء ٩٨، ٩٩.

فتح مكة وأمر بتكسيرها فى كثير من بلاد الجزيرة.

ب) الإيمان بهما كرسولين متحملين أمانة البلاغ للإنذار والتبشير.

ورد ذلك منسوباً إلى هود -عليه السلام- فى سورة الأعراف ٦٧-٦٩ والشعراء ١٢٥، الأحقاف ١٢٣. كما ورد فى حق محمد -صلى الله عليه وسلم- فى سورة البقرة ١٤٣، النساء ٤٩، الحج ٧٨، الأحزاب ٤٥، الفتح ٨، ٢٨ المزمل ١٥ وسور أخرى من القرآن.

وكانت بواعث الرفض متقاربة

فكل منهما بشر يأكل كما يأكلون ويشرب كما يشربون، ذكر القرآن ذلك عن قوم هود فى سورة المؤمنون ٣٣، وإبراهيم ١٠. وعن قوم محمد مثله. الإسراء ٩٤، الأنبياء ٣، المدثر ٢٥.

والنبوة لاتكون إلا للملائكة. **﴿ولوشاء الله لأنزل ملائكة﴾**. هذا ماقاله قوم هود له (فصلت ١٤) وبمثل ذلك قال أهل مكة (الأنعام ٨،٩)

وقد اتُّهِم هود بالكذب (الأعراف-٦٦) واتُّهِم به محمد كذلك (الشورى ٢٤، الحجر ٦، آل عمران ١٨٤، الأنعام ١٤٧، يونس ٤١ فاطر ٤، ٢٥.

ورُمِى هود بالسفه (الأعراف ٦٦) ومحمد بالجنون (الحجر ٦، والقلم ٢، ٥١، والتكوير ٢٢). واتهم هود بأساطير الأولين على قراءة (خَلْق) من قول الحق عن لسانهم **﴿إن هذا إلا خلق الأولين﴾**[1] وبه اتهم محمد على الصلاة والسلام **﴿وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلاً * قل أنزله الذى يعلم السر فى السماوات والأرض إنه كان غفورا رحيما﴾**[2].

ج) القيام بالتكاليف الشرعية. وإن لم تبدُ واضحة فى دعوة هود عليه السلام إلا بصيغة العموم (اعبدوا الله). (ألا تعبدوا إلا الله). (ألا تتقون). (فاتقوا الله وأطيعون)، فإنها وردت فى غاية الوضوح فى دعوة محمد عليه السلام.

---

(١) الشعراء ١٣٧. (٢) الفرقان ٥، ٦.

د) الدعوة إلى الإيمان باليوم الآخر. فقد دعا إليه هود في سورة المؤمنون ٣٥ وسورة الشعراء ١٣٥ دون ذكر لإقامة الدليل على إمكانه، أو تفصيل يتعلق بأمور الآخرة.

ومحمد-صلى الله عليه وسلم-دعا إلى الإيمان باليوم الآخر، وفصل القول فيه، من حيث الإمكان،والحكمة وبعض وقائع الآخرة،والنتائج المترتبة على الحساب (هود ٧، النحل ٣٨، الإسراء ٩٨، الحج ٥، ٧، لقمان ٢٨، المجادلة ٦، التغابن ٧).

رابعاً منهج النبيين في البلاغ:

كادت الأساليب أن تتطابق، نظراً لتقارب طباع البشر.وفي ضوء ماسبق يمكن القول إن كلا الرسولين قد استخدم السبل التالية:

أ) الترغيب.. وقد نسبه القرآن إلى هود-عليه السلام-(سورة هود ٥٢) وإلى محمد -صلى الله عليه وسلم- في كثير من سور القرآن، حيث الحث على الطاعة بعد الإيمان مقرونة بالنتائج المترتبة عليها دنيوياً وأخروياً.

ب) الترهيب.. وقد نسبه القرآن إلى هود في سورة الأعراف ٧٠، الشعراء ١٣٥، الأحقاف ٢١، هود ٥٧، ونسبه إلى محمد -عليه السلام- في كثير من الآيات التي تحدثت عن الكفر والعواقب المترتبة عليه دنيا وآخرة.

ج) التذكير بالنعم.. وقد نسبه القرآن إلى هود -عليه السلام- في سورة الأعراف ٦٩، وهود ٥٢، والشعراء ١٢٨-١٣٤، وقد أكثر من ذلك الأسلوب محمد -عليه السلام- (البقرة ٢١، ٢٢، الانفطار ٧، ٨، البلد ٧-١٠، النمل ٦٠-٦٤، القصص ٧١-٧٣، الروم ٢٠-٢٤، النبأ ٦-١٦، عبس ٢٤-٣٢) وغير ذلك من السور والآيات.

د) اتفق النبيان في إظهار حرصهما على خير المدعوين. وقد نسبه القرآن إلى هود في (سورة الأعراف ٦٨) وإلى محمد-عليه السلام-في كثير من سور القرآن.

هـ) إعلان الدعوة بلا أجر كما نسب إلى هود في (سورة هود ٥١) وإلى محمد في سورة (سبأ ٤٧، ص ٨٦).

و) تنوع أساليب الخطاب، فمنه ماهو إلى العقل، ومنه ماهو إلى القلب، ومنه ماجمعها.

ز) استخدم كل منهما التهديد والزجر كوسيلة للبلاغ، سبقت الإشارة إلى ذلك فى حق هود وهو كثير فى حق محمد -عليه السلام- كما سيأتى -إن شاء الله-

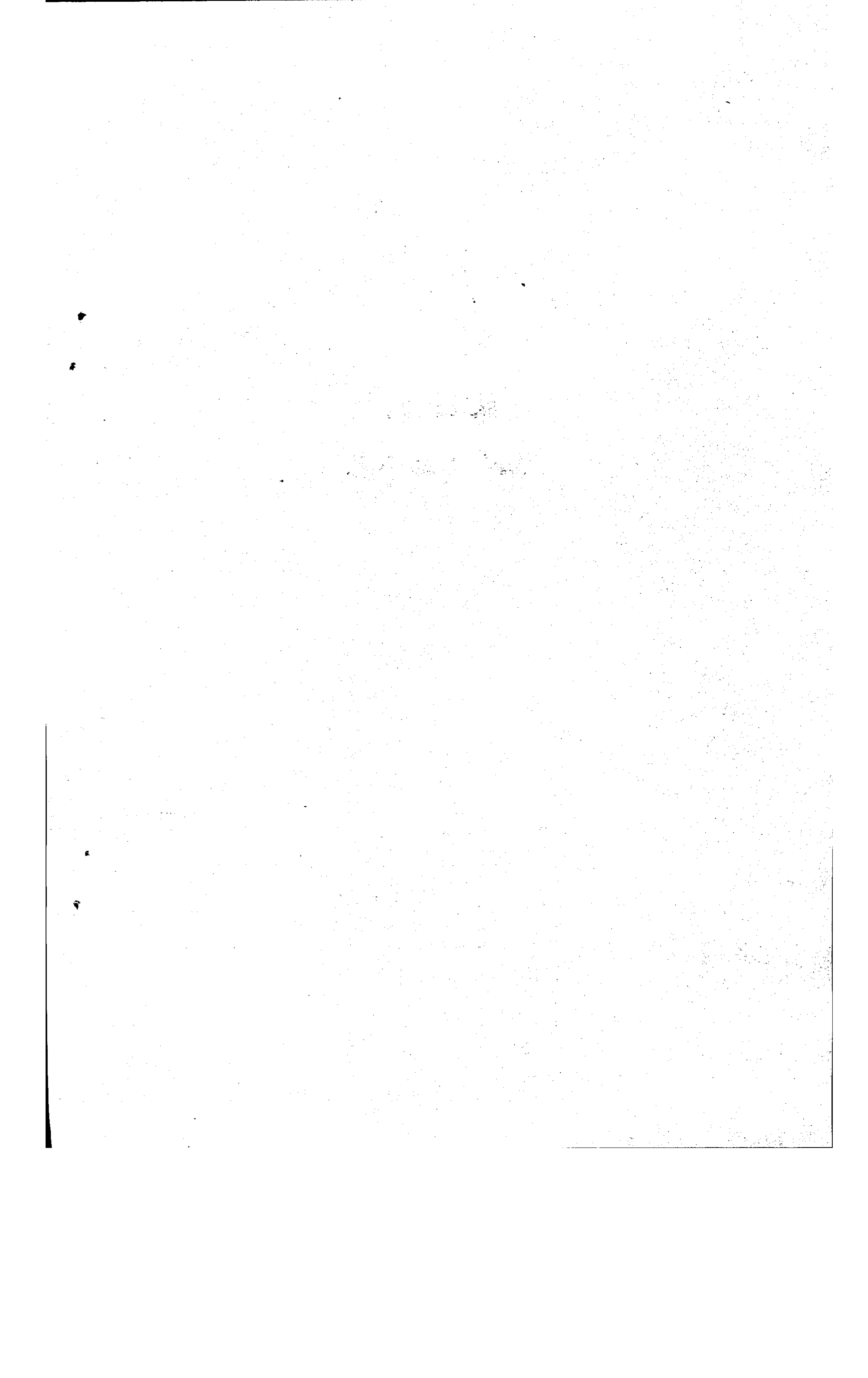
وجـــوه الخـــــلاف:

يدرك الإنسان خلافا بين أتباع النبيّين من ناحية، وموقف الأمتين من هؤلاء الأتباع من ناحية ثانية، فضلاً عن كون الإيذاء الواقع على هود كان معنويا فقط، وأما إيذاء أهل مكة للرسول فكان حسياً ومعنوياً، ولم يسخر قوم هود منه بمثل مافعل أهل مكة، وقد بدت المطالب الحسية واضحة من أهل مكة (الإسراء ٩٠-٩٣) بينما أضمرت من قوم عاد.

وإن كانت دعوة كل منهما قد وصلت إلى طريق مسدود فى وقت ما (راجع مرحلة المواجهة ص ٢٠١ بالنسبة لهود عليه السلام، واقرأ سورة النجم ٢٩، ٣٠ والأنفال ٣٠، ص ٦ بالنسبة لمحمد) فإن نجاة النبيين قد تمت والنصر لكل منهما قد تحقق وإن اقتضت حكمة الله أن يهلك عاداً،كما هى سنته فى السابقين، ويستبقى أهل مكة ممن شاء له الهداية، ومن حقت عليه الضلالة فقد هلك مع الهالكين.

«٥» دعـــوة

صالـح عليه السلام



خير مصدر يتم الرجوع إليه للعلم بحال أمة صالح،هو القرآن الكريم، الذي أشار إلى الأمة والداعي والدعوة وموقف القوم من صالح ودعوته وأتباعه والآثار المترتبة على ذلك، ويمكن بيان ذلك على النحو التالي :

الأمة التي أرسل إليها صالح عليه السلام:

أشار القرآن إلى هذه الأمة من الجوانب التالية :

١) اسمها ٢) مكانها ٣) زمانها ٤) إمكاناتها ٥) معتقداتها

ويمكن إلقاء الضوء عليها فيما يلي :

١ - **اسمها**: (ثمود) وقد ورد في القرآن ستا وعشرين مرة، دون أن يحدد القرآن سرّ التسمية ومرجعها،وهو الأمر الذي ركز عليه المؤرخون والقصاص والمفسرون، يقول ابن كثير : وهم قبيلة مشهورة يقال لهم ثمود باسم جدهم ثمود أخي جديس، وهما ابنا عاثر بن إرم بن سام بن نوح)[1] . كما دعوا بأنهم قوم صالح ﴿ويا قوم لايجرمنكم شقاقي أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد﴾[2] .

٢ - **مكانها**: تواترت الأدلة على أن القوم كانوا يسكنون الحجر، أشار إلى ذلك القدامى[3] والمحدثون[4] . وقد أشارت إليها كتب المعاجم الخاصة بالبلدان. كما أشار إليها المرحوم النجار في كتابة قصص الأنبياء حين قال «وكانت مساكنهم بالحجر – بكسر الحاء– وموقعها بين الحجاز والشام إلى وادي القرى. ومدائن صالح ظاهرة إلى اليوم. وقد زارها بعض أصحابي،ودخل بيت الملك،وهو بيت ذو حجرات به ردهة كبيرة، وهو منقور في الصخر والمكان الذي فيه ديارهم يعرف إلى اليوم بـ «فج الناقة»[5] .

---

(١) قصص الأنبياء ١٤٥/١. (٢) هود ٨٩.

(٣) الطبري ٢٢٧/١ والبداية والنهاية ١٣٠/١ والكامل ٨٩/١.

(٤) المفصل في تاريخ العرب ٣٢٣/١ ، شمال الحجاز – الآثار ١٥٥/١-١٥٦.

(٥) قصص الأنبياء ، النجار ٩١.

وعن الوصول إلى مدائن صالح الآن ورد «فى الواقع يوجد طريق معبد يوصل إلى مدائن صالح، المدينة الأثرية الهامة ، التى يجب أن تكون فى مقدمة المناطق السياحية فى الجزيرة العربية، يبدأ من تيماء وطوله ١١٠ كيلو مترات وطريق آخر يربط مدائن صالح والعلا بالساحل،وهو الطريق المحاذى للبحر والذى يبدأ من «حقل» حتى «ينبع» ثم «جدة». وقد تم وضع جدول مسافات بين مدائن صالح وبعض المدن المجاورة بالكيلو متر نختصره فيما يلى :

من خيبر إلى مدائن صالح ١٩٥كم ويفرق الطريق من طريق خيبر تيماء عند الكيلو ٢٠٢ المدينة المنورة. من العلا إلى مدائن صالح ٣٥ كم، ومن الوجه إليها ٢٢٥ ومن تيماء إليها ١١٠كم ومن تبوك إليها ٣٧٤ كم ومن المدينة إليها ٣٥٦كم (عن طريق خيبر) ومن حقل إليها ٦٠٣ كم (عن طريق تبوك – تيماء) ومن الحقل إليها ٤٦٢كم (عن طريق الساحل – الوجه) ومن مدين إليها ٥٣٥ كم (عن طريق الساحل – الوجه) ومن أملج إليها ٣٩٨ كم (عن طريق الساحل – الوجه) ومن ينبع إليها ٥٥٣ كم (عن طريق الساحل – الوجه) ومن جدة إليها ٧٨٠كم (عن طريق المدينة – خيبر) ومن عمّان إليها ٨١٧ كم (عن طريق تبوك – تيماء) ومن الرياض إليها ١٣٧١كم (عن طريق القصيم – المدينة – خيبر)[١].

وجمهور المفسرين على أن أصحاب الحجر فى قول الحق سبحانه (ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين• وءاتيتهم آياتنا فكانوا عنها معرضين)[٢] يراد بهم قوم صالح الذين سكنوا الحجر[٣].

وهنا إشكال يفرض نفسه ويتطلب حلاً .. كيف يذكر القرآن خلافة ثمود لعاد مع أنه قد نص على سكنى عاد أرض الأحقاف – وهى فى الجنوب– وسكنى ثمود أرض الحجر – وهى بالشمال– وورد فى السنة مايؤكد سكنى ثمود فى شمال الجزيرة العربية؟

---

(١) شمال الحجاز . الجزء الأول ١٧١–١٧٣ بتصرف.

(٢) الحجر آية ٨١،٨٠.

(٣) القرطبى ٤٦/١٠ ، الكشاف ٣٩٦/٢، روح المعانى ٧٥/١٤، الفخر الرازى ٢٠٩/١٩.

إن عدم التفكير في هذا الإشكال من ناحية، ووجود أي ضعيف حول سكنى عاد شمال الجزيرة من ناحية ثانية، وروايات بعض المؤرخين -غير المحررة- من ناحية ثالثة ، جعل بعض العلماء ينص على أن الخلافة الواردة في قول صالح لقومه ﴿واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم في الأرض...﴾[1] محلية. وأن قوم ثمود سكنوا في مساكن عاد واستمتعوا بكل ماتمتعت به أرضهم وديارهم من إمكانات. قال ابن إسحاق «لما أهلك الله قوم عاد بالريح، عمرت ثمود من بعدهم بلادهم، واتخذوا من الجبال بيوتا مجوفة بالنحت، وجعلوا على تلك البيوت أبوابا من الخشب مصفحة بالحديد، وقد أوسع الله لقوم ثمود بكثرة المال. فقد قال الله تعالى ﴿واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد﴾ «فلما تمكنوا في الأرض طغوا وخالفوا أمر الله تعالى وعبدوا الأصنام»[2].

ودفعا لهذا الإشكال يمكن القول :

(١) إن الخلافة هنا زمانية وليست مكانية وقد أشار القرآن إلى الخلافة الزمنية دون المكانية في بعض المواطن (الأنعام ١٦٥ ، يونس ١٤، ٧٣ فاطر ٣٩ ، النمل ٦٢).

(٢) إن ثمود انساحت في الأرض بعد هلاك عاد. فكان مركز القبيلة في الشمال وبعض الأفراد في الجنوب كما هو الحال في البداوة وهو ماعرف عند العرب بـ (لكل حاضرة بادية ولكل بادية حاضرة).

(٣) إن قلة من عاد كانت تسكن الشمال أصابها ما أصاب أهل الأحقاف فكان العلم بأمرها متوفرا لدى ثمود أو من طريق نقل الأخبار عن أهل الأحقاف.

(٤) من الأمور المستبعدة كون الخلافة مكانية بصورة محددة لأن ذلك يتطلب انحدار النسب أو الهجرة الجماعية وهو مايتعارض مع روايات المؤرخين. ولايتأتى -كذلك- جعل ثمود بقية من المؤمنين مع هود ارتدت بمضي الزمن فبعث إليها صالح -عليه السلام- لنفس السبب. يقول المؤرخون : إن إرم بن سام بن

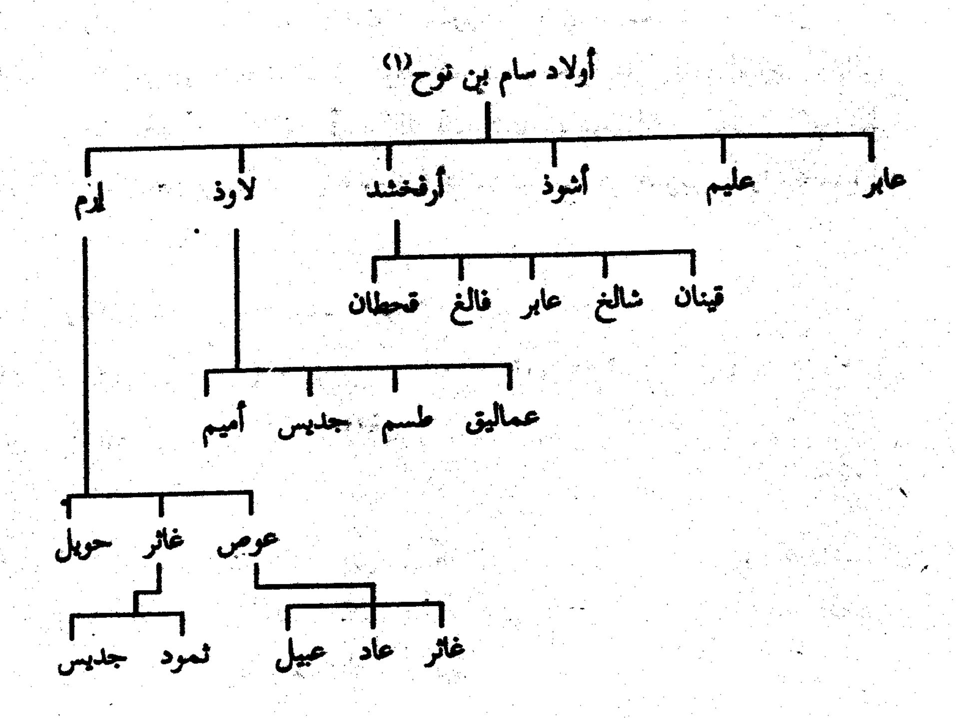
(١) الأعراف ٧٤.
(٢) بدائع الزهور ١/١١٤.

قد أنجب ثلاثة من الولد هم : عوص، غاثر ويقال له (عابد ، غابر) وحويل.

وقد أنجب عوص غاثر وعاد وعبيل.

وأنجب غاثر ثمود وجديس.

والجدول التالى يشير إلى المعاصرة لإبطال الخلافة المكانية المحددة.



(فكانت عاد بهذه الرمل (الأحقاف) إلى حضرموت واليمن كله. وكانت ثمود بالحجر بين الحجاز والشام إلى وادى القرى وماحوله،ولحقت جديس بطسم فكانوا معهم باليمامة،وما حولها إلى البحرين وسكنت جاسم عمان فكانوا بها)[2] .

٣ - زمانها : لاخلاف على أن ثمود كانت معاصرة لقوم عاد وبقيت بعد

---

(١) راجع مروج الذهب ٤١/١ -٤٢ ، الكامل ٧٩/١-٨٢ ، الأخبار الطوال ص١٣.

(٢) تاريخ الطبرى ٢٠٤/١ .

هلاكها من ناحية الزمن، أخذا بظاهر النص القرآني ﴿واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد﴾[1] وقبل لوط وشعيب وموسى -عليهم السلام- فلقد قال شعيب لقومه ﴿ويا قوم لايجرمنكم شقاقي أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد﴾[2] . ﴿وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لغني حميد * ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لايعلمهم إلا الله﴾[3]. كما أن المؤمن من آل فرعون قال لقومه ﴿...يا قوم إني أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب * مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم وما الله يريد ظلما للعباد﴾[4].

وقد وردت ثمود في الذكر بعد عاد في القرآن خمس عشرة مرة، وتأخرت مرتين في سورة (ق) و (الحاقة) وقد ذكر بعض المعاصرين أنها في الفترة الزمنية الواقعة بين القرن الأول الميلادي، والقرن السابق عليه معتمدين في ذلك على الحفريات والآثار الباقية على مدافنهم، وبخاصة أن تلك الآثار قد تضمنت أسماء للشهور القبطية (آذار - شاباط - نيسان - أيار)[5].

٤- إمكانات قوم ثمود:

صريح القرآن بأن ثمود قد مكن لها في الأرض، وأعطيت من القوة مايعدل قوة عاد في البناء والعمران ، وإن لم يشر القرآن إلى بنية الأفراد ولكنه أشار إلى قدرات الأمة والتي تتجلى في :

أ - التمكين في الأرض مع التقدم المعماري، الذي يقي الأفراد من آثار الطقس، مع الترف في السكنى ﴿وبوأكم في الأرض تتخذون من سهولها قصوراً وتنحتون من الجبال بيوتا﴾[6] . ﴿وكانوا ينحتون من الجبال بيوتا آمنين﴾[7] . وكانت تلك البيوت غاية في الارتفاع والفخامة ومؤسسة بخير أساس ﴿وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين﴾[8] .

---

(١) الأعراف ٧٤.
(٢) هود ٨٩.
(٣) إبراهيم ٨، ٩.
(٤) غافر ٣٠، ٣١.
(٥) شمال الحجاز - الجزء الأول ص١٦٣.
(٦) الأعراف ٧٤.
(٧) الحجر ٨٢.
(٨) الشعراء ١٤٩.

ب- جمعت الطبيعة بين السهول والجبال ويسّرت أسباب الانتفاع بهما. كما يسرت أسباب الزراعة فكانت وفرة الماء وسلامة المزروعات من الآفات. مع وفرة في العطاء وقد جمعت المزروعات بين الطعام والفاكهة الطيبة وخص النخل بالذكر لوفرته أو لكون الرُطَب يجمع بين الطعام والفاكهة في وقت واحد. قال تعالى ﴿أتتركون في ماههنا آمنين * في جنات وعيون * وزروع ونخل طلعها هضيم﴾[1].

جـ- توفر لدى القوم القدرة على قطع الأحجار من الجبال واستخدامها في بناء المقابر والمدافن فضلا عن البيوت والقصور.

د - لم يشر القرآن إلى إيذاء القوم لغيرهم أو تكبرهم وتعاظمهم بمثل ماكان عليه قوم هود من قوة في بنية الأجسام وأذى لغيرهم من البشر.

هـ- صريح نص القرآن أن الطبقية الاجتماعية كانت تسيطر عليهم. وأن الشرائح الاجتماعية عرفت عندهم. ويبدو من المنصوص أن صالحا كان من الفقراء ﴿أألقي عليه الذكر من بيننا بل هو كذاب أشر﴾[2] وأن أتباعه كانوا من المستضعفين ﴿قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون﴾[3].

٥ - معتقدات ثمود قبل بعث صالح عليه السلام:

يمكن إلقاء الضوء على معتقدات القوم من خلال الجوانب التالية :

أولا: الايمان بالله: ندرك من نصوص القرآن أن القوم عرفوا الله كخالق أعلى لهذا الكون ووصفوه بالربوبية ولكنهم أشركوا معه غيره. ودليل ذلك الآيات التالية: ﴿وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولايصلحون * قالوا تقاسموا بالله لنبيّتنّه وأهله ثم لنقولن لوليه ماشهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون﴾[4]. فالنص يدل على العلم بالله وعلى عظم مكانته ومنزلته بدليل اتفاقهم على (القسم بالله) والقسم لايكون إلا بعظيم.

---

(١) الشعراء ١٤٦، ١٤٧، ١٤٨.
(٢) القمر ٢٥.
(٣) الأعراف ٧٥.
(٤) النمل ٤٨، ٤٩.

وفي سورة فصلت وصفوه بالربوبية قائلين لصالح ﴿لوشاء ربنا لأنزل ملائكة﴾[1] . إلا أن القوم قد أشركوا مع الله غيره وعبدوا آلهة من دون الله. قائلين لصالح حين دعاهم إلى التوحيد ﴿قد كنت فينا مرجوا قبل هذا أتنهانا أن نعبد مايعبد آباؤنا﴾[2] دون أن يشير القرآن إلى تلك الآلهة .

وقد صرح بعض الباحثين بأن القوم كانوا وثنيين -فقط- دون دليل يعتمد عليه، لأن التعبير بقولهم (وتذر ماكان يعبد آباؤنا) يحتمل تعدد المعبودات. علوية كانت كالشمس والقمر وبعض النجوم أو سفلية كالأوثان والأصنام وباقي الطواطم.

ثانيا: الإيمان بالملائكة: أشار القرآن إلى علم القوم بالملائكة حين قالوا لصالح (لوشاء ربنا لأنزل ملائكة) دون أن يشير القرآن إلى التفاصيل المتعلقة بهم كما يتصورها القوم.

ثالثا: العلم بالرسل: توفر لدى القوم علم بهود -عليه السلام- كما توفر لديهم علم بالنبوة إلا أنهم أبوا قبولها من بشر مثلهم. ذكر القرآن مقولة صالح لهم ﴿واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد﴾[3] . كما أن القوم قالوا لصالح -عليه السلام- ﴿لو شاء ربنا لأنزل ملائكة﴾ ويفهم من النص عدم نفي أصل النبوة بل نفي قيامها ببشر كصالح. كما أن سؤالهم للذين استضعفوا (أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه) يدل على طلب التثبت بهدف التشكيك لا على نفي الإرسال .

رابعا: اليوم الآخر: صرح القرآن بأن القوم كانوا دهريين. لم يؤمنوا بالبعث ولم يستجيبوا لداعي الإيمان به. قال تعالى ﴿كذبت ثمود وعاد بالقارعة﴾[4] .

أمة ثمود في ضوء التصور السابق

إن أمة قد بسط لها في الرزق ويسر لها في العيش وتقدمت في العمران ولما تأتها شريعة سماوية هي أحوج ماتكون إلى ذلك .

---

(١) فصلت ١٤. (٢) هود ٦٢.
(٣) الأعراف ٧٤. (٤) الحاقة ٤.

إن الآلهة الوضعية لا صلة لها بواضعيها ولو نطقت لطلبت من مؤلهيها الوقاية لها من عذاب النار ﴿إنكم وماتعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون * لو كان هؤلاء آلهة ماوردوها وكل فيها خالدون﴾[1] والتوجه إلى مصدر الكون وخالقه المستحق أن يعبد وحده.

وفي إطار انقطاع الصلة الحقيقية بين الآلهة الوضعية ومؤلهيها وبقاء الصلة الوهمية تتفاوت القوانين والقواعد وتتبدل الشعائر لأنها ترتبط بفكر الكهان والدهاقين فضلا عن غيبة العدل وتأثر الأعراف بالهوى واختلال قواعد التعامل...الخ وهذه الحالة تتطلب بعث نبي يهدي ويرشد ويبشر وينذر....لذلك كان.

إرسال صالح عليه السلام

صرح القرآن باسمه دون نسبه، وأضافه إلى ثمود موصوفا بالأخوة في النسب أو الصحبة دون الأخوة في الدين. لأن ذلك لايستقيم، وقد اشتغل كثيرون بنسبه معتمدين على روايات تاريخية غير محققة[2] ومردها –في الغالب– إلى مسلمي أهل الكتاب.

أركان دعوة صالح عليه السلام

أولا: توحيد الله : وهو الركن المشترك بين سائر الدعوات. ونقطة البدء في الدعوة بعد الإعلام بالنبوة والرسالة. وقد أشار القرآن إلى ذلك في مواطن عدة منها قول الحق ﴿وإلى ثمود أخاهم صالحا قال ياقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره...﴾[3] . ﴿ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحا أن اعبدوا الله﴾[4] .

كما أمر قومه بتقوى الله بعد أن أنكر عليهم عدم الاستجابة والإعراض عن التقوى ﴿كذبت ثمود المرسلين * إذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون * إني لكم رسول أمين * فاتقوا الله وأطيعون﴾[5] .

---

(١) الأنبياء ٩٨، ٩٩.
(٢) راجع المهموشة رقم (٣) من صفحة ٢٦١
(٣) الأعراف٧٣، هود ٦١.
(٤) النمل ٤٥.
(٥) الشعراء ١٤١ – ١٤٤.

وقد دلت الآيات السابقة على :

١ - توحيد الله وذلك بترك المعبودات الأخرى .

٢ - التوجه إليه بالعبادة دون سواه لنفى كافة صور الشرك.

٣ - القيام بالتكاليف الشرعية على خير وجه وهو ما عبر عنه بقوله (اتقوا الله).

ثانيا: الإيمان بصالح -عليه السلام- رسول إليهم: وهو الركن الثانى من أركان دعوة الرسل أجمعين. ولذلك صرح صالح بقوله لهم ﴿إنى لكم رسول أمين﴾[1] . أى متحمل أمانة البلاغ دون تصرف فى الرسالة. والوصف بالأمانة يتطلب تصديق المرسَل ممن يعرفونه حق المعرفة. وقد صرحوا بمنزلته ومكانته عندهم قبل النبوة فكان الأولى بهم الاتباع لا الإعراض.

ثالثا: النهى عن الفساد فى الأرض : وهو مايمكن تسميته بالأخلاق الايجابية وهو ماورد فى نهى صالح لهم ﴿ولاتعثوا فى الأرض مفسدين﴾[2] مع لفت أنظارهم إلى الاستغفار عما وقع منهم والندم عليه والإقلاع عنه ﴿فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربى قريب مجيب﴾.

ولم تبد إشارة من صالح -عليه السلام- إلى الملائكة والكتب واليوم الآخر. فما الحكمة؟

أما الأمر الأول (الملائكة) فلعلمهم به. والأمر الثانى (الكتب) فلعله لايمثل ركنا من أركان الرسالات السابقة فهود -عليه السلام- لم يشر إليه، وكذلك صالح، أو أن تعاليم الرسل السابقين والوحى بها إليهم لم تدون فى كتب، فما سمعنا عن كتاب لنوح أو هود أو صالح. وإن لم تنكر رسالة قد نزلت عليهم. أو أن الكتب السابقة أصابها ما أصاب كتب بنى إسرائيل، فكان العلم بأسمائها عندنا دون جملة المحتوى.

---

(١) الشعراء ١٤٣ .   (٢) الأعراف ٧٤.

وأما (اليوم الآخر) فلم يبد له إشارة فى دعوة –صالح عليه السلام– مع أن القوم كانوا مكذبين بالقارعة، فهل ترك القرآن ذلك لأنه لايجمع سائر أحداث القصة شأن كتب القصص، أو ترك ذلك صالح لأن زمنه فى البلاغ لم يَحِنْ بعد؟ فطبيعة الرسالات التدرج إلا فى أمرين.

(١) توحيد الله والكفر بكل معبود سواه والتوجه إليه بالعبادة وحده.

(٢) الإيمان بالمرسَل من قبل الله نبيا ورسولا واتباع تعاليمه.

الأمر غيب إن أردنا الإجابة على هذين السؤالين.

منهج صالح عليه السلام في الدعوة إلي الله

سلك صالح –عليه السلام– سبلا عدة طلبا للهداية من قومه . منها :

١- التذكير بالنعم التي أنعم الله عليهم بها وقد ركز علي:

أ– نعمة الخلق من الأرض :

لإقامة الدليل على الخالق المستحق للشكر مع القيام بحقه. قال تعالى ﴿**وإلى ثمود أخاهم صالحا قال ياقوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربى قريب مجيب**﴾[1] .

ب– خلافتهم لقوم عاد :

سواء أكانوا فرعا منهم فى الأصل،ثم تركوا الجنوب وسكنوا الشمال،أم كانوا أبناء عم –وهو الراجح– لما سبق بيانه، وفي كلٍ بدت نعمة بقائهم وإهلاك غيرهم مع توفر العلم بذلك لدى ثمود.

جـ– نعمة التمكين فى الأرض :

مع تيسير سبل الانتفاع بالسهل والجبل، وهو ما تؤكده الدراسات الحديثة،من بقاء آثار تدل على أبنية فى السهول فارهة،وبيوت فى الجبال فارعة. والذكر بالتنكير

(١) الأعراف ٦١.

(بيوتا) يدل على الكثرة والتنويع. قال تعالى.(واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم فى الأرض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون من الجبال بيوتا) وقد عقب على هاتين النعمتين بقوله ﴿فاذكروا آلاء الله ولاتعثوا فى الأرض مفسدين﴾[1].

د – البسطة فى الرزق :

فلم تكن أرضهم جدباء ولاسيئة الهواء ولاردية المناخ ، بل بورك فى زرعها ومائها كما ورد ﴿أتتركون فيما هاهنا آمنين * فى جنات وعيون * وزروع ونخل طلعها هضيم﴾[2] أى متراكم كثير حسن بهى ناضج[3].

٢ - سبيل الترغيب :

وقد فتح لهم باب التوبة على مصراعيه، ووعدهم بالاستجابة من قبل الله إذا ما استغفروا ربهم وتابوا إليه ﴿فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربى قريب مجيب﴾[4] وعندما أبى قومه الاستجابة لدعوته وطلبوا منه العذاب كدليل على صدقه ﴿قال ياقوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون﴾[5]. وهذا الأسلوب (الترغيب) أحوج ماتكون إليه الأنفس العاصية، التى يئست من الرحمة، أو طال عهدها بالمعصية ولم يفتح لها باب الأمل فى التوبة، وكم تصرف الفتاوى فى زمننا هذا كثيرين عن التوبة، وتدفع بهم إلى الفسق والانحراف، وبخاصة إذا أوصدت باب المغفرة، واقترن الحكم بالكفر، فوجب أن يحسن استخدام هذه السبيل فى إطار الترغيب.

٣ - سبيل الترهيب :

وكما فتح صالح لهم باب الأمل فى الرحمة والمغفرة فقد أغلق باب المعصية، وذلك ببيان العاقبة المترتبة على الكفر وانتهاك حرمات الله –الاستمرار فى المعصية– دنيويا وأخرويًا والترهيب دوره كذلك فى الإقلاع عن الكبائر وأخصها الشرك بالله، ولم يبد الترهيب من صالح لقومه إلا بعد إرسال الناقة، وتحذيرهم من الاعتداء عليها

---

(١) الأعراف ٧٤.
(٢) الشعراء ١٤٦ – ١٤٨.
(٣) قصص الأنبياء لابن كثير ١٥٠/١.
(٤) هود ٦١.
(٥) النمل ٤٦.

حتى لايقع بهم عذاب وصفه بصفات متفاوتة وبجمعها إلى بعضها تتضح صورته.

قال تعالى بشأن خطاب صالح لقومه منذرا ﴿قد جاءتكم بينة من ربكم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل فى أرض الله ولاتمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم﴾[1] . ﴿ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل فى أرض الله ولاتمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب﴾[2]. ﴿قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم * ولاتمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم﴾[3] .

٤ - سبيل الوعظ مع حسن عرض دعوته :

وذلك حين ﴿قال ياقوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى وآتانى منه رحمة فمن ينصرنى من الله إن عصيته فما تزيدوننى غير تخسير﴾[4] . فقد ذكر لهم أنه على هدى من ربه ، أى أن من لم يتبعه ليس بمهتد ، وأن رسالته رحمة وأن الإعراض عنها سبب من أسباب غضب الله على الإنسان، فتكون الخسارة فى الدنيا والآخرة. وندرك من النص أن القوم عرضوا عليه الانصراف عن دعوته أو دعوه إلى معتقدهم فبين لهم أن مايدعونه إليه لانتيجة له إلا شيئ واحد (الخسارة).

٥ - التحذير من دعاة الضلالة :

والإشارة إلى مصدرين من مصادر الغواية ينبغى النأى عنهما :

المصدر الأول: النفس الضعيفة التى لاترى أين المصلحة ولاتميز الحق من الباطل، حتى إنها لتستحسن الباطل وتستقبح الحق بمضى الزمن. قال تعالى ﴿وعاداً وثمود وقد تبين لكم من مساكنهم وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل وكانوا مستبصرين﴾[5] . كما أن النفس إذا استمرأت المعصية شق عليها العدول عنها إلى غيرها. قال تعالى ﴿وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون﴾[6] .

---

(١) الأعراف ٧٣.
(٢) هود ٦٤.
(٣) الشعراء ١٥٥/١٥٧.
(٤) هود ٦٣.
(٥) العنكبوت ٣٨.
(٦) فصلت ١٧.

المصدر الثاني: قيام أناس منهم بالدعوة إلى الإعراض عن رسالة صالح، وتأثير هؤلاء على بعض العامة، حتى حالوا بينهم وبين الاستجابة. كما توجهوا إلى أتباع صالح بأسئلة بهدف التشكيك في نبوته ورسالته ﴿قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون * قال الذين استكبروا إنا بالذى آمنتم به كافرون﴾[1] ولذلك حذر صالح قومه منهم قائلا ﴿ولا تطيعوا أمر المسرفين * الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون﴾[2].

٦- إظهار الحرص على خير المدعوين:

فالتصريح بانتفاء المصلحة الشخصية يدل على ذلك، كما أن النداء بأسلوب التودد (ياقوم) والوصف بـ (أخاهم) يشعران بهذا، قال تعالى في معرض دعوة صالح لقومه ﴿ فاتقوا الله وأطيعون * وما أسالكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين﴾[3]. كما أن التحذير من مس الناقة بسوء يدل على إظهار المصلحة كذلك، وإن بدا في صورة ترهيب. كما بصّرهم بترك المعاصي واستعجال غضب الله وحثهم على الاستغفار والطاعة حتى تنالهم رحمة الله (النمل ٤٦).

موقف قوم صالح من دعوته

انقسم الناس أمام الدعوة إلى فريقين :

الفريق الأول: وجوه الناس وأشرافهم وأصحاب الصدارة فيهم -بالمقياس الدنيوى- وهم المعروفون بالملأ. وهؤلاء الذين كفروا وأصروا على الكفر ودعوا غيرهم إليه.

الفريق الثاني: العامة من الناس وضعفاؤهم، سواء أكان الضعف في البنية أم الموارد أم الوضع الاجتماعى، وقد آمن بعضهم بصالح-عليه السلام-ندرك ذلك بدلالة المنطوق من قول الحق ﴿ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحا أن اعبدوا الله فإذا هم فريقان يختصمون﴾[4]. وبدلالة المفهوم من قوله تعالى ﴿ قال الملأ الذين استكبروا من

(١) الأعراف ٧٥، ٧٦.
(٢) الشعراء ١٥١، ١٥٢.
(٣) الشعراء ٤٤، ٤٥.
(٤) النمل ٤٥.

قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه قالوا إنّا بما أرسل به مؤمنون * قال الذين استكبروا إنا بالذى آمنتم به كافرون ﴾[1] .

وقد ذكر القرآن مواقف عدة للمكذبين يمكن بيانها -حسب منهجنا- على النحو التالى :

أولا : موقف المكذبين من الدعوة وبواعثه :

لقد أبت تلك الطائفة قبول دعوة صالح -عليه السلام- متعللين بعلل شتى ذكر القرآن منها : دعواهم مصادمتها لتقاليد الآباء في الجانب العقيدى. ولذلك ردّوا على صالح دعوته إياهم للتوحيد بقولهم له ﴿أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا﴾[2] دون أن يشير القرآن إلى تلك المعبودات ، وقد فصل القول فيها علماء التاريخ كما ورد بحث طيب عن أسماء الآلهة عند ثمود وتفاوتها فى كتاب (المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام)[3] والذى يدل على أن القوم جمعوا بين الوثنية والصابئة والطوطمية.

ثانيا : موقف المكذبين من الداعي :

لم يكن صالح -عليه السلام- غريبا عن القوم. بل هو أخ لهم، يهمه شأنهم، ويحرص على مافيه خيرهم، وقد اختاره الله من بينهم كي يتحمل أمانة البلاغ وقد وصف نفسه بالصفات التى تؤهله للدعوة وتؤهلهم للاستجابة حين قال لهم ﴿...ألا تتقون * إنى لكم رسول أمين * فاتقوا الله وأطيعون * وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين﴾[4] . كما بين لهم أنه مكلف بالبلاغ، ولا إمكانية للامتناع عنه، فضلا عن كون الأمر الذى يدعو إليه رحمة، والإعراض عنه يوجب الهلاك (هود٦٣).

وقد صرح القرآن بأن القوم كانوا يرون فى صالح -عليه السلام- قبل الرسالة قدوة طيبة وسلوكا حميدا (قالوا ياصالح قد كنت فينا مرجوًا قبل هذا) . إلا أن النعم تولد الأحقاد بين الناس. فكم تحاب أفراد أو تحابت قبائل، حتى إذ أنعم الله على أحد

---

(١) الأعراف ٧٥، ٧٦.
(٢) هود ٦٢.
(٣) ٣٣١/١، ٣٣٢.
(٤) الشعراء ١٤٢ - ١٤٥.

الأفراد أو إحدى القبائل بنعمة من النعم انقلب لدى كثيرين الحب كرها والصداقة عداوة، وكان علم الطرفين بأسرار بعضهما شرراً يوقد نار الحقد كلما أطفئت. وكلما ارتقى أحد الطرفين مرتقى يتعذر على الثانى إدراكه زادت الكراهية بنفس القدر وزيادة.

هكذا كان حال الأنبياء مع أقوامهم، وحال الموفَّقين مع أترابهم، وحال الرؤساء مع المرؤسين، ألم يؤثر عن أحد المشركين زمن الرسول قوله : تنازعنا وبنو عبد مناف الشرف. أطعموا فأطعمنا وسقوا فسقينا حتى إذا كنا كفرسى رهان قالوا منّا نبى يوحى إليه وأنّى لنا بذلك والله لانؤمن به ولانصدقه.

إن علم قوم صالح به قبل النبوة والرسالة لم يشفع له عندهم فى الاستجابة لدعوته . فإذا بهم يكذبونه متعللين بعلل شتى منها :

١ - أنه بشر مثلهم: وقد أشار القرآن إلى هذه العلة فى حكايته عنهم فى ثلاث آيات من آى القرآن. قال تعالى -ذاكرا دعوة نوح وهود وصالح لأقوامهم ، مبينا موقفهم- ﴿قالوا إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين * قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده﴾[1] . ﴿كذبت ثمود بالنذر فقالوا أبشراً منّا واحداً نتبعه إنا إذاً لفى ضلال وسعر﴾[2] . ﴿ما أنت إلا بشر مثلنا فأت بآية إن كنت من الصادقين﴾[3] .

٢ - أن فيه من الصفات ما يصرف عن الاستجابة: فمع علمهم به وثناؤهم عليه إلا أنهم تخبطوا فى هذا الأمر ومن أجل تنفير الناس من الاستجابة وصفوه بصفات منها :

أ - أنه مسحور. وأن ماينطق به ويدعو إليه من جراء السحر الذى أصابه ﴿قالوا إنما أنت من المسحرين﴾[4] ، ويعنون مسحوراً لاتدرى ماتقول فى دعائك إيانا إلى إفراد العبادة لله وحده. وخلع ماسواه من الأنداد. وهذا القول عليه جمهور المفسرين.... وقيل من المسحَّرين : أى ممن له سحر -وهو الرئة- كأنهم يقولون : (إنما أنت بشر

---

(١) إبراهيم ١٠، ١١.
(٢) القمر ٢٣، ٢٤.
(٣) الشعراء ١٥٤.
(٤) الشعراء ١٥٣.

له سحر)[1] وذلك لقوة تأثيره فى أتباعه.

ب- أنه مصدر شؤم لهم وهو ومن آمن معه ﴿**قالوا اطيرنا بك وبمن معك**﴾[2] وذلك بنسبة كافة الابتلاءات التى تنزل بهم إليه وإلى المؤمنين به.

جـ- رميه بالكذب وهو ماورد فى قول المعرضين عنه ﴿**أألنزل عليه الذكر من بيننا بل هو كذاب أشر**﴾ فكان الردّ من الله ﴿**سيعلمون غدا من الكذاب الأشر**﴾[3].

٣ - عدم أهليته لنزول الوحي عليه لكونه فقيراً: فكيف يختار فقيرا للنبوة مع وجود الملأ، حتى ادعوا أن الايمان به على ما هو عليه دليل تخلفهم وترديهم ﴿**فقالوا أبشرا منا واحداً نتبعه إنا إذن لفى ضلال وسعر * أألنزل عليه الذكر من بيننا**﴾[4] وذلك لفقره وسوء حاله.

٤ - الشك في رسالته: فلقد أعلنوا تشككهم فى أمر نبوته ورسالته وأكدوا ذلك بصيغ عدة وردت فى قول الحق عنهم ﴿**وإننا لفى شك مما تدعونا إليه مريب**﴾[5].

٥ - عدم توافر الادلة علي نبوته: -كما يزعمون- ولذلك طلبوا منه الدليل عليها إن كان صادقا،ولعلهم أرادوا دليلا معينا يتضمن تعجيزا له، لأن دليل النبوة يظهر على يد الداعى من اللحظة الأولى لرسالته وإلا تعذر عليه إثبات كونه نبيا ﴿**ما أنت إلا بشر مثلنا فأت بآية إن كنت من الصادقين**﴾[6].

٦- إعلانهم أن الرسل لاتكون إلا من الملائكة : وقد ورد ذلك فى حق أمة هود وأمة صالح. قال تعالى فى إطار تهديد قريش ﴿**فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود * إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم ألا تعبدوا إلا الله قالوا لو شاء ربنا لأنزل ملائكة فإنا بما أرسلتم به كافرون**﴾[7].

٧- تحذير صالح من الاستمرار فى دعوته : وهو مايفهم من نص القرآن. وقد

---

(١) قصص الأنبياء - ابن كثير ١٥١/١، ١٥٢ (٢) النمل ٤٧.
(٣) القمر ٢٦. (٤) القمر ٢٤، ٢٥.
(٥) هود ٦٢. (٦) الشعراء ١٥٤.
(٧) فصلت ١٣، ١٤.

يفهم منه طلب عبادة آلهتهم أو أنهم هددوه إذا لم يقلع أو أغروه ليعرض فأبى صالح -عليه السلام- ذلك كله وأكثر منه ﴿قال ياقوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى وآتانى منه رحمة فمن ينصرنى من الله إن عصيته فما تزيدوننى غير تخسير﴾[1].

موقف صالح من القضايا السابقة :

لم يشتغل صالح - عليه السلام- بالردّ على الأمور السابقة. وإنما استمر فى عرض مايدعو إليه، ومامن أمر من الأمور السابقة (الرمى بالسحر - الكذب - الشك فى دعوته) ورد إلا وكان الرد دالا على سمو خلق صالح والإعراض عن الجاهلين. غير مقابل سوء الخلق بمثله.

وأما اتهامه بأنه مصدر شؤمهم ومايتزل بهم من أقدار منذ ظهر بدعوته، أو اتهامه والمؤمنين معه بأنهم سبب الفرقة بين الجماعة مما يفقدها قوتها، فإن صالحا -عليه السلام- لم يسكت عنه. لأن تصحيح المفاهيم حيال هذا الأمر هو ما يعرف بـ (القدر) فى الإسلام ولذلك فإنهم عندما قالوا له ﴿ اطيرنا بك وبمن معك﴾ ردّ عليهم بقوله ﴿قال طائركم عند الله بل أنتم قوم تفتنون﴾. أى أن الأمور مقدرة ولكن دعاة الضلالة هم الذين يصورون لكم أننى مصدر الفتنة وأنتم تستجيبون لهم حتى فتنوكم فى ذلك الأمر. وأما طلبهم آية تدل على نبوته فقد استجيب لهم فيه، لأنهم جعلوا الآية دليل صدقه، وماكان الله ليخذل نبيه. وحتى يتحقق فيهم قول الله تعالى ﴿ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حىّ عن بينة﴾[2] وسوف يفصل الحديث عن الناقة فى حينه[3] -إن شاء الله-

ثالثا- موقف المكذبين من المؤمنين:

اختلف حال ثمود عن حال عاد فى هذا الموقف، فإن عاداً لم تتناول المؤمنين بالذكر من قريب أو بعيد -كما سبق بيانه- وأما ثمود فقد وقفت من المؤمنين مواقف سجلها عليهم القرآن. تتضح فى النقاط التالية :

---

(١) هود ٦٣. (٢) الأنفال ٤٢.
(٣) أنظر ص ٢٤٧.

١- توجههم إلى المؤمنين بالتشكيك في أمر صالح، وبخاصة أن المكذبين كانوا الملأ والمؤمنين كانوا بعض المستضعفين ﴿قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون * قال الذين استكبروا إنا بالذي آمنتم به كافرون﴾[1].

٢- زعموا أن صالحا والمؤمنين معه هم مصدر شؤمهم. ويبدو أن أهل الأهواء إذا رأوا الصالحين والمصلحين ضاقوا بهم ذرعا لأن مايميلون إليه يختلف مع توجهاتهم ومشاربهم وكم ينسبون إليهم المصائب والشرور (النمل ٤٧).

٣- اتخذوا قراراً بقتل هؤلاء المؤمنين وصالح معهم بليل حتى لايراهم أحد، معلنين أنهم ماعلموا من أمره شيئاً، مقسمين على صدق مايقولون. ولولا أن الله شاء لصالح والمؤمنين معه النجاة لكان مايريده الكافرون ﴿وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولايصلحون * قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله ثم لنقولن لوليه ماشهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون * ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لايشعرون * فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين﴾[2].

هذه أهم المواقف التي خلدها القرآن. ونلاحظ أن المؤمنين لم يشتغلوا بالرد إلا ماورد في آية الأعراف (٧٦) دون سواها، اعتماداً على ردّ صالح -عليه السلام- أو لعدم المبالاة أو لضعفهم عن مواجهة الملأ المستكبر. كل ذلك محتمل.

النهاية للمكذبين:

صور القرآن مراحل النهاية للمكذبين من قوم صالح -عليه السلام- وتتجلى تلك المراحل على النحو التالي :

أولاً: طَلَبُ آية من صالح عليه السلام تدل على نبوته. وهنا يتساءل الإنسان: هل دعا صالح -عليه السلام- بدون آية قبل طلبها. أم أنه أتى بآيات لم يقبلوها وطلبوا آية بعينها حددوها له؟

إن الاحتمال الأول لايستقيم لأنه لابد من دليل يدل على نبوة المرسل

(١) الأعراف ٧٥، ٧٦. (٢) النمل ٤٨ - ٥١.

ولايكتفى فيه بإمكانية الوحى. وبخاصة غيبة الآيات الدالة على نبوة نوح وهود عليهما السلام. فكيف آمنت قلة به ولم يتوفر لها دليل على نبوة صالح -عليه السلام-؟ بدون دليل على نبوته؟ ذلك مستبعد.

والذى تميل إليه النفس. أن القوم قد طلبوا معجزة محسوسة حدّدوا نوعها له، بدليل أن قريشاً لما حدّدوا خوارق العادات -كدليل على صدق محمد - فى الجوانب الحسية، كان علة المنع كما ورد فى قول الحق ﴿وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات إلا تخويفا﴾[1].

كما أن قول الحق ﴿ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين * وآتيناهم آياتنا فكانوا عنها معرضين﴾[2].

وقول الحق ﴿ألم يأتهم نبأ الذين من قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وأصحاب مدين والمؤتفكت أتتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾[3].

يدل على أن القوم أتتهم آيات عدة لا آية واحدة، سواء فى ذلك الآيات الحسية والآيات النصيّة. إلا أن القوم أصروا على آية حسية بهدف التعجيز.

قال تعالى حاكيا موقفهم مع صالح ﴿ ما أنت إلا بشر مثلنا فأت بآية إن كنت من الصادقين * قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم * ولاتمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم﴾[4].

فهل كانت الناقة آية لصالح -عليه السلام-؟

جمهور المسلمين على أن الناقة كانت معجزة لصالح -عليه السلام- وهو ماتوافرت عليه الأدلة فى القرآن الكريم. قال تعالى ﴿وإلى ثمود أخاهم صالحا قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم هذه ناقة الله لكم آية فذروها

(١) الإسراء ٥٩.
(٢) الحجر ٨٠، ٨١.
(٣) التوبة ٧٠.
(٤) الشعراء ١٥٤ - ١٥٦.

تأكل فى أرض الله ولاتمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم ﴾[1] .

﴿ وياقوم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل فى أرض الله ولاتمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب ﴾[2] .

﴿ وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها ومانرسل بالآيات إلا تخويفا ﴾[3] .

﴿ قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم * ولاتمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم ﴾[4] . ﴿إنا مرسلوا الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر * ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر ﴾[5] .

﴿فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها ﴾[6]

وندرك من جملة النصوص السابقة النقاط التالية :

١- أن هذه الناقة آية - أى دليل على نبوة صالح -عليه السلام- وأنها على غير ماعهدوا من الآيات قبلها وهى آية بينة.

٢- إن هذه الناقة فتنة لهم من حيث البعث أو السلوك الواقع منها أو الأثر الناتج عنها.

٣- أنها مضافة إلى الله للتهديد من ناحية وللَفْت النظر إليها من ناحية ثانية.

٤- حرّم عليهم مسها بسوء وبيّن النتيجة المترتبة على المخالفة ﴿فيأخذكم عذاب أليم﴾ ﴿فيأخذكم عذاب قريب﴾. ﴿فيأخذكم عذاب يوم عظيم﴾.

٥- تقسيم الماء بينهم وبين الناقة ويبدو أنه أراد بئرا معينا أو مورداً خاصا ﴿لها شرب ولكم شرب يوم معلوم﴾. ﴿ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر﴾ ﴿ناقة الله وسقياها﴾.

---

(١) الأعراف ٧٣.
(٢) هود ٦٤.
(٣) الإسراء ٥٩.
(٤) الشعراء ١٥٥، ١٥٦.
(٥) القمر ٢٧، ٢٨.
(٦) الشمس ١٣.

وأما وجه كون الناقة آية فقد اجتهد فيه المفسرون. ومما أثر عنهم في ذلك :

أ) أنها خرجت من صخرة صماء –مع فصيل لها– قد جذحها القوم لصالح –عليه السلام–.

ب) أنها كانت تشرب سائر المياه في اليوم الذي ترد فيه الماء.

ج) أنها كانت تدر لبنا يعدل الماء الذي تشربه حتى تغدق على ثمود بأسرها مايكفيهم.

د) ربط هلاكهم بأذاها إذ وقع منهم، وقليله وكثيره في ذلك سواء بدليل ورود النكرة بعد النهي (ولاتمسوها بسوء).

هـ) أن جميع الحيوانات كانت يوم مجيئها للماء تمتنع من الورود وكانت يوم غيابها تأتي الماء.

و) أنها تختلف في النشأة عن غيرها من نوعها من حيث عدم التوالد وكبر الحجم وخروجها عشراء من صخرة صماء.

وهذه الآراء اجتهادات مفسرين[1] لم تتوافر عليها الأدلة القاطعة. وحسب المسلم صريح النص في أنها (آية)، (بينة) ضمن آيات أخرى. أتت قوم صالح (وآتيناهم آياتنا...).

ويرى بعض العلماء : أن الناقة لم تكن خارقة للعادة من حيث الوجود والتكوين والطبيعة بل هي ناقة شأنها شأن غيرها من حيث الوجود. جذحها صالح كرمز لحرمات الله وتشديدا على القوم بعد شدة العنت وزاد من التضييق عليهم قسمة الماء بينهم وتحديد يوم خاص بها ترد فيه الماء ويوم خاص بهم أجمعين. تهكما وتشديدا وتهديداً.

يقول المقدسي: ويشبه أن يكون صالح –عليه السلام– أشار إلى ناقة من الإبل بأمر الله فجعلها علامة بينهم لطاعة المطيع ومعصية العاصي وامتحنهم بورودها وشربها

(١) التفسير الرازي ٢٠/١٨، المحرر الوجيز ٣٣٣/٧ القرطبي ٦٠/٩ ط دار إحياء التراث العربي سنة ١٩٦٦.

ولو أشار إلى بقرة أو حجارة أو طير وهو مثلا لكان كذلك.... وقد كان الملوك يفعلون مثل هذا في الزمن الأول، اختبارا لطاعة العوام وتخويفا للرعية كما حكى عن النعمان بن المنذر أنه أرسل كبشا فى البيوت والأسواق وعلق مدية فى عنقه وسماه كبش الملك يبلو به بذلك طاعة الناس هل يجترئ عليه أحد بالعبث. وإنما كانت الناقة لصالح ونسبت إلى الله عز وجل لنهى الله عن عقرها. (البدء والتاريخ ٣/٤٤).

موقف القوم من الناقة :

لم يتأثر القوم بتلك الآية ولم يستجيبوا لنصائح صالح –عليه السلام– فرغم تحذير صالح لهم من مسها بسوء حتى لايأخذهم عذاب –سبق بيانه– إلا أن القوم قد بيتوا النية على عقر الناقة وقتل صالح وقتل المؤمنين به معه بهدف القضاء التام على الدعوة ويمكن إيجاز مواقفهم فيما يلى :

١– عدم التسليم بكون الناقة آية من آيات الله، مع توافر الأدلة على ذلك. حتى وصف القرآن ذلك بالظلم، مع أن القوم لم يبالوا بها ولم يخافوها أو يخافوا النتائج المترتبة على أذاها.

٢– اتهام صالح بالكذب فى حديثه عنها مع الإصرار على عقرها (الشمس ١٤).

٣– كان قرارالعقر جماعى وإن نهض به بعضهم، فكل فعل يرضى عنه الإنسان يثاب ثواب فاعله،ويعاقب عقاب فاعله فى الآخرة، وذلك من باب حمل الأمة على فعل الخير،والأخذ على يد الظالم والتوجه نحو الخير العام،وإلا أثمت الأمة جمعاء إذا رضيت بما يفعله الفسقة، ولذلك نسب العقر إليهم جميعاً فى قول الحق **﴿فكذبوه فعقروها﴾** وإلى من ابتدأ العقر أو أتمه **﴿فنادوْا صاحبهم فتعاطى فعقر﴾** وقد وصف القرآن ذلك الشخص بالشقاء. قال تعالى **﴿ كذبت ثمود بطغواها * إذ انبعث أشقاها﴾** كما وصف في السنة بمثل ذلك وفى الحديث عن عمار بن ياسر. قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم– لعلىّ: ألا أحدثك بأشقى الناس؟ قال: بلى. قال رجلان. أُحيمر ثمود الذى عقر الناقة. والذى يضربك ياعلى على هذا –يعنى

قرنه- حتى تبتل عنه هذه- يعني لحيته[1] كما ورد في السنة اسم عاقر الناقة[2].

ثانيا: تحدى صالح أن ينزل العذاب بهم: وجعلوا نزوله دليل صدقه ورسالته. كبرا منهم وبطرا ﴿فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم وقالوا ياصالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين﴾[3]. فجمعوا في كلامهم هذا بين كفر بليغ من ثلاثة وجوه.

منها: أنهم خالفوا الله ورسوله في ارتكابهم النهي الأكيد في عقر الناقة التي جعلها الله لهم آية.

ومنها: أنهم استعجلوا وقوع العذاب بهم فاستحقوه من وجهين:

أحدهما: الشرط عليهم في قوله (ولاتمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب) وفي آية «عظيم» وفي الأخرى «أليم» والكل حق.

الثاني: استعجالهم على ذلك.

ومنها: أنهم كذبوا الرسول الذي قد قام الدليل القاطع على نبوته وصدقه، وهم يعلمون ذلك علما جازما، ولكن حملهم الكفر والعناد على استبعاد الحق ووقوع العذاب بهم[4]. فما كان من صالح -عليه السلام- إلا أن أخبرهم بنزول العذاب بهم بعد ثلاثة أيام وعداً محققا لأنه صادر عن الوحي. ومصدره خالق الكون فلا إمكانية لدفعه ﴿فعقروها فقال تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب﴾[5]. وهذه الفترة الزمنية هي المفسرة لقول الحق سبحانه ﴿وفي ثمود إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين﴾[6].

ويبدو أن الندم أصاب بعضهم بعد عقر الناقة وتحديد وقت العذاب، ولات حين مناص. قال تعالى ﴿فعقروها فأصبحوا نادمين﴾.

---

(1) مسند أحمد ٢٦٣/٤ عن عمار بن ياسر.
(2) قصص الأنبياء - ابن كثير ١٥٦/١.
(3) الأعراف ٧٧.
(4) قصص الأنبياء (ابن كثير) ١٥٧/١.
(5) هود ٦٥.
(6) الذاريات ٤٣.

ثالثا: اتخاذهم قرارا بقتل صالح والمؤمنين به معه. قائلين إن كان كاذبا فقد استرحنا منه وإن كان صادقا قتلناه قبل أن ينزل بنا العذاب فيشمت فينا أو قبل أن يدعو ربه فينزل بنا العذاب لتكون لنا النجاة.

وقد ركزت سورة النمل على قرار قتل صالح والمؤمنين معه بصورة واضحة حيث ذكرت عدد الجماعات التى اتفقت فيما بينها على قتل صالح ووصفت أخلاقهم وسلوكهم والاتفاقية التى تمت وماذا سيكون التصرف مع أولياء الدم... إلخ قال تعالى ﴿**وكان فى المدينة تسعة رهط يفسدون فى الأرض ولايصلحون * قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله ثم لنقولن لوليه ماشهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون * ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لايشعرون**﴾(١).

نزول العذاب بهم:

لقد ترتب على المراحل الثلاث السابقة (-طلب آية ثم التكذيب بها- عقر الناقة- العزم على قتل صالح والمؤمنين به معه) استحقاق القوم للعذاب. الذى خوفهم به صالح فلم يخافوا، وصار حال القوم كالطرف الفاسد الذى لابديل عن بتره، أو العضو الذى لابد من استئصاله، طلبا لسلامة سائر الجسد، وماذا يبقى من عذر لأناس طلبوا الآية فأتتهم والحجة فلزمتهم وأرسل إليهم من لايخفى عليهم أمره. فضلا عن جعل العذاب دليل لإرسال صالح، وذلك يعنى أن عدم وقوعه قد يؤثر نفسيا على المؤمنين به، فضلا عن أن يتاجر به المفسدون كما أن عقر الناقة يمثل انتهاكا صريحا وتحديا لحرمات الله فى غير مبالاة، ولذلك أنزل الله بهم عقابه والذى اختلفت صوره بحسب النصوص القرآنية التى أشارت إليه حينا وأضمرته أحيانا، قال تعالى ﴿**فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين**﴾(٢).

﴿**فلما جاء أمرنا نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزى يومئذ إن ربك هو القوى العزيز * وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين**﴾(٣).

﴿**فأخذهم العذاب إن فى ذلك لآية وماكان أكثرهم مؤمنين**﴾(٤).

---

(١) النمل ٤٨ – ٥٠. (٢) الأعراف ٧٨.
(٣) هود ٦٥، ٦٦. (٤) الشعراء ١٥٨.

﴿فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين﴾[1]

﴿فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ومنهم من أخذته الصيحة....﴾[2] وجمهور المفسرين[3] على أن الذين أهلكوا بالصيحة هم قوم صالح -عليه السلام-

﴿وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون﴾[4] .

﴿وفى ثمود إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين * فعتوا عن أمر ربهم فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون﴾[5] .

﴿وأنه أهلك عاداً الأولى * وثمود فما أبقى﴾[6] .

﴿إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر﴾[7] .

﴿كذبت ثمود وعاد بالقارعة * فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية﴾[8] .

﴿فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها * ولايخاف عقباها﴾[9] .

ومن جملة النصوص ندرك أن عوامل عدة كانت سببا فى إهلاك القوم منها: الرجفة - الصيحة - العذاب - التدمير - الصاعقة - الطاغية - عوامل التعرية... إلخ.

وفى بيان هذه المفردات ورد فى كتب المفسرين مايلى :

الرجفة هى : الصيحة التى زلزلت لها الأرض واضطربوا لها (الكشاف ٢/٩١) وقيل الزلزلة الشديدة وقال مجاهد والسدى: هى الصيحة وقيل خفقان القلب واضطرابه حتى ينقطع (الألوسى ٨/١٦٥).

---

(١) النمل ٥١. (٢) العنكبوت ٤٠.

(٣) الكشاف ٣/٢٠٦ والبحر المحيط ٧/١٥٢، ابن كثير ٣/٤١٣، الألوسى ٢٠/١٥٩.

(٤) فصلت ١٧ (٥) الذاريات ٤٣، ٤٤.

(٦) النجم ٥٠، ٥١. (٧) القمر ٣١.

(٨) الحاقة ٤، ٥. (٩) الشمس ١٤، ١٥.

الصيحة هي : قيل صيحة جبريل وقيل صيحة من السماء فيها صوت كل صاعقة وصوت كل شئ في الأرض (القرطبي ٦١/٩) و(الألوسي ١٩٢/١٢). فيها وجهان أحدهما أنها الصاعقة وثانيهما صيحة عظيمة أماتتهم (الرازي ٢٢/٩).

الصاعقة هي : داهية العذاب وقارعة العذاب (الكشاف ٤٥٠/٣) النار الخارجة من السحاب كما هو معروف (الألوسي ١١٤/٢٤) وقيل بعث الله عليهم صيحة ورجفة وذلا وهوانا وعذابا ونكالا (ابن كثير ٩٥/٤).

الطاغية هي : الواقعة المجاوزة للحد في الشدة (الكشاف ١٤٩/٤) وقيل بتجاوز الحد في الأفعال القبيحة وقيل بالصاعقة وقيل إن الطاغية عاقر الناقة (القرطبي ٢٥٨/١٨) وقيل هي الصيحة أو الصاعقة أو الرجفة (الألوسي ٤٠/٢٩)

ويمكن القول : إن جملة النصوص تشير إلى تبدل الحال من باب المقابلة بالمثل. فقد أعطيت ثمود من النعم الكثير فأساءت استخدام النعم وجعلتها سبيلا للكفر ووسيلة للترف وباعثة على الإسراف. ولقد ذُكِّروا فما تذكروا، وارتدعوا فما اعتبروا وضربت لهم الأمثلة فما تأثروا. فبدل الله أمنهم خوفا. ونعمتهم نقمة، فشاءت قدرته أن تتبدل الظواهر الجوية وأن تصيب تلك الظواهر من شاء الله وينجوا منها من شاء الله، وهذا الأمر تصوره ممكن لأنه يشاهد بين الحين والحين. والآثار المترتبة عليه لاتخفى على أحد.

وإذا كان العلم قد يَسّر أسباب الرصد وإمكانية الإخبار، وفسّر تلك الظواهر مما جعل وقوعها أمرا محتملا في بعض الأحيان، فضلا عن الاستعانة بأساليب عصرية للإنقاذ والإدراك حين الوقوع، والاستعانة بالأطباء لدرء مايصيب الأفراد من جرائها في زمننا هذا. فإن الأمم السابقة لم يتوفر لها من سبل النجاة إلا الوسائل البدائية في حال القرب منها وتيسّر أسبابها. فما بالنا بأناس مضوا في القرون الغابرة وقد حق عليهم العذاب. فهل آوتهم القصور وأنجتهم الجبال ووقتهم الأشجار ودرأت عنهم الأذى الأبنية الفارهة؟ إنه لا إمكانية للوقاية من قدر الله ﴿قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم﴾[1] . ﴿الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا

(١) آل عمران ١٥٤.

ماقتلوا قل فادرأوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين﴾[1].

إن إمكانية تصور هلاك القوم -فى ضوء النصوص السابقة- من اليسر بمكان.

لقد اضطربت السماء وكثرت الرعود والبروق وارتفعت أصواتها حتى أخذت بالقلوب وكثرت الصواعق المهلكة على المشركين والتى جعلت أجسادهم كورق الشجر البالى المفتت ثم ألقت الريح التراب على أجسادهم فسترتها وبقيت المساكن. وكان ذلك الإهلاك عن قدرة واقتدار لأن فاعله لايخشى النتائج المترتبة على فعلته لقدرته على استبدالهم بغيرهم كما استخلفهم عن غيرهم.

وكان تنوع العذاب -ونزوله- برهانا على صدق توعد صالح لهم حين هدّدهم بعذاب (أليم) (قريب) (عظيم).

موقف صالح من المكذبين - بعد إهلاكهم -

كم يخاطب الأحياء من الأنبياء الأموات من المشركين، تحذيرا لمن يشاكلهم، وعبرة لمن يخلفهم وتحسرا على عدم استجابتهم. وحثا للصالحين على الثبات. وهذا مافعله صالح -عليه السلام- بعد هلاك المكذبين. فلقد خاطبهم بقول الله تعالى ﴿.... ياقوم لقد أبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ولكن لاتحبون الناصحين﴾[2].

إنها الحسرة التى تصيب كلّ مصلح غيور على دينه وأهله بعد أن ينزل بهم ماكان يحذرهم إياه. وكم نترحم على أناس بعد المنية قائلين: لقد قلنا لهم كذا وكذا فلم يستجيبوا. وكم سجن أفراد وفصل من العمل آخرون لسلوكهم السيىء. فيخاطبون مواجهة أو من وراء حجاب من قبل الناصحين لهم خطاب تعيير وتبكيت ولات حين مناص.

وبذلك أهلكت طائفة من العتاة على أمر الله فحاسبها الله حسابا شديداً وعذبها عذاباً نكراً.

---

(١) آل عمران ١٦٨.

(٢) الأعراف ٧٩.

حال صالح -عليه السلام- والمؤمنين معه :

ذكر القرآن أسباب نجاة صالح والذين آمنوا معه. وذلك فى قول الحق سبحانه ﴿فلما جاء أمرنا نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزى يومئذ إن ربك هو القوى العزيز﴾[1].

﴿وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾[2].

﴿ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾[3]

أضاف الله نجاة صالح والمؤمنين معه إلى ذاته العلية، حتى لايبقى فى العقل طلب الكيفية – بصور متفاوتة– بالنسبة لصالح، لأن شأن الظواهر الجوية ألا تنتقى أفراداً وتهلك آخرين، أو تهدم مساكن وتترك أخرى باختيار حر بل ماتستوت فيه المواصفات كان هلاكه. وماستوت فيه أسباب النجاة كانت نجاته.

وقد وجدنا صالحا يقيم هو والمؤمنون معه مع قومه، بل إن الشواهد لتؤكد أن إمكانات المكذبين كانت أقوى من إمكانات المؤمنين، ومع ذلك لم تمنع القوة المادية المكذبين من الهلاك، بمثل ما منع الإيمان أهله من الأذى.

ولم يجعل القرآن الإيمان معه سبب النجاة بل قرنه بالتقوى، لأن الاعتقاد بوجود إله واحد دون القيام بلازمه كما تمليه الشرائع لايحقق النجاة، بل يكون سبيلاً للهلاك.

قضايا وثيقة الصلة بالموضوع :

أولا: لماذا لم توصف القصة – أينما ذكرت – بأنها غيب ؟

إن علم العرب بعاد وثمود كان متوفرا. وأخبار عاد كانت واردة عندهم، وآثار ثمود كانت باقية. بل إن العرب قد نسبوا بعض القبائل إلى ثمود[4]. وإن لم يقبل هؤلاء تلك النسبة[5].

---

(١) هود ٦٦.
(٢) النمل ٥٣.
(٣) فصلت ١٨.
(٤) المفصل فى تاريخ العرب ٣٢٦/١.
(٥) المفصل ٣٢٦/١.

وقد أشار ابن جرير الطبرى إلى أشعار العرب فى عاد وثمود قائلا «وأمرهم عند العرب فى الشهرة فى الجاهلية والإسلام كشهرة إبراهيم وقومه.

قال: ولولا كراهة إطالة الكتاب بما ليس من جنسه. لذكرت من شعر شعراء الجاهلية الذى قيل فى عاد وثمود وأمورهم بعض ماقيل مايعلم به مَنْ ظن خلاف ما قلنا فى شهرة أمرهم فى العرب صحة ذلك»[1].

فكان شأن القرآن تحرير القصة من الخرافات العالقة بها من ناحية وتذكيرا للعرب ولغيرهم من ناحية ثانية، ومواساة للرسول وأصحابه من ناحية ثالثة. كما أنها داعية للاعتبار مابلى القرآن عبر الزمان والمكان.

ثانيا: هل آثار ثمود مازالت باقية ؟

أشار القرآن إلى أن آثار ثمود كانت معروفة عند العرب وباقية زمن التنزيل. قال تعالى ﴿وعاداً وثمود وقد تبين لكم من مساكنهم وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل وكانوا مستبصرين﴾[2].

﴿فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن فى ذلك لآية لقوم يعلمون﴾[3].

وقد أشارت كتب «معاجم البلدان»[4] إلى آثار ثمود. واختلف الوصف بين قبض وبسط كما فصل بعض المعاصرين القول فى تلك الآثار، داعيا إلى بذل الجهود لتحويل ديار ثمود إلى منطقة سياحية دينية لبقاء كثير من الكتابات والنقوش على المدافن بها. يقول ذلك الباحث (وتنتشر الجبال الضخمة الواحد منها إلى جانب الآخر، وفى سفح كل منها نحت سكان تلك المنطقة من العرب الأقدمين عدداً من المدافن... وكانوا يؤمنون بأن مظهر القبر الخارجى يجب أن يكون على غاية مايمكن من الزخرفة والزينة والبهاء والجمال لأنه يدل بذلك على صاحبه. ومن هنا أتت تلك الرسوم الزخرفية والهندسية التى تملأ واجهات تلك المدافن، ومن هنا أتت أيضاً دقة

---

(١) تاريخ الطبرى ٢٣٢/١. (٢) العنكبوت ٣٨.

(٣) النمل ٥٢.

(٤) معجم البلدان ٢٢١/٢، مراصد الاطلاع ٣٨١/١، كتاب تقويم البلدان ٨٩/١، معجم ما استعجم ٤٢٦.

النحت التى يتميز بها عدد ضخم من تلك المنشآت... فالعائلات المالكة والأثرياء وكبار التجار وغيرهم ممن كانت تتوفر لديهم الثروة لبناء تلك المدافن، كانوا يرغبون فى إظهار ماهم عليه من النعمة المادية وماهم عليه من القدرة فى بناء قبور عائلية[1].

وقد وصف ذلك الباحث مدائن ثمود وصفا مفصلا[2] لأنه كان يعمل بقطاع الأمن بتلك المنطقة.

ثالثاً: كيف نوفق بين ماتوفر لدينا من معرفة من طريق القرآن والسنة وبين مايكتشف من آثار وحفريات تؤكد تواريخها أنها فى القرن الأول ق.م. أو بعده :

وللإجابة نقول : إن كثيرين من المؤرخين لم يفرقوا بين من أهلكوا من ثمود ومن بقى منهم. وأطلقوا الكلام عند الحديث عن ثمود. وهو ما أدى إلى الخلط والخبط[3]. ولدرء ذلك يمكن القول :

١- ثمود قبيلة كانت تسكن الحجر قبل إبراهيم -عليه السلام- وكانت معاصرة لعاد التى هلكت وبقيت ثمود.

٢- بقى من ثمود أناس دانوا بدعوة صالح بعد أن أهلك الله المكذبين وامتدت بهم الحياة. لم يكونوا بمعزل عن حضارة قومهم. وإن لم يشر القرآن إليهم من حيث الإقامة أو الارتحال، ولم يتناولهم المؤرخون بالبيان المفصل، وإن نسبوا بعض القبائل العربية إلى ثمود.

٣- لايستبعد العقل أن يتغير حال أحفاد هؤلاء المؤمنين عن حال غيرهم. فثبت بعضهم على الدين وارتد آخرون فألهوا ماجرت العادة بتأليهه.

٤- لايستبعد فى ظل ذلك التقسيم أن تكون الآثار الباقية من القرن الأول ق.م لهؤلاء الذين بقوا من ثمود، فطالت بهم الحياة وارتد بعضهم وشاركوا العرب الوثنية وبخاصة أن الفاصل الزمنى بين تلك الكتابات وبين ثمود الأولى لايقل عن

---

(١) شمال الحجاز. الآثار جـ١/١٥٦، ١٥٧ بتصرف.

(٢) المرجع السابق ١/١٥٦-١٦٢.

(٣) راجع المفصل فى تاريخ العرب ١/٣٢٥-٣٣٠.

ألفى عام. في إطار هذه الرؤية الشخصية يمكن حلّ الخلاف بين الآثار الباقية من ديار ثمود كمصدر من مصادر المعرفة وبين النص القرآني.

رابعاً: ما المراد من نسبة المكر إلى الله في قصة صالح ؟

تناول العلماء نسبة المكر إلى الله فى القرآن بالبيان من ناحية اللغة والمراد به حين النسبة على النحو التالى :

يقول الإمام الرازى: ورد المكر فى اللغة بمعانى عدة منها :

١) السعى بالفساد فى خفة والله منزه عن ذلك.

٢) اجتماع الأمر وإحكامه ومنه امرأة ممكورة أى مجتمعة الخلق وإحكام الرأى.

٣) الاحتيال فى إيصال الشر، والاحتيال على الله تعالى محال فصار لفظ المكر فى حقه من المتشابهات وذكروا فى تأويله وجوها:

(الأول) أنه تعالى سمى جزاء المكر بالمكر كقوله ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها﴾[1] وسمى جزاء المخادعة بالمخادعة ﴿إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم﴾[2] وجزاء الاستهزاء بالاستهزاء ﴿وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزءون * الله يستهزئ بهم﴾[3].

(الثانى) أن معاملة الله معهم كانت شبيهة بالمكر. فسمى بذلك.

(الثالث) أن هذا اللفظ ليس من المتشابهات، لأنه عبارة عن التدبير المحكم الكامل ثم اختص فى العرف بالتدبير فى إيصال الشر إلى الغير[4].

وأما نسبة المكر إلى الله تعالى فى قصة صالح -عليه السلام- ﴿ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لايشعرون * فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين﴾[5]، فقد اختلفوا فى المراد منها على وجوه منها :

---

(١) الشورى ٤٠. (٢) النساء ١٤٢.

(٣) البقرة ١٤، ١٥. (٤) مفاتيح الغيب ٧٣/٨ بتصرف.

(٥) سورة النمل ٥٠، ٥١.

١ – أن مكر الله إهلاكهم من حيث لايشعرون، شبه بمكر الماكر على سبيل الاستعارة، روى أنه كان لصالح –عليه السلام– مسجد فى الحجر فى شعب يصلى فيه. فقالوا زعم صالح أنه يفرغ منا إلى ثلاث فحن نفرغ منه، ومن أهله قبل الثلاث فخرجوا إلى الشعب وقالوا إذا جاء يصلى قتلناه ثم رجعنا إلى أهله فقتلناهم، فبعث الله صخرة فطبقت الصخرة عليهم فم الشعب فهلكوا وهلك الباقون بالصيحة.

٢– جاءوا بالليل شاهرين سيوفهم وقد أرسل الله تعالى الملائكة ملء دار صالح فدمغوهم بالحجارة. يرون الأحجار ولايرون راميا.

٣– أن الله تعالى أخبر صالحا بمكرهم فتحرز عنهم فذاك مكر الله فى حقهم[١].

وفى روح المعانى ورد «قالوا: المكر – لايطلق على الله تعالى إلا بطريق المشاكلة لأنه منزه عن معناه وغير محتاج إلى حيلة، فلايقال ابتداء «مكر الله سبحانه، وإلى ذلك ذهب العضد وجماعة، وخالفهم الأبهرى وغيره، فجوزوا الإطلاق بلامشاكلة مستدلين بقوله تعالى **﴿أفأمنوا مكر الله فلايأمن مكر الله﴾** فإنه نسب إليه سبحانه ابتداءً ونقل عن الإمام أن المكر إيصال المكروه إلى الغير على وجه يخفى فيه وأنه يجوز صدوره عنه تعالى حقيقة. وقال غير واحد إنه عبارة عن التدبير المحكم وهو ليس بممتنع عليه تعالى.... فالأولى القول بصحة الإطلاق عليه سبحانه ابتداء بالمعنى اللائق بجلاله جلّ جلاله....[٢].

والذى تميل إليه النفس أن إضافة المكر إلى الله (أفأمنوا مكر الله) ونسبته إليه (ويمكر الله) من المتشابهات التى لاينبغى الخوض فيها مع وصف الله بصفات الكمال وتنزيه الله عن كل نقص.

خامساً: هل مرّ الرسول بديار ثمود ؟

نعم. هذا ماتوافرت عليه الأدلة فجمهور المحدثين والمفسرين وكتاب السيرة والتاريخ متفقون على أن الرسول –صلى الله عليه وسلم– مرّ على ديار ثمود فى

(١) مفاتيح الغيب ٧٣/٨.   (٢) روح المعانى ١٧٨/٣ بتصرف

طريقه إلى تبوك، وقد سبق الرسول بعضُ أصحابه فأخذوا من ماء الآبار وعجنوا وملؤا السقاء. فلما بلغ الرسول -صلى الله عليه وسلم- الخبر أمرهم بالقاء ماعجنوا إلى الدواب وإهراق مامعهم من ماء وحثهم على الاعتبار بتلك الآثار.

ورد في صحيح مسلم. عن عبد الله بن عمر أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال لأصحاب الحجر -أي في شأنهم- (لا تدخلوا على هؤلاء القوم المعذبين إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين فلاتدخلوا عليهم أن يصيبكم مثل ما أصابهم).

وعن ابن عمر قال: مررنا مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- على الحجر. فقال لنا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- (لاتدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم. إلا أن تكونوا باكين، حذر أن يصيبكم مثل ما أصابهم. ثم زجر فأسرع حتى خلفها).

وعن نافع أن عبد الله بن عمر أخبره، أن الناس نزلوا مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- على الحجر أرض ثمود فاستسقوا من آبارها وعجنوا به العجين، فأمرهم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أن يهرقوا مااستسقوا ويعلفوا الإبل العجين، وأمرهم أن يستسقوا من البئر التى كانت تردها الناقة[1]. وإذا كان الأمر بالبكاء مقبولا. عظة واعتبارا. فهل كان الأمر بسكب الماء وحيا أم لا وهل الأمر بعلف الإبل ماعجنوا وحيا أم لا؟ الأمر غيب.

امور خاض فيها كثيرون لافائدة من ذكرها مفصلة :

نسب ثمود[2]، نسب صالح[3]، بشارة الأصنام لـ (كانوك) والد صالح قبل

---

(١) صحيح مسلم: ك الزهد والرقائق. باب لاتدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم . وصحيح البخارى، ك التفسير، سورة الحجر، البداية والنهاية ١/١٣٨.

(٢) البداية والنهاية ١/١٣٠، المفصل فى تاريخ العرب ١/٣٢٤ الثعلبى. عرائس المجالس٣٩. الكامل ١/٨٩، مروج الذهب ٢/٤٣، البدء والتاريخ ٣/٣٧ط دار الكتب المصرية سنة ١٩٦٠م.

(٣) تاريخ الطبرى ١/٢٢٦، البداية والنهاية ١/١٣٠ بدائع الزهور ١/١١٥- النجار ٩٠، عرائس المجالس ٣٩ الكامل ١/٨٩، البدء والتاريخ ٣/٣٧، المعارف لابن قتيبة ١/٢٩.

ميلاد صالح[1] ، قصة الحمل بصالح أغرب من الخيال[2] ، التحدى باستخراج ناقة وصفتها[3] ، المكان الذى خرجت منه[4] ، وصف لبن الناقة من حيث الطعم واللون[5] ، قتل المواليد الذكور وباعثه[6] ، من معجزات الناقة[7] ، وصف الناقة[8] ، التنبؤ بعقر الناقة[9] ، كيفية العقر مفصلة[10] ، اسم عاقر الناقة[11] ، حال الفصيل قبل عقر أمه[12] ، وبعد عقر أمه[13] ، سبب تحديد وقوع العذاب بعد ثلاثة أيام[14] ، الأيام الثلاثة المرادة[15] ، من نجا من الكفر وقصة أبى رغال[16] ، أسماء التسعة الذين اتفقوا على قتل صالح[17] ، تفاصيل اتفاقية الرهط[18] ، بوادر العذاب[19] ، مدة دعوة صالح

---

(1) بدائع الزهور ١١٥/١.

(2) بدائع الزهور ١١٥/١، ١١٦.

(3) بدائع الزهور ١١٧/١، عرائس المجالس ٤٠، البدء والتاريخ ٣٨/٣.

(4) البداية والنهاية ١٣٤/١، الكامل ٩٠/١، مروج الذهب ٤٣/٢، البدء والتاريخ ٣٨/٣.

(5) بدائع الزهور ١١٧/٢.

(6) تاريخ الطبرى ٢٨٨/١، البداية والنهاية ١٣٩/١، الكامل ٩٠/١.

(7) بدائع الزهور ١١٧/١، ١١٨.

(8) بدائع الزهور ١١٨/١.

(9) الطبرى ٢٨٨/١، عرائس المجالس ٤١، البداية والنهاية ١٣٩/١، الكامل ٩٠/١.

(10) تاريخ الطبرى ٢٣٠/١ عرائس المجالس ٤١، الكامل ٩٠/١، مروج الذهب ٤٤/٢، البدء والتاريخ ٣٩/٣.

(11) البداية والنهاية ١٣٥/١ بدائع الزهور ١١٨/١ عرائس المجالس ٤١، الكامل ٩٢/٨ البدء والتاريخ ٣٨/٣، المعارف لابن قتيبة ٢٩.

(12) تاريخ الطبرى ٢٣٠/١، الكامل ٩٢/١.

(13) البداية والنهاية ١٣٥/١، ١٣٦، عرائس المجالس ٤٢.

(14) البداية والنهاية ١٣٦/١، الكامل ٩٢/١.

(15) البداية والنهاية ١٣٦/١، بدائع الزهور ١١٩/١ عرائس المجالس ٤٢ مروج الذهب ٤٤/٢. البدء والتاريخ ٣٩/٣.

(16) تاريخ الطبرى ٢٣١/١، ٢٣٢، البداية والنهاية ١٣٧/١ عرائس المجالس ٣٤. الكامل ٩٣/١.

(17) تفسير ابن كثير ٣٦٧/٣.

(18) تاريخ الطبرى ٢٢٩/١، الكامل ٩١/١.

(19) تاريخ الطبرى ٢٢٧/١– البداية والنهاية ١٣٩/١، الكامل ٩٢/١، ٩٣.

عليه السلام[1]، سن صالح حين الوفاة[2]، مكان وفاة صالح ودفنه[3]، عدد المؤمنين معه[4]، عدد الكافرين الذين أهلكوا[5]، حال الناقة يوم القيامة[6].

أهم الفوائد المترتبة على العلم بدعوة صالح -عليه السلام-

١- على المصلحين ألا ينساقوا وراء العامة إن أرادوا الإصلاح. مع التسليم بأن الأعراف والتقاليد الفاسدة لها دورها فى الصد عن الاستجابة لدعوة المصلحين، وشأن المصلح أن يأخذ بأفراد المجتمع إلى العلا لا أن يهوى معهم إلى الحضيض.

٢- الحضارات تتطلب أخلاقا حتى لاتكون سبيلا لتدمير أهلها قبل غيرهم وبخاصة إذا نما الفساد وزاد الترف وأسرف الناس على أنفسهم فى المعاصى.

٣- الإيذاء الحسى والمعنوى أمر عرفه التاريخ بشأن الدعاة. وقد اتضح الإيذاء المعنوى لصالح -عليه السلام- فى الوصف بما يستقبح، وأما الإيذاء الحسى فلم ينله منه شئ لأن الله أراد ذلك ولولا بطلان مكر القوم من قبل الله لكان هلاك صالح.

٤- الداعى بالخيار بين الرد على الافتراءات والصمت بمثل مافعل صالح -عليه السلام-.

٥- إثارة الشبهات حول المصلحين ظاهرة قديمة حديثة، فكم يتهم المصلحون فى دينهم وعقيدتهم وفكرهم من أترابهم وأصدقائهم لالشئ إلا للحقد والكراهية والعجز عن إدراكهم وعدم التسليم بتفاوت الأفكار والقدرة على الاستنباط بمثل تفاوت الأرزاق، فتكون الإثارة للعامة ضد المصلحين، كما يكون الاختلاق منهم لأتباع المصلحين للحيلولة بينهم وبين أئمتهم، وقد أثبت التاريخ أن المشككين فعلوا ذلك من جراء الحقد والحسد والكراهية فبدلا من أن يجعلوا تقدم هذا أو ذلك سبيلا

(١) تاريخ الطبرى ٢٣٢/١.
(٢) تاريخ الطبرى ٢٣٢/١، الكامل ٩٣/١.
(٣) تاريخ الطبرى ٢٣٢/١. البداية والنهاية ١٣٨/١ بدائع الزهور ١١٩/١ عرائس المجالس ٤٣ الكامل ٩٣/١، المعارف لابن قتيبة ٣٠.
(٤) الألوسى ١٦٨/٨.
(٥) الألوسى ١٦٨/٨.
(٦) بدائع الزهور ١١٩/١.

للرقى بالنفس جعلوه سبيلا للحقد عليه، وإذا كان إدراك النبوة غير مستطاع فإن الأخذ منها بحظ وافر أمر مستطاع. وكل ملتزم بدين صحيح هو مع نبيه فى الآخرة.

٦- يجب الثبات على المبدأ إذا توافرت الأدلة على صحته، وبخاصة فى مجال العقائد. فمع حرص قوم صالح على تشكيك الأتباع فى أمره إلا أن موقفهم كان واضحاً وصريحا من أمر التشكيك ﴿قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون﴾[1].

٧- القصة فى جملتها تنفى دعوى الاقتباس عن أهل الكتاب لأسباب منها :

(أ) عدم ورود القصة مفصلة أو مجملة فى العهد القديم.

(ب) معاصرة اليهود والنصارى للنص زمن التنزيل دون إعلانهم الاقتباس أو التكذيب ولو وقع ذلك ماترددوا لحظة عن إظهاره.

كما تنفى العلم بها من طريق العرب لأسباب منها :

أ- أن العرب زمن التنزيل كانوا أحرص مايكونون على تكذيب الرسول -صلى الله عليه وسلم- حتى ادّعوا أن مايقوله: أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا.

ولو ثبت لديهم جلوسه إلى فلان من العرب ما أضمروا ذلك بحال من الأحوال.

ب- يدرك الإنسان وضوح الفرق بين ماورد فى القرآن ومأثر عن العرب بشأن ثمود من خلال ماورد فى كتب التاريخ والتفسير وقصص الأنبياء. وقد أشرنا إلى ذلك سابقا فى غير تفصيل[2].

٨- على الداعى أن ينوع فى أساليب البلاغ لاختلاف الطباع وتفاوت نسب الغرائز لدى الأفراد والأمم. مع تقديم الأدلة التى لايتأتى ردّها إلا جحوداً واستكباراً.

---

(١) الأعراف ٧٥.
(٢) انظر صفحة ٢٢٩، ٢٣٠من هذا الكتاب.

٩- وجوب البدء بالأهم فالمهم حين الدعوة والتركيز على الأصول قبل الفروع وعرضها بأسلوب سهل بلاتكلف. فكل مقارنة بين دعوة المرسلين ودعوة بعض المذهبيين في عصرنا الحاضر تكشف النقاب عن مدى التفاوت في العَرْضِ والتكلف في المعالجة بل التعقيد هو. النتيجة النهائية لتلك الدعوات وبخاصة إذا ركزت على تكفير الناس لأوهى الأسباب.

١٠- على العاقل أن لايقيس جميع الأمور بالظاهر ويتأثر بالهوى، بل بموضوعية تامة. فكم يتأثر الناس بأصحاب الكراسي. وكم تقربوا إلى المقدمين اجتماعيا فأعطوهم آذانا صاغية وقلوبا خاوية يسطرون فيها كما يشاءون فكان الضلال والإضلال. وهذا مافعله الملأ سابقا وتأثر بهم كثيرون من العامة.

١١- أعدى أعداء الإصلاح -غالبا- هم طلاب المناصب وعباد الكراسي وكل من يرى في الإصلاح ضياعا لسلطانه وعزه ومجده وبخاصة إذا تضمنت دعوة الإصلاح المساواة بين الناس جميعا في الحقوق والواجبات. وهو الأمر الذي تأباه النفس المريضة بمرض الكبر والغرور أو التي ورثت العنصرية. ويستثنى من ذلك من مال إلى الهدى فكانت له الهداية.

١٢- البقاء للأصلح. هذا ماتقرره الديانات وتؤكده، وليس البقاء للأقوى وبخاصة في الأزمنة السابقة. فكل الأمم التي عتت عن أمر ربها وكذبت رسله -وإن بلغت من القوة مابلغت- فإنها لم تبق إلا إلى حين علّها ترجع إلى ربها. فإذا انتفت العودة وكان الإصرار على الكفر تصريحا أو تلميحا كانت النهاية ﴿فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وماكان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾[1].

١٣- للسلوك الحسن أثره في الحد من غلواء المعارضين، كما أن القدوة شرط أساسي لنجاح الداعي. وقد رأينا الأمم تعترف لأنبيائها بحسن الخلق وجميل السيرة وطيب الذكر. ولو وجدوا منهم مايعيبونهم أو يعيروهم به ماترددوا لحظة من اللحظات.

١٤- وجوب إقامة حدود الله في الأرض. لأن انتهاك الحرمات دون نزول

(١) العنكبوت ٤٠.

العقوبة المقدرة يدفع المجرم إلى التمادى فى إجرامه ويؤثر على نفس الملتزم ولايردع من تسول له نفسه المعصية. فوجب ماسبقت الإشارة إليه بمثل ماانتهكت حرمة الناقة فكان نزول العذاب.

وجه الشبه بين دعوة صالح ودعوة محمد -عليهما السلام-:

إن تقاربا بين بين الدعوتين كبير كما ورد فى القرآن الكريم، كما أن حال الأمتين من حيث المعتقدات وردود الأفعال وحال المكذبين والمؤمنين قد وردت الإشارة إليه فى القرآن وبخاصة العهد المكى منه.

لقد تحدث القرآن عن ثمود فى اثنتين وعشرين سورة هى: الأعراف- التوبة - هود- إبراهيم- الإسراء- الحج- الفرقان- الشعراء- النمل- العنكبوت- ص- غافر- فصلت- ق- الذاريات- النجم- القمر- الحاقة- البروج- الفجر- الشمس- وهذه السور مكية، باستثناء (التوبة - الحج) فمدنيتان. وهذا مايدفعنا إلى إبراز الجوانب التالية:

أولا: بدأت الدعوتان بين أمتين عرب يتفقان فى كثير من المعتقدات والعادات والتقاليد فالوثنية وتعدد الآلهة وتنوعها أمر مشترك بينهما مع إيمانهم بالإله الأعلى كما توفر لديهما علم بالملائكة والنبوات. وإن اختلف المكيون عن ثمود فى العلم باليوم الآخر، فبينما كان أهل ثمود دهريين (الحاقة ٤) كان أهل مكة يدينون بالبعث بعد الموت باستثناء قلة قليلة منهم كانت دهرية.

كما تشابه حال الأمتين فى التطير والطيرة وهو ماينافى الاعتقاد بالقضاء والقدر. وفى إطار العادات والتقاليد عرفوا الترف والإسراف، وإن قام ذلك بالبعض دون البعض الآخر. كما عرفوا التفاوت الطبقى، وقسموا المجتمع إلى أشراف (الملأ) ومستضعفين (العبيد، الفقراء).

وقد مكن لثمود فى الأرض مالم يمكن لأهل مكة فى الجانب الحضارى، فالعمران وسكنى الجبال واتخاذ قصور منها مباشرة أو قطع أحجارها وإقامة أبنية منها أمر عرفته ثمود بينما عرف المكيون الخيام وبيوت اللبن والجص ومالوا إلى البداوة وأبوا

الحضارة وكانت دورهم محدودة ومواردهم معدودة. ولم يتوفر لهم من يسر العيش ماتوفر لثمود.

وقد شاء الله أن يرسل إلى كل منها نبيا منهم هاديا ومبشرا ونذيرا فكانت مواقف القومين من الدعوة والداعيين وأتباعهما متقاربة إن لم تكن متطابقة يؤكد ذلك مايلي:

أولا: موقفهما من الدعوة:

انقسم المدعوون إلى فريقين :

الفريق الأول: كافرون وهم الملأ.

الفريق الثاني: مؤمنون وهم البسطاء.

وهذا ماصورته سورة الأعراف بشأن قوم صالح (آية ٧٥) وسورة الأنعام (٥٢) والكهف (٢٨) والأحقاف (١١) بشأن محمد -عليه السلام-.

٢- كانت علة الرفض الأولى، مصادمة الدعوة لتقاليد الآباء كما ورد في سورة هود (٦٢) بحق صالح، وسورة ص (٥، ٦) بحق محمد -عليهما السلام- سواء أريد بالتقاليد عبادة إله أعلى مع آلهة أخرى أم أريد تعدد الآلهة دون الاعتقاد باله أعلى.

٣- اتفقت الأمتان في طلب آية حسية كدليل على صدق الداعي. كما ورد في سورة الشعراء (١٥٤) وسورة الإسراء(٥٩) بحق صالح -عليه السلام- ومثل ذلك ورد في سورة الإسراء (٩٠-٩٣) وسورة الفرقان (٧) بحق محمد -عليه السلام- فأعطى صالح الناقة آية هود (٦٤) والقمر (٢٧) ومنع محمد -صلى الله عليه وسلم- لأن معجزته عقلية ولم يعتمد على خرق العادة للمحسوسات في دعوته وقد بين القرآن علة المنع. الإسراء (٥٩).

ثانيا: موقفهما من الداعي:

-كان العلم بالنبيين متوفرا لأمتيهما واعترفت كل أمة لنبيها بمنزلته فيهم قبل

النبوة، كما أن سبل النبيين فى البلاغ كانت متقاربة إن لم تكن متحدة. فالتذكير بالنعم والترغيب والترهيب وإظهار النصح والدعوة بلا أجر والإخلاص فى الدعوة كل ذلك من الأمور المشتركة بين النبيين ومع ذلك رفض القومان التسليم لكل منهما بالنبوة والرسالة للأسباب التالية :

١- أن كلا منهما بشر لم يوح إليه كما ورد بحق صالح فى سورة الشعراء (١٥٤) والقمر (٢٤) وحق محمد فى سورة الإسراء (٩٤) والأنبياء (٣) والمدثر (٢٥).

٢- أن بهما من الصفات مايستقبح وقد تكلف القوم فى ذلك ولو أعملوا عقلهم فيما رموا به هذين الرسولين لبدا كذبهم صراحة ولكنه الهوى. فقوم صالح رموه بالسحر. الشعراء (١٥٣) والشؤم النمل (٤٧) والكذب. القمر (٢٥) والشعراء (١٥٤) ومثل ذلك فعل قوم محمد -صلى الله عليه وسلم- فالرمى بالسحر ورد فى سورة المدثر (٢٤) سبأ (٤٣) الأنبياء (٣) هود (٧) الأنعام(٧) وكذلك تشاءم قوم محمد به. النساء (٧٩) ورموه بالكذب في كثير من الآيات كما ورد فى سورة يونس (٣٨)، هود (١٣) والأنبياء (٥) والفرقان (٤) والشورى (٢٤) والأحقاف (٨)، ص (٤).

٣- كان للفقر دوره فى الرفض. فالناس يميلون -كثيرا- إلى ذوى الوجاهة وميسورى الحال وإن لم يكونوا على صواب، وقد تشابه حال صالح مع حال محمد -عليهما السلام- فى الإمكانات المادية ولذلك عيّرهما قومهما بالفقر وسوء الحال، منكرين نزول الوحي عليهما لذلك. كما ورد بحق صالح -صلى الله عليه وسلم- في سورة القمر (٢٥) وبحق محمد -صلى الله عليه وسلم- فى سورة الزخرف (٣١).

٤- إعلانهم أن النبوة لاتكون إلا للملائكة. ولوشاء الله لأنزل ملائكة أو يؤيد رسله بهم كما ورد فى سورة فصلت (١٤) بحق صالح -عليه السلام- وفى سورة الأنعام (٨) والفرقان (٧) بحق محمد -عليه السلام-.

٥- التطير بكل منهما وإعلان التشاؤم بهما صراحة. كما ورد في سورة النمل (٤٧) بحق صالح -عليه السلام- وسورة النساء (٧٨) بحق محمد -عليه السلام-

٦- دعا كل منهما نبيه إلى عبادة آلهتهم على التأقيت أو التأبيد، فأبى كل منهما الاستجابة بعد أن امتن الله عليهم بالهداية. نلمح ذلك مما ورد في سورة هود (٦٣) بحق صالح عليه السلام. وسورة الكافرون بحق محمد -عليه السلام-.

٧- اتخاذ القومين قراراً بقتل نبيهما. وأن يكون القتل بليل، مع الحرص على إهدار دم كل منهما حتى لاتكون المطالبة بالثأر، وقد وصف الله فعل القومين -مع بعد الزمن- بأنه مكر، وأن الله هو الذي تولى ردّه، وجعل تدميرهم في تدبيرهم، فأنجى النبيين، وأهلك مكذبي القومين، كما ورد في حق صالح -عليه السلام- ﴿قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله ثم لنقولن لوليه ماشهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون * ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لايشعرون * فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين﴾[1].

وورد في حق محمد عليه السلام ﴿وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين﴾[2].

٨- بوصول الدعوة إلى طريق مسدود لدى النبيين كانت النتيجة لصالحهما، فقد أهلك الله مكذبي أمة صالح، كما أهلك المكذبين من أهل مكة وإن اختلفت الوسيلة.

ثالثاً: موقفهما من المؤمنين:

كانت الكراهية بادية من الملأ - المكذبين- للمؤمنين في القومين، وكان الإيذاء شديداً فلقد اتهم قوم صالح المؤمنين به بالشؤم، ورموهم بالضعة، وقرروا قتلهم بليل حتى تموت الدعوة بموتهم، ويمثل ذلك كان موقف الملأ في مكة، حيث الإيذاء الحسي والمعنوي للمؤمنين الفقراء حتى وصل الأمر إلى قتل بعضهم، فضلا

---

(١) النمل ٤٨ - ٥١.

(٢) الأنفال ٣٠.

عن الحصار الاقتصادى والاجتماعى، والإيذاء فى المال والولد... إلخ. حتى كانت الهجرة هى الحل الوحيد فى بعض الأوقات دون ترك المهاجرين ينعمون بعيش الغربة والنأى عن الأهل والدار بل كان التعقب كذلك بمثل ماهو معروف فى كتب السيرة.

دعوة هود وصالح -عليهما السلام- في الكتاب المقدس

جمهور المؤرخين على أنه لاذكر لعاد وثمود فى الكتاب المقدس، ويترتب عليه عدم ذكر هود وصالح -عليهما السلام- ويرى بعض العلماء أن ذلك خير دليل على كون القرآن إلهى المصدر أوحى به إلى محمد -صلى الله عليه وسلم- وغير مقتبس أو متأثر بالرسالتين السابقتين عليه (التوراة- الإنجيل).

ويزعم البعض أن قبيلة ثمود من القبائل اليهودية التى هاجرت إلى شمال الجزيرة العربية واستوطنت بها. وهذه الدعوى غير صحيحة لأن مؤمن آل فرعون حذر قومه من ترك الإيمان وبين العاقبة المترتبة على ذلك **﴿وقال الذى آمن ياقوم إنى أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب * مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذى من بعدهم وما الله يريد ظلما للعباد﴾**[1] . فدل الأمر على أن الأحداث أسبق فى الوقوع من بعث موسى عليه السلام والذى أود التنبيه إليه أننا بحاجة إلى أن نفرق بين ماهو وارد فى الكتاب المقدس الآن (الأسفار الخمسة الأولى فقط) وما أشير إليه فى دعوة موسى -عليه السلام- فى ضوء القرآن.

لقد صرح القرآن بعلم موسى بأمر عاد وثمود وحذر قومه المعصية حتى لايقع بهم ماوقع بهما **﴿ وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن فى الأرض جميعا فإن الله لغنى حميد * ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لايعلمهم إلا الله جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم فى أفواههم وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به وإنا لفى شك مما تدعوننا إليه مريب﴾**[2] . وأما موقف الكتاب المقدس من ذكر القبيلتين ففيه رأيان :

---

(١) غافر ٣٠، ٣١.

(١) إبراهيم ٨، ٩.

الرأي الأول: ماسبقت الإشارة إليه أنه لاذكر بالمرة. يقول الطبرى (فأما أهل التوراة فإنهم يزعمون أنه لاذكر لعاد ولاثمود ولالهود وصالح فى التوراة وأمرهم عند العرب فى الشهرة فى الجاهلية والإسلام كشهرة إبراهيم وقومه)[1].

ويقول ابن كثير: «ويقال إن هاتين الأمتين لايعرف خبرهما أهل الكتاب وليس لهما ذكر فى كتابهم التوراة» ولكن فى القرآن مايدل على أن موسى أخبر عنهما. كما قال تعالى فى سورة إبراهيم على لسان موسى (ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود....) الظاهر أن هذا من تمام كلام موسى مع قومه، ولكن لما كان هاتان الأمتان من العرب لم يضبطوا خبرهما جيداً ولااعتنوا بحفظه وإن كان خبرهما مشهوراً فى زمن موسى عليه السلام[2].

الرأي الثاني: أن نسب القبيلتين وارد. لأن عمود النسب الذى اعتمد عليه المؤرخون مأخوذ عن الكتاب المقدس كما سبقت الإشارة إليه[3]. وأما النص على ذكر النبيين فلم يرد، والمعالم المتعلقة بهاتين الأمتين لاذكر لها فى الكتاب المقدس، وعدم الذكر لا ينفى عدم العلم. فليس العهد القديم هو المصدر الوحيد للمعرفة.

علة عدم الذكر فى الكتاب المقدس :

يظهر لكل مهتم بالكتاب المقدس أن مدونى العهد القديم قد ركزوا على جانب النسب الخاص بهم دون سواهم، وماذكروا غيرهم إلا عرضا لقوة اتصاله بهم كذكر السابقين على إبراهيم كآدم ونوح وأخنوخ. فالأول والثانى لأنهما أصل البشرية والثالث كرمز للصالحين، كما ذكروا لوطا لصلته بإبراهيم من ناحية الدم، وإسماعيل وأولاد قطورة لكونهم أولاد إبراهيم، ثم كان غض الطرف ليكون العود إلى تاريخ بنى إسرائيل على مدار خمسة عشر قرنا تقريبا.

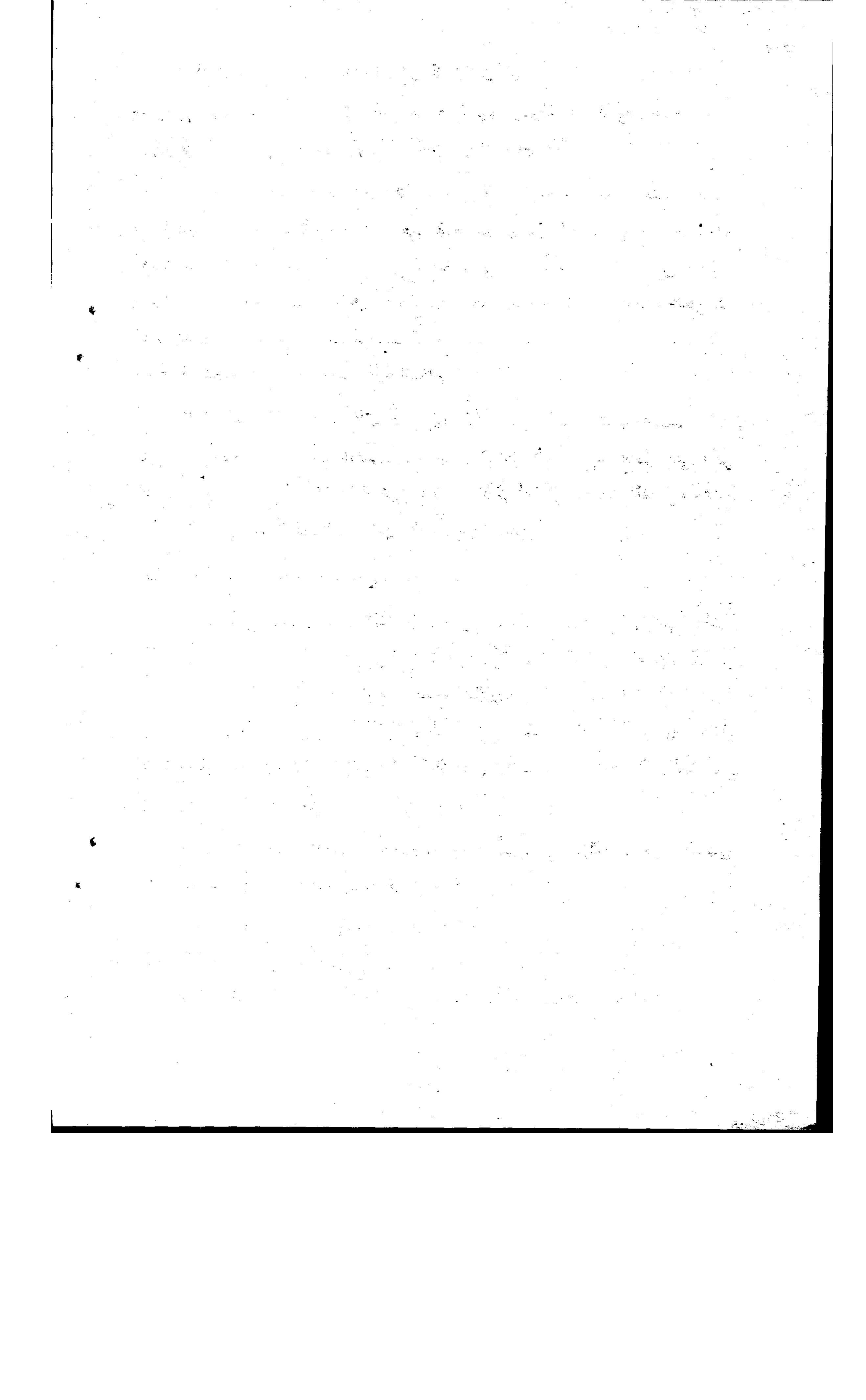
فهل ذلك دليل التحريف لما جاء به موسى وأنبياء بنى إسرائيل أو دليل العصبية لدى المدونين أو أن ذلك لم يرد أصلا عندهم؟

الأمر الثالث منتف والأولان محتملان.

---

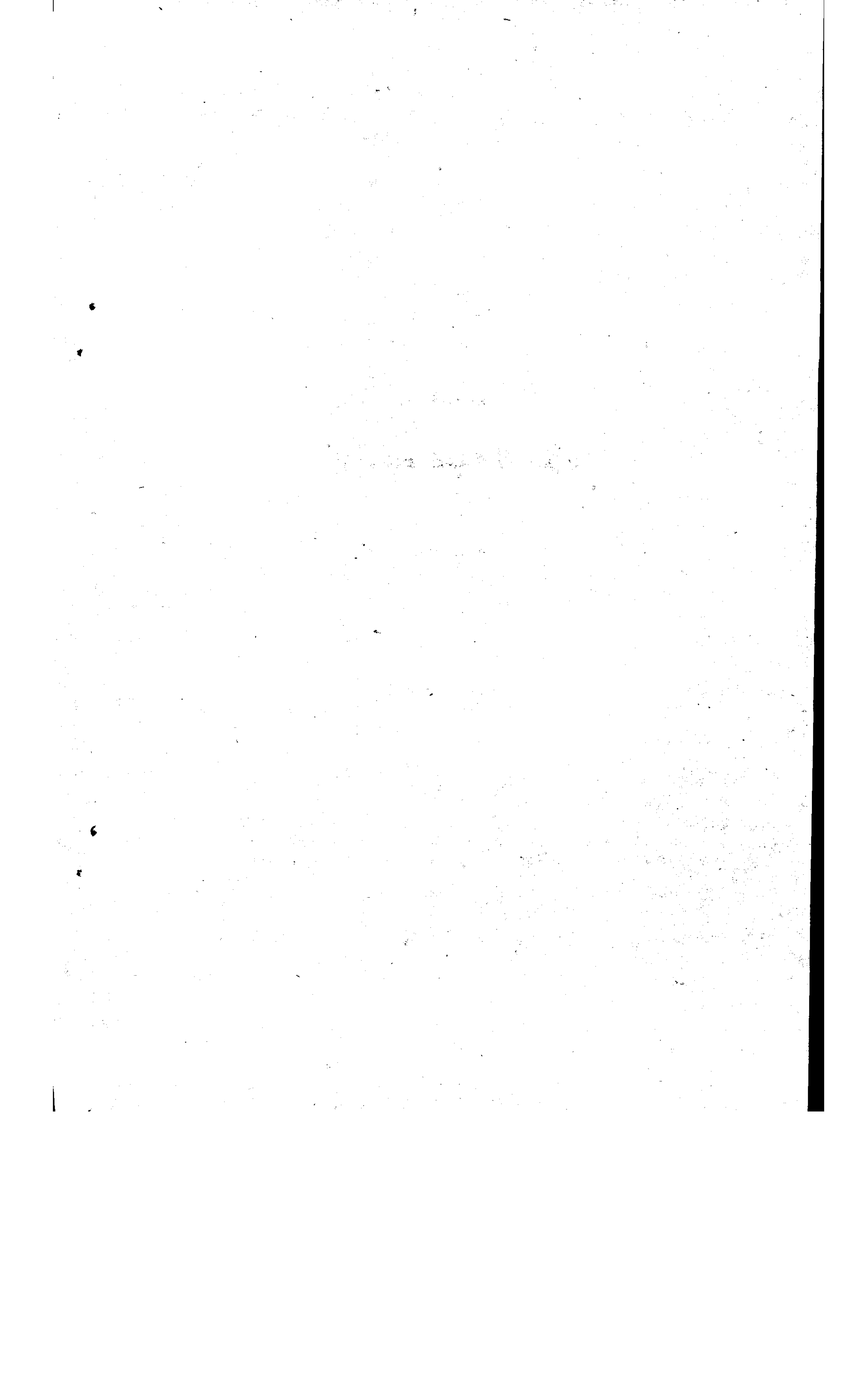
(1) تاريخ الطبرى ٢٣٢/١ ط المعارف – مصر.

(2) قصص الأنبياء لابن كثير ١٤٩/١. (3) انظر صفحة ٢٣٢ من هذا الكتاب.



(٦) دعـــوة

إبراهيم عليه السلام



فتر الحديث عن الوحي فترة غير محددة المقدار في القرآن الكريم، في الفترة التي بين صالح وإبراهيم -عليهما السلام - فلم يرد ذكر لأنبياء بعثهم الله إلي أمة من الأمم في تلك الفترة،مع أن العمران البشري قد امتد والحياة علي ظهر الأرض قد اتسعت عن ذي قبل، وسبل الاتصال قد يسرت، حتي وجدنا الرجل ينتقل من العراق إلي الشام فشبه الجزيرة فمصر بلاتعذر.

فهل يعني ذلك انقطاع النبوة لفترة من الزمن، أو أنها الفترات التي أمسك الحق عن ذكر أنبيائها أخذا من قوله تعالي ﴿منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك﴾[1] كلاهما محتمل.

وقد تبين لنا من خلال كتب التأريخ لهذه الفترة من الزمن - زمن دعوة إبراهيم - أن عمرانا قد تم في بلاد العرب والأطراف الشمالية لها، وكذلك أرض سيناء وشمال مصر، وقد شاءت إرادة الله أن يرسل إبراهيم عليه السلام مبشرا ومنذراً،لئلا يكون للناس علي الله حجة بعد البلاغ، فما هي البيئة التي خرج منها والتي أرسل إليها ومازمانها ومامكانها وإمكاناتها وماهي معتقداتها وماهو وجه حاجتها إلي النبوة والرسالة ؟ ذلك مانلقي الضوء عليه الآن.

(١) الامة التي بعث إليها إبراهيم عليه السلام

اولا : مكانها : لم يحدد القرآن البلد التي خرج منها إبراهيم -عليه السلام- ولم يحدد الناس الذين أرسل إليهم، إلا أنه قد أشار إلي تحرك إبراهيم عليه السلام بدعوته، إما فراراً بدينه، أو لأداء مهام منوطة . به،كتحركه بهاجر إلي أرض مكة وعوده إلي الشام ثم تحركه إلي مكة ثانية لبناء البيت الحرام وأداء شعيرة الحج، وقد أشارت السنة إلي أنه مر بأرض مصر، والتقي بحاكمها، وجمهور المؤرخين علي أن إبراهيم - عليه السلام - من بلاد العراق من أور الكلدانيين،وأنه تحرك بدعوته إلي الشام فمصر فالشام فمكة فالشام وقد دامت إقامته بأرض فلسطين

---

(١) غافر ٧٨.

حتي وافته المنية فيها ودفن بها وقبره معروف الآن [1].

ثانيا: زمانها: إنها بعد عاد وثمود دون إمكانية القطع بتحديد زمن وجودها. لأن البشرية في الأزمنة الغابرة كانت تؤرخ بالأحداث الجسام، وكلما وقع حدث جديد أعادوا التأريخ به، ولم يشر القرآن إلي زمنها، فليس بلازم تحديد الزمن في كل قصة في القرآن، إذا كان لايترتب علي عدم الذكر ضياع فائدة، وكان الترك غير ضار بالهدف الذي توصل إليه الآيات القرآنية، وقد حرص المؤرخون علي أن يحددوا زمن البعثة من خلال حديثهم عن الملوك الذين بعث إبراهيم في زمنهم أو التقي بهم في ترحاله، بأرض فلسطين ومصر [2]، وكذلك من خلال الفاصل الزمني بين إبراهيم وموسي وعيسي عليهم السلام - أو بينه وبين نوح [3].

والنقل عند المؤرخين يعتمد علي العهد القديم، والتراث الإنساني، ولايخفي علي عالم منزلة النقل عن هذين المصدرين، من حيث القبول والرد.

وإذا كان القرآن قد ترك الزمان والمكان بلاتحديد فإنه لم يمنع الإنسان من البحث العلمي حولهما.

ثالثا: إمكانات تلك الأمة: تحرك إبراهيم - عليه السلام - بدعوته بين العراق والشام ومصر ومكة، ولم ترد إشارات تتعلق بالإمكانات المادية لأمته إذا ما استثنينا الإشارات التي وردت بشأن مكة والتي صرح فيها إبراهيم بأنها بلاد قفر لازرع فيها، دون الإشارة إلي شيئ من حضارتها. قال تعالي علي لسان إبراهيم ﴿ربنا إني

---

(1) تاريخ الطبري ٢٣٣/١ -٢٥٠ الكامل ٩٤/١ : ١٢٣ البداية والنهاية ١٤٠/١، ١٤٩، ١٥٠، ١٥٢ والبدء والتاريخ ٥٢/٣.

(2) تاريخ الطبري ٢٤٠/١، البداية والنهاية ١٤٨/١ مروج الذهب ٤٤/١.

(3) البدء والتاريخ ٤٥، عرائس المجالس ٤٣، القرطبي ٢٤/٧، قصص الأنبياء للنجار ١١٠ والمستدرك ٥٩٨/٢.

أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون﴾[1].

(٢) المعتقدات الدينية زمن إبراهيم - عليه السلام-

أشار القرآن إلي معتقدات الأمم السابقة علي أمة إبراهيم، وبين مواقفها من ناحية الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، كما ذكر التيارات الدهرية أو المادية إلي جوار الديانات الوضعية كما سبق بيانه.

وبالنسبة لأمة إبراهيم - عليه السلام - فإنه لم يشر إلي موقفها صراحة من ناحية الإيمان بالإله الخالق الأعلي ... الخ من ناحية الإقرار مع اتخاذ شركاء أو الإنكار الكلي (الماديين) أو الإنكار مع الاستبدال وهو مايفهم من سياق الآيات التي تحدثت عن الديانات الوضعية لدي القوم.

وصريح القرآن في أن القوم قد اتخذوا آلهة تجلت في هياكل أرضية وعبدتها هم الوثنيون وهياكل علوية وعبدتها هم الصابئون[2].

وأما علمهم بالملائكة فلم ترد دلائل تدل عليه عندهم كما ورد بشأن الأنبياء السابقين.

وبالنسبة لموقفهم من نبوة السابقين فإنه لم ترد إشارة بالإثبات أو النفي تدل علي ذلك.

وأما علمهم باليوم الآخر فليس في القرآن مايثبت ذلك أو ينفيه علي الرغم من أن إبراهيم - عليه السلام - تحدث إلي قومه عن البعث والحساب والثواب والعقاب إلا أن القوم لم يردّوا عليه بالإثبات أو النفي،

فهل الترك اعتماداً علي المشهور من أن المؤلهين يؤمنون بالرجوع إلي الإله أو أن القوم آمنوا بالتناسخ أو كانوا منكرين للبعث؟ هذا مايشتغل به

---

(١) إبراهيم ٣٧.

(٢) الملل والنحل للشهرستاني ١٧٣/٢ ط دار المعرفة. بيروت.

مفصلاعلماء الأديان.

وقد أفاض المؤرخون في عقائد القوم ودياناتهم في غير ماذكره القرآن زمن إبراهيم – عليه السلام – دون دليل قوي يعتمدون عليه فيما كتبوا وهو ماجعلنا نتحرج النقل عنهم وبخاصة للاقتصار علي المعالجة في ضوء القرآن والسنة.

(٣) حاجة هذه الأمة إلى النبوة

إن أمة قد ارتدت بالكلية، وغابت عنها معالم النبوة والرسالة، ولم يبق لديها أثارة من علم بالوحي، هي أحوج ماتكون إلي من يبصرها بعواقب الأمور، ويردّها إلي الله الحق، بدلا من الآلهة الوضعية، وحتي تنتفي المعاذير أمام الله حين السؤال لذلك كان :

(٤) بعث إبراهيم عليه السلام

لم يتحدث القرآن عن سن إبراهيم – عليه السلام – أو عمره حديثا مفصلا، مع تصريحه برعاية الله وعنايته له، قال تعالي ﴿ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين﴾[١]، كما وصف في القرآن بصفات فطره الله عليها وصفات جمّله بها وصفات– تخلق بها إبراهيم في حياته، أحري بالدعاة أن يتخلقوا بها مااستطاعوا إليها سبيلا.

ومن هذه الصفات أنه كان (أمة قانتا، حنيفا [٢]، حليم، أواه، منيب[٣]، نال مرتبة الإمامة [٤] وفي بالعهد، حسن الخلق بار بوالده، كريم، تواق إلي المعرفة، سليم القل، من المحسنين، قوي العزيمة والإدراك، حاضر الذهن واسع الأفق ، صّديق[٥]).

وبعض هذه الصفات قد تكرر وصف إبراهيم بها أكثر من مرة والبعض

(١) الأنبياء ٥١.
(٢) النحل ١٢٠.
(٣) هود ٧٥.
(٤) البقرة ١٢٤.
(٥) مصادر الصفات بحسب الترتيب، النجم ٣٧والبقرة ١٢٤، مريم ٤١ : ٤٩، هود ٦٩. ٧٠ والذاريات ٢٤. ٢٧ البقرة ٢٦٠، الصافات ٨٤، الصافات ١٠٥، ص ٤٥، البقرة ٢٥٨ مريم ٤١.

الآخر لم يوصف بها إلا مرة واحدة في القرآن الكريم.

وبالنسبة للحالة الاجتماعية لإبراهيم - عليه السلام - فقد ذكر القرآن أنه تزوج وامتد به العمر ولم ينجب فدعا ربه أن يهب له من الصالحين ﴿وقال إني ذاهب إلي ربي سيهدين * ربي هب لي من الصالحين﴾[1] فاستجاب الله دعوته وأتته الملائكة في صورة ضيوف فقدم لهم طعاما فيه سمة الكرم إلا أنهم لم يأكلوا لاختلاف طبيعتهم عن طبيعة البشر، ثم بشروه بالولد كما ورد في قول الحق ﴿فأوجس منهم خيفة قالوا لاتخف وبشروه بغلام عليم * قال أبشرتموني علي أن مسَّني الكبر فبم تبشرون * قالوا بشرناك بالحق فلاتكن من القانطين * قال ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون﴾[2]. وقال تعالي ﴿فبشرناه بغلام حليم﴾[3]. ﴿فأوجس منهم خيفة قالوا لاتخف وبشروه بغلام عليم﴾[4]

كما تحدث القرآن عن بشارة زوجته بالولد مرتين في القرآن، إحداهما بأسلوب الإجمال. والثانية بأسلوب التفصيل، قال تعالي ﴿فأقبلت امرأته في صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم * قالوا كذلك قال ربك إنه هو الحكيم العليم﴾[5] وقد فُصِّلت البشارة في قول الحق ﴿وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب * قالت ياويلتي أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخا إن هذا لشيء عجيب * قالوا أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد﴾[6].

وندرك من مجموع الآيات :

١ - أن إبراهيم عليه السلام قد امتد به العمر بلا إنجاب

٢ - أنه طلب الولد من ربه داعيا أن يكون المولود من الصالحين.

٣ - أن الله استجاب دعاءه وأمر ملائكته أن يبشروه بالولد موصوفا

---

(١) الصافات ٩٩، ١٠٠. (٢) الحجر ٥٤ : ٥٦.

(٣) الصافات ١٠١. (٤) الذاريات ٢٨.

(٥) الذاريات ٢٩، ٣٠. (٦) هود ٧١، ٧٣.

بصفات الجمال (حليم - عليم - سيمتد به العمر حتي يتزوج وينجب).

٤ - قاس إبراهيم الأمور بالظاهر، فهو كبير السن لايرجي منه الولد، وهذا ماصرح به في قوله (أبشرتموني عل أن مسني الكبر) دون أن يتعرض لحال زوجه بالذكر، بينما استبعدت زوجته ذلك لأن حالها (عجوز) وحال زوجها (عقيم) وقيل إن الوصفين لها.

٥ - لم يذكر القرآن اسم الزوجة التي بشرتها الملائكة بالولد، وإن اتفق المؤرخون والمفسرون علي أن إسحاق ابن لسارة من إبراهيم، وأن إسماعيل ابن لهاجر كما ورد بالسنة ذلك، إلا أنه قد وقع خلاف في أمر المبشر به في سورة الصافات ترتب عليه خلاف بعد ذلك فيمن هو الذبيح وهو ما يعالج في حينه - إن شاء الله -

وأما جانب اليسار والاعسار والعمل الذي احترفه إبراهيم للتكسب فلم يشر القرآن إلي شيئ منه.

الدين الذى أتى به إبراهيم عليه السلام

أتي إبراهيم - عليه السلام - بالإسلام، وإليه دعا، وبه وصي، كما دعي مسلما وسَمّي أتباع الرسالة الخاتمة بالمسلمين، وبالرجوع إلي القرآن ندرك مايلـي :

١ - أمر الله إبراهيم بالإسلام فاستجاب. قال تعالي في حقه ﴿إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين﴾ (١).

٢ - وصي إبراهيم أولاده بالإسلام والتمسك به حتي الممات (ووصي بها إبراهيم بنيـه ويعقـوب يابني إن الله اصطفي لكم الدين فـلاتموتن إلا وأنتم مسلمون) (٢).

٣ - كان يدعو ربه أن يحفظ عليه هذا الدين (ربنا واجعلنا مسلمين لك

---

(١) البقرة ١٣١. (٢) البقرة ١٣٢.

ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا) [١].

٤ - اتفق إبراهيم مع سائر الأنبياء في الوصف بالإسلام، كما أمر الرسول- محمد - أن يعلن ذلك (قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل علي إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسي وعيسي والنبيُّون من ربهم لانفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون) [٢].

٥ - سَمّي إبراهيم أتباع محمد - عليه السلام - بالمسلمين. قال تعالي ﴿وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وماجعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل﴾[٣].

٦ - أبطل القرآن كون إبراهيم يهوديا أو نصرانيا عندما ادعي أهل الكتاب ذلك. قال تعالي ﴿يا أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون * ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لاتعلمون * ماكان إبراهيم يهوديا ولانصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وماكان من المشركين﴾[٤].

الرسالة التي نزلت عليه

صريح القرآن أن رسالة قد نزلت علي إبراهيم - عليه السلام - تتضمن تعاليم إلهية، قال تعالي آمراً هذه الأمة ﴿قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلي إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسي وعيسي وما أوتي النبيون من ربهم﴾[٥]. كما أَمرَ الرسول - صلي الله عليه وسلم - بإعلان مثل ذلك في سورة آل عمران (٨٤).

وقد ذكر القرآن بعض ماورد في صحف إبراهيم. قال تعالي ﴿ أم لم ينبأ بما

---

(١) البقرة ١٢٨.
(٢) آل عمران ٨٤.
(٣) الحج ٧٨.
(٤) آل عمران ٦٥ : ٦٧.
(٥) البقرة ١٣٦.

في صحف موسي * وابراهيم الذي وفي * ألا تزر وازرة وزر أخري * وأن ليس للإنسان إلا ماسعي * وأن سعيه سوف يري * ثم يجزاه الجزاء الأوفي ..﴾[1] وقال تعالي ﴿قد أفلح من تزكي * وذكر اسم ربه فصلي * بل تؤثرون الحياة الدنيا *والآخرة خير وأبقي * إن هذا لفي الصحف الأولي *صحف إبراهيم وموسي﴾[2]. ولم يسم النص المُوحَي به إلي إبراهيم باسمٍ علمٍ كما ورد بشأن موسي (التوراة) وداود (الزبور) وعيسي (الإنجيل).

معالم دعوة إبراهيم وموقف القوم منها

الذين كتبوا عن دعوة إبراهيم – عليه السلام – والذين كتبوا قصته – إلا قليلا منهم – ركزوا علي جانب واحد من جوانب دعوته وهو جانب العقيدة (التوحيد بخاصة)وكم أغفل كثيرون جانب الشريعة بالكلية، حتي ذكر البعض أن القرآن لم يذكر من دعوة إبراهيم إلاجانب التوحيد، وفي ذلك مجانبة للصواب.

إن النظر في الآيات التي تحدثت عن دعوة إبراهيم – عليه السلام – يكشف لنا النقاب عن ركنين من أركان دعوته هما :

الركن الأول : التوحيد باعتباره أساس العقيدة الصحيحة.

الركن الثاني : العبادات باعتبارها من مكونات الشريعة.

وفي إطار الحديث عن جانب العقيدة يمكن تناول الأمر من جهتين:

الجهة الأولي : عقيدة إبراهيم كما يوضحها القرآن.

الجهة الثانية : منهج إبراهيم في الدعوة إلي التوحيد.

ويمكن تفصيل ذلك فيما يلي:

---

(١) النجم ٣٦ : ٤١.

(٢) الأعلي ١٤ : ١٩.

أولا: عقيدة إبراهيم كما يوضحها القرآن

إبراهيم عليه السلام هو إمام الموحدين بالنسبة لبنيه ومن بعده من الأنبياء والمرسلين، وقد ركز القرآن علي جانب التوحيد بالنسبة لشخص إبراهيم - عليه السلام - وبالنسبة لدعوته، فلقد أمر بالتوحيد قولا وعملا فاستجاب ﴿وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لاتشرك بي شيئا وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود﴾[1].

وفي إطار حديثه عن عقيدة إبراهيم - عليه السلام - وجدناه قد ذكر:

أ - **وصف إبراهيم بالحنيفية** - وقد تكرر ذلك الوصف عدة مرات في القرآن الكريم، قال تعالي:

﴿وقالوا كونوا هودا أو نصاري تهتدوا قل بل ملة إبراهيم حنيفا وماكان من المشركين﴾[2]

﴿ماكان إبراهيم يهوديا ولانصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وماكان من المشركين﴾[3]

﴿قل صدق الله فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفا وماكان من المشركين﴾[4].

﴿ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفا﴾[5]

﴿إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين * شاكرا لأنعمه اجتباه وهداه إلي صراط مستقيم .... ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا وماكان من المشركين﴾[6].

كما أعلن إبراهيم ذلك صراحة بعد مناظرته للصابئة والتي ختمها بقوله لهم

---

(١) الحج ٢٦.
(٢) البقرة ١٣٥.
(٣) آل عمران ٦٧.
(٤) آل عمران ٩٥.
(٥) النساء ١٢٥.
(٦) النحل ١٢٠، ١٢١، ١٢٣.

﴿إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين﴾[1]

ومن الآيات السابقة ندرك مايلي :

١ - أن إبراهيم عليه السلام كان يدين بالحنيفية.

٢ - نفت الآيات نسبة الشرك إلي إبراهيم في المراحل المتقدمة من حياته في خمس آيات مما يبطل ماذهب إليه البعض من ترقي إبراهيم في ميدان الاعتقاد حتي انتهي بالتوحيد.

٣ - لاصلة بين إبراهيم - عليه السلام - وبين اليهودية والنصرانية.

٤ - أن محمدا - صلي الله عليه وسلم - قد أمر باتباع ملة إبراهيم عليه السلام. أ.هـ.

وإذا كانت الحنيفية تعني العدول عن الشرك إلي التوحيد فإننا قد وجدنا يوسف - عليه السلام - يصرح بأنه علي ملة إبراهيم غير متأثر بالمعتقدات الفاسدة التي سادت عصره ﴿إني تركت ملة قوم لايؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون * واتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب ماكان لنا أن نشرك بالله من شيء﴾[2]

وقد ذكر محمد - صلي الله عليه وسلم - في قول الحق ﴿قل إنني هداني ربي إلي صراط مستقيم دينا قيما ملة إبراهيم حنيفا وماكان المشركين﴾[3]

ب - طلبه العصمة من الله حتى لايزل فى الاعتقاد: ﴿وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا واجنبني وبني أن نعبد الأصنام﴾[4]

جـ - إعلانه البراءة من معتقد أبيه وقومه. قال تعالي ﴿وماكان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه﴾[5] ﴿وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني براء مما تعبدون * إلا الذي فطرني فإنه سيهدين﴾[6] وقد ذكر الحق سبحانه

---

(١) الأنعام ٧٩.
(٢) يوسف ٣٧، ٣٨.
(٣) الأنعام ١٦١.
(٤) إبراهيم ٣٥.
(٥) التوبة ١١٤.
(٦) الزخرف ٢٦، ٢٧.

للرسول وأصحابه أن إبراهيم قد ضرب المثل في علاقة الموحدين بالوثنيين، واستثنى من تلك العلاقة ماكان يطمح إليه إبراهيم بحكم الوَلَدِيَّة من وجوب بر الآباء، ومنها طلب المغفرة لهم. قال تعالى ﴿قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برءاء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتي تؤمنوا بالله وحده إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شيئ ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير﴾[1] مع اعتزاله للمشركين ﴿وأعتزلكم وماتدعون من دون الله وأدعو ربي عسي أن لا أكون بدعاء ربي شقيا، فلما اعتزلهم ومايعبدون من دون الله وهبنا له إسحاق ويعقوب ...﴾[2].

د - كان يجاهر بما يعتقد: فلقد أعلن أن المتصرف في الكون في الدنيا والآخرة واحد هو رب العالمين، وأن المعبودات الأخري لاتسمع ولاتنفع ولاتضر - وأنه يعاديها كافة ويتعلق بمعبوده الذي وصفه بقوله ﴿الذي خلقني فهو يهدين * والذي هو يطعمني ويسقين * وإذا مرضت فهو يشفين * والذي يميتني ثم يحيين * والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين﴾[3]

وبهذا يتبين لنا جانب التوحيد في عقيدة إبراهيم كما ذكره القرآن.

منهج إبراهيم في الدعوة إلى التوحيد

ذكرنا سابقا أن قوم إبراهيم- عليه السلام - كانوا أصحاب ديانات وضعية، عبدوا فيها هياكل أرضية أشهرها وأكثرها (الأصنام) كما عبدوا هياكل علوية، ذكر القرآن منها (الكواكب - القمر - الشمس) - كما عرفوا تأليه (الحاكم)في بعض الديار.

وقد اصطلح علماء الأديان علي تسمية عبدة الهياكل الأرضية بالوثنيين، وعلي تسمية عبدة الهياكل العلوية بالصابئة.

وقدحرص إبراهيم - عليه السلام - علي نشر التوحيد بين قومه، فناظر وجادل

---

(١) الممتحنة ٤. (٢)مريم ٤٨.

(٣) الشعراء ٧٨، ٨٢.

وحطم وعذب وهاجر ... بهدف إقناع الناس بالركن الأساسي في الرسالات ألا وهو التوحيد الخالص لله رب العالمين، فهل استطاع إبراهيم تحقيق مراده وماهو موقف القوم من دعوته، ذلك مانلقي الضوء عليه الآن :

اولا : حوار إبراهيم مع الوثنيين : وردت الاشارة إلي ذلك في سورة مريم ،الأنبياء، الشعراء ، الصافات – العنكبوت.وقد ناقش إبراهيم – عليه السلام – عبده الأوثان مناقشة عقلية سلك فيها سبيلين :

السبيل الأول : سبيل الإفراد:

وسبيل الإفراد في الدعوة ورد في سورة مريم والتي نصت علي دعوة إبراهيم أباه إلي التوحيد ونبذ عبادة الأوثان، قال تعالي **﴿واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقا نبيا * إذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد مالا يسمع ولايبصر ولايغني عنك شيئا * يا أبت إني قد جاءني من العلم مالم يأتك فاتبعني أهدك صراطا سويا * يا أبت لاتعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصيا * يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا * قال أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجمنك واهجرني مليا * قال سلام عليك سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفيا * وأعتزلكم وماتدعون من دون الله وأدعو ربي عسي ألا أكون بدعاء ربي شقيا﴾**(١).

وقد تميز حوار إبراهيم مع أبيه بما يلي :

١ – خطاب الابن لأبيه بأسلوب مهذب علي الرغم من الخلاف في المعتقد،فما عنف إبراهيم أباه ولا عيره ولاضربه، بل كان النداء بصيغة الاحترام والتقدير(يا أبت)

وقد ادعي بعض المفسرين وكتاب القصص بأن إبراهيم كان يأخذ الأصنام التي يصنعها والده ويذهب بها إلي السوق اتباعاً لأمر أبيه، إلا أنه كان ينادي عليها قائلا: يامن يشتري مَا لاينفع ولايضر (٢). وهذه الدعوي لا دليل عليها.

---

(١) سورة مريم ٤١ : ٤٨.

(٢) تاريخ الطبري ٢٣٥/١ ، بدائع الزهور ١٢٤/١ ، أخبار الدول وآثار الأول ٢٩.

٢ – توجه إبراهيم إلي أبيه مشككا إياه في طبيعة الآلهة التي يعبدها، فالعقل يري أن الإله لابد وأن يكون سامعا لعابديه، مبصرا إياهم، يدرك أفعالهم، له من الصفات مايعينه علي النفع والضر، وكم يفترض العقل مثل تلك الصفات في الذي يعبده – وإن كان عاريا عنها – وليس العيب في معبود أله من دون الله بل العيب في عقل أله معبودا له من دون الله.

٣ – بين إبراهيم أن دعوته ليست نتاج الهوي ولا التأثر بالموروثات وإنما هي وحي الله إليه وهداية من الله له أراد أن يدعو والده إليها بأسلوب مهذب، فقد نسب إلي نفسه شيئا من العلم أوتي إياه لم يعطه والده، والخير في أن يتبعه والده حتي يهديه إلي الصراط السوي، صراط الله المستقيم.

٤ – ذكر إبراهيم لأبيه أن ماعليه من معتقد إنما هو نزغ من الشيطان وأن العاقل لايقبل عبادة أو معبوداً من وضع الشيطان، لأن عداوته لله وللرسل وللإنسان قائمة.

٥ – إن الإعراض عن الإيمان يترتب عليه سوء العاقبة إما في الدنيا أو في الآخرة أو فيهما معاً، ولذلك أظهر الابن البار العاطفة تجاه والده في قوله (يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا) [1].

موقف الوالد من الدعوة:

أحسن إبراهيم – عليه السلام – عرض دعوته واتبع أسلوب الترغيب والترهيب مع أبيه إلا أن طول العهد بالمعتقد الباطل كان له دوره في الطبع علي القلب ولذلك قال والد إبراهيم له علي سبيل الاستفهام الإنكاري (أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجمنك واهجرني مليا) [2]. هكذا قابل الوالد الحسنة بالسيئة واللين بالعنف والرحمة بالقسوة، والأمر بالهجر من قبل الوالد يحتمل الطرد من البيت ويحتمل طلب الإنظار من أجل التفكير في الدعوة الجديدة.

---

(١) مريم ٤٥. (٢) مريم ٤٦.

ومع قسوة الأسلوب وشدته، والجمع بين التعنيف والتهديد، وجدنا إبراهيم يقابل السيئة بالحسنة، علي النقيض من صنع أبيه (قال سلام عليك) ثم بين أن علاقته بوالده لاتتوقف عند هذا الحد وإنما سيتوجه إلي ربه بأن يغفر له ويهديه وهو يأمل من الله ذلك **﴿قال سلام عليك سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفيا﴾**[1] أي راعيا إياي معنيا بي .

والقصة تفيدنا بما يلي:

١ - وجوب تلطف الأبناء مع الآباء في الخطاب ولو كان الخلاف في الجانب العقيدي.

٢ - لايقتصر بر الأبناء للآباء علي الجانب المادي بل البر الأدبي مطلوب أيضا. فالنصح للوالدين من قبل الأبناء بالخلق الحسن من الأمور الواجبة.

٣ - ألا يقابل العنف من الوالدين بعنف يعدله أو أشد منه من الأبناء، بل لابد أن تقابل كل شدة منهم بكل لين ممكن في حدود الشرع.

٤ - وجوب إصلاح من يلي الانسان أمرهم ويكون أمره بالرفق وحسن الخلق، ولو أصلح كل فرد حاله وحال أهله ومن وليهم لصلحت المجتمعات.

٥ - يجوز اعتزال أهل المعاصي إذا تعذر علي الإنسان إصلاحهم حتي لايؤثروا بسوء صنيعهم علي سلوك الإنسان.

٦ - علي العالم أن يخاطب الناس بأسلوب راق وإن خاطبوه بالجفاء وسوء الأخلاق فإنه لايستوي الذين يعلمون والذين لايعلمون.

السبيل الثاني: سبيل الجمع:

وقد تجلي ذلك في محاجة إبراهيم لعبدة الأوثان من قومه، والتي كانت أكثر انتشاراً من عبادة النجوم والكواكب، بدليل أن القرآن ذكر العبادة الثانية مرة واحدة في قصة إبراهيم وذكر الأولي مرات عدة، وقد دعا إبراهيم إلي الاقلاع عن عبادة تلك

---

(١) مريم ٤٧.

المعبودات بالقول، وفاوت في طريقة عرض الدعوة فلما تعذر عليه أن يلزم، غيّر مسار الدعوة من القول إلى الفعل.

ويمكن بيان منهج إبراهيم – عليه السلام – على النحو التالي.

أولا : السؤال عن طبيعة تلك المعبودات : إما بصيغة الاستفهام أو التهكم، ليحرك فيهم ملكة التفكير في شأنها . قال تعالى ﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناما آلهة إني أراك وقومك في ضلال مبين﴾[1] ﴿إذ قال إبراهيم لأبيه وقومه ماهذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون﴾ [2]، ﴿ إذ قال لأبيه وقومه ماتعبدون﴾[3] ﴿إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون﴾[4] وورود التعبير بصيغة الجمع (التماثيل) يدل على الكثرة.

ثانيا : التشكيك في استحقاق تلك المعبودات للألوهية . وذلك بطرح الأسئلة التي تبعث على التفكير في شأنها كآلهة ﴿هل يسمعونكم إذ تدعون . أو ينفعونكم أو يضرون﴾[5] ﴿إن الذين تعبدون من دون الله لايملكون لكم رزقا﴾[6].

ثالثا : وصف تلك المعبودات وعبادتها بما يستقبح: ﴿ أئفكا آلهة دون الله تريدون﴾[7] ﴿إنما تعبدون من دون الله أوثانا وتخلقون إفكا﴾[8].

رابعا : التصريح بعداوة تلك المعبودات لعابديها يوم القيامة . وكذلك كفر عابديها بها في الآخرة ﴿وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم في الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا ومأواكم النار ومالكم من ناصرين﴾[9].

---

(١) الأنعام ٧٤.
(٢) الأنبياء ٥٢.
(٣) الشعراء ٧٠.
(٤) الصافات ٨٥.
(٥) الشعراء ٧٢، ٧٣.
(٦) العنكبوت ١٧.
(٧) الصافات ٨٦.
(٨) العنكبوت ١٧.
(٩) العنكبوت ٢٥.

خامسا: بيان صفات الإله الذي يدعو إليه. ﴿الذى خلقنى فهو يهدين * والذى هو يطعمنى ويسقين * وإذا مرضت فهو يشفين * والذى يميتنى ثم يحيين * والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين﴾[1]. ﴿قال بل ربكم رب السموات والأرض الذى فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين﴾[2] وسألهم عن مدى علمهم به ﴿فما ظنكم برب العالمين﴾[3].

سادسا: إعلان براءته من تلك العبادة ومن هؤلاء المعبودين. قال تعالى ﴿وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إننى براء مما تعبدون * إلا الذى فطرنى فإنه سيهدين﴾[4] وفى آية أخرى ﴿فإنهم عدو لى إلا رب العالمين﴾[5].

موقف عبدة الأوثان من دعوة إبراهيم:

صريح القرآن أن القوم لم يجدوا علة يتعللون بها للتمسك بتلك العبادة إلا أنها من موروثات الآباء ﴿قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين﴾. ﴿قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون﴾ وهاتان الآيتان تبينان آثار الموروثات السلبية عن الآباء وبخاصة فى جانب العقيدة، حيث يغيب العقل عن التفكير في أمر المعبود فضلا عن أن يدين له بالولاء، ولذلك اعتمد الأنبياء علي بعث العقل من سباته حين دعوتهم، وبذلوا كل جهد ممكن لتحريك العقول للتفكير في أمر الموروثات لإحقاق الحق وإبطال الباطل.

وقد ذكر القرآن أن إبراهيم – عليه السلام – قد واجه قومه بضلال آبائهم ووصف المخاطبين بالضلال في هذا الاتباع لهم ﴿قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين﴾[6]. وحثهم علي عدم التسليم لها بالألوهية ودعاهم إلي إعمال العقل والنظر في تلك الموروثات ﴿قال أفرأيتم ماكنتم تعبدون * أنتم وآباؤكم الأقدمون﴾[7] ومع هذا لم تجد دعوة إبراهيم آذانا صاغية ولاقلوبا واعية ولاعقولا صافية. فكان الإصرار علي عبادتها وإن قويت الحجة وظهرت المحجة.

(١) الشعراء ٧٨ – ٨٢.
(٢) الأنبياء ٥٦.
(٣) الصافات ٨٧.
(٤) الزخرف ٢٦، ٢٧.
(٥) الشعراء٧٧.
(٦) الأنبياء ٥٤.
(٧) الشعراء ٧٥، ٧٦.

الدعوة لترك عبادة الأوثان بين النظرية والتطبيق:

تغيير المنكر يكون بأقل ضرر متوقع وهو مايتجلي في الحوار الفكري. فإذا تعذر التغيير بالقول وجب الانتقال إلي التغيير بالفعل بشرط اتباع القواعد المتفق عليها في مثل هذا الموطن.

وقد سلك إبراهيم - عليه السلام - هذا المسلك، حين دعا قومه إلي التخلي عن عبادة الأوثان فلم تجد الدعوة فسلك السبيل العملي للقضاء علي تلك العبادة علي النحو التالي :

١ - بيّت إبراهيم - عليه السلام - النية علي تكسير الأصنام مع التأكيد بالقسم ﴿وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين﴾[١]. ويفهم من النص والحال أن عقد العزم ظل سراً لم يظهره إبراهيم - عليه السلام - وإلا لاتخذ القوم السبل الممكنة إلي منعه.

٢ - اغتنام الفرصة وتحينها للتنفيذ وذلك بالخروج إلي الأصنام في يوم لم يخرج فيه إليها منهم أحد أو في وقت لم يتواجد عندها منهم أحد.

٣ - اعتاد القوم ترك بعض الأطعمة إلي جوار تلك الآلهة من باب النذور والقرابين أو إطعامها أو إطعام من ينزل عندها ولعلها حيلة قام بها الكهنة - ولايزالون - إلي جوار المعابد لجمع عوائد قيّمة من السذج وأنصاف المتعلمين، مع رجحان كون الطعام لها لأن إبراهيم تهكم بتلك الآلهة قائلا لها ﴿ألا تأكلون * مالكم لاتنطقون﴾[٢].

٤ - أجمع إبراهيم - عليه السلام - قوته وقام بتكسير الأصنام - إلا واحدا منها - بلا هوادة ﴿فراغ عليهم ضربا باليمين﴾[٣]. ﴿فجعلهم جذاذا إلا كبيرا لهم لعلهم إليه يرجعون﴾[٤] ولم يرد بالقرآن أو السنة تعليق إبراهيم الفأس برأس الصنم

---

(١) الأنبياء ٥٧.

(٢) الصافات ٩١، ٩٢ وحول الاعتقاد في أن الآلهة كانت تأكل القرابين. راجع قصة الحضارة ٢١١/٢.

(٣) الصافات ٩٣. (٤) الأنبياء ٥٨.

الأكبر كما يروي المؤرخون والقصاص، وقد علم القوم بما أصاب آلهتهم، وكان الحدث في ذاته كافيا في إقناع القوم ببطلان ألوهية تلك الأصنام لو كانوا يعقلون، لظهور عجزها في الدفاع عن نفسها أو غيرها، ولعدم علمها بما يصيبها، وعدم قدرتها علي إخبار القوم بمن أصابها وما أصابها، إلا أن كهان المعابد والمتاجرين بالأديان يغضون الطرف عن كثير من الأباطيل لاستبقاء الرزق دون اعتبار للحل والحرمة.

وقد نتج عن تكسير الآلهة ردّ فعل غاضب لدي القوم، فسألوا عمن فعل ذلك، ورجحوا أنه إبراهيم لأنه كان دائم السب لها والطعن فيها فضلا عن كونه لايأبه لها بقدسية ولايرعي لها حرمة ..الخ ﴿قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين * قالوا سمعنا فتي يذكرهم يقال له إبراهيم * قالوا فأتوا به علي أعين الناس لعلهم يشهدون - قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم * قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون﴾[1] ﴿فأقبلوا إليه يزفون * قال أتعبدون ماتنحتون *والله خلقكم وماتعملون﴾[2]

وهذه الاستفهامات تدل علي الفطنة التي تمتع بها إبراهيم - عليه السلام - فلقد عدل عن الإجابة علي سؤالهم إلي طرح أسئلة عليهم مع تشكيكهم ثانية في أمر معبوداتهم تلك، وأقام الدليل علي عجز تلك الآلهة. كما يوضح ذلك قول الحق﴿قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون * فرجعوا إلي أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون * ثم نكسوا علي رؤوسهم لقد علمت ماهؤلاء ينطقون * قال أفتعبدون من دون الله مالاينفعكم شيئا ولايضركم * أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون﴾[3]. وقد حركت تلك الأسئلة عقولهم برهة، عدلوا عن الحق بعدها إلي الباطل ثانية. وذلك في وصف الحق لحالتهم، قال تعالي ﴿فرجعوا إلي أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون * ثم نكسوا علي رؤوسهم لقد علمت ماهؤلاء ينطقون﴾[4]

---

(١) الأنبياء ٥٩ - ٦٣.
(٢) الصافات ٩٤ - ٩٦.
(٣) الأنبياء ٥٩ - ٦٣.
(٤) الأنبياء ٦٤، ٦٥.

القرار :

لقد أجمع القوم أمرهم علي قتل إبراهيم شر قتله ليكون عبرة لكل من تسول له نفسه انتهاك حرمة الآلهة – المزعومة – بعد ذلك ﴿ وقالوا ابنوا له بنيانا فألقوه في الجحيم﴾[1] . ﴿قالوا فأتوا به علي أعين الناس لعلهم يشهدون * قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم..... قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين﴾[2] .

وقد مكن الله للمشركين من إبراهيم، لإقامة الدليل علي عجزهم، كما توافرت الدلائل علي عجز آلهتهم قبل ذلك، فلم يأمر إبراهيم بالهرب أو الاستخفاء، بل يسرت السبل لهم فحفروا الحفرة وبنوا بنيانا خاصا للمحرقة وجمعت الأخشاب وأوقدت النار التي وصفت بأنها (الجحيم)وألقي إبراهيم فيها لفترة غير معلومة المقدار من مصدر صحيح، وقد سلبت النار خاصية الإحراق، وأمرت بقول الحق ﴿... كوني بردا وسلاما علي إبراهيم﴾[3] فكانت كما أمرت، ليتحقق قول الله تعالي ﴿فأرادوا به كيدا فجعلناهم الأسفلين﴾[4] .

وكون الواقعة حقيقية أمر لاينكره إلا مكابر، لصحة النصوص التي أوردتها، كما أن العقل لايحيل ذلك علي قدرة الله ﴿فما كان جواب قومه إلا أن قالوا اقتلوه أو حرقوه فأنجاه الله من النار إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون﴾[5]

وقد ذكر المؤرخون والمفسرون والقصاص عجائب وغرائب تتعلق بهذه الحادثة مما لا أساس له من الصحة فكان الإعراض عنها أولي [6] .

ب – **الصابئة** : وأهلها هم عبدة الكواكب والنجوم : ومنهم طائفة من أمة إبراهيم اتخذت من الهياكل العلوية آلهة لها وقد حرص إبراهيم عليه السلام أن يناقشهم في طبيعة معتقداتهم ويقيم الدليل علي بطلان ألوهيتها بمثل مافعل مع عبدة الأوثان والعجب كل العجب أن يذهب كثير من المؤرخين والقصاص وكتاب العقائد

---

(١) الصافات ٩٧.
(٢) الأنبياء ٦١، ٦٨.
(٣) الأنبياء ٦٩.
(٤) الصافات ٩٨.
(٥) العنكبوت ٢٤.
(٦) أنظر ص ٣٣٥ من هذا الكتاب.

والديانات إلي أن إبراهيم – عليه السلام – كان في كهف منذ ميلاده حتي شبابه ثم خرج ليري تلك الأجرام وينتهي من النظر فيها إلي إبطال ألوهيتها مع التوجه إلي الإلهٔ الأعلي. والقصة بهذا الفهم تشير إلي نظرية التطور في العقائد والديانات – كما يري البعض – بدءاً بالتعدد وانتهاءً بالوحدة. مع أن نظرة هادئة إلي النص القرآني تُظْهر أن ماصدر عن إبراهيم – عليه السلام – كان بوحي الله إليه، فقبل الحديث عن المناظرة التي وردت في سورة الأنعام، قال الحق سبحانه ﴿وكذلك نُري إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين﴾[1] وبعد الواقعة ورد قول الحق سبحانه ﴿وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم علي قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم﴾[2] ومن خلال تلك الآيات نذهب مع القائلين بأن المناظرة كانت بوحي من الله إلي إبراهيم لإلزام قومه، وقد وصفت بأنها حجة لإبراهيم علي قومة وأضيفت إلي الله بما يبطل دعوي ترقي إبراهيم في الاعتقاد حتي وصل إلي التوحيد. وقد ذكر الحق موقف إبراهيم من الصابئة في سورة الأنعام دون تكرار لذكره في باقي سور القرآن قال تعالي ﴿وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين * فلما جن عليه الليل رأي كوكبا قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الآفلين * فلما رأي القمر بازغا قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين * فلما رأي الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال ياقوم إني برئ مما تشركون * إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين * وحاجه قومه قال أتحاجوني في الله وقد هدان ولا أخاف ماتشركون به إلا أن يشاء ربي شيئا وسع ربي كل شيئ علما أفلا تتذكرون * وكيف أخاف ما أشركتم ولاتخافون أنكم أشركتم بالله مالم ينزل به عليكم سلطانا فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون * الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون * وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم علي قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم﴾[3].

ومن خلال النظر في تلك الآيات ندرك مايلي :

---

(٣) الأنعام ٧٥. (٢) الأنعام ٨٣.

(٣) الأنعام ٧٥ : ٨٣.

١ – عدم النص علي اسم الكوكب أو تعيينه بأي صورة من الصور وقد خاض في ذلك كثير من المفسرين والقصاص بلا دليل.

٢ – كان شأن ذلك الكوكب أن يعبد من قبل طائفة من الناس ،جلس معهم إبراهيم ، وسألهم علي سبيل الاستفهام الإنكاري (هذا ربي) أو تظاهر بربوبية الكوكب من باب المجاراة بهدف الإلزام.

٣ – جعل إبراهيم أفول الكوكب دليلا علي بطلان ألوهيته لأن شأن الاله أن لايجري عليه ما يجري علي الحوادث من بزوغ فظهور فأفول.

٤ – ناقش إبراهيم عبدة القمر واحتج عليهم بما احتج به علي عبدة الكواكب مع التصريح بأن له ربا يهديه ولولا ذلك لكان إبراهيم من الضالين.

٥ – وبمثل ذلك ناقش عبدة الشمس واحتج بالأفول علي عدم الألوهية مع التصريح ببراءته مما يعتقد القوم من شرك في المعتقد.

٦ – تدل الآيات علي بطلان عبادة الأجرام السماوية وإن اختلفت مظاهرها، وقد ميز إبراهيم – عليه السلام – بين القمر والكوكب والنجم اعتماداً علي اختلاف أسمائها عند عابديها وقد انتهي الباحثون الآن إلي التفرقة بينها كذلك.

٧ – لم يسلم القوم لإبراهيم ولم يستجيبوا لدعوته، بل دخلوا معه في محاجة بشأن آلهتهم والاهه، فلم يبال إبراهيم بتهديدهم لأن مايعبدونه من دون الله آلهة مزيفة لاقدرة لها علي ضره، كما أن عبادته للإله الأعلي المستحق وحده للعبادة تكسبه الأمن، وقد دعاهم إلي المقارنة بين حاله وحالهم في قوله (فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون) وذلك يعني أن الحكم الصحيح متوقف علي العلم، والتعبير يتضمن الرمي بالجهالة ويحرك داعي العلم فيهم.

ويستفاد مما سبق:

(أ) أن التدرج مع الخصم من أجل الإلزام من الأمور المشروعة مادام السبيل الوحيد للبلاغ هو ذلك.

(ب) أن هذه المناظرة كانت بوحي الله إلي إبراهيم - عليه السلام - وليست نتيجة التأمل الذاتي، كما أنها وقعت منه لقومه في إطار الدعوة وليست تدرجا في العقيدة لدي إبراهيم.

(جـ) من المستبعد عقلا أن يكون إبراهيم قد قال ذلك الكلام وهو طفل في الغار حين وضعته أمه في كهف خشية أن يقتله الملك ... الخ لأن شواهد النصوص تؤكد كون ذلك وحيا وكونه مع طائفة من قومه وكونه من سبل البلاغ ولايكون ذلك إلا بعد البلوغ - علي الأقل - وبعد النبوة علي الراجح [1].

جـ- محاجة إبراهيم للملك:

التمكين في الأرض لفرد ما قد يكون نعمة وقد يكون نقمة، وذلك بحسب التصرف الناتج عن الممكَّن له. ومن مظاهر التمكين: الحكم والملك. المال. الصحة. العلم. مفردة أو مجموعة وقد عرف التاريخ في الأزمنة السابقة كثيرين ألَّهوا أنفسهم من طريق الحكم وقبلت الرعية ذلك بالرواية مع الجهل والاستخفاف.

وقد دافع هؤلاء عن ألوهيتهم المزعومة فجادلوا المعرضين وآذوا الأنبياء والمرسلين. ومن هؤلاء: رجل آتاه الله الملك فكفر بالنعمة وجعلها سبيلا للاستعلاء والتسلط وادعي الألوهية لنفسه، وفي هذه الفترة بعث - إبراهيم عليه السلام - وبلغت دعوته ذلك الملك، وعلم بصفات الإله الذي يدعو إليه إبراهيم وهي دعوة تختلف مع مايدين به الملك، فاستدعي إبراهيم وجرت بينهما محاجة، وقد صرح إبراهيم عليه السلام بأنه يعبد من يحيي ويميت مريدا بذلك العموم والمعني الحقيقي للفظتين، فكان رد الملك (أنا أحيي وأميت). ذكر بعض المفسرين أنه أتي برجل حيٍّ لم يرتكب مايوجب قتلا فقتله واستبقي محكوما عليه بالموت وأطلق سراحه وقيل أتي باثنين قد استوجبا القتل فقتل أحدهما وترك الآخر، فبدا لإبراهيم جهلُ ذلك الملك بمراد إبراهيم من لفظتي الإحياء والإماته فتوجه إبراهيم إليه بسنن الله الكبري (الكونية) التي لايقدر عليها

---

(1) انظر تاريخ الطبري ٢٣٤/١، ٢٣٧ بدائع الزهور ١٢٣/١، سمط النجوم العوالي ١٣٨/١ مروج الذهب ٤٤/١، البدء والتاريخ ٤٨/٣.

إلا الله قائلا له ﴿فإن الله يأت بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب﴾ وهذا خارج عن قدرة البشر أجمعين، لأنه متوقف علي تغيير دوران الأرض حول نفسها أمام الشمس....وإن لم يتضح ذلك زمن إبراهيم – عليه السلام – إلا أنه الإلهام الإلهي لأنبيائه، فظهر عجز الملك عن فعل شيء من هذا بحضور عابديه ﴿فبهـت الذي كفـــر﴾.

والسؤال الآن : هل كانت المناظرة قبل الإلقاء في النار أو بعدها ؟

الجواب : يري بعض العلماء أنها كانت قبل إلقاء إبراهيم في النار وأن الملك ساعد علي حرقه.

ويري البعض الآخر أنها كانت بعد الخروج من النار وأنه الملك الذي كان يحكم البلاد، وقد عجب من خروج إبراهيم من النار بلا أذي فأراد أن يعرف حقيقة رب إبراهيم الذي يتمتع بهذه القدرة فاستدعي إبراهيم لهذا السبب[1].

وتعبير القرآن قد ركز علي الواقعة والنتيجة التي ترتبت علي المحاجة دون الإشارة إلي السبق أو التأخر عن عملية الإحراق. ويمكن القول إن الأمر يحتمل مايلي :

١ – أن يكون ذلك الملك في بلاد العراق، وقد عرف الناس تعدد الآلهة في ذلك الوقت فألهوا الحاكم وعبدوا معه بعض الهياكل الأخري، وهو أمر ورد في المعتقدات القديمة وبقيت النقوش دالة عليه في الحفريات والآثار، ولم ينكر الملوك المؤلهين ذلك علي الرعية ما دام تحت أيديهم قائما بحق العامة، فإذا ما استشعروا خطرا بشأن ألوهيتهم تدخلوا.

وهذا ما نلمحه من قصة إبراهيم مع الملك الذي لم ينكر علي عبدة الأوثان أو الصابئة عبادتهم حتي إذا أتي إبراهيم يدعو لترك تلك المعبودات بالكلية – ومنها الملك – والتوجه إلي المستحق للعبادة وحده، كان ردّ فعل الملك كما سبق.

٢ – أو تكون المحاجة خارج بلاد العراق وبخاصة في فلسطين أو مصر وقد أخبر

---

(١) راجع المهموشة رقم ٢، ٧ صفحة ٣٣٥.

إلاهها - الملك - بدعوة إبراهيم فاستدعاه ليعرف منه شأن الإله الذي يدعو إليه ، مع حرصه علي إقامة الدليل علي ألوهيته أمام إبراهيم، فلما عجز عن إلزام إبراهيم، في الوقت الذي ألزمه فيه إبراهيم، تركه يمر بسلام، دون أذي يذكر أخذا من ظواهر النصوص.

وبذلك نرجح عدم ربط الحدث بأمر الحرق، حتي لاتنسي الحكمة من ذكره، ولعدم توافر مايدل عليه زمانيا من ناحية السبق عن الحرق أو الوقوع بعده.

موقف دعوة إبراهيم من الإيمان بالملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر:

يمكن القول : إن إبراهيم - عليه السلام - قد ركز في جانب العقيدة علي قضية التوحيد واليوم الآخر. وقد استغرقت الدعوة إلي الإيمان بالله الواحد الأحد ... القسط الأكبر من الدعوة.

وأما الدعوة إلي الإيمان بالملائكة والكتب والرسل فغير ظاهرة في نصوص القرآن. فهل الترك مراعاة للأوليات أو الشأن عدم الاستقصاء ؟ الأمر غيب.

وأما حديث إبراهيم - عليه السلام - عن اليوم الآخر فهو وارد في بعض السور منها :

١ - سورة البقرة ﴿وإذ قال إبراهيم ربي اجعل هذا بلدا آمنا وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر قال ومن كفر فأمتعه قليلا ثم أضطره إلي عذاب النار وبئس المصير﴾[(١)].

٢ - سورة إبراهيم، فمن دعاء إبراهيم لربه قوله ﴿ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب﴾[(٢)].

٣ - سورة الشعراء. ففي إطار تذكيره لقومه بصفات خالقه وقدرته المطلقة. أشار إلي قضية البعث بعد الموت ومايترتب عليه من ثواب وعقاب ... ألخ. قال تعالي

---

(١) البقرة ١٢٦.

(٢) إبراهيم ٤١.

علي لسان إبراهيم لقومه﴿ الذي خلقني فهو يهدين * والذي هو يطعمني ويسقين * وإذا مرضت فهو يشفين * والذي يميتني ثم يحيين * والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين * ربي هب لي حكما وألحقني بالصالحين * واجعل لي لسان صدق في الآخرين * واجعلني من ورثة جنة النعيم * واغفر لأبي إنه كان من الضالين * ولاتخزني يوم يبعثون *يوم لاينفع مال ولابنون * إلا من أتي الله بقلب سليم * وأزلفت الجنة للمتقين * وبرزت الجحيم للغاوين * وقيل لهم أين ماكنتم تعبدون * من دون الله هل ينصرونكم أو ينتصرون ...﴾[1].

٤ – سورة النجم وقد ذكر فيها أن صحف إبراهيم قد تضمنت الحديث عن اليوم الآخر والثواب والعقاب وأن المساءلة فردية. قال تعالي ﴿أم لم ينبؤ بما في صحف موسي * وإبراهيم الذي وفي * ألا تزر وازرة وزر أخري * وأن ليس للانسان إلا ماسعي * وأن سعيه سوف يري * ثم يجزاه الجزاء الأوفي * وأن إلي ربك المنتهي﴾[2].

٥ – سورة الممتحنة. وقد صرح فيها إبراهيم – عليه السلام – والمؤمنون معه بالبراءة من المشركين مع إعلانهم أن المرجع إلي الله ﴿قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برءاء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداحتي تؤمنوا بالله وحده إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شيئ ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير﴾[3].

٦ – أشارت سورة الأعلي إلي أن إبراهيم قد أخبر قومه بأن الآخرة خير من الأولي لدوام نعيمها وانتفاء الشقاء فيها. قال تعالي ﴿قد أفلح من تزكي * وذكر اسم ربه فصلي * بل تؤثرون الحياة الدنيا * والآخرة خير وأبقي * إن هذا لفي الصحف الأولي * صحف إبراهيم وموسي﴾ [4].

وهذان الركنان (الإيمان بالله واليوم الآخر) هما جوهر الاعتقاد، فالتسليم بالألوهية ييسر سبل القبول للأوامر والنواهي الصادرة عنه. والإيمان باليوم الآخرخير

---

(١) الشعراء ٧٨ : ٩٣.
(٢) النجم ٣٦ : ٤٢.
(٣) الممتحنة ٤.
(٤) الأعلي ١٤ : ٩١.

رادع لفساد السلوك، لأن استشعار المساءلة وتذكر العقوبة المترتبة عليها يحول بين الإنسان وبين السلوك السيئ.

وأما الإيمان بالقضاء والقدر، فقد وردت الاشارة إليه في قول إبراهيم لقومه ﴿ولا أخاف ماتشركون به إلا ان يشاء ربي شيئا وسع ربي كل شيئ علما﴾ الأنعام ٨٠.

ثانيا : شريعة إبراهيم في ضوء القرآن

أصول الشرائع واحدة وإن اختلفت في كمها وكيفها من أمة إلي أمة، وما استثني كان لعلة من العلل التي أشار إليها القرآن كالظلم والعصيان... الخ.

وقد صرح القرآن بتكليف – إبراهيم عليه السلام – ببعض العبادات كما صرح بقيامه بها كذلك. ومنها :

١ - *الصلاة* : لم يتعرض القرآن لكمها أو كيفها أو توقيتها أو شروط الوجوب أو الصحة... الخ وقد أتت النصوص صريحة الدلالة علي التكليف والأداء. قال تعالي بشأن إبراهيم ﴿ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة وكلا جعلنا صالحين * وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين﴾[1]. كما أمر إبراهيم – عليه السلام – أن يطهر البيت الحرام من الأوثان وأن يهيأه للحج والصلاة ﴿وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لاتشرك بي شيئا وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود﴾[2]. ومن دعاء إبراهيم عليه السلام ﴿ربي اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي ربنا وتقبل دعاء﴾[3] وقد وصف بالإكثار من الصلاة ﴿إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين﴾[4].

٢ - *الزكاة* : وتؤخذ دلالتها من النص السابق ذكره من سورة الأنبياء.

٣ - *الحج* : وقد ركز القرآن علي هذه الشعيرة بالنسبة لإبراهيم عليه السلام. فلقد أعلمه ربه بموضع البيت الحرام ﴿وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لاتشرك بي

---

(١) الأنبياء ٧٣. (٢) الحج ٢٦.

(٣) إبراهيم ٤٠. (٤) النحل ١٢٠.

شيئا﴾[1]. وأمره برفع القواعد هو وإسماعيل ﴿وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم﴾[2] وقد ترك له أثرا يدل علي صلته بالبيت وسيظل محفوظا ما حفظت الكعبة، معروفا للمسلمين مابقي القرآن يتلي ﴿إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا وهدي للعالمين * فيه آيات بينات مقام إبراهيم﴾[3] وجعل الإسلام الصلاة في هذا المكان من سنن الحج ﴿واتخذوا من مقام إبراهيم مصلي﴾[4]، كما أمر إبراهيم أن يطهر البيت من كافة مظاهر الشرك حين خوطب بقول الله تعالي آمرا إياه ﴿أن لاتشرك بي شيئا وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود﴾[5]. ﴿وعهدنا إلي إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود﴾[6].

كما أمر – بعد رفع قواعد البيت وتطهيره – أن يعلن تلك الشعيرة علي الملأ امتثالا لأمر الله تعالي ﴿وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلي كل ضامر يأتين من كل فج عميق﴾[7] مع بيان بعض جوانب الحكمة من أداء الحج وآداب الأداء كذلك ﴿ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات علي مارزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير * ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق﴾[8] وقد ورد بكتب السنة كيفية حج إبراهيم.

وأما عن – الصوم – فلم يرد نص صريح الدلالة عليه بالنسبة لإبراهيم عليه السلام، ودلالته مأخوذة من صيغ العموم الواردة في النص الشريف ﴿... كتب عليكم الصيام كما كتب علي الذين من قبلكم﴾[9].

هذا عمّا أمر به إبراهيم –عليه السلام– وقد ورد في السنة أنه قد سن سننا عدة منها الختان والأضاحي، كما نسبت إليه بعض خصال الفطرة، ومع تسليمنا بشعيرة

---

(1) الحج ٢٦.
(2) البقرة ١٢٧.
(3) آل عمران ٩٦،٩٧.
(4) البقرة ١٢٥.
(5) الحج ٢٦.
(6) البقرة ١٢٥.
(7) الحج ٢٧.
(8) الحج ٢٨،٢٩.
(9) البقرة ١٨٣.

الأضاحي إلا أن السنن الأخري (سنن الفطرة) تبقي محل نظر إلا إذا ادعينا أن السابقين علي إبراهيم كانوا يفعلونها عادة وفعلها إبراهيم – عليه السلام – عبادة فتكون من سننه من هذا القبيل.

موقف قوم إبراهيم من دعوته

أشار القرآن إلي ثبات الجمهور علي ماهم عليه من معتقدات فاسدة، ووصل الأمر بهم إلي حد الدفاع عنها بالقول، كما ورد في سورة الأنعام، مريم، الأنبياء، الشعراء. وبالفعل. كما ورد في سورة الأنبياء – الصافات.

كما ذكر القرآن أن طائفة آمنت بإبراهيم – عليه السلام – ذكرهم بصيغة العموم في قول الحق **﴿قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برءاء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتي تؤمنوا بالله وحده﴾**[1]. ومن هؤلاء المؤمنين. لوط – عليه السلام – قال تعالي **﴿فآمن له لوط وقال إني مهاجر إلي ربي﴾**[2] وإسماعيل. كما ورد في سورة البقرة وإبراهيم وكذلك إسحاق وزوجتي إبراهيم –عليه السلام–

ولم يشر القرآن إلي موقف المشركين من المؤمنين مع أن المؤمنين أعلنوا براءتهم مما يعتقد القوم، وصرحوا بالعداوة والبغضاء، وعلقوا الإسقاط علي شرط واحد **﴿حتي تؤمنوا بالله وحده﴾**، إلا أنه يمكن الاستنباط أن إبراهيم قد هُدِّد من قبل المشركين بآلهتهم فلم يتهدد، بل جاهر بعدم الخوف منها وذلك في قول الحق **﴿ولا أخاف ماتشركون به﴾**[3]. **﴿وكيف أخاف ما أشركتم ولاتخافون أنكم أشركتم بالله مالم ينزل به عليكم سلطانا﴾**[4] وحسبنا ما أقدم عليه القوم مما لم تجر به عادة مع نبي سابق علي إبراهيم أو لاحق له من اتخاذ قرار بحرقه لنصرة آلهتهم فأنجاه الله من النار. دون أن يشير القرآن إلي عاقبة القوم الدنيوية بمثل ما أشار إلي عاقبة قوم نوح وهود وصالح. فهل تبدلت سنة الله مع المكذبين أو أن القرآن أمسك عن ذكر النتيجة ؟الأمر غيب.

---

(١) الممتحنة ٤.
(٢) العنكبوت ٢٦.
(٣) الممتحنة ٤.
(٤) الأنعام ٨١.

الأساليب التي استخدمها إبراهيم في الدعوة إلى الله

لقد سلك إبراهيم - عليه السلام - سبلا عدة منها :

١ - **الدعوة بالقدوة** . فلقد التزم إبراهيم بالأوامر والنواهي الصادرة إليه حتى استحق أن يكون إماما بوعد الحق له ﴿وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إني جاعلك للناس إماماً قال ومن ذريتي قال لاينال عهدي الظالمين﴾[١] كما امتدح بالصدق بصيغة المبالغة ﴿واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقا نبيا﴾[٢] وبالوفاء ﴿وإبراهيم الذي وفى﴾[٣] وقوة الثقة بالله ﴿ولا أخاف ماتشركون به إلا أن يشاء ربي شيئا﴾[٤] واتسم برقة القلب مع الحلم ﴿إن إبراهيم لأواه حليم﴾[٥] دائم الاستعانة بالله ﴿إن إبراهيم لحليم أواه منيب﴾[٦] كثرة دعائه ربه، لنفسه ولأمته، ولذريته وبخاصة ذرية إسماعيل عليه السلام.

٢ - **مقارنة الأديان** - بلغة العصر - وذلك بالمقارنة بين الإله الذي يدعو إليه وبين آلهة المشركين، وسؤال خصومه عما يعبدون وعن صفات تلك المعبودات وعن صلتها بعابديها مع التشكيك في استحقاق معبوداتهم تلك للعبادة ثم يذكر إلاهه الذي يعبده ويدعو إليه ويبين صفاته وصلته بعابديه وقد صورت سورة الشعراء[٧] والصافات[٨] ذلك تصويرا مفصلا.

٣ - **الاستدراج**. وذلك بالتدرج مع الخصم بهدف الإلزام. وهو ماصورته سورة الأنعام[٩] بوضوح. لينتهي من أسلوب المجاراة إلى مايهدف إليه في البدء ﴿إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين﴾[١٠]

٤ - **بيان النتيجة المترتبة على عبادتهم لتلك الآلهة** ﴿وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً مودة بينكم في الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن

---

(١) البقرة ١٢٤. (٢) مريم ٤١.

(٣) النجم ٣٧. (٤) الأنعام ٨٠.

(٥) التوبة ١١٤. (٦) هود ٧٥.

(٧) الآيات ٧٢ :٨١. (٨) الآيات ٧٥ :٩٦.

(٩) الآيات ٧٤ : ٨٣. (١٠) الأنعام ٧٩.

بعضكم بعضا ومأواكـم النار ومالكم من ناصرين﴾[1].

٥ - إظهار الحرص على خير المدعوين، فالنفس مفطورة علي حب الخير العاجل وهي تستجيب للدعوة إليه حين تسلم من المكابرة، وقد أظهر إبراهيم حرصه علي خير المدعوين في حواره مع أبيه كما تصوره سورة مريم، ومع قومه، كما ورد في سورة العنكبوت ﴿وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون * إنما تعبـدون من دون الله أوثانا وتخلقـون إفكا إن الذين تعبـدون من دون الله لايملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون﴾[2].

٦ - الترهيب : فلقد ذكر القرآن بقية من صحف موسي وإبراهيم، ندرك من خلالها أنه بين لهم النتيجة المترتبة علي الكفر وصرح بالبعث بعد الموت وبالثواب والعقاب مع بيان ميلهم إلي متاع الدنيا وطالبهم بالجمع بين خيري الحياة وأخصهما الباقي، وهذا ماصورته سورة النجم [3]. وسورة الأعلي [4].

---

(١) العنكبوت ٢٥.

(٢) العنكبوت ١٦، ١٧.

(٣) النجم ٣٦ - ٤٢.

(٤) الأعلي ١٤ - ١٦.

قضايا وثيقة الصلة بالموضوع

١ - كيف استغفر إبراهيم لأبيه ؟ وهل يجوز الاستغفار لأهل الشرك ؟

الأصل في الأشياء الإباحة، ولاتثبت الحرمة إلا من مصادر التشريع المتفق عليها، فإذا لم يرد نص بحرمة شيء ما فلاضير من فعله، حتي يرد الأمر بالحرمة، ومن هذا القبيل، حال الأنبياء مع أهليهم وذويهم.

فلقد دعا نوح ربه أن ينجي له ولده بحكم عاطفة الأبوة، واعتماداً علي ظاهر النص ﴿قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك﴾. فبين الحق له حكم الشرع فيه في هذه الحالة ﴿قال يانوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلاتسألني ماليس لك به علم إني أعظك أن تكون من الجاهلين﴾[1] فلما تبين له ذلك أعلن براءته من فعل ولده ﴿قال رب إني أعوذبك أن أسألك ماليس لي به علم وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين﴾[2].

وقد ابتلي إبراهيم بكفر والده، فحرص كل الحرص علي هدايته دون فائدة تذكر، وخاطبه علي حدة وخاطبه مع قومه دون استجابة منه، بل كان التوعد من قبل أبيه له (لئن لم تنته لأرجمنك واهجرني مليا)[3] فآثر إبراهيم السلامة وترك الدار لوالده، علّه يفكر فيما قاله له، وبخاصة أن بعض العلماء يفسر قوله تعالي (واهجرني مليا) قائلا إن والد إبراهيم طلب الإنظار حتي يفكر في أمر الرسالة التي يدعو إليها إبراهيم، وهنا توجه إبراهيم إلي ربه بالاستغفار لوالده لعلّ الله يهديه ويغفر له، والنص صريح في أن إبراهيم كان علي وعد من والده بالتفكير في أمر دعوته، وهي الفرصة التي اغتنمها إبراهيم لعل الله يهدي والده، قال تعالي : (وماكان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو الله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم)[4].

وعندما تأكد لإبراهيم إصرار والده علي الكفر أعلن براءته منه ومن قومه،

---

(١) هود ٤٠.
(٢) هود ٤٦.
(٣) مريم ٤٦
(٤) التوبة ١١٤.

وقد شارك إبراهيمَ المؤمنون معه هذا الموقف، قال تعالي (وماكان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم) وقد ضرب الله المثل بإبراهيم والذين معه في هذا الموقف. قال تعالي (قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برءاء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتي تؤمنوا بالله وحده إلا قول إبراهيم لأبيه لاستغفرن لك وما أملك لك من الله من شيئ ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير) [١]. ومع ماتقدم بحق إبراهيم فإننا لم نجد نصا يدل علي نهي إبراهيم عن الاستغفار، وإن وجدنا تبرأً من قبله ومن قبل المؤمنين معه من أقوامهم الكافرين.

وقد ورد بالسنة أن إبراهيم سيستغفر لأبيه يوم القيامة فلا يستجاب له، روي البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي – صلي الله عليه وسلم – أنه قال (يلقي إبراهيم أباه آزر يوم القيامة وعلي وجه آزر قترة وغبرة فيقول له إبراهيم : ألم أقل لك لاتعصني ؟ فيقول أبوه، فاليوم لا أعصيك، فيقول إبراهيم يارب إنك وعدتني أن لاتخزني يوم يبعثون، فأي خزي أخزي من أبي الأبعد ؟ فيقول الله تعالي : إني حرمت الجنة علي الكافرين ...) [٢].

وأما في الدعوة الخاتمة فإن الاستغفار لأهل الشرك محرم لأن النصوص عندنا قد توافرت علي ذلك، ففي الآية السابقة استثني الحق من الاقتداء بإبراهيم استغفاره لأبيه وعندما استغفر الرسول لعمه أبي طالب من باب ردّ الجميل ومقابلة الحسنة بإحسان أوسع وأشمل، بين الحق له أن ذلك لا يتأتي ولايستقيم وأن ماوقع منه لم يقبل قال تعالي (ماكان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربي من بعدما تبين لهم أنهم أصحاب

---

(١) الممتحنة ٤.

(٢) البخاري ك الأنبياء باب (واتخذ الله إبراهيم خليلا)حديث رقم ٣٣٥٠ وطرفاه في ٤٧٦٨، ٤٧٦٩.

الجحيم)[1]. مع وجوب التفرقة بين المنهي عن الاستغفار لهم من حيث الشرك، الفسق، المعصية، دون تعميم الحكم كما يفعل بعض الجهلة الآن.

٢ - هل إلقاء إبراهيم في النار حقيقة او مجاز ؟

ظاهر النص أن الإلقاء حقيقي وأن النار حقيقية وأن نجاة إبراهيم قد تمت ولو لم يكن ذلك لما كان في الأمر خرق للعادة، وليس هناك مايصرف النص من نقل أو عقل عن المعنى الحقيقي له أينما ورد أمر حرق إبراهيم في القرآن، وعلى هذا جمهور المسلمين من مفسرين ومؤرخين ومحدثين.

وقد ذهبت طائفة إلى أن إبراهيم لم يلق في النار وأنها ليست حقيقية، يقول المقدسي. « وقد زعم بعض من لم يخلص في الإسلام نيته أنهم لم يطرحوا إبراهيم في النار وإنما هموا به واحتج بأنه ليس في الكتاب ذلك، قال وإنما معنى قوله (كوني برداً وسلاما) أنهم كانوا توامروا في إحراقه بالنار ثم بدا لهم خلافه فكان خلاف ما أرادوا بإبراهيم برداً وسلاماً من النار والبلاء الذي هموًا.

وزعم غيره من أشكاله أن إبراهيم - عليه السلام - سحرهم وأطلى ببعض الأدوية التي يبطل معها عمل النار واحتال في الفوت بنفسه وساق قصة لبعض الهند وشبهه بها.

وقال بعضهم : بل النار مثلا لاجتماع كلمتهم عليه ومجادلتهم إياه، وكونها « برداً وسلاماً » عجزهم عن حجته وانكسارهم عن معارضته ... أ.هـ.

رد المقدسي على هؤلاء:

يقول - رحمه الله- : « وهذه -رحمك الله - مذاهب الملحدين، المنكرين معجزات الأنبياء ووجوب النبوة ومجيئهم بالآيات الخارجة عن الحس وإبعاده، وفرقانا بينهم وبين المتنبئين المتقولين المخترعين المتشكلين التي تبهر عندها العقول، ويتحير في كيفيتها النفوس، كذا حيرتها في إبداع أجسام هذا

---

(١) التوبة ١١٣.

العالم بكليتها وأجزائها لا من غير سابق ...فإذا صح وجود هذا العالم محدثا بالدلائل البرهانية، ولم تدر كيف جاز وجودها، فكذلك ينبغي أن يرد إليه معجزات الأنبياء لأنها كلها منه » [1].

٣ - هل شك إبراهيم في أمر البعث ؟

إن نصوص القرآن صريحة الدلالة في سلامة إبراهيم - عليه السلام - من حيث الاعتقاد، فلقد وصف بما لم يوصف به غيره من حيث الظاهر والباطن وفي الصغر والشيخوخة، وتنأي بمن قال الله في حقه (واتخذ الله إبراهيم خليلا) [2] أن يشك في قدرة الله أو في ركن من أركان العقيدة (اليوم الآخر ومافيه من بعث وحشر...).

وقد تساءل البعض : كيف يسأل إبراهيم ربه هذا السؤال (رب أرني كيف تحيى الموتى) وادّعوا أن هذا من باب الشك في جانب عقدي.

لقد ذكر القرآن القصة كاملة وصرح الرسول - صلي الله عليه وسلم - بما ينفي الشك عن إبراهيم، قال تعالي (**وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتي قال أو لم تؤمن قال بلي ولكن ليطمئن قلبي قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل علي كل جبل منهن جزءا ثم أدعهن يأتينك سعيا واعلم أن الله عزيز حكيم**) [3]. وفي السنة عن أبي هريرة أن رسول الله-صلي الله عليه وسلم - قال (نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال : رب أرني كيف تحيي الموتي قال أو لم تؤمن قال بلي ولكن ليطمئن قلبي) [4]. ويقول الشراح : فإذا لم يشك الرسول - صلي الله عليه وسلم - فانتفاء الشك في حق إبراهيم عليه السلام من باب أولي.

---

(١) البدء والتاريخ ٤٢/٣, ٤٣، ٥٦.　　(٢) النساء ١٢٥.

(٣) البقرة ٢٦٠.

(٤) صحيح مسلم ك الفضائل باب فضائل إبراهيم عليه السلام.

وقد ردّ العلماء هذه الشبهة معتمدين علي صيغة السؤال، ففرق كبير بين أنْ يقول إبراهيم: رب هل تحيي الموتي؟ وبين أن يقول أرني كيف تحيي الموتي .

إن السؤال بالصيغة الأولي يعني الشك في القدرة علي الإحياء أوفي البعث بعد الموت وبالصيغة الثانية فإنه يتفق مع النفس التواقة إلي المعرفة، والتي لاتقف عند حد المعرفة الظاهرية، بل تريد الرؤية العملية، ولذلك قال العلماء إن العلم بالشيء له مراتب ثلاث :

١ - علم اليقين وهو مايحصل للانسان من معرفة عن طريق المقدمات والنتائج (المعرفة النظرية).

٢ - عين اليقين وهو مايحصله الانسان من علم علي أثر الرؤية البصرية أو التجارب العملية.

٣ - حق اليقين: وهو مايحصله الانسان من علم يخلقه الله في قلب من شاء من خلقه.

وقد أراد إبراهيم أن يرتقي من علم اليقين إلي عين اليقين. ولايتأتي وصف ذلك بالشك من قريب أو بعيد.

٤ - لماذا لم يوصف إبراهيم بالأخوة لمن ارسل اليهم ؟ ولم يقدم نفسه لهم كنبي ورسول؟،

لقد شغل ذهني هذا السؤال فترة من الزمن في إطار المقارنة الخاصة بين دعوة إبراهيم - عليه السلام - ودعوة الرسل السابقين، لأن الوصف بالأخوة لم يرد بشأن إبراهيم كما ورد بشأن نوح وهود وصالح، ورأيت أن الأخوة إن أريد بها الأخوة في الإنسانية، فإن الذكر والعدم سواء وإن أريد الأخوة في الدين، فهذا غير مراد لتباين عقائد الأنبياء مع مكذبيهم، وإن أريد أخوة الدم والنسب القريب، فإننا نعلم أن نوحاً كان من بين المرسل إليهم دما وكذلك هودا وصالحا فالوصف بها في حقهم حق، وأما إبراهيم - عليه السلام - فإنه أرسل إلي أجناس مختلفة يجمعها الإنسانية، ويفرقها نسب الدم، فلقد دعا أهل العراق

وأهل فلسطين والأردن وتحرك بدعوته إلي مصر ومكة، فكان في وصفه بالأخوة في الدم لبس لعدم تحديد النص للقوم الذين خرج منهم، والذين أرسل إليهم، أو أن الترك هنا شأنه شأن الترك في قصص كثير من الأنبياء الذين لم يوصفوا بالأخوة لمن أرسلوا إليهم، وإن كانوا منهم نسبا. أ. هـ

- وأما عدم تقديم نفسه كنبي ورسول لمن أرسل إليهم فالأمر فيه غيب، فليس بالإمكان الوصف بالنبوة لمجرد الدعوة إلي الله، كما أن الدعوة الله لاتجعل الناس يدّعون نبوة هذا الداعي، فهل الترك اعتماداً علي المشهور المستفاض، أو هو التغاير في سرد القصص في القرآن ؟.

إنه لايخفي علينا وصف الله لإبراهيم بالنبوة وليس هذا هو المراد من السؤال، بل المراد به : لماذا لم يقل للمدعوين إني رسول الله إليكم؟ إني رسول رب العالمين؟ إني لكم رسول أمين... ألخ؟وغاية ماقاله لوالده (إني قد جاءني من العلم مالم يأتك فاتبعني أهدك صراطا سويا)[1]. يبقي الأمر بحاجة إلي مزيد من البحث ؟

٥ - ماهي معجزة إبراهيم عليه السلام؟

يري بعض العلماء أن إنجاء الله لإبراهيم من النار معجزة له، واعتمدوا في ذلك علي خرق العادة بالنسبة لنبي.

والسؤال : هل كان ذلك تحديا حتي تكتمل شروط المعجزة وهل إبراهيم – عليه السلام – هو الذي اقترح ذلك أو وافق علي ذلك الاقتراح منهم قائلا : لن تستطيعوا ضري، وهل تحداهم أن يلقوا بأنفسهم في النار ثم يخرجوا سالمين كما خرج هو ؟ إنه لاشيء من هذا. فيكون إطلاق المعجزة علي تلك المكرمة فيه توسع.

والذي نشير إليه أن إبراهيم – عليه السلام – شأنه شأن غيره أوتي من

---

(١) مريم ٤٣.

الإثبات، ويمكن التماس الدليل علي ورود المعجزة علي يديه من قول الحق (وان يكذبوك فقد كذب الذين من قبلهم جاءتهم رسلهم بالبينات وبالزبر وبالكتاب المنير) [1]. وفي الحديث (مامن الأنبياء نبي إلا أوتي مامثله آمن عليه البشر وإنما كان الذي أوتيت وحيا أوحاه الله إليّ ...).

وأما ذبح إبراهيم للطير،وعودة ذلك الطير للحياة،فليس من قبيل المعجزة، لأنه حدث خاص به،ولم يرد مشاركة غيره له في المشاهدة أو وقع به التحدي.

٦ - عاقبة المكذبين الدنيوية :

ذكر القرآن مصير الأمم الثلاث التي سبقت أمة إبراهيم - عليه السلام - وبين عاقبة المكذبين لنوح وهود وصالح الدنيوية كما سبقت الإشارة.

وأما المكذبين من أمة إبراهيم، فلم ترد إشارات تتعلق بهم من حيث العاقبة الدنيوية، مع أنهم آذوه مثل غيره، وسلكوا مسلكا في تعذيبه لم يسلكه السابقون عليهم (قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين) [2] فهل ترك القوم بلا عقوبة دنيوية أو عوقبوا ولم يرد نص يدل علي ذلك ... ؟ الأمر غيب.

٧ - ماهو وجه الصلة بين الدين والملة ؟ :

إن أول رسالة أطلق عليها لفظ (ملة) هي رسالة إبراهيم -عليه السلام- وقد كثرت تسمية دعوة إبراهيم بالملة في القرآن الكريم، قال تعالي لمحمد - صلي الله عليه وسلم - (ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا وماكان من المشركين) [3] وقال لأتباع محمد - عليه السلام - (قل صدق الله فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفا وماكان من المشركين) [4] كما أمرنا بقوله (وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وماجعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم

---

(١) فاطر ٢٥. (٢) الأنبياء ٦٨.

(٣) النحل ١٢٣. (٤) آل عمران ٩٥.

إبراهيم)[1] وعندما دعا اليهودُ والنصاري المسلمين إلي اعتناق دينهم ردّ الحق عليهم ذلك قائلا (وقالوا كونوا هوداً أو نصاري تهتدوا قل بل ملة إبراهيم حنيفا وماكان من المشركين) [2] كما أعلن يوسف – عليه السلام – أنه متبع ملة آبائه (واتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب ماكان لنا أن نشرك بالله من شيئ) [3].

ومن خلال النصوص السابقة ندرك أن إبراهيم – عليه السلام – كان يَمْثُلُ بملة الإسلام، وأطلقت كلمة الملة علي الاعتقاد الحق وسميت بها دعوات أخري أتي بها الأنبياء بعد إبراهيم.

وتطلق كلمة الملة كذلك علي المعتقدات الباطلة، وقد ورد ذلك كثيرا في القرآن، قال تعالي : (وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن في ملتنا فأوحي إليهم ربهم لنهلكن الظالمين) [4]. وقد أطلق يوسف علي المعتقدات الباطلة لفظة (ملة) في قوله (إني تركت ملة قوم لايؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون) [5]. وقد أطلقها الكفرة علي معتقدهم كذلك (قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك ياشعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا قال أو لو كنا كارهين قد افترينا علي الله كذبا إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها) [6].

وبهذا يتضح ويتأكد لنا جواز إطلاق كلمة (ملة) علي الدين الالهي والدين الوضعي.

وأما إطلاقات كلمة (دين) في القرآن فإنها تطلق علي الرسالات السماوية والديانات الوضعية وقد بلغت إطلاقاتها حداً في الكثرة في الجانبين مفردة أي يراد بها أحد المعتقدين (الحق، الباطل)– وهوكثير أو مجموعة

---

(1) الحج ٧٨.
(2) البقرة ١٣٥.
(3) يوسف ٣٨.
(4) إبراهيم ١٣.
(5) يوسف ٣٧.
(6) الأعراف ٨٨، ٨٩.

كقول الحق سبحانه (لكم دينكم ولي دين) [1]. (ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه) [2].

وبهذا يتضح لنا أن كلمة (ملة) ترادف كلمة (دين) وأن إطلاق إحدي الكلمتين علي المعتقدات الحقة والباطلة جائز وأن التخصيص يكون بالوصف أو بالإضافة (الدين الحق – الدين الإسلامي-دين الله).

ويري بعض العلماء أن الدين والملة مختلفان في بعض الجوانب ومنها :

١ – الملة لاتستعمل إلا في جملة الشرائع دون آحادها بعكس الدين.

٢ – الدين يضاف لله وللنبي وللمعتنق والملة لاتضاف إلا للنبي فقط.

٣ – الدين يطلق علي الجانب النظري والعملي والملة علي الجانب العملي فقط. [3]

٤ – الدين ماكان من الوحي والملة ماكانت من الوضع.

وهذا التكلف في استنباط الفروق لادليل عليه ومادفعهم إلي ذلك إلا تغاير اللفظتين واعتماداً علي رأي القائلين إنه لاتوجد مترادفات في اللغة العربية، وإن لكل لفظة من المعني مايختلف مع الأخري.

٨ - هل يجوز نسبة الكذب الى الانبياء قل او كثر ؟ وماذا لو نسب اليهم ؟

ورد في الصحيحين عن أبي هريرة –رضي الله عنه– أنه قال (لم يكذب إبراهيم عليه السلام إلا ثلاث كذبات اثنتين منهن في ذات الله عز وجل، قوله (إني سقيم) وقوله (بل فعله كبيرهم هذا) وقال بينما هو ذات يوم وسارة إذ أتي علي جبار من الجبابرة فقيل له : إن ها هنا رجلا معه امرأة من أحسن الناس فأرسل إليه فسأل عنها من هذه ؟ قال: أختي ، فأتي سارة قال ياسارة ليس

---

(١) الكافرون ٦. (٢) آل عمران ٨٥.

(٣) المفردات في غريب القرآن. كتاب – الميم ص ٤٧٢/٤٧١.

علي وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك، وإنّ هذا سألني عنك فأخبرته أنك أختي فلا تكذبيني، فأرسل إليها فلما دخلت عليه ذهب يتناولها بيده فأُخذ : فقال: ادع الله لي ولا أضرك، فدعت الله فأطلق، ثم تناولها الثانية فأُخذ مثلها أو أشد فقال ادع الله لي ولا أضرك فدعت فأطلق، فدعا بعض حجبته فقال إنكم لم تأتوني بإنسان إنما أتيتموني بشيطان، فأخدمها هاجر فأتته وهو قائم يصلي فأومأ بيده (مَهْيَمْ) قالت ردّ الله كيد الكافر - أو الفاجر - في نحره وأخدم هاجر.قال أبوهريرة : تلك أمكم يابني ماء السماء [1]. وعن محمد بن سيرين عن أبي هريرة أن رسول الله - صلي الله عليه وسلم - قال (لم يكذب إبراهيم النبي - صلي الله عليه وسلم - قط إلا ثلاث كذبات : اثنتين في ذات الله قوله : إني سقيم. وقوله : بل فعله كبيرهم هذا. وواحدة في شأن سارة، فإنه قدم أرض جبار ومعه سارة وكانت أحسن الناس، فقال لها: إن هذا الجبار إن يعلم أنك امرأتي يغلبني عليك ، فإن سألك فأخبريه أنك أختي فإنك أختي في الإسلام، فإني لا أعلم في الأرض مسلما غيري وغيرك ... الحديث [2].

وفي بعض الروايات ذكر قوله (هذا ربي) [3] فيكون عدد الكذبات بذلك أربعاً لا ثلاث.وورود هذه الأحاديث في كتب السنة الصحيحة جعل العلماء يتناولونها بالشرح والتأويل والردّ حتي كثرت آراؤهم في ذلك. نذّكر بما ذهب إليه اثنان من شراح السنة وماذهب إليه اثنان من مفسري القرآن وأحد المؤرخين المسلمين، ثم نعقب علي رأي الجميع في النهاية.

يقول صاحب فتح الباري: بعد نقله عن القرطبي قوله (ذِكْر الكوكب يقتضي أنها أربع، وقد جاء في رواية ابن سيرين بصيغة الحصر فيحتاج في ذكر الكوكب إلي تأويل).

قلت : الذي يظهر أنها وهم من بعض الرواة فإنه ذكر قوله في الكوكب

---

(١) صحيح البخاري . ك الأنبياء باب واتخذ الله إبراهيم خليلا.

(٢) صحيح مسلم. ك الفضائل . ـب من فضائل إبراهيم الخليل حديث رقم ٢٣٧١.

(٣) عون الباري ٥٩٤/٤.

بدل قوله في سارة، والذي اتفقت عليه الطرق ذكر سارة دون الكوكب، وكأنه لم يعدّ مع أنه أدخل من ذكر سارة لما نقل أنه قال في حال الطفولية فلم يعدّها، لأن حال الطفولية، ليست بحال تكليف وهذه طريقة ابن إسحاق، وقيل إنما قال ذلك بعد البلوغ. لكنه قال علي طريق الاستفهام الذي يقصد به التوبيخ، وقيل قاله علي طريق الاحتجاج علي قومه تنبيها علي أن الذي يتغير لا يصلح للربوبية وهذا قول الأكثر أنه قال توبيخا لقومه أو تهكما بهم وهو المعتمد. ولهذا لم يعد ذلك في الكذبات.

وأما إطلاقه الكذب علي الأمور الثلاثة فلكونه قال قولا يعتقده السامع كذبا لكنه إذا حقق لم يكن كذبا لأنه من باب المعاريض المحتملة للأمرين فليس بكذب محض، فقوله : إني سقيم يحتمل أن يكون أراد إني سقيم أي سأسقم ... وقيل بما قدر عليّ من الموت ...وقوله (بل فعله كبيرهم) قال القرطبي : هذا قاله تمهيدا للاستدلال علي أن الأصنام ليست بآلهة وقطعا لقومه في قولهم إنها تضر وتنفع. وقوله (هذه أختي) يعتذر عنها بأنها أخته في الإسلام - كما ورد في بعض الروايات.

قال ابن عقيل : دلالة العقل تصرف ظاهر إطلاق الكذب علي إبراهيم وذلك بأن العقل قطع بأن الرسول ينبغي أن يكون موثوقا به ليعلم صدق ماجاء به عن الله، ولاثقة مع تجويز الكذب عليه، فكيف مع وجود الكذب منه، وإنما أطلق عليه ذلك لكونه بصورة الكذب عند السامع، وعلي تقديره - أي الكذب - فلم يصدر ذلك من إبراهيم إلا في حال شدة الخوف لعلو مقامه، وإلا فالكذب المحض في مثل تلك المقامات يجوز وقد يجب لتحمل أخف الضررين وأما تسميته إياها كذبات فلايريد أنها تذم، فإن الكذب وإن كان قبيحا مخلا لكنه قد يحسن في مواضع وهذا منها.

وعن علة وصف زوجته بالأخت ورد :

١ - كان من دين الملك أن لايتعرض إلا لذوات الأزواج.

٢ – قيل خشي إبراهيم علم الملك بزواجها فيحمل زوجها علي تطليقها.

٣ – وقيل صرح بالأخوة لعل الملك يطلبها منه طلبا شرعيا فيرفض إبراهيم أو يجادل [١].

وفى شرح الأبي على مسلم ورد:

«وقد تأول بعض الناس هذه الكلمات حتي تخرج عن كونها كذبات، ولا معني لتحاشي العلماء عما لم يتحاشي منه النبي – صلي الله عليه وسلم – لم يطلق عليها كذبات لأنها كذبات في الشرع بل لبيان أنها ليست بمذمومة في نفس الأمر، لأن الكذب إنما يترك لله تعالي، فإذا كان لله تعالي انقلب حكمه، وإنما سماها كذبات لغة، وقد جاء ذلك مبينا في حديث (مافيها كذبة إلا يماحل بها عن الإسلام) أي يناكر ويجادل...

وفي بيان علة الوصف بالأخت ورد: هذا ليس بكذب لوجهين:

الأول: أنه روي بأنها أخته في الإسلام كما ذكر، ومن سمي المسلمة أخته قاصداً أخوة الإسلام فليس بكاذب.

الثاني: أنه وإن كان كاذبا لاتورية فيه فهو جائز، لأنهم اتفقوا لو جاء ظالم يطلب رجلا مختفيا ليقتله أو يطلب وديعة إنسان ليأخذها غصبا لوجب إخفاؤه علي من علم ذلك والكذب فيه حينئذ واجب [٢].

ومن المفسرين نذكر رأى:

١ – **الإمام فخر الدين الرازى:** يري الرازي أن الكذب من الأنبياء محال عقلا وشرعا، وذكر أن نسبة الكذب إلي رواة الحديث أولي من نسبة الكذب إلي إبراهيم عليه السلام، ودليله علي ذلك أنه لو جاز أن يكذبوا لمصلحة ويأذن الله

---

(١) فتح الباري بشرح البخاري ٣٩١/٦ – ٣٩٥ بتصرف.

(٢) مسلم بشرح الأبي – ط دار الكتب العلمية – بيروت ١٦٠/٦، ١٦١ بتصرف.

تعالي فيه، فلنجوز هذا الاحتمال في كل ما أخبروا عنه وفي كل ما أخبر الله تعالي عنه، وذلك يبطل الوثوق بالشرائع وتطرق التهمة إلي كلها ثم إن هذا الخبر - لو صح - فهو محمول علي المعاريض علي ماقاله عليه السلام (إن في المعاريض لمندوحة عن الكذب) وعندما تناول تلك الجمل بالبيان أولها بما يخرجها عن الكذب بالكلية فقدر محذوفا أو أراد معني بعيدا أو فسر الأسلوب بالتهكم والسخرية .. وذلك علي النحو التالي :

« قوله (هذا ربي) هذا القول ليس الغرض منه إثبات الربوبية، بل الغرض منه أحد احتمالات سبعة - نلخصها فيما يلي :

١ - أنه لم يقل ذلك علي سبيل الإخبار بل الغرض منه أنه كان يناظر عبدة الكوكب فذكر ذلك بلفظهم حتي يرجع إليه فيبطله.

٢ - معناه (هذا ربي) في زعمكم واعتقادكم، ونظيره أن يقول الموحد للمجسم علي سبيل الاستهزاء إن إلهه جسم محدد - أي في زعمه واعتقاده - قال تعالي (ويوم يناديهم فيقول أين شركائي).

وقوله (ذق إنك العزيز الكريم) [1] أي عند نفسك.

٣ - أنه استفهام علي سبيل الإنكار سقط منه حرف الاستفهام.

٤ - أن فيه قولا مضمرا تقديره : يقولون هذا ربي. وإضمار القول كثير في القرآن.

٥ - أنه ذكر علي سبيل الاستهزاء، كما يقال لذليل ساد قوما : هذا سيدكم. علي سبيل الاستهزاء.

٦ - أنه استدراج لسماع الحجة فتظاهر بالموافقة حتي يأتلف قلوبهم ليسمعهم.

---

(١) الدخان ٤٩.

٧ – أنه أراد إقامة الدليل العملي علي بطلان ألوهية الكواكب والنجوم فاستدل بالظهور علي الربوبية – مجاراة – وبالأفول علي البطلان [١].

وعندما تناول قول الحق عن لسان إبراهيم (قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون) قال : كافة المحققين أنه ليس بكذب وذكروا في الاعتذار عنه وجوها :

(أحدها) أنه أراد نفسه ونسبة الفعل للصنم تهكما، كما لو كان للإنسان صديق لايكتب فوجد صحيفة مسطرة مزينة فسأل من كتبها فقال له أنت – تهكما به – مراده أنا .

(ثانيها) أن الأصنام هي التي دفعته كمعبودة من دون الله إلي تكسيرها فكسرها، ونسبة الفعل إلي الكبير من باب الحامل علي الفعل لانفس الفاعل.

(ثالثها) أنها من باب الوقيعة والإيلام كأنه قال القائم علي تكسيرها هو هذا .

(رابعها) أنه كناية عن غير مذكور (أي فعله من فعله) ويكون الوقوف عندها ثم البدء بكبيرهم هذا.

وهناك وجوه أخري تقديرية في القراءة [٢].

وأما قوله (إني سقيم) فقد وافق القرطبي فيما ذكره، ثم ذكر حديث (ماكذب إبراهيم ...)وقال « قلت لبعضهم هذا الحديث لاينبغي أن يقبل لأن نسبة الكذب إلي إبراهيم لاتجوز فقال ذلك الرجل فكيف يحكم بكذب الرواة العدول ؟ فقلت لما وقع التعارض بين نسبة الكذب إلي الراوي وبين نسبته إلي الخليل كان من المعلوم بالضرورة أن نسبته إلي الرواة أولي، ثم نقول : لم لايجوز

---

(١) مفاتيح الغيب ٥٢/١٣ – ٥٤ بتصرف .

(٢) مفاتيح الغيب ١٨٥/١١ .

أن يكون المراد بكونه كذباً خبرا شبيها بالكذب[1].

وأما قوله (إنها أختي) : المراد أنها أخته في الدين، وإذا أمكن حمل الكلام علي ظاهره من غير نسبة الكذب إلي الأنبياء - عليهم السلام - فحينئذ لايحكم بنسبة الكذب إليهم إلا زنديق [2].

٢ - تفسير الإمام القرطبي:

ورد في تفسيره قوله (هذا ربي) اختلف في معناه علي أقوال فقيـــل (كان هذا منه في مهلة النظر وحال الطفولية وقبل قيام الحجة، وفي تلك الحال لايكون كفر ولا إيمان).

وقال قوم هذا لايصح، وقالوا غير جائز أن يكون لله تعالي رسول يأتي عليه وقت من الأوقات إلا وهو لله تعالي موحد، وبه عارف، ومن كل معبود سواه برئ، قالوا وكيف يصح أن يتوهم هذا علي من عصمه الله وآتاه رشده من قبل، وأراه ملكوته ليكون من الموقنين، ولايجوز أن يوصف بالخلو عن المعرفة، بل عرف الرب أول النظر، قال الزجاج، هذا الجواب عندي خطأ وغلط ممن قاله، وقد أخبر الله عن إبراهيم أنه قال (واجنبني وبني أن نعبد الأصنام) وقال عز وجل (إذ جاء ربه بقلب سليم) أي لم يشرك به قط.

والجواب عندي - القرطبي - أنه قال (هذا ربي) علي قولكم، لأنهم كانوا يعبدون الأصنام والشمس والقمر ونظير هذا قوله (أين شركائي) وهو جلّ وعلا واحد لاشريك له، والمعني : أين شركائي علي قولكم..

وقيل : إنما قال (هذا ربي) لتقرير الحجة علي قومه فأظهر موافقتهم، فلما أفل النجم قرر الحجة وقال: ماتغير لايجوز أن يكون رباً، وقيل علي معني الاستفهام والتوبيخ منكرا لفعلهم والمعني (أهذا ربي) أو مثل هذا يكون رباً

---

(١) مفاتيح الغيب ٢٦/ ١٤٨.

(٢) مفاتيح الغيب ١١/١٨٦.

فحذف الهمزة، وفي التنزيل (أفإن مت فهم الخالدون) أي (أفهم الخالدون) [1].

وعندما تناول قوله (بل فعله كبيرهم) ذكر مايلي :

قيل : أراد بل فعله كبيرهم إن كانوا ينطقون، وبين أن من لايتكلم ولايعلم لايستحق أن يعبد، وكان قوله من المعاريض، وفي المعاريض مندوحة عن الكذب... وقد طلب منهم استنطاقهم ليقولوا إنهم لاينطقون ولاينفعون ولايضرون فيقول لهم فلم تعبدونهم، فتقوم عليهم الحجة منهم ولهذا يجوز عند الأمة فرض الباطل مع الخصم حتي يرجع إلي الحق من ذات نفسه..

قال علماؤنا : الكذب هو الإخبار عن الشيئ بخلاف ماهو عليه، والأظهر أن قول إبراهيم فيما أخبر عنه كان من المعاريض، وإن كانت معاريض وحسنات وحججا في الخلق ودلالات، لكنها أثرت في الرتبة، وخفضت عن محمد في المنزلة، واستحيا منها قائلها علي ماورد في حديث الشفاعة، ... فالأصل أن يصدع النبي بالحق ولكنه رخص له فقبل الرخصة فكان ماكان من القصة [2].

وعند تناوله لقول إبراهيم (إني سقيم) حمله علي المستقبل أي سأسقم سقم الموت، وهذا تورية وتعريض – يقول القرطبي بعد ذكره لحديث (ماكذب إبراهيم) وظاهر الحديث أنه لم يكن سقيما وإنما عرض لهم ... وهذا من معاريض الكلام علي ماذكرنا [3]..

وعند تناوله للأحاديث التي صرحت بكذب إبراهيم قال : « روي البخاري ومسلم والترمذي عن أبي هريرة قال : قال رسول الله – صلي الله عليه وسلم – لم يكذب إبراهيم النبي في شيئ قط إلا في ثلاث قوله (إني سقيم) وقوله عن سارة (إنها أختي) وقوله (بل فعله كبيرهم)... وفي صحيح مسلم قوله في

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٢٥/٧ : ٢٦ بتصرف.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٣٠٠/١١، ٣٠١ بتصرف.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ٩٣/١٥ بتصرف.

الكوكب (هذا ربي) فعلي هذا تكون الكذبات أربعاً إلا أن الرسول - صلي الله عليه وسلم - قد نفي تلك بقوله « لم يكذب إبراهيم النبي قط إلاّ في ثلاث كذبات : اثنتين في ذات الله ، قوله (إني سقيم) وقوله (بل فعله كبيرهم) وواحدة في شأن سارة.

وإنما لم يعدّ عليه قوله في الكواكب (هذا ربي) كذبة وهي داخلة في الكذب لأنه - والله أعلم - كان حين قال ذلك في حال الطفولية وليست حالة تكليف أو قال لقومه مستفهماً علي سبيل الإنكار والتوبيخ أو علي طريق الاحتجاج لأن مايتغير لايصلح للربوبية [1].

رأى الشيخ عبدالوهاب النجار :

أغفل الشيخ الجليل ذكر هذا الموضوع في صلب كتابه قائلا « حتي لايشهد الجمهور اصطدام الحديث بآيات الكتاب الحكيم، وتركت تكذيب الفخر الرازي وغيره لسند ذلك الحديث وإجابة المجيبين وتوجيه الموجهين لأن الجمهور لاخير له في الوقوف علي هذا الضرب من الكر والفر) [2].

وقد انتقد مانسب إلي إبراهيم في التوراة حين قال عن زوجته (إنها أختي) فتناولت لجنة نقد هذا الكتاب هذا الأمر ونسبته إلي البينة وعابت علي المؤلف إغفاله الأحاديث التي صرحت بكذب إبراهيم ونصوا عليها (ص ١٢٤ - ١٢٨) مما دفع المؤلف إلي تناول الموضوع بالذكر والرد علي اللجنة بصورة مفصلة نوجزها فيما يلي :

« والذي أجيب به حضراتهم أني أعلم هذه الأحاديث، وأعلم أنها من الأحاديث التي صح إسنادها ولكنها ترمي إلي إسناد الكذب إلي إبراهيم عليه السلام، والأحاديث وإن كانت صحيحة الإسناد لايمكن أن تكون برهانا علي إثبات أمر اعتقادي، ونقل عن صاحب الفتح قوله : وأما إذا كانت - أي

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٣٠٠/١١ - ٣٠١ بتصرف.

(٢) قصص الأنبياء ص ١٣١.

الأحاديث في العقائد فلايكفي فيها إلاما يفيد القطع متنا وسندا، وعلي ذلك فلا تصلح تلك الأحاديث أداة لتقرير اعتقاد كذب إبراهيم لوجوه، ذكر منها اثني عشر وجها اعتمد فيها علي القرآن والسنة، كما نقل آراء علماء الكلام في وجوب اتصاف الأنبياء بالصدق وبطلان نسبة الكذب إليهم قل أو كثر ثم ختم ذلك بقوله « نظرت إلي ذلك – أقوال علماء الكلام – وإلي الأحاديث التي فيها رُمِيَ إبراهيم بالكذب وهي أحاديث آحاد فتركتها وصرفت النظر عنها، لقد افترضت أنها منقولة نقل تواتر وأني أشرع في تأويلها علي وجه ملائم إن أمكن ولكني وجدت قرّاء كتابي لايكونون من صنف واحد، ومتي سمعوا الأحاديث وفيها كذب إبراهيم ثلاث كذبات يعلّق ذلك في أنفسهم ولاضمان علي إقتلاع ذلك من عقولهم بالحمل والتأويل فيكون ذلك سببا لضلالهم [1].

« علي أن – القائلين بذلك – لو تحروا الحق في شأن إبراهيم وكان كاذبا – حاشاه – كما يقولون لوجدوه قد كذب ست كذبات وهي ١ – قوله إني سقيم . ٢ – قوله بل فعله كبيرهم هذا. ٣ – قوله عن زوجه إنها أختي. ٤ – قوله هذا ربي حين رأي كوكبا. ٥ – قوله هذا ربي حين رأي القمر. ٦ – قوله هذا ربي حين رأي الشمس، فهذه ست كذبات بتنظره كذبات غيرهن يوم القيامة... حين يقول يوم القيامة (إني كذبت ثلاث كذبات) مع أنهن ست وهكذا يجعلونه كذابا في الدنيا والآخره [2]. »وبقي أن أقول : إن ردّ الفخر الرازي للحديث الذي ينبز فيه إبراهيم بالكذب هو الصواب الذي لايشوبه خطأ والحق الصريح الموافق لأصول الإسلام لأنه حديث آحاد يلصق بأحد الأنبياء بل بأبي الأنبياء من بعده نقيصة شنيعة وهي الكذب والتهاون في العرض »[3].

وقد تناول الجمل الثلاث الواردة بالحديث بالتأويل بما يُخرجها عن الكذب ويحملها علي الحقيقة ففسر (السقم)بأنه حقيقي سواء أراد الحسي أم المعنوي أم هما معاً، وقوله : (بل فعله كبيرهم)علي التهكم والسخرية، وأما

---

(١) المرجع السابق ص ١٣٠. (٢) المرجع السابق ص ١٣٣ بتصرف.

(٣) قصص الأنبياء ص ١٣٣.

قولـه (إنها أختي) فيحتمل الأخوة الحقيقية من باب تطور الشرائع أو أخوة الدين أو كانت بنت عم [1].

التعقيب: بعد هذا التفصيل نقول :

من الأمور المسلمة أن :

١ – نص الحديث إذا صادم القرآن وتعذر التوفيق وجب ردّ الحديث.

٢ – أحاديث الآحاد لاتقبل في مجال الاعتقاد ولايحتج بها.

٣ – لايلزم من صحة السند صحة المتن والعكس كذلك.

وحيث إن نسبة الكذب إلي إبراهيم قد وردت بأسلوب الحصر (ثلاث كذبات) وبلغة العرب ومعهودهم في معني الكذب مع تفريقهم بين الكذب والمعاريض، وهذه النسبة تصادم صريح القرآن في وصف إبراهيم بالصدق والإمامة وسلامة القلب والذكري الحسنة ... الخ. لذلك وجب النظر في متن الحديث من قبل المحدثين مع إيماننا بعدم كذب إبراهيم في قليل أو كثير وبخاصة أن ماورد بحقه يمكن تأويله علي معني ينفي عن إبراهيم الكذب كما ذهب إلي ذلك كثيرون.

٩ - أى أولاد إبراهيم الذى هم بذبحه :

يبتَلي الأنبياء في أنفسهم وأموالهم وأهليهم، شأنهم شأن سائر البشر، وقد شاء الله أن يبتلي إبراهيم – عليه السلام – بما لم يبتل به غيره من البشر، حيث أراه في المنام أن يذبح ولده قربانا لله، ورؤيا الأنبياء وحي، فهمّ عليه السلام، بتنفيذ الرؤيا وأطلع ولده علي مارأي وقد حثه ولده علي تنفيذ الأمر

---

(١) المرجع السابق ١٣٤.

فلماهّم بالتنفيذ نودي من قبل الله (أن يا إبراهيم * قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين *إن هذا لهو البلاء المبين * وفديناه بذبح عظيم)[1] .

وقد اشتغل المفسرون وكتاب التاريخ والسير بأمر الذبيح وحصروه في اثنين - إسماعيل، إسحاق. واختلفوا في أيهما الذي هم إبراهيم بذبحه، وظهر في الفكر الإسلامي ثلاثة آراء.

الرأي الأول : يري الجمهور أن الذبيح إسماعيل.

الرأي الثاني : يري أهله أن الذبيح إسحاق.

الرأي الثالث : جوز أن يكون الذبيح إسماعيل وأن يكون إسحاق دون أن يرجح.

والآن نبسط القول في هذه الآراء وأدلتها وردّها علي بعضها ثم نرجح مانراه راجحا وذلك علي النحو التالي :

الراى الاول : الذبيح إسماعيل :

وأصحاب هذا الرأي هم (ابن عباس، عامر، الشعبي، يوسف بن مهران، مجاهد، الحسن، محمد بن كعب القرظي ، الحسن بن أبي الحسن البصري)[2].

قال ابن أبي حاتم : روي عن علي وابن عمر وأبي هريرة وأبي الطفيل وسعيد بن المسيب وسعيد بن جبير وأبي جعفر محمد بن علي وأبي صالح ، وحكاه البغوي أيضا عن الربيع بن أنس والكلبي وأبو عمرو بن العلاء) [3].

وزاد الثعلبي النسبة إلي (عبدالرحمن بن عمر) [4].

---

(١) الصافات ١٠٤ - ١٠٧.

(٢) تاريخ الطبري ٢٧٠/١.

(٣) قصص الأنبياء لإبن كثير ٢١٧/١.

(٤) قصص الأنبياء للثعلبي ٥٤.

أدلة هؤلاء على أن الذبيح إسماعيل :

ذكر ابن كثير حديثا في مسند الإمام أحمد عن صفية بنت شيبة قالت (أخبرتني امرأة من بني سليم ولدت عامة أهل دارنا قالت : أرسل رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إلى عثمان بن طلحة وقالت مرة : إنها سألت عثمان : لم دعاك رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ؟ قال : قال لي رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إني كنت رأيت قرني الكبش حين دخلت البيت فنسيت أن آمرك أن تخمرهما فخمرهما فإنه لا ينبغي أن يكون في البيت شيء يشغل المصلي.

قال سفيان : لم يزل قرنا الكبش معلقين في البيت حتى احترق البيت فاحترقا.

وكذلك روي عن ابن عباس أن رأس الكبش لم يزل معلقا عند ميزاب الكعبة قد يبس وهذا وحده دليل على أن الذبيح إسماعيل لأنه كان هو المقيم بمكة، وإسحاق لا نعلم انه قدمها في حال صغره، وهذا هو الظاهر من القرآن بل كأنه نص على أن الذبيح هو إسماعيل لأنه ذكر قصة الذبيح ثم قال بعد (وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين) ومن جعله حالا فقد تكلف[1].

عن ابن إسحاق قال : سمعت محمداً بن كعب القرظي وهو يقول : إن الذي أمر الله عز وجل إبراهيم بذبحه من ابنيه هو إسماعيل، وإنا لنجد ذلك في كتاب الله عز وجل في قصة الخبر عن إبراهيم وما أمر به من ذبح ابنه أنه إسماعيل وذلك أن الله عز وجل يقول حين فرغ من قصة المذبوح من ابني إبراهيم قال (وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين) [2] ويقول (وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب) [3] يقول بابن وابن ابن فلم يكن

(١) قصص الأنبياء لابن كثير ٢١٣/١، ٢١٤.

(٢) الصافات ١١٢.

(٣) هود ٧١.

يأمره بذبح إسحاق وله فيه من الله من الموعود ماوعده، وما الذي أمر بذبحه إلا إسماعيل.

وفي رواية أخري عن محمد بن كعب القرظي أنه حدثهم أنه ذكر ذلك لعمر بن عبدالعزيز وهو خليفة إذ كان معه بالشام فقال له عمر : إن هذا لشيء ماكنت أنظر فيه وإني لأراه كما قلت ، ثم أرسل إلي رجل كان عنده بالشام كان يهوديا فأسلم فحسن إسلامه وكان يري أنه من علماء اليهود فسأله عمر بن عبدالعزيز عن ذلك، قال محمد بن كعب القرظي، وأنا عند عمر بن عبدالعزيز فقال له عمر : أي ابني إبراهيم أمر بذبحه ؟ فقال : (إسماعيل والله يا أمير المؤمنين إن يهود لتعلم بذلك ولكنهم يحسدونكم، معشر العرب علي أن يكون أباكم الذي كان من أمر الله فيه، والفضل الذي ذكره الله منه، لصبره علي ما أمر به، فهم يجحدون ذلك ويزعمون أنه إسحاق لأن إسحاق أبوهم [١].

روي عن عبدالرحمن الخطاب بإسناده عن الصنابحي قال : كنا عند معاوية بن أبي سفيان فذكروا أن الذبيح إسماعيل أو إسحاق فقال علي الخبير أسقطتم، كنت عند رسول الله - صلي الله عليه وسلم - فجاء رجل فقال يارسول الله أعد عليّ ما أفاء الله عليك يا ابن الذبيحين، فقال إن عبدالمطلب لما حفر زمزم نذر لربه إن سهل عليه أمرها ليذبحن أحد ولده ، قال فخرج السهم على عبد الله ، فسمعه أخواله وقالوا له افد ولدك بمائة من الإبل ففداه بمائة من الإبل والثاني إسماعيل[٢].

الرأى الثانى : الذبيح إسحاق :

وقد ذهب إلي هذا الرأي (ابن عباس، ابن مسعود، كعب الأحبار، عبدالله بن عبيد الله بن عمير، ابن أبي الهذيل، أبوميسرة، مسروق [٣]. كما انتصر الطبري لهذا الرأي ودافع عنه [٤] والسهيلي [٥].

---

(١) تاريخ الطبري ٢٦٩/١ :٢٧٠.
(٢) البداية والنهاية ١٩٠/١.
(٣) تاريخ الطبري ٢٧٠/١.
(٤) المرجع السابق٢٧٠/١.
(٥) قصص الأنبياء لابن كثير ٢١٥، ٢١٦.

وممن حكي عنهم هذا الرأي – غير من سبقوا – عمر، العباس، علي، عكرمة، سعيد بن جبير، مجاهد، عطاء، الشعبي، مقاتل، زيد بن أسلم، عبدالله بن شقيق، الزهري القاسم، ابن أبي بردة، عثمان بن حاضر، السدي، الحسن، قتادة، ابن سابط [1].

أدلة هؤلاء على أن الذبيح إسحاق:

يقول الطبري : «واختلف السلف من علماء أمة نبينا – صلي الله عليه وسلم – في الذي أمر إبراهيم بذبحه من ابنيه، فقال بعضهم : هو إسحاق بن إبراهيم، وقال بعضهم هو إسماعيل بن إبراهيم وقد روي عن رسول الله – صلي الله عليه وسلم – كلا القولين، لو كان فيهما صحيح لم نعده إلي غيره، غير أن الدليل علي صحة الرواية التي رويت عنه – صلي الله عليه وسلم – أنه قال (هو إسحاق) أبين منه علي صحة الأخري.

وساق الطبري رواية عن العباس بن عبدالمطلب عن النبي – صلي الله عليه وسلم – في حديث ذكر فيه (وفديناه بذبح عظيم) قال : هو إسحاق، وقد روي هذا الخبر عن غيره من وجه أصلح من هذا الوجه غير أنه موقوف علي العباس غير مرفوع [2].

دليل الطبري علي ترجيح كون الذبيح إسحاق:

(يقول : وأما الدلالة من القرآن التى قلنا إنها أدل – علي أن ذلك إسحاق أصح ، فقوله تعالى مخبرا عن دعاء خليله إبراهيم، حين فارق قومه مهاجرا إلي ربه إلي الشام مع زوجه سارة فقال (إني ذاهب إلي ربي سيهدين ، رب هب لي من الصالحين) [3]. وذلك قبل أن يعرف هاجر وقبل أن تصيرله أم إسماعيل ، ثم أتبع ذلك ربنا عز وجل الخبر عن إجابته دعاءه ، وتبشيره إياه

(1) المرجع السابق ٢١٦. (2) تاريخ الطبري ٢٧٠/١.

(3) سورة الصافات ٩٩، ١٠٠.

بغلام حليم ، ثم عن رؤياه إبراهيم أنه يذبح ذلك الغلام حين بلغ معه السعى ، ولا يعلم فى كتاب الله عز وجل تبشير لابراهيم بولد ذكر إلا بإسحاق ، وذلك قوله (وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب)[1] .
وقوله (فأوجس منهم خيفة قالوا لاتخف وبشروه بغلام عليم ، فأقبلت امرأته فى صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم) [2] . ثم ذلك كذلك في كل موضع ذكر فيه تبشير إبراهيم بغلام، فإنما ذكر تبشير الله إياه به من زوجته سارة، فالواجب أن يكون ذلك في قوله (فبشرناه بغلام حليم) نظير مافي سائر سور القرآن من تبشيره إياه به من زوجته سارة [3] .

واحتج السهيلي علي أن الذبيح إسحاق بقوله : (فلما بلغ معه السعي) قال : وإسماعيل لم يكن عنده، إنما كان في حياة صغره هو وأمه بجبال مكة فكيف يبلغ معه السعي [4] ؟.

وعن العباس بن عبدالمطلب قال : قال رسول الله – صلي الله عليه وسلم – الذي أراد إبراهيم أن يذبحه إسحاق، وعنه – صلي الله عليه وسلم – الذي فداه الله بذبح عظيم إسحاق، وعن العباس بن عبدالمطلب عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله – صلي الله عليه وسلم – (يشفع إسحاق بعدي فيقول يارب صدّقت نبيك وجدْت بنفسي للذبح فلا تدْخل النار من لايشرك بك شيئا قال : فيقول الله وعزتي لا أُدخِل النار من لايشرك بي شيئا.

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله – صلي الله عليه وسلم – إن الله خيرني بين أن يغفر لنصف أمتي وبين أن اختبيء شفاعتي، ورجوت أن يكون ذلك أعم لأمتي، ولولا الذي سبقني إليه العبد الصالح لتعجلت منها دعوتي، وذلك أن الله تعالي لما فرج عن إسحاق كرب الذبح قيل له يا إسحاق : سل تعط...)[5].

---

(١) سورة هود ٧١.
(٢) الذاريات ٢٨، ٢٩.
(٣) تاريخ الطبري ١/ ٢٧٠، ٢٧١.
(٤) قصص الأنبياء لابن كثير ٢١٦.
(٥) عرائس المجالس ٥٤.

الرأى الثالث : القائلون بجواز أن يكون الذبيح إسماعيل وأن يكون إسحاق

ذكر بعض الكتاب أن نصوص الذبح دلالتها احتمالية، قائلين إن كان الذبيح إسحاق فيكون المكان بلاد الشام وإن كان الذبيح إسماعيل فالمكان مكة وليس لدينا دلائل قطعية من القرآن أو السنة على تحديد أحدهما فكان الترك أولى.

الرد على القائلين بأن الذبيح إسماعيل : يقول الطبري (وأما اعتلال من إعتل بأن الله لم يكن يأمر إبراهيم بذبح إسحاق وقد أتته البشارة من الله قبل ولادته، بولادته وولادة يعقوب منه من بعده فإنها علة غير موجبة صحة ماقال، وذلك بأن الله أمر إبراهيم بذبح إسحاق بعد إدراك إسحاق السعي، وجائز أن يكون يعقوب ولد له قبل أن يؤمر أبوه بذبحه، وكذلك لاوجه لاعتلال من اعتل في ذلك بقرني الكبش أنه رآهما معلقين في الكعبة وذلك أنه غير مستحيل أن يكونا حملا من الشام إلى الكعبة فعلقا هناك [1].

رد السهيلي على محمد بن كعب القرظي : « حاصله . أن قــــوله (فبشرناها بإسحاق) جملة تامة وقوله (ومن وراء إسحاق يعقوب) جملة أخرى ليست في حيز البشارة، وقال : لأنه لايجوز من حيث العربية أن يكون مخفوضا إلا أن يعاد معه حرف الجر .... فقوله (ومن وراء إسحاق يعقوب) منصوب بفعل مضمر تقديره (وهبنا لإسحاق يعقوب) .... يقول ابن كثير وفي هذا الذي قاله نظر [2].

الرد على القائلين بأن الذبيح إسحاق:

يقول ابن كثير : وقد قال بأنه إسحاق طائفة كثيرة من السلف وغيرهم، وإنما أخذوه – والله أعلم – من كعب الأحبار أو من صحف أهل الكتاب وليس في ذلك حديث صحيح عن المعصوم حتي نترك لأجله ظاهر الكتاب

---

(١) تاريخ الطبري ٢٧١/١. (٢) قصص الأنبياء، ابن كثير ٢١٤، ٢١٥.

العزيز، ولايفهم هذا من القرآن، بل المفهوم بل النص علي أنه إسماعيل [1].

وفي موضع آخر يقول « ومستنده أنه إسحاق إنما هو إسرائيليات وكتابهم فيه تحريف، ولاسيما هاهنا قطعا لا محيد عنه، فإن عندهم أن الله أمر إبراهيم أن يذبح ابنه وحيده وفي نسخة من المعربة بكْره إسحاق، فلفظة إسحاق هاهنا مقحمة مكذوبة مفتراة، لأنه ليس هو الوحيد ولا البكر، إنما ذاك إسماعيل، وإنما حملهم علي هذا حسد العرب فأرادوا أن يجرّوا هذا الشرف إليهم فحرفوا كلام الله وزادوا فيه وهم قوم بهت [2].

« قوله تعالي (فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب) [3] دليل علي أنها تستمتع بوجود ولدها إسحاق، ثم من بعده يولد ولده يعقوب، أي يولد في حياتهما لتقر به كما قرت بوالده، ولو لم يرد هذا لم يكن لذكر يعقوب وتخصيص التنصيص عليه من دون سائر نسل إسحاق فائدة ولما عين بالذكر دلّ علي أنهما يتمتعان به ويسُرّان بولده، كما سرّا بمولد أبيه من قبله، وقال تعالي (ووهبنا له إسحاق ويعقوب كلا هدينا) [4]، وقال تعالي (فلما اعتزلهم ومايعبدون من دون الله وهبنا له إسحاق ويعقوب) [5] [6].

ويقول الشيخ النجار : « أما هذه القصة في التوراة فبطلُّها عند اليهود إسحاق، وفي اعتقادي أن لفظ إسحاق حشر حشرا في غضون القصة، وذلك حرصا منهم علي أن يكون أبوهم هو الذبيح الذي جاد بنفسه في طاعة ربه وهو في حالة صغره.

ودليلي علي أن الذبيح إسماعيل من التوراة نفسها أن الذبيح وصف بأنه ابن إبراهيم الوحيد أي الذي ليس له سواه، إذ سخاوة نفس إبراهيم بولده الوحيد يذبحه امتثالا لأمر ربه له في المنام، أدل علي نهاية الطاعة والامتثال لأمر الله، وهذا هو الإسلام بعينه ... وإذا رجعنا إلي إسحاق لم نجده وحيدا لإبراهيم في

---

(1) المرجع السابق ٢١٤.
(2) المرجع السابق ٢١٣، ٢١٤.
(3) سورة هود ٧١.
(4) الأنعام ٨٤.
(5) مريم ٤٩.
(6) قصص الأنبياء – ابن كثير ٢٢١.

يوم من الأيام، لأن إسحاق ولد ولاسماعيل نحو أربع عشرة سنة - كما هو صريح التوراة - وبقي إسماعيل إلي أن مات إبراهيم ... وأيضا فإن ذبح إسحاق يناقض الوعد الذي وعد به إبراهيم أن إسحاق سيكون له نسل » (1).

الترجيح: من خلال ماسبق وفي ضوء النص القرآني المتعلق بقصة الذبح في سورة الصافات ومن خلال نصوص التوراة نرجح أن الذبيح إسماعيل، للدلائل التالية:

١ - أن القرآن ذكر قصة الذبيح ونجاته وفداء الله له ثم كافأ إبراهيم بالبشارة بولد اسمه إسحاق سيكون (نبيا من الصالحين) أو أنه بشر بإسحاق ووصف بالنبوة والصلاح بعد فكيف يكون هو المأمور بذبحه ثم تكون به البشارة بعد.

٢ - اقترنت البشارة بإسحاق بولد من عقبه يسمي يعقوب، فكيف يأمر الله إبراهيم بذبح إسحاق في طفولته أو شبابه ؟ هل نسي كما يتعارف عليه في التوراة ؟ أو رجع في وعده ؟ فيكون خلفا في الوعد بكرم ؟ وهل يجوز ذلك علي الله؟

٣ - أن التوراة صرحت بأن المأمور بذبحه كان هو وحيد والده وفي بعض التراجم (بكر والده) وقد نصت التوراة علي أن إسماعيل كان وحيد والده لمدة أربع عشرة سنة وأنه كان في صحبة أبيه حتي أنجبت سارة فطلبت من إبراهيم أن يطرد إسماعيل حتي لايشارك ولدها في الميراث.

٤ - لايمتنع عقلا أن تكون البشارة (بغلام حليم) الواردة في سورة الصافات خاصة بإسماعيل من هاجر وأن تكون البشارة الواردة في سورة هود، الحجر، الذاريات خاصة بإسحاق من سارة وهو يبطل ماذهب إليه الطبري.

٥ - الروايات الواردة بالسنة والسيرة وإن كانت ضعيفة إلا أنه لم ترد روايات في قوتها لدي القائلين بأن الذبيح إسحاق.

---

(1) قصص الأنبياء - الشيخ عبدالوهاب النجار ١٤٩.

٦ - جمهور المسلمين علي أن شعيرة رمي الجمرات في الحج مردها إلي رجم إبراهيم أو إسماعيل أو هاجر أو أحدهم لإبليس ومعلوم أن إسحاق لم يأت إلي مكة علي وجه الإطلاق.

مايستفاد من العلم بدعوة إبراهيم عليه السلام

١ - علي الدعاة أن يتحلوا بالخلق الحسن فإنه آلف للقلب وادعي للسماع.

٢ - الاشتغال بطلب العلم ما أمكن فإن مايعرفه الإنسان بالنسبة لما يجهله لايتأتي بأن يقارن.

٣ - التدرج في الدعوة بمراعاة الأوليات والتركيز عليها ثم الانتقال منها إلي مايليها في الرتبة.

٤ - مشاركة الدعاة أهل الخير بيدهم إلي جوار قولهم فإبراهيم بني البيت مع ولده ولم يجعل من نفسه مشرفا عليه.

٥ - بطلان دعوي التدرج في العقيدة حتي انتهت إلي التوحيد لأن ماصدر عن إبراهيم من البدء إلي النهاية كان بوحي من الله.

٦ - وجوب بر الوالدين وإن كانا علي غير الإسلام فما بالنا إن كانا مسلمين ولو قصرا في الطاعة.

٧ - وجوب مواجهة أهل الفسق والباطل بحقيقة ماهم فيه بأسلوب يتناسب مع كل فرد وكل طائفة.

٨ - جواز التدرج في تغيير المنكر من القول إلي العمل بشرط ارتكاب أخف الضررين.

٩ - خرق العادة ليس سنة مطردة ولكنه لحكمة وليس لنا أن نؤول الحدث - الالقاء في النار - وإن تعذر علي العقل قبوله.

١٠ - الاهتمام بالدراسات المقارنة للأديان لأنها تكشف الحجاب عن مكونات الأديان وجوانب الإيجاب والسلب فيها بمثل ماورد في سورة الأنعام، الشعراء ، البقرة.

١١ - ينبغي علي الداعي أن يكون قوي الشخصية وفي علمه وخلقه كذلك لأن ضعيف الشخصية لايستجاب له مع الاعتدال في ذلك والحرص علي النظر في عواقب الأمور (أولي الأيدي والأبصار).

١٢ - وحدة أصول الدعوات (عقيدة - شريعة - أخلاق) وإن وقع تفاوت في الشرائع من ناحية الكم والكيف.

١٣ - وجوب تنزيه إبراهيم عما نسب إليه من قصص وخرافات في كتب الشمائل والتاريخ والتفسير مما لايقبله عقل ولا أساس له من النقل وحسبنا ماورد بالقرآن وصحيح السنة.

امور خاض فيها كثيرون امسكنا عن التفصيل فيها

إرهاصات الحمل والميلاد بالنسبة لإبراهيم [١]. الخلاف في اسم أبيه [٢] اسم أمه [٣]. نسب إبراهيم كاملا [٤]. سن والده حين ولد إبراهيم [٥] زمن ولادته [٦] مكان ولادته. [٧] إلقاؤه في مغارة بعد ميلاده وسبب ذلك [٨]، كيفية نموه الجسماني [٩] بيعه للأصنام في الصبا [١٠]. اسم الكوكب

---

(١) تاريخ الطبري ٢٣٦/١، الكامل في التاريخ ٩٤/١، عرائس المجالس ٤٣.

(٢) البداية والنهاية ١٤٢/١، القرطبي ٢٣،٢٢/٧ مروج الذهب ٤٤/١، قصص الأنبياء : النجار ١٠٧ إلى ١١٠.

(٣) البداية والنهاية ١٤٠/١ البدء والتاريخ للمقدسي ٤٨/٣ سمط النجوم العوالي ١٣٨/١.

(٤) تاريخ الطبري ٢٣٣/١، البداية ١٣٩/١، بدائع الزهور ١٢١/١. البدء والتاريخ ٤٧/٣ الكامل ٩٤/١ ، فتح الباري ٣٨٩/٦.

(٥) البداية والنهاية ١٤٠/١.

(٦) تاريخ الطبري ٢٣٣/١، ٢٣٤، قصص الأنبياء لابن كثير ٢٤٩/١ بدائع الزهور ١٢١/١.

(٧) تاريخ الطبري ٢٣٣/١، البداية والنهاية ١٤٠/١ بدائع الزهور ١٢١/١ تفسير القرطبي ٢٤/٧، الثعلبي ٤٣، أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ ٢٨/١ سمط النجوم العوالي ٥١/١، البدء والتاريخ ٥١/٣ الكامل في التاريخ ٩٤/١.

(٨) تاريخ الطبري ٢٣٤/١، ٢٣٧ وبدائع الزهور ١٢٣/١، أخبار الدول وآثار الأول ٢٩/١ مروج الذهب ٤٤/١ سمط النجوم العوالي ٣٨/١، البدء والتاريخ ٤٨/٣، الكامل في التاريخ ٩٥/١ عرائس المجالس ٤٣.

(٩) تاريخ الطبري ٢٣٥/١، بدائع الزهور ١٢٣/١ سمط النجوم العوالي ١٣٨/١، البدء والتاريخ ٤٨/٣ الكامل في التاريخ ٩٥/١، عرائس المجالس ٤٤.

(١٠) تاريخ الطبري ٢٣٥/١، بدائع الزهور ١٢٤/١. أخبار الدول وآثار الأول ٢٩ الكامل في التاريخ ٩٦/١ عرائس المجالس ٤٤.

الذي رآه[1] اسم المَلك الذي حاج إبراهيم [2]. نهاية ذلك الملك [3]. صاحب فكرة حرق إبراهيم [4]. صناعة إبليس للمنجنيق لإلقاء إبراهيم به في النار [5].

سن إبراهيم حين أُلقي في النار [6]. الحوار بين المَلك وإبراهيم وهو في النار [7]، الشيء الذي احترق منه [8]. وصف حال إبراهيم وهو في النار [9]، الفترة التي مكثها في النار [10]، دخول أمه إليه وهو في النار [11] استغاثة السماء

---

(1) قصص الأنبياء لابن كثير ١٧٤/١ تفسير القرطبي ٢٥/٧ مروج الذهب ٤٤ الكامل في التاريخ ٩٥/١.

(2) تاريخ الطبري ٢٤٠/١، البداية والنهاية ١٤٨/١، ٢٨٧، ٢٨٩، ٢٩٢ تفسير القرطبي ٢٥/٧ مروج الذهب ٤٤/١، الكامل في التاريخ ٩٤/١،٩٥، ٩٨، فتح الباري ٣٩٢/٦، الثعلبي ٤٣.

(3) البداية والنهاية ١٤٩/١، بدائع الزهور ١٣٦/١ إلى ١٣٩ البدء والتاريخ ٥٦/١، الكامل في التاريخ ١١٦/١، عرائس المجالس ٥٧.

(4) تاريخ الطبري ٢٤٠/١، البداية والنهاية ١٤٦/١ الكامل في التاريخ ٩٨/١.

(5) بدائع الزهور ١٢٦/١. البدء والتاريخ ٥٤/٣ عرائس المجالس ٤٥.

(6) تاريخ الطبري ٢٤٩/١ أخبار الدول وآثار الأول ٢٩ عرائس المجالس ٤٦.

(7) تاريخ الطبري ٢٤٣/١، أخبار الدول وآثار الأول ٢٩، الكامل في التاريخ ٩٩/١، عرائس المجالس ٤٦.

(8) تاريخ الطبري ٢٤٣/١ وقصص الأنبياء لابن كثير ١٨٣/١ أخبار الدول وآثار الأول ٢٩.

(9) تاريخ الطبري ٢٤٢/١، البداية والنهاية ١٤٦/١ وبدائع الزهور ١٢٦/١، الكامل ٩٩/١، عرائس المجالس ٤٦.

(10) البداية والنهاية ١٤٦/١.

(11) البداية والنهاية ١٤٦/١.

والأرض من أجل إبراهيم [1] أحاديث قتل الوزغ [2]. سبب قطع نسل البغال [3]. رحلات إبراهيم عليه السلام [4] دخول إبراهيم مصر [5]، الحوار بين الملك وسارة حين أدخلت عليه [6]، مصاهرة إبراهيم لأهل مصر [7]، سن إبراهيم حين رزق بإسماعيل [8]، عدد الملائكة الذين مرّوا بإبراهيم وأسماؤهم [9]، ثمن الطعام الذي قدمه إبراهيم للضيوف [10]، سن سارة حين البشارة [11]،نبوة سارة والخلاف

---

(١) تاريخ الطبري ١/٢٤١، ٢٤٢، والبداية والنهاية ١/١٤٦، بدائع الزهور ١/١٢٦، الكامل في التاريخ ١/٩٩، عرائس المجالس ٤٥.

(٢) البخاري ك الأنبياء ٨، ك بدء الخلق ١٥، مسلم. ك سلام ١٤٢، ١٤٤والبداية والنهاية ٢/١٤٧ البدء والتاريخ ١/٥٤.

(٣) بدائع الزهور١/١٢٥ البدء والتاريخ ٣/٥٤.

(٤) البداية والنهاية ١/١٤٠، ١٤٩، ١٥٠، ١٥٢، بدائع الزهور ١/١٢٧، ١٢٨ أخبار الدول وآثار الأول ٢٩ سمط النجوم العوالي ١/١٣٨. البدء والتاريخ ٣/٥٢، عرائس المجالس ٤٦، ٤٧، النجار ١٢٣، ١٤٤.

(٥) تاريخ الطبري ١/٢٤٥ سمط النجوم العوالي ١/١٣٨. البدء والتاريخ ٣/٥٢ الكامل في التاريخ ١/١٠١.

(٦) تاريخ الطبري ١/٢٤٥، قصص الأنبياء لابن كثير ١/١٩٤ إلى ١٩٨ وبدائع الزهور ١/١٢٧. ١٢٨ سمط النجوم العوالي ١/١٣٩، فتح الباري ٦/٣٩٣ عرائس المجالس ٤٧.

(٧) تاريخ الطبري ١/٢٤٧ سمط النجوم العوالي ١/١٤٥، ١٤٦ البدء والتاريخ ٣/٥٢

(٨) بدائع الزهور ١/١٢٩، قصص الأنبياء لابن كثير ١/٢٠١ مروج الذهب ١/٤٥، النجار ١١٦.

(٩) قصص الأنبياء لابن كثير ١/٢١٩.

(١٠) تاريخ الطبري ١/٢٥٠، عرائس المجالس ٤٨.

(١١) تاريخ الطبري ١/٢٤٩ سمط النجوم العوالي ١/١٤٠ الكامل ١/١٠٢، عرائس المجالس ٤٦، النجار ١٤٣.

فيهـــا [1]، سن إبراهيم حين رزق بإسحاق [2]، سن إبراهيم حين الختان [3]، الأوليات المنسوبة إلي إبراهيم [4]. الكلمات التي ابتلي بها إبراهيم[5] سبب طرد هاجر إلي مكة [6] قصة نبع زمـــزم [7]، وسيلة إبراهيم في الانتقال من الشام إلي مكة [8] زيارة إبراهيم لبيت إسماعيل[9] لماذا أمر إبراهيم بذبح ولده [10] مكان

---

(1) البداية والنهاية ١٥٢/١، فتح الباري ٣٩٤/٦.

(2) قصص الأنبياء لابن كثير ٢٠١/١ مروج الذهب ٤٦/١ سمط النجوم العوالي ١٤٠/١ الكامل ١٠٢/١ عرائس المجالس ٤٦، التيجان ١١٦.

(3) قصص الأنبياء لابن كثير ٢٠٨/١. ٢٠٩، ٢٥١.

(4) قصص الأنبياء لابن كثير ٢٥٢/١ بدائع الزهور ١٢٨/١ أخبار الدول وآثار الأول ٢٨ الكامل في التاريخ ١١٣/١ فتح الباري ٣٩٠/٦، عرائس المجالس ٥٨، ٥٩.

(5) تاريخ الطبري ٢٧٩/١، ٢٨٠، ٢٨١، ٢٨٢، ٢٨٣، ٢٨٥.

(6) الطبري ٢٥٤/١، قصص الأنبياء لابن كثير ٢٠٠/١ بدائع الزهور ١٢٩/١ أخبار الدول وآثار الأول ٣١ مروج الذهب ٤٦/١ سمط النجوم العوالي ١٤٣/١، سمط النجوم العوالي ١٤٦/١ الكامل ١٠٣/١، عرائس المجالس ٤٨.

(7) تاريخ الطبري ٢٥٢/١، ٢٥٥ إلي ٢٥٨، قصص الأنبياء لابن كثير ٢٠٥/١ أخبار الدول وآثار الأول ٣٢ مروج الذهب ٤٦/١ سمط النجوم العوالي ١٤٤/١، الكامل ١٠٣/١، عرائس المجالس ٤٨، التيجان ١٥٠ - ١٥٤.

(8) الطبري ٢٧٤/١، أخبار الدول وآثار الأول ٣١ سمط النجوم العوالي ١٤٦/١، عرائس المجالس ٤٩، ٥٥.

(9) تاريخ الطبري ٢٥٧/١ إلي ٢٥٩ وقصص الأنبياء لابن كثير ٢٠٦/١، بدائع الزهور ١٣١/١، أخبار الدول ٣٣ مروج الذهب ٤٧/١ سمط النجوم العوالي ١٤٧/١ الكامل ١٠٤/١.

(10) تاريخ الطبري ٢٧٧/١ بدائع الزهور ١٣٤/١، الكامل في التاريخ ١١١/١ عرائس المجالس ٤٨، ٥٥.

ذبح إسحاق عند من يرآه الذبيح [1]. من إسحاق حين الذبح [2]. من إسماعيل حين الذبح [3]. مكان ذبحه [4] تفاصيل ذبح إسماعيل [5]، الشيطان وقضية الذبح [6] صفة كبش الفداء ومن أين أتي به [7]، من حروب إبراهيم [8]، كيف حدد إبراهيم مكان الحرم [9]، الكلمات التي وجدها إبراهيم على أساس الكعبة [10] مرور ذي القرنين على إبراهيم وهو يبني الحرم [11]، مصدر الحجر الأسود [12] نداء إبراهيم في الناس بالحج [13] كيف حج إبراهيم [14]، علة رمي

---

(١) تاريخ الطبري ٢٤٩/١ أخبار الدول ٣٣، عرائس المجالس ٥٤.

(٢) تاريخ الطبري ٢٤٩/١.

(٣) بدائع الزهور ١٣٦/١.

(٤) قصص الأنبياء لابن كثير ٢١٣/١، بدائع الزهور ١٣٦/١، الكامل في التاريخ ١١٢/١.

(٥) تاريخ الطبري ٢٧٣/١، ٢٧٨، بدائع الزهور ١٣٥/١ سمط النجوم العوالي ١٤٩/١.

(٦) تاريخ الطبري ٢٦٥/١، ٢٧٤، بدائع الزهور ١٣٤/١ سمط النجوم العوالي ١٤٨/١.

(٧) تاريخ الطبري ٢٧٦/١، ٢٧٧ قصص الأنبياء لابن كثير ٢١٢/١، ٢١٣، بدائع الزهور ١٣٥/١ سمط النجوم العوالي ١٤٩/١، الكامل في التاريخ ١١٣/١، عرائس المجالس ٥٦.

(٨) قصص الأنبياء لابن كثير ١٩٩/١.

(٩) تاريخ الطبري ٢٥١/١ إلى ٢٥٣ وقصص الأنبياء لابن كثير ٢٢٩/١، بدائع الزهور ١٣٢/١ تفسير القرطبي ٣٦/١٢، الكامل ١٠٦/١.

(١٠) بدائع الزهور ١٣٢/١..

(١١) قصص الأنبياء لابن كثير ٢٣٠/١.

(١٢) تاريخ الطبري ٢٥٣/١ وقصص الأنبياء لابن كثير ٢٢٩/١، بدائع الزهور ١٣٣/١ أخبار الدول ٣٣ الكامل في التاريخ ١٠٦/١، عرائس المجالس ٥٢.

(١٣) تاريخ الطبري ٢٦٠/١، ٢٦١ بدائع الزهور ١٣٣/١/ تفسير القرطبي ٣٨/١٢ أخبار الدول ٣٣ سمط النجوم العوالي ١٤٧/١، الكامل في التاريخ ١٠٧/١ عرائس المجالس ٥٢.

(١٤) تاريخ الطبري ٢٦١/١، ٢٦٢، الكامل في التاريخ ١٠٧/١، عرائس المجالس ٥٢.

الجمرات [1]، سن سارة حين الوفاة [2]، مكان دفنها [3]، زواج إبراهيم من قنطورا[4]، ومن حجون [5].

عدد أولاد إبراهيم[6]، سن هاجر حين وفاتها [7]، ماهي الطيور الأربع التي ذبحها إبراهيم [8]، كيف قبض إبراهيم [9]، عمر إبراهيم حين الوفاة[10]، مكان دفن إبراهيم[11]، صفة قصر إبراهيم في الجنة[12] الفترة الزمنية بين إبراهيم وآدم[13]،

---

(١) تاريخ الطبري ٢٧٦/١ بدائع الزهور ١٣٤/١ أخبار الدول ٣٣ سمط النجوم العوالي ١٤٨/١ عرائس المجالس ٥٦.

(٢) بدائع الزهور ١٤٠/١، عرائس المجالس ٥٧.

(٣) بدائع الزهور ١٤٠/١، البدء والتاريخ ٥٢/٣، عرائس المجالس ٥٧.

(٤) قصص الأنبياء لابن كثير ٢٥٠/١، أخبار الدول وآثار الأول ٣٠ مروج الذهب ٤٦/١ البدء والتاريخ ٥٣/١

(٥) قصص الأنبياء لابن كثير ٢٥٣/١ البدء والتاريخ ٥٣/٣.

(٦) قصص الأنبياء لابن كثير ٢٥٣/١، أخبار الدول وآثار الأول ٣٠ مروج الذهب ٤٦/١ البدء والتاريخ ٥٣/١، النجار ١٥٨.

(٧) بدائع الزهور ١٣٠/١.

(٨) قصص الأنبياء لابن كثير ٢٣٤/١.

(٩) بدائع الزهور ١٣٩/١، ١٤٠.

(١٠) تاريخ الطبري ٢٤٩/١، قصص الأنبياء لابن كثير ٢٤٩/١، بدائع الزهور ١٤٠/١ أخبار الدول وآثار الأول ٣٠ مروج الذهب ٤٦/١، البدء والتاريخ ٥٣/١ فتح الباري ٣٩١/٦، عرائس المجالس ٥٨، النجار ١٥٨.

(١١) قصص الأنبياء لابن كثير ٢٥٠/١، ٢٥٢ أخبار الدول وآثار الأول ٣٠ البدء والتاريخ ٥٣/١، عرائس المجالس ٥٨، النجار ١٥٨.

(١٢) قصص الأنبياء لابن كثير ٢٤٧/١.

(١٣) تفسير القرطبي ٢٤/٧.

وبين إبراهيم والطوفان [١]، سبب ضرب إبراهيم بالشيب [٢]، عدد الصحف التي أنزلت عليه [٣].

دعوة إبراهيم - عليه السلام - في الكتاب المقدس:

منزلة إبراهيم عليه السلام عند اتباع الكتاب المقدس:

مقدمة: لإبراهيم -عليه السلام - كبير المنزلة عند اليهود، فهو مضرب المثل في الإيمان وحسن الخلق وقوة الصلة بالله، كما أنه أول موعود بالأرض المقدسة، والتي انتقل الوعد بها بعده إلي إسحاق فيعقوب فموسي -عليهم السلام - وكلما نزلت الشدائد ببني إسرائيل وهَمّ الله بهلاكهم تضرعوا إليه باسم إبراهيم أن يرفع غضبه عنهم فيستجيب، وكلما نسيهم الرب ذكّروه بعهده لإبراهيم فيتأسف الرب ويندم، ويقول لا أعود لذلك. هذا عن العهد القديم - باستثناء السلبيات التي ألصقت به والتي سنبينها في حينها.

وأما العهد الجديد، فقد وصف إبراهيم بصفات الكمال، وجعله فخارا لكل من ينتسب إليه «الصالحون هم أبناؤه والطالحون ليسوا من أبنائه - دينا ولو كانوا منه نسبا، وهو في الصدارة في الجنة ويجاوره الصالحون ويرغب إليه الطالحون فيعرض عنهم، وقد شرف المسيح بالنسبة إليه من جهة أمه وشرف المسيحيون بالانتساب إليه من جهة الاتباع مع تكرار التأكيد علي الأرض الموعود بها في العهد الجديد يصور ذلك النصوص التالية.

اولا: في العهد القديم:

ورد في سفر نحميا أن الإسرائيليين كانوا يستغيثون إلي الله أن يغفر ذنوبهم متوسلين بإبراهيم - عليه السلام - ومن توسلاتهم (أنت هو الإله الذي اخترت إبرام وأخرجته من أور الكلدانيين وجعلت اسمه إبراهيم، ووجدت قلبه

(١) تفسير القرطبي ٢٤/٧. (٢) أخبار الدول وآثار الأول التاريخ ٢٨/١

(٣) مروج الذهب ٤٦/١، عرائس المجالس ٥٩.

أمينا أمامك، وقطعت معه العهد أن تعطيه أرض الكنعانيين.) [1] كما ورد مثل ذلك في الخروج (٢٤/٢، ٣/٦ : ٨، ١/٣٣) واللاويين (٤٢/٢٦، ٢٤/٢) والتثنية (٤/٣٤، ٨/١، ١٠/٦، ٥/٩، ١٣/٢٩؛ ٢٠/٣٠).

وفي وصف إبراهيم – عليه السلام – بالخلة ورد في أخبار الأيام الثاني (ألست أنت إلهنا الذي طردت سكان هذه الأرض من أمام شعبك إسرائيل وأعطيتها لنسل إبراهيم خليلك إلي الأبد) [2] وقد عاتب موسي ربه – كما يزعمون – حين هم بتشريد اليهود وتعذيبهم ، فتضرع موسي أمام الرب إلهه، وقال لماذا يارب يحمي غضبك علي شعبك الذي أخرجته من مصر بقوة عظيمة ويد شديدة، لماذا يتكلم المصريون قائلين أخرجهم بخبث ليقتلهم في الجبال ويفنيهم عن وجه الأرض، ارجع عن حمو غضبك واندم علي الشر بشعبك، اذكر إبراهيم وإسحاق وإسرائيل عبيدك، الذين حلفت لهم بنفسك، وقلت لهم أكثر نسلكم كنجوم السماء، وأعطي نسلكم كل هذه الأرض التي تكلمت عنها فيملكونها إلي الأبد فندم الرب علي الشر الذي قال إنه يفعله بشعبه) [3] وقريب من هذا النص ورد في سفر التثنية (٢٧/٩).

ثانيا: في العهد الجديد:

يعتبر إبراهيم – عليه السلام – من أجداد المسيح من جهة أمه [4] وكل المؤمنين من نسله الديني (غلاطية ٦/٣ : ٨) وهم معه في الجنة (غلاطية ٩/٣) ورد في لوقا أن غنيا كان لايرحم مسكينا (فمات المسكين وحملته الملائكة إلي حضن إبراهيم ومات الغني أيضا ودفن، فرفع عينيه في الهاوية وهو في العذاب ورأي إبراهيم من بعيد والعازر في حضنه. فنادي وقال يا أبي إبراهيم ارحمني وأرسل العازر ليبل طرف أصبعه بماء ويبرد لساني لأني معذب في هذا اللهيب، فقال إبراهيم يابني أذكر أنك استوفيت خيراتك في حياتك وكذلك

(١) نحميا ٩٠٧/٩.
(٢) أشعيا ٨/٤١.
(٣) خروج ١١/٣٢-١٤.
(٤) متى ١/١ ، لوقا ٣٤/٣.

لعازر البلايا، الآن هو يتعزى وأنت تتعذب) [1].

كما بشر المسيحُ بأن « كثيرين سيأتون من المشارق والمغارب ويتكئون مع إبراهيم وإسحاق ويعقوب في ملكوت السماوات) [2].

وفي إطار إظهار بولس مساواته لغيره إن لم يفضلهم ورد (أهُمْ عبرانيون فأنا أيضا، أهم إسرائيليون فأنا أيضا، أهم نسل إبراهيم فأنا أيضا) [3]، كما صرح بأن نسل إبراهيم هم الصالحون « لأن ليس جميع الذين من إسرائيل هم إسرائيليون، ولا لأنهم من نسلِ إبراهيم هم جميعا أولاده بل بإسحاق يدعي لك نسل، أي ليس أولادُ الجسدهمْ أولاد الله، بل أولاد الموعد يحسبون نسلا) [4]، وقد تكرر الوعد لإبراهيم كثيرا في العهد الجديد سواء أُريد به الأرض المباركة أم الجنة أم هما معا (لوقا ٧٣/١ وأعمال الرسل ١٧/٧، رومية ١٣/٤ وغلاطية ٢٩/٣).

ثانيا : قصة إبراهيم في الكتاب المقدس:

جاء من نسل سام بن نوح - عليه السلام - رجل اسمه تارح سكن أور الكلدانيين، امتدت به الحياة فتزوج وأنجب ثلاثة من الولد هم :

١ - إبرام وَوُلد له إسماعيل، إسحاق، زمران، يقشان ومدان، مديان، يشباق شوحا، والأول من هاجر والثاني من سارة والباقون من قطورة.

٢ - ناحور وولد له عوصا، بوزا وقموئيل وكاسد وحزوا وفلداش ويدلاف وبتوئيل.

٣ - هاران وولد له لوط [5].

وقد تزوج إبرام بفتاة تدعي (ساراي)وهاجر بها مع والده ولوط ابن أخيه

---

(١) لوقا ٢٢/١٦ - ٢٥. (٢) متي ١١/٨.

(٣) كورنثوس الثانية ٢٢/١١. (٤) رومية ٦/٩ : ٨.

(٥) تكوين ١/٢٥، ٢٠/٢٢ : ٢٢، ٢٧/١١.

من العراق إلي حاران، حيث توفي تارح هناك عن عمر يناهز (١٥٠ سنة)[١].

وعندما بلغ إبرام الخامسة والسبعين أخذ زوجه ولوطا وكل مايملك من مال وعبيد وهاجر إلي أرض الكنعانيين ، وقد أعطي وعداً من الله (فأجعلك أمة عظيمة وأباركك وأعظم اسمك وتكون بركة) [٢] وبوصول إبراهيم إلي تلك البقعة بني مذبحا للرب ودعا هناك لله وقد وعد ثانية بأن يعطي نسله هذه الأرض (تكوين ٦/١٢ : ٩).

أصيبت فلسطين بقحط ترتب عليه هجرة إبرام إلي مصر، وقد اتفق مع زوجه أن تقول لملكها إذا دخلت عليه إنها أخت إبرام، (ليكون لي خير بسببك وتحيا نفسي من أجلك) . تكوين ١٣/١٢ . ففعلت، وقد أعطي الملك إبرام غنما وبقرا وحميرا وعبيدا وإماء وجمالا مقابل دخول ساراي عليه، إلا أن الرب حفظها وضرب الملك ضربات علم منها بحفظ الله لساراي فأطلقها وزوجها بدون سوء (تكوين ١٤/١٢ - ٢٠).

رجع إبرام من مصر ثانية إلي مكان المذبح الذي بناه بين عاي وإيل بعدأن تحقق له غني فاحش ومثل ذلك وقع للوط وحرصاً على عدم الخلاف بينهما خير إبرام لوطا بين أرض الأردن وأرض فلسطين ، فاختار الأردن وبقي إبرام ورعاته بفلسطين (تكوين ١/١٣ : ١٣) وقد تكرر الوعد بالأرض وبكثرة الولد وحرية الحركة في الأرض، فبني إبرام مذبحا آخر عند بلوطات ممرا التي في حبرون (تكوين ١٤/١٣ : ١٨).

في هذه الفترة أغير علي الأرض وتم الاستيلاء علي من فيها ومافيها وأسر لوط مع الأسري فخرج إبرام في عبيده وغلمانه وحارب المعتدين وفك الأساري ومنهم لوط (تكوين ١/١٤: ٢٤).

كرر الرب الوعد لإبرام بالبركة في الأرض والولد ... إلخ فقال للرب من

---

(١) تكوين ٢٧/١٢ : ٣٢. (٢) تكوين ٢/١٢.

أين (وأنا عقيم) فهل يرثني (ابن بيتي) - أي خادمه • فوعد من الله (لايرثك هذا بل الذي يخرج من أحشائك هو يرثك) مع التأكيد علي إرث تلك الأرض لولد إبرام (١٥/١: ٧).

قصة الدواب التي ذبحها إبرام في العهد القديم:

طلب إبرام من الرب علامة تدل علي إرثه لتلك الأرض (فقال له خذ لي عجلة ثلاثية وكبشا ثلاثية وعنزة ثلاثية وكبشا ثلاثيا ويمامة وحمامة، فأخذ هذه كلها وشقها من الوسط وجعل شق كل واحد مقابل صاحبه، وأما الطير فلم يشقه، فنزلت الجوارح علي الجثث وكان إبرام يزجرها) (تكوين ١٥/٨: ١١)، وقد أخبر الرب إبرام بأن نسله سيشرد أربعمائة سنة ثم يعودون ليملكون (الأرض من نهر مصر الي النهر الكبير نهر الفرات). تكوين ١٥/١٨.

ومن التقاليد الاجتماعية في ذلك الوقت أن المرأة العاقر توصم بالعار، وهي قادرة علي التخلص من ذلك بإعطاء جاريتها لزوجها ليكون منها الولد، وهذا مافعلته سارة حين أعطت هاجر لزوجها ليكون لها منها الولد، فلما حملت آذتها ساراة كل الإيذاء - بحكم الغيرة - فهربت هاجر من وجهها إلي مكان به بئر ماء فوجدها ملاك الرب وأمرها بالعودة والصبر، ثم أعطيت هذا الوعد الإلهي (تكثيرا أكثر نسلك فلا يعد من الكثرة، وقال لها ملاك الرب، ها أنت حبلي فستدلين ابنا، وتدعين اسمه إسماعيل لأن الرب قد سمع لمذلتك، وأنه يكون إنسانا وحشيا يده علي كل واحد ويد كل واحد عليه، وأمام جميع إخوته يسكن، فدعت اسم الرب الذي تكلم معها أنت إيل رئي)و تكوين ١٦/١٠ : ١٤ . وقد رزق إبرام بولد من هاجر دعاه إسماعيل وكان إبرام ابن ست وثمانين سنة (تكوين ١٦/١٦).

وعندما بلغ إبرام التاسعة والتسعين من العمر ظهر الله له ثانية وحدث مايلي :

١ - تكرار الوعد بالأرض له ولنسله من بعده.

٢ – تغيير الاسم من (إبرام) إلي (إبراهيم).

٣ – الوعد بكثرة الولد والبركة فيهم.

٤ – العهد مع إبراهيم علي ختان كل ذكر من نسله أو عبيده في اليوم الثامن لميلاده.

٥ – تم تغيير اسم (ساراي) إلي (سارة) مع إخبار إبراهيم بالولد منها وهي في سن التسعين مع تحديد اسمه (اسحق، وأقيم عهدي معه عهداً أبديا لنسله من بعده) (تكوين ١٩/١٧.

٦ – دعا إبراهيم ربه أن يحفظ إسماعيل فوعده ربه بالاستجابة (وأما إسماعيل فقد سمعت لك فيه، ها أنا أباركه وأثمره وأكثره كثيرا جداً ، اثني عشر رئيساً يلد وأجعله أمة كبيرة) (تكوين ٢٠/١٧) ثم صعد الله عن إبراهيم.

وقد وفي إبراهيم بالعهد فاختتن وهو في التاسعة والتسعين وإسماعيل في الثالثة عشرة وسائر الخدم والعبيد (تكوين ٢٣/١٧ : ٢٧).

قصة الضيفان:

جاء الله في صورة رجل مع اثنين من الملائكة وصرنا وإبراهيم – عليه السلام – فدعاهم إلي تناول الطعام فاستجابوا وأكلوا (تكوين ١/١٨ : ٨) ثم سألوا عن سارة فأخبروا بها فبشروها بولد (فقال الرب لإبراهيم لماذا ضحكت سارة قائلة أفبالحقيقة ألد وأنا قد شخت هل يستحيل علي الرب شيء)(تكوين ١٣/١٨) ثم توجه الرجال الثلاثة إلي سدوم، فقال الرب في نفسه من الأفضل أن أخبر إبراهيم بما أنا صانع في سدوم ، فذكر له أن أهلها قد استغاثوا به فقال (أنزل وأري هل فعلوا بالتمام حسب صراخها الآتي إليّ وإلاّ فأعلم، فبدأ إبراهيم يناقش ربه : هل يهلك تلك القري إن كان فيها خمسون صالحون كيف ؟ قال الرب : لا : واستمر الحوار حتي بلغ العدد عشرا فوعده الرب أن لا يهلكها إن كان فيها عشرة صالحون (تكوين ١٦/١٨ : ١٣).

هجرة إبراهيم الثالثة :

عاد إبراهيم إلي الهجرة مروراً بأرض جرار، واتفق مع سارة أن تقول إذا دخلت علي ملكها إنها أخته ففعلت حين دخلت إليه فضربه الله وأخبره أنها امرأة نبي، فأرسل إلي إبراهيم وسأله عن سبب كذبه فقال خشية القتل (وبالحقيقة أيضا هي أختي ابنة أبي، غير أنها ليست ابنة أمي، فصارت لي زوجة وحدث لما أتاهني الله من بيت أبي أني قلت لها هذا معروفك الذي تصنعين إليّ في كل مكان تأتي إليه قولي عني هو أخي) (تكوين ٢٠/١١ : ١٣) فأعطي الملك إبراهيم هدايا قيمة وصرفه.

الحمل بإسحاق وولادته :

حملت سارة بإسحاق وهي في التسعين من العمر وولدت لإبراهيم وهو ابن مائة سنة، وختنه إبراهيم في اليوم الثامن، وقد غارت سارة من إسماعيل حين رأته يضحك ويمزح فقالت لإبراهيم اطرد ابن الجارية حتي لايرث مع ابني فحزن إبراهيم إلا أن الرب أمره بالاستجابة (في كل ماتقول لك سارة اسمع لقولها. لأنه بإسحق يدعي لك نسل، وابن الجارية أيضا سأجعله أمة لأنه نسلك(تكوين ٢١/١٣) وقد نقل إبراهيم هاجر إلي مكان قفر وتركها فنفد ما معها من الماء فحزنت وأخذت تبحث عن ماء فـ (نادي ملاك الله هاجر من السماء وقال لها مالك ياهاجر، لاتخافي لأن الله قد سمع لصوت الغلام حيث هو، قومي احملي الغلام وشدي يدك عليه لأني سأجعله أمة عظيمة) (تكوين ٢١/١٧) (وفتح الله عينيها فأبصرت بئر ماء ... وكان الله مع الغلام فكبر وسكن في برية فاران وأخذت له أمه زوجة من أرض مصر (تكوين ٢١/١٩ : ٢١) وأما إبراهيم فإنه قد وقع اتفاقية سلام مع أبيمالك (قائد الفلسطينيين) في منطقة بئر سبع.

قصة المحرقة (الذبيح) التي أمر إبراهيم بتقديمها:

صرحت التوراة بأن الله امتحن إبراهيم فأمره بتقديم ولده وحيده إسحاق محرقة وحدد له الزمان والمكان، فأخذ إبراهيم إسحاق واثنين من غلمانه والسكين والنار والحطب وتوجه حيث أمر، فسأل إسحاق والده هذه أدوات المحرقة فأين الخروف؟ فقال له الله يري الخروف، فرتبا المذبح ثم أخذ إبراهيم السكين، وهمّ بذبح إسحاق فنودي من قبل ملاك السماء، إبراهيم إبراهيم لاتفعل (لأني الآن علمت أنك خائف الله فلم تمسك ابنك وحيدك عني) ثم نظر إبراهيم خلفه فوجد كبشا فقدمه عوضا عن ابنه.

ثم نودي ثانية من قبل ملاك الرب قائلا (بذاتي أقسمت. يقول الرب. أني من أجل أنك فعلت هذا الأمر ولم تمسك ابنك وحيدك، أباركك مباركة وأكثر نسلك تكثيراً كنجوم السماء وكالرمل الذي علي شاطئ البحر، ويرث نسلك باب أعدائه ويتبارك في نسلك جميع أمم الأرض من أجل أنك سمعت لقولي) تكوين ١٦/٢٢ :١٩ ثم جاءته أخبار ناحور أخيه وماروزق به من أولاد (تكوين ٢٠/٢٢ :٢٤).

وفاة سارة:

وعندما بلغت سارة (١٢٧ سنة) توفيت فاشتري إبراهيم لها قبرا من بني حث في مكان اسمه المكفيلة ودفنها فيه (تكوين ١/٢٣ :٢٠) وفكر إبراهيم أن يزوج ولده إسحاق فكلف أحد عبيده باختيار زوجة لإبنه إسحاق من أبناء أخيه (ناحور) ونهاه أن يختار من بنات الكنعانيين، فذهب ذلك العبد إلي مدينة ناحور، وقد اختار (رفقة) بنت (بتوئيل) ابن (ناحور) زوجة لإسحاق، بعد أن قدم لها ولأهلها هدايا واسعة وعاد بها إلي إسحاق فتزوجها (تكوين ١/٢٤- ٦٧).

زواج إبراهيم من قطورة:

تزوج إبراهيم - بعدوافة سارة - بسيدة تدعي قطورة، فانجبت له ستا من الولد هم (زمران - يقشان - مدان - مديان - يشباق - شوحا) (تكوين ١/٢٥) وتؤكد التوراة أن إسحاق قد أعطي كل ممتلكات أبيه من قبل إبراهيم،(تكوين ٣٦/٢٤، ٥/٢٥)وأما أولاده من السراري فقد أعطاهم عطايا وصرفهم عن إسحاق ابنه شرقا إلي ارض المشرق وهو بعد حيّ (تكوين ٦/٢٥).

وفاة إبراهيم:

توفي -عليه السلام -عن عمر يناهز (١٧٥) ودفنه إسماعيل وإسحاق في مغارة المكفيلة، وقد حلت البركة علي إسحاق بعد وفاة أبيه إبراهيم.

تعقيب على قصة إبراهيم في العهد القديم

تدرك من القصة قليلا من بقايا الوحي وهو قليل من قليل، بينما تبدو سمة الوضع لكل ناظر في القصة للدلائل التالية :

١ - اتهام إبراهيم بالتجارة بعرض زوجته مرتين حتي يحصل له الخير الكثير بسبب ذلك.

٢ - اتهام إبراهيم بعدم العدل بين أبنائه - حيث أعطي معظم مايملك لإسحاق بينما أعطي سائر إخوته القليل من المال.

٣ - انتقد الشيخ النجار قصة الدخول علي ملك مصر وجرار بأسلوب عقلي رصين.

٤ - غيبة الحديث عن دعوة إبراهيم عليه السلام، فليس هناك إشارة إلي العقيدة التي دعا إليها أو الشريعة أو الأخلاق (باستثناء الختان).

٥ - وصف الله بالتشبه بصورة الرجال وأكله وشربه وسيره مع إبراهيم ..

٦ - التصريح بأكل الملائكة وشربهم ووصفهم بصفات البشر كالتعب والندم.

٧ - العصبية في الذكر فالانتصار لإسحاق وولده دون سائر ولد إبراهيم أوضح مايكون في القصة.

إلى الذين يزعمون التأثر بالتوراة فى الإسلام

نلاحظ مما سبق أن مدوني العهد القديم قد ذكروا نسب إبراهيم حتي آدم وتناولوا ميلاده وهجراته وزواجه بهاجر ثم طردها إلي فاران والبشارة بإسحاق والأمر بذبحه وفداء الله له ثم زواج إسحاق ونواله البركة من أبيه ومن ربه ووفاة سارة ودفنها وزواج إبراهيم من قطورة وأولاده منها ثم وفاة إبراهيم ودفنه.

وبمقارنة ماسبق ذكره فى العهد القديم بما ورد فى القرآن يتضح لنا مايلى :

١ - ذكر النسب كاملا في العهد القديم دون القرآن الكريم.

٢ - ذكر أماكن التنقل كاملة في العهد القديم دون القرآن الكريم.

٣ - ذكر الأزمنة نسبيا في العهد القديم دون القرآن الكريم.

٤ - ذكر أسماء زوجات إبراهيم في العهد القديم دون القرآن الكريم.

٥ - ذكر أولاد إبراهيم جميعا في العهد القديم دون القرآن الكريم.

٦ - النص علي أماكن هجرات إبراهيم في العهد القديم دون القرآن الكريم.

٧ - الوعد ببقعة من الأرض مابين النيل والفرات وتكرار ذلك في العهد القديم دون القرآن الكريم.

٨ - قيام إبراهيم بحروب انتصر فيها وتوقيعه معاهدات سلام مع الفلسطينيين في العهد القديم دون القرآن الكريم.

٩ - كثرة بناء إبراهيم للمذابح في أرض فلسطين كما ورد بالعهد القديم دون القرآن الكريم.

١٠ - الحكم علي ولد ولده من إسحاق بالتشرد أربعمائة سنة ثم العودة إلي الأرض الموعود بها في العهد القديم دون القرآن الكريم.

١١ - تم تغيير اسم إبرام إلي إبراهيم وساراي إلي سارة بوحي من الرب في العهد القديم دون القرآن الكريم.

١٢ - وُعد إبراهيم بحفظ الله لإسماعيل حتي يتزوج وينجب اثني عشر رئيسا في العهد القديم دون القرآن الكريم.

١٣ - جاء الله في صورة رجل مع ملكين إلي إبراهيم فأكل وشرب ثم انصرف هكذا في العهد القديم دون القرآن الكريم.

١٤ - العهد بين الله وإبراهيم في الختان وقد اختتن وسائر ولده كما ورد في العهد القديم دون القرآن الكريم.

١٥ - نصت التوراة علي سن إبراهيم حين رزق إسماعيل وكذلك إسحاق ولم يرد ذلك بالقرآن الكريم.

١٦ - نصت التوراة علي سن سارة حين الوفاة ومكان دفنها ولم يرد ذلك بالقرآن الكريم.

١٧ - نصت التوراة علي اختيار إبراهيم زوجة لولده إسحاق من أهله بناحور ولم يشر القرآن إلي ذلك.

١٨ - نصت التوراة علي سن إبراهيم حين الوفاة ومكان الدفن واللذين دفناه ولم يشر القرآن إلي ذلك.

بين القرآن والتوراة:

إذا كانت النقاط السابقة تشير إلي ماورد بالتوراة - المزعومة - دون القرآن، فإننا نشير هنا إلي ماورد بالقرآن دون التوراة بإيجاز شديد.

١ - ذكر القرآن بناء إبراهيم للبيت الحرام ولم يرد ذلك في التوراة.

٢ - ذكر القرآن حوار إبراهيم للملك وإفحامه له ولم يرد ذلك في التوراة.

٣ - ذكر القرآن أن ذبح الطير كان باعثه حب المشاهدة والترقي في المعرفة بينما ذكرت التوراة أنه كان أمارة لتحقيق وعد الرب.

٤ - ارتبط اسم إبراهيم بالبيت الحرام في أكثر من صورة بينما ارتبط بمذابح أقيمت بفلسطين فقط.

٥ - صرح القرآن بكفر والد إبراهيم ودعوة إبراهيم له للإيمان بالله ولم يرد ذلك بالتوراة.

٦ - صرح القرآن بتبرأ إبراهيم من والده بعد إصراره على الكفر ولم يرد ذلك بالتوراة.

٧- صرح القرآن بتنوع المعتقدات زمن إبراهيم ودعوته للجميع إلى الإيمان بالله الواحد .. دون ذكر لذلك في التوراة.

٨ - صرح القرآن بأن الذين أتوا إبراهيم كانوا ملائكة ولم يأكلوا حين قدم لهم الطعام ولم يرد ذلك بالتوراة.

٩ - ذكر القرآن أسباب حرق إبراهيم ونجاته ولم يرد ذلك بالعهد القديم.

١٠ - ذكر القرآن قصة الذبيح ونجاته بصيغة الاحتمال بعكس العهد القديم.

١١ - ذكر القرآن دين إبراهيم (الإسلام) وحثه أولاده على التمسك به ولم يرد ذلك في العهد القديم.

١٢ - أشار القرآن إلى نزول صحف على إبراهيم وأشار إلى بقايا من تلك الصحف ولم يرد ذلك بالعهد القديم.

١٣ – صرح القرآن بالبشارة بإسحاق ومن ورائه يعقوب ولم يرد ذلك (البشارة بيعقوب) بالعهد القديم.

وجوه الاتفاق:

١ – النص علي نبوة إبراهيم.

٢ – البشارة بإسحاق.

٣ – الوصف بالخلة وتقوي الله.

٤ – التصريح بالهجرة دون تفصيل في القرآن.

الصلة بين دعوة إبراهيم ودعوة محمد عليهما السلام

ورد الحديث عن إبراهيم – عليه السلام – في خمس وعشرين سورة من سور القرآن الكريم منها سبع عشرة سورة مكية هي : الأعلي ١٩ والنجم ٣٧ وص ، ٤٥ ومريم ٤١، ٤٦، ٥٨ والشعراء ٦٩ والنحل ١٢٠، ١٢٣ وهود ٦٩، ٧٤، ٧٥، ٧٦ ويوسف ٦، ٣٨ والحجر ٥١ والأنعام ٧٤، ٧٥، ٨٣، ١٥١ والصافات ١٠٤، ١٠٩ والشوري ١٣ والزخرف ٢٦ والذاريات ٢٤ وإبراهيم ؛ ٣٦ والأنبياء ٥١، ٦٠، ٦٢، ٦٩ والعنكبوت ١٦، ٣١ وثمان سور مدنية هي : البقرة ١٢٤، ١٢٥، ١٢٦، ١٢٧، ١٣٠، ١٣٢، ١٣٣، ١٣٥، ١٣٦، ١٤٠، ٢٥٨، ٢٦٠، وآل عمران : ٣٣، ٣٥، ٦٧، ٦٨، ٨٤، ٩٥، ٩٧ والأحزاب ٧ والممتحنة ٤ والنساء ٥٤، ١٢٥، ١٦٣ والحديد ٢٦ والحج ٢٦، ٤٣، ٧٨ والتوبة ٧٠، ١١٤ [1]وقد روعي الترتيب الزمني في ذكر السور [2] لما للتدرج من حكمة.

ومن هذا العرض يتبين لنا مدي اهتمام القرآن بأمر إبراهيم – عليه السلام

---

(١) قصص الأنبياء – النجار ١١٥، ١١٦.٣٤٣، ٣٤٣

(٢) الدعاة إلى الله فى القرآن الكريم ومناهجهم ٧٣ نقلا عن النظم الفنى فى القرآن : عبد المتعال الصعيدى ص٣٤٧ والمعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم .

– ويمكن القول : إن الصلة بين محمد وإبراهيم – عليهما السلام – من ناحية وبين دعوتيهما من ناحية ثانية قوية ويؤكد ذلك أمران :

الأمر الأول :

رابطة الدم، فإسماعيل من ولد إبراهيم ومن نسله محمد – عليهم السلام – وكان – صلي الله عليه وسلم – يقول عن إبراهيم إنه أقرب شبهاً بصاحبكم[1].

الأمر الثاني :رابطة الدين، فمحمد هو دعوة إبراهيم التي توجه بها إلي الله وهو يبني البيت الحرام (ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم) [2] . وفي الحديث (أنا دعوة أبي إبراهيم وبشري أخي عيسي ورؤيا أمي آمنة ...) [3] وقد اصطفي الله كُلاً منهما بالنبوة والرسالة وجعلهما من أولي العزم من الرسل، وأمر محمداً بالاقتداء بإبراهيم عليه السلام وهو مايجعلنا نلقي الضوء علي أوجه الشبه بين الدعوتين من النواحي التالية :

اولا : مسمي الدعوة :

صرح القرآن بأن إبراهيم – عليه السلام – قد أتي بالإسلام (البقرة ١٣٢) وأنه كان حنيفا مسلما (آل عمران ٦٧)وأنه لم يكن يهوديا ولانصرانيا (آل عمران ٦٧)..وبمثل ذلك صرح في حق محمد – عليه السلام – فقد كان علي الدين الإسلامي (الأنعام ١٦٣) لأنه الدين الذي رضيه الله لنا (المائده ٣) وأنه علي ملة إبراهيم (النحل ١٢٣) وأنه أولي الناس بإبراهيم زمن بعثته – عليه السلام –(آل عمران ٦٨).

---

(١) الحديث حم ٥٢٨/٢ ، ٣٣٤/٣ البخاري ك التعبير ٣٣، ك الأنبياء ٤٨.

(٢) البقرة ١٣٩.

(٣) الحديث : حم ١٢٧/٤، ٢٦٢/٥ .

ثانيا : اتحاد اصول الشرائع : قال تعالي (شرع لكم من الدين ماوصي به نوحاً والذي أوحينا إليك وماوصينا به إبراهيم وموسي وعيسي ...) [(١)].

ثالثا : التشابه بين المدعوين من ناحية :

(أ) البيئة الدينية. فقد تشابهت معتقدات أمة إبراهيم مع معتقدات أمة محمد في بعض الجوانب واختلفت عنها في بعض الجوانب.

فمن وجوه التشابه:

= تفشي عبادة الأوثان بين الأمتين، في زمن إبراهيم عبدت لذاتها وفي زمن محمد لشفاعتها .

= وجود طوائف اتخذت من الهياكل العلوية آلهة لها كالشمس والقمر والنجوم والكواكب في البيئتين وإن تفاوتت النسب.

= تأليه طائفة من الناس للحكام أو استخفاف بعض الحكام بعقول العامة الهوا أنفسهم عليهم. وقع ذلك في بلاد الشام زمن إبراهيم وبلاد الفرس زمن محمد - عليهما السلام:

(ب) الموقف من الدعوة :

أبت الأكثرية من أمتيهما الاستجابة لدعوتيهما، وتعللوا بعلل شتي أخصها موروثات الآباء التي اكسبت تلك المعبودات سلطانا علي قلوبهم مع إيمانهم بفقدها صفات الكمال.

(جـ) إيذاء الداعي لانتهاكه حرمة الأوثان بالقول أو بالفعل، وهذا ماجعل قوم إبراهيم يقررون حرقه وقوم محمد يقررون قتله.

(د) هجرة كل منهما بدعوته بعد شدة الايذاء، فإبراهيم خرج من العراق إلي فلسطين فمصر فالشام فمكة فالشام، ومحمد- ﷺ - خرج من مكة

---

(١) الشورى ١٣.

واستقر بالمدينة ومنها تحرك الي بلدان عدة مجاورة لنشر رسالته حتى كانت المنية بها.

وجود الافتراق بين الأمتين:

١ - طلب أهل مكة معجزات حسية شتي من محمد - عليه السلام - ولم يرد ذكر طلب قوم إبراهيم ذلك منه.

٢ - ذكر القران كثيرا من الشبهات التي زثارها أهل مكة في وجه القرآن (سحر - أساطير الأولين - إفك افتراه - يعلمه بشر...) وفي شخص الرسول (ساحر - مجنون - كذاب - مختلقع [1])ولم يشر إلي شيء بحق إبراهيم إلآ قول قومه له) أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين)

٣ - انتفاء التيار الدهري زمن إبراهيم عليه السلام - علي الراجح - لعدم ورود ذكر له في القران بينما كان التيار الدهري موجوداً زمن محمد - عليه السلام - وجادل أهله الرسول في أمر البعث.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

---

(١) الأنبياء ٥٥.

أهم مراجع الكتاب[1]

١ - القرآن الكريم.

٢ - الكتاب المقدس : طبعة العيد المئوى ١٩٨٣.

٣ - أبو السعود : محمد بن محمد العماوى.

إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم . ط دار إحياء التراث العربى - بيروت- لبنان.

٤ - أبو حيان التوحيدى:

البحر المحيط. نشر مكتبة ومطابع النصر الحديثة - الرياض.

٥ - أبو زرعه : عبد الرحمن بن محمد بن زنجلة.

حجة القراءات ط مؤسسة الرسالة ط٢ ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

٦ - أبو زهرة : الامام محمد أبو زهرة.

المعجزة الكبرى ط دار الفكر العربى سنة ١٩٨٦ المطبعة العربية الحديثة - القاهرة.

٨ - ابن الأثير : محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيبانى.

الكامل فى التاريخ - دار صادر - بيروت.

٩ - ابن إياس الحنفى : محمد بن أحمد بن إياس.

بدائع الزهور فى وقائع الدهور ط دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان ط ١ ١٤٠٢هـ- ١٩٨٢م.

١٠- ابن تيمية : أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام.

النبوات : ط دار الكتب العلمية - بيروت ١٩٨٢م.

١١- ابن الجزرى : أبو الخير محمد بن محمد الدمشقى.

النشر فى القراءات العشر. ط دار الكتب العلمية - بيروت.

١٢- ابن الجوزى : أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن على بن محمد الجوزى.

(١) كل مرجع لم نذكر سنة طبعه أو رقم الطبعة فهذا غير مشار إليه من قبل المطبعة.

زاد المسير فى علم التفسير. ط المكتب الاسلامى للطباعة والنشر. الطبعة الأولى ١٣٨٤هـ-١٩٦٤م.

١٣- ابن حبان : الأمير علاء الدين على بن بلبان الفارسى.

صحيح بن حبان - ط دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان.

١٤- ابن حجر العسقلانى : أحمد بن على بن محمد بن حجر.

فتح البارى، شرح صحيح البخارى، دار المعرفة للطباعة والنشر- بيروت - لبنان.

١٥- ابن حزم : على بن أحمد بن سعيد الظاهرى.

ط دار المعرفة . الطبعة الثانية سنة ١٩٧٥ .

١٦- ابن حنبل : الإمام أحمد بن حنبل.

مسند الإمام أحمد. دار صادر - بيروت.

١٧- ابن عطية : أبو محمد عبد الحق بن عطية الأندلسى.

المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز. ط رئاسة المحاكم الشرعية والشئون الدينية.قطر.

١٨- ابن كثير : أبو الفدا إسماعيل بن كثير الدمشقى.

* البداية والنهاية ط٤ مكتبة المعارف - بيروت ط ٤ ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

* تفسير القرآن العظيم. نشر دار المعرفة - بيروت ١٣٨٨هـ - ١٩٦٩م.

* السيرة النبوية. ط دار الفكر - بيروت ط٢ ١٩٧٨م تحقيق مصطفى عبد الواحد.

* قصص الأنبياء . ط دار التأليف . مصر ط١ سنة ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م. تحقيق مصطفى عبد الواحد.

١٩- ابن هشام : أبو محمد عبد الملك بن هشام المعافرى.

السيرة النبوية ط الحلبى ط٢ سنة ١٩٥٥م.

٢٠- الأبى : محمد بن خلفة الوشتانى الأبى.

* إكمال إكمال المعلم - وشرحه المسمى :

مكمل إكمال المعلم. طبع دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان.
* مسلم بشرح الأبي . ط دار الكتب العلمية – بيروت.
٢١- الأصفهاني : أبو القاسم حسين بن محمد الراغب الأصفهاني.
المفردات في غريب القرآن. ط مصطفى البابي الحلبي. مصر ط ١٣٨١هـ- ١٩٦١م.
٢٢- الألوسي : أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي.
روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ط٢ دار إحياء التراث العربي – بيروت.
٢٣- البرسوي : إسماعيل حقي البرسوي.
روح البيان. ط دار إحياء التراث العربي – بيروت – لبنان.
٢٤- البغدادي : صفي الدين البغدادي.
مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع.
تحقيق : علي محمد البجاوي . ط١ سنة ١٩٥م.
٢٥- الترمذي : أبو عيسى الترمذي.
الجامع الصحيح . ط دار الفكر – بيروت ط٢ سنة ١٩٨٣م.
٢٦- الثعالبي : عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي.
تفسير الثعالبي. جواهر الحسان في القرآن . مؤسسة الأعلمي – بيروت.
٢٧- الثعلبي : ابن اسحاق أحمد بن محمد ابراهيم الثعلبي.
قصص الأنبياء المسمى عرائس المجالس. ط المكتبة أشاعت الإسلام. جوريوالان. دهلي.
٢٨- الحاكم : أبو عبد الله الحاكم النيسابوري.
المستدرك على الصحيحين وبذيله التلخيص للحافظ الذهبي نشر دار الكتاب العربي – لبنان.
٢٩- الحموي : شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي.

معجم البلدان. ط دار صادر - بيروت سنة ١٩٧٧م.
٣٠- الخطيب : عبد الكريم الخطيب.
القصص القرآني في منطوقه ومفهومه ط دار المعرفة- بيروت ط٢ سنة ١٣٩٥هـ-١٩٧٥م.
٣١- الرازى : محمد الرازى فخر الدين.
مفاتيح الغيب ط دار الفكر - لبنان ط١ سنة ١٤٠١هـ-١٩٨١م.
٣٢- الزمخشرى : أبو القاسم جار الله محمود عمر الزمخشرى.
الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل ط دار المعرفة - بيروت - لبنان.
٣٣- السيوطى : جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن بن أبى بكر بن محمد.
الدر المنثور فى التفسير المأثور - بيروت - دار المعرفة.
وبهامشه : تنوير المقباس من تفسير ابن عباس.
٣٤- الشتيوى : د/ محمد رجب الشتيوى.
دعوة الرسل الى الله تعالى . غايتها . تاريخها . ط مؤسسة سعيد. طنطاط ١ سنة ١٩٨٦م.
٣٥- الشهرستانى: محمد بن عبد الكريم الشهرستانى.
الملل والنحل ط-الأنجلو- القاهرة ١٩٧٧.
٣٦- الطبرى : أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى.
* تاريخ الأمم والملوك. ط دار سويدان - بيروت - لبنان.
* جامع البيان فى تفسير القرآن - ط دار المعرفة - بيروت - لبنان ط ٣ ١٣٩٨هـ-١٩٧٨م.
٣٧- العجلونى : إسماعيل محمد العجلونى.
كشف الخفا ومزيل الإلباس فيما اشتهر من حديث على ألسنة الناس ط مكتبة القدس ١٣٥١هـ.
٣٨- العدوى: محمد أحمد العدوى.

دعوة الرسل إلى الله تعالى.
ط مصطفى البابي الحلبي، مصر. ١٣٥٤هـ-١٩٣٥م.
٣٩- العصامي المكي : عبد الملك بن حسين بن عبد الملك.
سمط النجوم العوالي - المطبعة السلفية - مصر. ط ١٣٧٩هـ.
٤٠- الغزالي : الشيخ محمد الغزالي .
مع الله . دراسات في الدعوة والدعاة. ط دار الكتب الحديثة - الطبعة الرابعة - القاهرة ١٩٧٦م.
٤١- الغماري : عبد الله الغماري.
إدريس عليه السلام.
ط عالم الكتب. الطبعة الثانية ١٩٨٦م.
٤٢- القشامي : حمود بن ضاوي.
شمال الحجاز - الآثار ط دار البيان العربي للطباعة والنشر والتوزيع ط٢ جدة ١٩٨٥م.
٤٣- القرطبي : أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري.
الجامع لأحكام القرآن - ط دار إحياء التراث العربي - بيروت - لبنان.
٤٤- القرماني: أحمد بن يوسف بن أحمد الدمشقي.
أخبار الدول وآثار الأول. عالم الكتب- بيروت .
٤٥- القيسي : أبو محمد مكي بن أبي طالب القيسي.
الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها .
تحقيق د/محيي الدين رمضان
ط مؤسسة الرسالة ط٢ سنة ١٤٠١ هـ - ١٩٨١م.
٤٦- الكيلاني : سيد أحمد الكيلاني.
في موكب النبيين - دار القلم - الكويت. ط١٩٨٤م الأولى.

٤٧- المباركفورى : أبو يعلى محمد بن عبد الرحمن المباركفورى.

تحفة الأحوذى شرح عارضة الترمذى. ط دار الكتاب العربى- بيروت - لبنان.

٤٨- المسعودى : أبو الحسن على بن الحسين بن على المسعودى.

مروج الذهب ومعادن الجوهر - ط مطبعة السعادة. ط٣ سنة ١٩٥٨م.

تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد.

٤٩- المقدسى : أبو زيد أحمد بن سهل البلخى.

البدء والتاريخ . ط ١٨٩٩م.

٥٠- الميدانى : عبد الرحمن حسن الميدانى.

العقيدة الاسلامية وأسسها. ط دار القلم - دمشق ط٢ ١٩٧٩م.

٥١- النجار : الشيخ عبد الوهاب النجار.

قصص الأنبياء - ط دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان ط٣ سنة ١٩٨٦م.

٥٢- النووى : الإمام النووى.

صحيح مسلم بشرح النووى. ط دار الشعب المصرية.

٥٣- جاد المولى : محمد أحمد جاد المولى .

قصص القرآن . ط المكتبة الأموية - بيروت ١٣٩٨هـ- ١٩٧٨م.

٥٤- جاد المولى : محمد أحمد جاد المولى وآخرين.

أيام العرب فى الجاهلية . ط عيسى البابى الحلبى نشر دار إحياء الكتب العربية.

٥٥- جواد على :

المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام. ط دار العلم للملايين - بيروت- سنة١٩٧٦م.

٥٦- حسن عيسى عبد الظاهر (دكتور)

من نبأ المرسلين. ط دار الثقافة - الدوحة ط١ ١٩٨٤م.

٥٧- شامة : محمد عبد الغنى شامة (دكتور)

في رحاب القرآن. أبوللو للنشر- القاهرة ط١.

٥٨- شلبي : محمود شلبي.

حياة أدم ط دار الجيل - بيروت ط٣ سنة ١٩٨٢م.

٥٩- رشيد رضا : الشيخ محمد رشيد رضا.

تفسير القرآن الحكيم. الشهير بتفسير المنار. ط٤ دار المنار- مصر سنة ١٣٧٣هـ.

٦٠- صديق حسن خام:

عون الباري - لحل أدلة صحيح البخاري ط إدارة إحياء التراث الاسلامي- قطر.

٦١- طبارة : عفيف عبد الفتاح طبارة.

مع الأنبياء في القرآن. ط دار العلم للملايين - لبنان ط٧ سنة ١٩٧٩م.

٦٢- عبد الله بن عبد العزيز البكري الأندلسي.

معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع. ط عالم الكتب - بيروت ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م ط٣.

٦٣- علي بن محمد بن أحمد العزيز الشافعي.

السراج المنير . شرح أحاديث الجامع الصغير. ط مصطفى البابي الحلبي.ط ٣.

٦٤- غلوش : أحمد غلوش (دكتور)

الدعوة الإسلامية - أصولها ووسائلها. ط دار الكتاب المصري - القاهرة سنة١٩٧٩م.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
الإهداء	٥
قصة الكتاب	٧
مقدمة الكتاب	٩
أسس الهداية	١٣
وجه الحاجة إلى النبوة	١٤
صفات الأنبياء والمرسلين	١٩-٣٦
أولاً: الصفات الخَلْقية : ١٩، البشرية ١٩، الرجولة ٢٦، السلامة من كل عيب يمنع من البلاغ ٣١.	
ثانياً: الصفات الخُلُقية : ٣٥	
التفاضل بين الرسل	٣٦
النبى والرسول والعلاقة بينهما	٣٧
وجوب الإيمان بالمرسلين	٤٣
من وجوه الحكمة فى ذكر قصص المرسلين فى القرآن	٤٥
من مزايا القصة فى القرآن	٤٨
اتجاهات الكتابة فى قصص الأنبياء	٥٢
أضواء على قصص الأنبياء فى التوراة	٥٦
(١) دعوة آدم -عليه السلام-	٥٩
خلق الأرض وتهيئتها لسكنى آدم -عليه السلام-	٦١
خلق آدم عليه السلام وفيه نقاط منها:	٦٣-٦٨
أ- لِمَ خُلق الإنسان-٦٣، ب- موقف الملائكة من خلق الإنسان ٦٥، ج- أطوار خلق الإنسان ٦٦.	
أمر الملائكة بالسجود لآدم	٦٨
خلق حواء	٧١

سكنى آدم وحواء الجنة	٧٨
الوسوسة فى ضوء القرآن	٨٢
كيف وقع آدم فى المعصية	٨٤
توبة آدم -عليه السلام-	٨٥
الخروج من الجنة إلى الأرض	٨٦
نبوة آدم -عليه السلام-	٨٧
رسالة آدم -عليه السلام-	٩٠
بين دعوة الحق ودعوة الباطل	٩١
منهج القرآن فى الوقاية من دعوة الباطل	٩٣
مايستفاد من العلم بقصة آدم -عليه السلام-	٩٦
قضايا خاض فيها كثيرون لافائدة من ذكرها مفصلة	٩٩
قصة آدم عليه السلام فى الكتاب المقدس	١٠١
مقارنة بين قصة آدم فى القرآن والكتاب المقدس	١٠٤
نتائج المقارنة	١٠٥
(٢) دعوة إدريس -عليه السلام-	١٠٩
أماكن ذكره فى القرآن	١١١
زمن وجود إدريس	١١٢
المراد برفع إدريس -عليه السلام-	١١٤
أسباب رفع إدريس إلى السماء -عند من يرى ذلك-	١١٧
هل إدريس هو إلياس؟	١١٨
هل إدريس حى أو ميت الآن	١٢٠
هل إدريس هو هرمس الهرامسة	١٢٢
هل إدريس هو أخنوخ الوارد فى الكتاب المقدس	١٢٣
أمور خاض فيها كثيرون لافائدة من ذكرها مفصلة	١٢٤
هل ذكر إدريس فى الكتاب المقدس	١٢٥

(٣) دعوة نوح – عليه السلام ١٢٧
الإنسانية والوثنية ١٢٩
إرسال نوح إلي قومه ١٣٠
نوح –عليه السلام– وأولية الرسالة ١٣١
الحكمة من بعث الأنبياء من بين المدعوين ١٣٢
معالم دعوة نوح –عليه السلام– ١٣٣–١٣٥
١– التوحيد الخالص لله رب العالمين ١٣٣، ٢– الإيمان به نبياً ورسولاً: ١٣٤، ٣– الدعوة إلى الإيمان باليوم الآخر ١٣٥.
موقف قوم نوح من دعوته ١٣٦–١٤٠
أولاً: موقف الملأ من نوح عليه السلام ١٣٦، ثانياً: موقفهم من المؤمنين به ١٣٨، ثالثاً: موقف القوم من الدعوة ١٣٩.
الأساليب التى استخدمها نوح فى الدعوة ١٤٠–١٤٥
أولاً : الترغيب ١٤٠، ثانياً: الترهيب ١٤٢، ثالثاً: التذكير بالنعم ١٤٣، رابعاً: العرض بلاترغيب ولاترهيب ١٤٥، خامساً: التصريح بالحرص على مصلحتهم ١٤٥
نهاية المواجهة ١٤٥
التماس أسباب النجاة من قبل نوح ١٤٧
أسباب هلاك قوم نوح ١٥٠
مايستفاد من العلم بدعوة نوح –عليه السلام– فى ضوء القرآن ١٥٥
الصلة بين دعوة نوح ودعوة محمد –عليهما السلام– ١٥٨
قضايا خاض فيها كثيرون أمسكنا عن ذكرها مفصلة ١٦٤
قصة نوح –عليه السلام– فى الكتاب المقدس ١٦٦
نسب نوح –عليه السلام– ١٦٦
دلائل نبوة نوح –عليه السلام– ١٦٧
هلاك المكذبين ١٦٧

نوح يتقرب إلى ربه ١٦٨

التعاليم التى أوحى بها إلى نوح فى ضوء التوراة ١٦٨

الرب يقطع عهداً مع نوح بأن لايعم الطوفان الأرض مرة ثانية ١٦٨

حديث العهد الجديد عن نوح ١٦٩

نتائج المقارنة ١٧١

(٤) دعوة هود -عليه السلام- ١٧٣

بين يدى الموضوع ١٧٥

قوم هود -عليه السلام- ١٧٧-١٨٥

أولاً: اسمها ١٧٧، ثانياً: مكان عاد ١٧٧، ثالثاً: زمانها ١٧٨، رابعاً: إمكانات قوم عاد ١٨٠، خامساً: معتقداتها ١٨٣

إرسال هود -عليه السلام- ومعالم دعوته ١٨٦-١٩٠

أولاً: توحيد الله ١٨٦، ثانياً: الإيمان به نبياً ورسولاً ١٨٨، ثالثاً: القيام بالتكاليف الشرعية ١٨٩، رابعاً: الدعوة إلى الإيمان باليوم الآخر ١٩٠

الأساليب التى استخدمها هود فى الدعوة إلى الله ١٩١-١٩٥

١- سبيل الترغيب ١٩١، ٢- سبيل الترهيب ١٩١، ٣- التذكير بالنعم ١٩٢، ٤- العرض لمجرد العرض والبيان ١٩٣، ٥- إظهاره الحرص على خير المدعوين ١٩٣، ٦- التجمع بين خطاب القلب والعقل ١٩٣، ٧- الزجر ١٩٤

موقف قوم هود من دعوته ١٩٥-٢٠١

أولاً: موقفهم من الدعوة ١٩٥، ثانياً: موقفهم من الداعى ١٩٧، ثالثاً: موقف المكذبين من المؤمنين ٢٠٠

النهايـــة ٢٠٢

إهلاكهم بالريح ٢٠٣، والصاعقة ٢٠٧، والصيحة ٢٠٧

زمن الإهلاك ٢٠٩

أمر المكذبين – وماانتهى إليه ٢١١
قضايا وثيقة الصلة بدعوة هود ٢١٣
القضية الأولي ٢١٣، القضية الثانية ٢١٤
أسباب هلاك عاد ٢١٥
أمور خاض فيها كثيرون أمسكنا عن تفصيلها ٢١٦
مايستفاد من العلم بدعوة هود -عليه السلام- ٢١٨
بين دعوة هود ودعوة محمد -عليهما السلام- ٢٢٠-٢٢٥
أولاً: معتقدات المجتمعين ٢٢١، ثانياً: أسباب الإعراض عن الاستجابة ٢٢٢، ثالثاً: أركان الدعوة ٢٢٣، رابعاً: منهج النبيين فى البلاغ ٢٢٥
وجوه الخلاف بين الأمتين ٢٢٦
(٥) دعوة صالح -عليه السلام- ٢٢٧
الأمة التى أرسل إليها صالح -عليه السلام- ٢٢٩-٢٣٦
١- اسمها ٢٢٩، ٢- مكانها ٢٢٩، ٣- زمانها ٢٣٢، ٤- إمكاناتها ٢٣٣، ٥- معتقداتها ٢٣٤
أركان دعوة صالح -عليه السلام- ٢٣٦
أولاً: توحيد الله ٢٣٦، ثانياً: الإيمان بصالح رسول إليهم ٢٣٧، ثالثاً: النهى عن الفساد فى الأرض ٢٣٧
منهج صالح فى الدعوة إلى الله ٢٣٨
١- التذكير بالنعم التى أنعم الله عليهم بها ٢٣٨، ٢- سبيل الترغيب ٢٣٩، ٣- سبيل الترهيب ٢٣٩، ٤- سبيل الوعظ مع حسن عرض الدعوة ٢٤٠، ٥- التحذير من دعاة الضلالة ٢٤٠، ٦- إظهار الحرص على خير المدعوين ٢٤١
موقف قوم صالح من دعوته ٢٤١-٢٤٦
أولاً: موقفهم من الدعوة ٢٤٢، ثانياً: موقفهم من الداعى ٢٤٢، ثالثاً: موقف المكذبين من المؤمنين به ٢٤٥

النهاية للمكذبين ٢٤٦
نزول العذاب بهم ٢٥٢
قضايا وثيقة الصلة بالموضوع ٢٥٦
أولاً: لماذ لم توصف القصة بأنها غيب ٢٥٦، ثانياً: هل آثار ثمود مازالت باقية ٢٥٧، ثالثاً: كيف نوفق بين النص القرآني ونتائج البحث العلمي ٢٥٨، رابعاً: ما المراد من نسبة المكر إلى الله في القصة ٢٥٩، خامساً: هل مرّ الرسول بديار ثمود ٢٦٠
أمور خاض فيها كثيرون لافائدة من ذكرها مفصلة ٢٦١
أهم الفوائد المترتبة على العلم بدعوة صالح ٢٦٣
وجه الشبه بين دعوة صالح ودعوة محمد -عليهما السلام- ٢٦٦
موقف الأمتين من الدعوة ٢٦٧، ومن الداعي ٢٦٧ ومن المؤمنين بهما ٢٦٩
دعوة هود وصالح -عليهما السلام- في الكتاب المقدس ٢٧٠
(٦) دعوة إبراهيم -عليه السلام- ٢٧٣
الأمة التي بعث إليها إبراهيم ٢٧٥
أولاً: مكانها ٢٧٥، ثانياً: زمانها ٢٧٦، ثالثاً: إمكاناتها ٢٧٦
المعتقدات الدينية زمن إبراهيم -عليه السلام- ٢٧٧
بعث إبراهيم عليه السلام ٢٧٨-٢٨٢
الدين الذي أتى به ٢٨٠، الرسالة التي نزلت عليه ٢٨١
معالم دعوة إبراهيم عليه السلام ٢٨٢-٣٠٢
أولاً: عقيدة التوحيد التي دعا إليها إبراهيم ٢٨٣، الإيمان بالملائكة - الكتب - الرسل - اليوم الآخر ٢٩٨
ثانياً: شريعة إبراهيم في ضوء القرآن ٣٠٠
الأساليب التي استخدمها إبراهيم في الدعوة إلى الله ٣٠٣
قضايا وثيقة الصلة بالموضوع ٣٠٥-٣٣٢

١- كيف استغفر إبراهيم لأبيه ٣٠٥، ٢- هل إلقاء إبراهيم فى النار حقيقة أو مجاز ٣٠٧، ٣- هل شك إبراهيم فى أمر البعث ٣٠٨، ٤- لماذا لم يوصف إبراهيم بالأخوة لمن أرسل إليهم ٣٠٩، ٥- ماهى معجزة إبراهيم عليه السلام ٣١٠، ٦- ماهى عاقبة مكذبيه الدنيوية ٣١١، ٧- ماهو وجه الصلة بين الدين والملة ٣١١، ٨- هل يجوز نسبة الكذب إلى الأنبياء ٣١٣، أيهما الذبيح ٣٢٣

مايستفاد من العلم بدعوة إبراهيم ٣٣٢

أمور خاض فيها كثيرون أمسكنا عن التفصيل فيها ٣٣٤

دعوة إبراهيم فى الكتاب المقدس ٣٤٠

منزلة إبراهيم فى العهد القديم ٣٤٠، وفى العهد الجديد ٣٤١، قصة إبراهيم فى الكتاب المقدس ٣٤٢، الدواب التى ذبحها ٣٤٤، الضيفان ٣٤٥، الحمل باسحاق ٣٤٦، قصة المحرقة ٣٤٧، وفاة سارة ٣٤٧، زواجه بقطورة ٣٤٨، وفاته ٣٤٨

تعقيب على قصة إبراهيم فى العهد القديم ٣٤٨

مقارنة بين ماورد فى الكتاب المقدس والقرآن الكريم بشأن القصة ٣٤٩

الصلة بين دعوة إبراهيم ودعوة محمد عليهما السلام ٣٥٢

أهم المراجع ٣٥٧

فهرس الكتاب ٣٦٤

كتب وبحوث للمؤلف

أولاً: الكتب:

١ - الأجوبة الفاخرة عن الأسئلة الفاجرة للقرافى «تقديم وتحقيق وتعليق»

٢ - المنتخب الجليل من تخجيل من حرف الإنجيل (للمسعودى)

«تقديم وتحقيق وتعليق»

٣ - دعوة الرسل بين القرآن الكريم والكتاب المقدس «دراسة مقارنة»

٤ - عقائد وتيارات فكرية معاصرة «بالاشتراك مع آخرين»

٥ - مريم -عليها السلام- بين المسيحية والإسلام «تحت الطبع»

٦ - السلام فى اليهودية والنصرانية والإسلام «دراسة مقارنة»

٧ - آيات الله فى السماء (من الإعجاز العلمى للقرآن)

ثانياً البحوث المنشورة:

١ - علم مقارنة الأديان بين المؤيدين والمعارضين «عدد ٣ حولية كلية أصول الدين - القاهرة»

٢ - اتجاهات نقد الكتاب المقدس عند علماء المسلمين (اتجاه نقد السند)

«عدد ٤ حولية كلية أصول الدين - القاهرة»

٣ - أثر القرآن فى الدراسات النقدية للكتاب المقدس «عدد ٨ حولية كلية الشريعة جامعة قطر»

٤ - القتال مشروعية وآداباً فى اليهودية والنصرانية والإسلام.

«عدد ٩ حولية كلية الشريعة جامعة قطر»

٥ - التفسير العلمى للآيات الكونية تاريخ ومواقف «عدد ١٠ حولية كلية الشريعة جامعة قطر»

٦ - الصراع الدينى علي الجزيرة العربية قبل الإسلام «عدد ١١ حولية كلية الشريعة جامعة قطر»

٧ - عصمة الأنبياء كما يصورها الكتاب المقدس «عدد ١٠ حولية كلية أصول الدين - القاهرة»

٨ - التيارات الفكرية وأثرها علي الشباب فى المجتمع المعاصر

«مؤتمر مجمع البحوث الإسلامية الحادى عشر»

٩ - ظاهرة إحياء الموتي فى العقائد والديانات.

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية
١٩٩٣/١١٠١١
I.S.B.N 977-00-6282-0